المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية الدعوة وأصول الدين
الدراسات العليا
قسم (الكتاب والسنة)

التناسق الموضوعي في سورة الأنفال

رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير

تخصص (تفسير وعلوم القرآن)

إعداد الطالب

بدر إبراهيم رجاء الذيابي

الرقم الجامعي (٤٣٠٨٨٠٤٤)

بإشراف

فضيلة الشيخ الدكتور

طه عابدين طه حمد

للعام الجامعي

١٤٣٣هـ /٢٠١٢م

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

بسم الله الرحمن الرحيم

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

ملخص الرسالة بالعربي

الحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده ، وبعد :

فهذه رسالة علمية بعنوان **((التناسق الموضوعي في سورة الأنفال))**، وهي جزء من سلسلة رسائل علمية من مشروع علمي تبنته كلية الدعوة وأصول الدين بجامعة أم القرى ممثلة بقسم الكتاب والسنة ، تتناول دراسة مصطلح جديد في التفسير ، وهو التناسق الموضوعي ، وقد تم دراسة هذا المصطلح وتطبيقه في هذه الرسالة على سورة الأنفال ، وقد قسم الباحث هذه الرسالة إلى مقدمة ، وبابين ، وخاتمة .

فالمقدمة : تحتوي على أهمية الموضوع ، وأسباب اختياره ، وأسئلة البحث ، وأهدافه ، والجهود والدراسات السابقة في الموضوع، ومنهج البحث ، وآلية البحث ، وهيكل البحث ومحتواه.

والباب الأول : التناسق الموضوعي مقدمات تعريفية ، ويحتوي على تمهيد وثلاثة فصول :

فالتمهيد : يحتوى على مقدمات تعريفية للتناسق الموضوعي في السور القرآنية .

والفصل الأول: يحتوي على مقدمات تعريفية لسورة الأنفال .

والفصل الثاني : يحتوي على المكي والمدني في السورة ، ومناسباتها لما قبلها وما بعدها ، واختصاص السورة بما اختصت به .

والفصل الثالث : يحتوي على أسباب النزول الواردة في السورة ، ومقاصد السورة وأهدافها.

والباب الثاني : التناسق الموضوعي في سورة الأنفال ، ويحتوي على ثلاثة فصول .

فالفصل الأول : يحتوي على مناسبات سورة الأنفال ، وفيه ثلاثة مباحث .

والفصل الثاني: يحتوى على موضوعات سورة الأنفال وتناسقها ، وفيه أيضا ثلاثة مباحث.

والفصل الثالث : يحتوي على تفسير آيات السورة وفق تناسقها الموضوعي .

وقد أظهر هذا البحث عددا من النتائج من أهمها ما يلي :

أولا : أن الموضوع الكلي والمحور الرئيسي الذي تدور عليه موضوعات سورة الأنفال هو : الجهاد في سبيل الله ، وأن أبرز الموضوعات التي عالجتها السورة تمثلت في ثلاث موضوعات رئيسية وهي :

أ) الحديث عن أهم أحداث غزوة بدر .

ب) بيان أسباب النصر والهزيمة .

ج) بيان علاقة المسلمين بغيرهم وببعضهم في السلم والحرب .

ثانيا : أن هناك تناسقا واضحا بين هذه الموضوعات الثلاث ، فهي كلها تمضي في سياق متآلف ، وبأسلوب متناسق ومترابط ، فكأنها بنيان متصل ومتآلف أشد اتصال وأقوى تآلف .

ثالثا : إن دارسة التناسق الموضوعي في السورة القرآنية هو الطريق لمعرفة الوحدة الموضوعية في السورة ، واستجلاء المحور الرئيسي والموضوع الكلي للسورة .

والله الموفق

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

Abstract

The title of this thesis is**: "The objective coordination in Surat al-Anfal".**

I am divided this thesis to a forefront, and two doors, and a conclusion.

the forefront:contain the reasons for selecting the topic and its importance, and its objectives, and research methodology, and the researcher methodology, and the efforts and previous studies on the subject, and the content of thesis.

The first door: coordination thematic introductions identifiable, and contains a booting and three chapters:

The first section: consistency substantive introductions identifiable, and contains a preface and three chapters:

Preface: Contains introductions for substantive consistency in hadith.

The first chapter: Contains introductions induction of the Al-Anfal.

Chapter two: Contains Makki and civil Sura, and what events before and after, and the jurisdiction of the Sura including specialized.

Chapter third: Contains to disembark reasons contained in the sura, and the purposes and objectives of the sura.

And door two : thematic consistency in the Al-Anfal, and contains three chapters.

Chapter first: Contains occasions Surah Al-Anfal, and the three sections.

Chapter two : Contains subjects Surat Al-Anfal, consistency, and it's also three sections.

Chapter third: Contains interpretation of Surah Al-Anfal, The light of The coordination of objective .

This thesis has shown the results of which the most important are:

First : that the subject Surah al Anfal is Jihad for the way of God, and Main subjects addressed by the surah is in three main subjects:

A) talk about the most events of the Battle of Badr.
B) A statement of the reasons for victory and defeat.
C) A statement of the relation with others Muslims and with each other in peace and war.

Second: that there is a consistent and clear between these three subjects, they all go in the context of the monolithic, and a coordinated and coherent manner.

Third: The objective coordination in Surah of the Koran is the way to learn thematic unity in the sura, and to elucidate the main focus and the overall theme of the Surah.

and allaah of Conciliator

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

كلمة شكر وتقدير

ختاما أحمد الله عز وجل وأشكره على ما أولاني من نعمه العظيمة ، ومنَّ به عليّ من إتمام هذا البحث ، ثم أثني بالشكر لجامعة أم القرى على ما قدمته لي ولأمثالي من طلبة العلم من تسهيلاتي في الالتحاق بهذا الصرح العلمي الشامخ ، وفتحت لنا الأبواب لإكمال دراساتنا العليا في أروقتها .

كما أن الشكر موصول لكلية الدعوة وأصول الدين ، وعلى رأسهم عميدها ، فضيلة الدكتور/ محمد السرحاني ، ولرئيس وأساتذة ومشايخ قسم الكتاب والسنة الفضلاء خاصة .

كما أتوجه بالشكر الجزيل لأستاذي الجليل الفاضل ، الدكتور/طه عابدبن طه حمد ، الذي سعدت بإشرافه على هذه الرسالة ، وكان له أكبر الأثر في نفسي ، وقد أفدت من خلقه وعلمه ، ودأبه ومثابرته ، وصبره وتحمله ، بما لا أنساه له ما حييت ، وكان طوال مدة البحث ، يشجعني إذا ونيت ، ويعلمني إذا جهلت ، ويرشدني إذا أخطأت ، ويشكرني إذا أصبت ، فجزاه الله عني خير الجزاء ، وأمد له في أجله ، وزاده علما وتوفيقا .

كما أشكر كل أساتذتي الأفاضل سواء ممن تتلمذت عليهم في دراستي الجامعية ، أو في مراحلي التعليمية المختلفة .

كما أشكر المناقشين الفاضلين الكريمين على تفضلهما وتجشمهما بالموافقة على مناقشة هذه الرسالة ، وتقويم هذا العمل ، وقد اقتضي منهما استقطاع قسط كبير من وقتهما الثمين ، فأرجو أن أستفيد مما سيتفضلان به علي من توجيهات موفقة وآراء سديدة ، تثرى هذا العمل.

كما لا يفوتني أن أتقدم بالشكر الجزيل لكل من قدم لي مساعدة في هذا البحث ، أو أسدى إلي نصحا ، أو نبهني إلى خطأ ، أو أرشدني إلى صواب ، أو دعا لي بظهر الغيب ، فلهم مني الدعاء أن يحفظهم ربي ، ويجزل لهم الأجر والمثوبة ، وأن يجعلنا جميعا ممن إذا أعطي شكر ، وإذا ابتلي صبر ، وإذا أذنب استغفر .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

المقدمة

وتشتمل على :

- أهمية الموضوع .
- أسباب اختيار الموضوع .
- أسئلة البحث .
- أهداف البحث .
- الجهود والدراسات السابقة في الموضوع .
- منهج البحث .
- آلية البحث .
- هيكل البحث ومحتواه .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

m

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ، ونستغفره ونستهديه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، وبعد :

فالقرآن الكريم معجزة الله الخالدة ، وحجته الباقية ، فهو كتاب نور وهداية ، وكتاب علم وعمل ، و« هو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، هو الذي لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا تشبع منه العلماء ، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه »[١] ، نزله الله على قلب رسوله محمد r منجما ومفرقا ، وكان ﷺ كلما نزلت عليه آية أمر أصحابه بكتابتها في مواضع يعينها لهم حسبما وقفه جبريلعليه السلام دون مراعاة لترتيب النزول ، وقد تألف مما جمع على هذا النحو سور مؤتلفة المباني متسقة المعاني متناسقة الموضوعات ، لا تكاد تحس بأدنى خلل في بنائها أو تنافر بين أجزائها .

ولئن نالت بعض علوم القرآن الكريم حظاً وافراً من البحث والدراسة ، إلا أن قليلاً من العلماء تصدوا لدراسة أسرار نظم الآيات ، ولا شكّ أنّ دراسة التّناسق الموضوعيّ في سور القرآن الكريم متعلق بأسرار نظم الآيات ، فله أهميّته في التّفسير ، وخاصة في التفسير الموضوعيّ ، من خلال إدراك ما اشتملت عليه السورة من قضايا ومواضيع متعددة ، بأسلوب يتبين فيه الإعجاز النظمي والبلاغي، ويتضح فيه تناسب الألفاظ والمعاني ، وتناسق الموضوعات والمحاور.

ولقد اخترت بعد توفيق الله تعالى دراسة موضوع : **((التناسق الموضوعي في سورة الأنفال))** ، ليكون عنوان بحثي في نيل درجة الماجستير .

---

(١) جزء من حديث أخرجه الترمذي في كتاب فضائل القرآن ، باب ما جاء في فضل القرآن ، برقم : (٢٩٠٦) ، عن علي t ، وقال : هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، وإسناده مجهول ، وفي الحارث مقال ، وضعفه الألباني .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

٧ أهمية الموضوع :

إن كثيرا من السور القرآنية تجمع في آياتها ، مواضيع متنوعة ، وأغراضا مختلفة ، من عقائد وأحكام ، ومواعظ وقصص ، وأمثال وحكم ، يتنقل بينها القارئ من غير فصل ولا انقطاع ، وفي ذلك يظهر الفرق بين كلام الله تعالى ومناهج التأليف البشرية التي تعتمد على التبويب والترتيب ، وهذا ما جعل المستشرقين يطعنون في القرآن ، ويرون آياته لا تحمل سياقا ، ولا يجدون لها وفاقا ، بل إن في سرده للموضوعات عشوائية واضطرابا ، وزعموا أن ذلك راجع إلى البدائية والبساطة في طريقة التأليف ، مما يدل على أنه فكر بشري لا وحي إلهي، والحقيقة أن التالي لأي سورة من سور القرآن الكريم من مطلعها إلى ختامها لا يشعر بنشاز أو اضطراب ، ولا يرى انقطاعا أو انفصالا ، بل يخلص من معنى إلى آخر خلوصا طبيعيا لا عسر فيه ولا نفرة، لذا يمكن تلخيص أهمية هذا الموضوع في النقاط التالية :

أولا : إن دراسة التناسق الموضوعي في السور القرآنية فيه رد على من يطعن في كلام الله عز وجل ، ويرى أن في موضوعات السور القرآنية عشوائية واضطرابا ، وذلك ليتوصل إلى نتيجة مفادها أن القرآن الكريم وليد فكر بشري لا وحي إلهي .

ثانيا : إن دراسة التناسق الموضوعي في السور القرآنية فيه إظهار لجانب من جوانب إعجاز النظم القرآني ، وإبراز لعظمته ، وأن كل لفظة وجملة فيه ، بل وكل حرف من حروفه ، يعطي دلالات ومعاني لا توجد في غيرها ، مما يعطي ذلك تذوقا مرهفا يؤثر في إحساس وشعور القارئ والسامع لكلام الله عز وجل .

ثالثا : إن الوقوف على التناسق الموضوعي في السورة الواحدة ، وإظهار الترابط والتناسق في نظمها ومعناها وموضوعاتها يدفع المسلم إلى شحذ الهمم لدراسة كتاب الله عز وجل ، وتدبر آياته ، من أجل الوقوف على هداياته في جميع المجالات .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

٧ أسباب اختيار الموضوع :

بقي الحديث عن التناسق الموضوعي لسور القرآن الكريم يتردد صداه بين علماء وأساتذة التفسير في أروقة وجنبات الجامعات الإسلامية ، وقاعات المحاضرات فترة من الزمن ، إلى أن وفّق الله قسم الكتاب والسنة بجامعة أم القرى لإيقاد هذا المصباح المنير ، وتبنّي هذا المشروع العظيم ، ليكون له قصب السبق في ذلك ، ثم طرح هذا المشروع على طلبة الدراسات العليا في شعبة التفسير وعلوم القرآن ، فاخترت المشاركة فيه للأسباب التالية :

أولا : دافع شرعي : يتمثل فيما لدراسة ما يتصل بالقرآن الكريم وتعلمه وتعليمه من أجر كبير وشرف عظيم ؛ إذ أن أحق ما صُرفت إليه الأفهام ، وبُذلت فيه الجهود ما كان لله فيه رضا ، وأعظم ذلك ما تعلق بكتابه الكريم ، قال تعالى : (B C D E F G H I J) [ص: ٢٨]. فأرجو أن أكون بهذا البحث المتواضع قد نلت هذا الشرف، وأسهمت في هذا المجال ولو بشيء قليل .

ثانيا : دافع موضوعي ومنهجي : وذلك لقلة من كتب في التناسق بين الآيات في السورة، وبالتالي بين موضوعات السورة الواحدة ، وخاصة إذا علمنا أن التأليف في هذا الموضوع - حسب ما اطلعت عليه - لا يوجد إلا مفرقا في بطون بعض كتب التفسير ، والرسائل العلمية ، حيث إن هذه الكتب والرسائل العلمية لم تعمد إلى الكتابة فيها إلا كتابة ثانوية عند حديثهم عن السورة ، وسيأتي الكلام عنها في الجهود السابقة في الموضوع .

ومما يجدر بالذكر أن أنظار العلماء والباحثين قد اتجهت إلى النظر في أوجه إعجاز القرآن الكريم من جهة اللفظ ومن جهة المعنى ، ولكنهم لم يعطوا التناسق الموضوعي كبير اهتمام ، وفي ذلك يقول الإمام الرازي(١) في تفسير سورة البقرة : « ومن تأمل في لطائف نظم هذه السورة ، وفي بدائع ترتيبها ، علم أن القرآن كما أنه معجز بحسب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه ، فهو أيضا

---

(١) هو : محمد بن عمر بن الحسين الرازي ، الشهير بابن خطيب الري، المفسر الأصولي المتكلم،صاحب التصانيف، ومنظر مذهب الأشاعرة ، توفي سنة ست وستمائة. انظر: السبكي، عبد الوهاب بن تقي الدين طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق : محمود محمد الطناجي ، ود.عبد الفتاح الحلو ، هجر للطباعة والنشر، ١٤١٣هـ ، (٨١/٨) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

بسبب ترتيبه ونظم آياته ، ولعل الذين قالوا : إنه معجز بسبب نظم أسلوبه أرادوا ذلك ، إلا أني رأيت جمهور المفسرين معرضين عن هذه اللطائف غير منبهين لهذه الأسرار »[١].

ويقول الشيخ / سعيد حوى[٢] في مقدمة كتابه (الأساس في التفسير) : « دندن علماؤنا حول الصلة بين آيات السورة الواحدة ، وحول الصلة بين سور القرآن ، وحول السياق القرآني؛ وجاءت نصوص تتحدث عن أقسام القرآن : قسم الطوال ، وقسم المئين، وقسم المثاني ، وقسم المفصل ، ولم يستوعب أحد من المؤلفين الحديث عن هذه القضايا - في علمي- بما يغطيها تغطية مستوعبة ، وفي عصرنا -الذي كثر فيه السؤال عن كل شيء- أخذ كثير من الناس يتساءلون عن الصلة بين آيات القرآن الكريم وسوره .... فأصبح الكلام في هذا الموضوع من فروض العصر الذي نحن فيه ... »[٣].

٧ أسئلة البحث .

١) ما هو المقصود بالتناسق الموضوعي في السورة ؟ وما الفرق بينه وبين التناسب ؟.

٢) ما هي الدراسات والأبحاث السابقة في سورة الأنفال ؟.

٣) ما هي الأسماء التي وردت لسورة الأنفال ، وما فضلها ، ومتى نزلت ، وهل هناك اختلاف في عدد آياتها ، وما توجيهه ، وما هي أسباب النزول الواردة فيها ، وما مناسبتها لما قبلها وما بعدها من السور ؟.

٤) ما هي مقاصد وأهداف سورة الأنفال ؟.

٥) ما هي أبرز ما اختصت به سورة الأنفال من بين سائر سور القرآن ؟.

٦) ما هي الموضوعات الرئيسية في سورة الأنفال ؟. وهل هي متناسقة ؟.

٧) ما هي الفوائد العلمية لدراسة هذا المصطلح ؟.

---

(١) الرازي ، مفاتيح الغيب ، الطبعة الأولى ، بيروت : دار الفكر، ١٤٠١هـ/١٩٨١م ، (١٣٩/٧) .

(٢) هو سعيد محمد أديب محمود حوى ، ولد في حماة بسورية سنة ١٣٥٤هـ ، وتخرج من جامعة دمشق ، سافر إلى السعودية ، ومكث فيها أربع سنوات وعمل بها مدرسا للغة العربية والتربية الإسلامية ، تولى قيادة جماعة الإخوان في سورية، ثم أصيب بشلل جزئي بالإضافة إلى مرض السكري والضغط اجبرته على اعتزال العمل القيادي ، وتوفي بعد معاناة وصراع طويل مع المرض في سنة : ١٤٠٩هـ ، انظر : رمضان ، محمد خير ، تتمة الأعلام ، الطبعة الثانية ، بيروت : دار ابن حزم ، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م ، (٢٠٧/١) .

(٣) حوى ، سعيد ، الأساس في التفسير ، الطبعة الأولى ، القاهرة : دار السلام ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م ، (٩/١) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

٧ أهداف البحث :

وقد أردت من خلال بحثي في هذا الموضوع تحقيق الأهداف التالية :

أولا : تعريف التناسق الموضوعي في السورة ، وإبراز الفرق بينه وبين التناسب .

ثانيا : معرفة الدراسات والأبحاث العلمية في سورة الأنفال .

ثالثا : معرفة أسماء سورة الأنفال ، وفضلها ، وتاريخ نزولها ، واختلاف العلماء في عدد آياتها ، وتوجيهه ذلك ، وبيان أسباب النزول الواردة فيها ، ومناسبتها لما قبلها وما بعدها من السور .

رابعا: معرفة مقاصد وأهداف سورة الأنفال ، والاستفادة منها في واقع حياة المجتمع الإسلامي.

خامسا : معرفة أبرز ما اختصت به سورة الأنفال من بين سائر سور القرآن .

سادسا : دراسة الموضوعات الرئيسية التي تناولتها سورة الأنفال ، وإبراز مدى تناسقها ، وتفسيرها في ضوء تناسقها الموضوعي ، من خلال البحث العلمي الرصين .

سابعا : إظهار فائدة دراسة هذا المصطلح من خلال إبراز إعجاز القرآن الكريم في النظم البديع، والوقوف على الارتباط الوثيق بين موضوعات السورة ومحاورها وآياتها .

٧ الجهود والدراسات السابقة في الموضوع :

ويمكن تقسيم الجهود والدراسات السابقة لسورة الأنفال إلى دراسات عامة أو مؤلفات ، وإلى دراسات خاصة أو رسائل علمية :

أولا : المؤلفات والدراسات العامة في سورة الأنفال :

تناولت كتب التفسير عموما تفسير سورة الأنفال بتحليل الألفاظ ، ونحت في غالبيتها إلى منحى التفسير التحليلي والإجمالي والموضوعي ، دون دراسة للتناسق الموضوعي في السورة .

ولقد اهتم بعض العلماء والمفسرين الأوائل بالحديث عن التناسب والتناسق في السور القرآنية ، **ومن أبرز من كتب فيه :**

الإمام فخر الدين الرازي في كتابه "**التفسير الكبير**" ، وذكر فيه المناسبات بين السور والآيات من غير توسع ، مع ذكر الطابع العام الذي يغلب على موضوعاتها ، وله مؤلف مستقل في هذا سماه : **(أسرار التنزيل)** وقد توفي بعد الجزء الأول منه ولم يكمله .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

والإمام أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي(١)، وله كتاب " **البرهان في تناسب سور القرآن**"، وهو أول من أفرد علم المناسبات بمؤلف ، ويهتم بالمناسبات بين السور .

والإمام برهان الدين إبراهيم بن عمر البقاعي(٢)، وله كتاب " **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور** " ، وهو العمدة في علم المناسبات ، فهو يهتم بالمناسبات بين السور والآيات والجمل والألفاظ .

وللحافظ جلال الدين السيوطي(٣)، كتاب اسمه : " **قطف الأزهار في كشف الأسرار**" والذي يشير إليه في الإتقان بـ" **أسرار التنزيل** " ، وموضوعه كل ما يختصّ بالنظم القرآني ، وقد اعتنى فيه مؤلفه بعلم المناسبات ، سواء المناسبات بين السور ، أو بين الآيات ، أو حتى في الآية الواحدة ، حيث بيّن وجه الربط بين أجزائها ، لكن الموجود من هذا الكتاب بتحقيق : د/ أحمد الحمادي ، نشر وزارة الأوقاف بقطر ، ينتهي عند الآية (٩٢) من سورة التوبة.

وله كتاب آخر بعنوان : "**تناسق الدرر في تناسب السور**" وقد طبع بعنوان : " **أسرار ترتيب القرآن**" ، بتحقيق : عبد القادر عطا ، وقد ذكر في هذا الكتاب وجه اتصال السور بما قبلها وما بعدها ، ولم يذكر المناسبة بين الآيات ، وهذا الكتاب في غاية الاختصار ، ووظيفته كما هو ظاهر من عنوانه لا تتعدى المناسبة بين السورة وسابقتها ، في أسطر تكاد لا تجاوز عدد أصابع اليد الواحدة .

---

(١) هو : أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي الغرناطي أبو جعفر ، ولد بمدينة جيان سنة ٦٢٧ أو ٦٢٨هـ ، انتهت إليه الرئاسة بالأندلس في صناعة العربية ، وتجويد القرآن ، ورواية الحديث ، إلى المشاركة في الفقه ، والقيام على التفسير ، والخوض في الأصلين ، وهو سني العقيدة ، مالكي المذهب ، وتوفي سنة (٧٠٨) . انظر: مقدمة كتابه البرهان في تناسب سور القرآن ، بتحقيق د. سعيد بن جمعة الفلاح ، الطبعة الأولى ، الدمام : دار الجوزي ، ١٤٢٨هـ : (٧٩-٨٠) .

(٢) هو : إبراهيم بن عمر بن حسن الرُّباط البقاعي ، نزيل القاهرة ثم دمشق، الإمام الكبير برهان الدين ولد تقريباً سنة تسع وثمانمائة بقرية من عمل البقاع ونشأ بها ، برع في جميع العلوم وفاق الأقران ، وتوفي في دمشق سنة خمس وثمانين وثمانمائة ، انظر : الشوكاني ، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ، بيروت : دار المعرفة ، (١٨/١) .

(٣) هو : عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد السيوطي ، صاحب التصانيف ، نشأ يتيماً ، واعتزل الناس في الأربعين من عمره ، واشتغل بالتأليف ، توفي سنة إحدى عشرة وتسعمائة . انظر : العماد ، عبد الحي الحنبلي ، شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، بيروت : دار المسيرة ، ١٣٩٩هـ ، (٥١/٨) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

ولقد أفاد علماء التفسير المتأخرون مما وصل إليه المتقدمون في هذا الشأن ، وساروا بخطوات ثابتة نحو استجلاء المحور الذي تربط عليه جميع موضوعات السورة ، وقد استطاع بعضهم أن ينظر بعين فاحصة إلى أجزاء السورة وينظر بناءها المتكامل المتسق ، ويضع يده على غرضها الرئيس بشكل أدق .

ومن أبرز من كتب فيه :

المفسر الشيخ الطاهر ابن عاشور(١)، وهو من أفضل من حاول في تفسيره ذكر أغراض السورة وتوسع فيها ، وذكر المناسبات بين مقاطع السورة الواحدة ، وقد نص على ذلك في مقدمته لكتابه " **التحرير والتنوير** " (٢).

ومن أكثر المطنبين في إثبات ما يسمى بـ"**الوحدة الموضوعية**" في القرآن ، واستدل لها ، وعمد إلى إبرازها تطبيقيا من خلال سورة واحدة ، وهي سورة البقرة ، الدكتور : محمد عبد الله دراز(٣) في كتابه "**النبأ العظيم**" ، حيث توخى بيان حسن التأليف في السورة الواحدة التي تتنوع فيها الموضوعات باعتباره أحد وجوه الإعجاز .

ويعد كتاب سيد قطب(٤) " **في ظلال القرآن** " من أحسن ما كتب في هذا المجال ، ولا شك أن هذا الكتاب قد تميز في إظهار التناسب الموضوعي في موضوعات السورة ، والتناسق الفني في صياغتها صياغة أدبية راقية ، كما امتاز في عرضه للموضوعات القرآنية بصياغتها بما يظهر الاعتزاز بالإسلام ، وصلاحيته للتطبيق في الحياة المعاصرة ، وفي كل زمان ومكان .

---

(١) هو : محمد بن الطاهر بن عاشور ، شيخ جامع الزيتونه بتونس ، من أعضاء المجمعين العربيين في دمشق والقاهرة ، توفي سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة وألف . انظر : الزركلي ، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الأعلام ، الطبعة الخامسة عشر ، بيروت : دار العلم للملايين ، ٢٠٠٢م ، (١٧٤/٦) .

(٢) انظر : (١٤٥/٥) .

(٣) هو : محمد عبد الله دراز ، عالم أزهري ، وفقيه وأديب كان من هيئة كبار العلماء في الأزهر، من أشهر مؤلفاته: النبأ العظيم، ودستور الأخلاق في القرآن، توفي سنة سبعٍ وسبعين وثلاثمائة وألف هجرية ، انظر: الزركلي، الأعلام:(٢٤٦/٦).

(٤) هو سيد قطب إبراهيم ، مفكر إسلامي مصري ، تخرج من كلية دار العلوم ، له كتب كثيرة مطبوعة متداولة ، من أشهرها : " في ظلال القرآن"، أعدم شنقا سنة سبع وثمانين وثلاثمائة وألف . انظر : الزركلي ، الأعلام : (١٤٧/٣) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

ومن خلال اطلاعي على ما كتبه في سورة الأنفال ظهر لي ما يلي :

١- استطراده في مقدمة السورة ، في سرد الروايات التاريخية المختلفة الذي تدور عليها أحداث السورة وهي غزوة بدر ولم يفصح عن محور السورة ووحدتها الموضوعية .

٢- ذكر بعض القضايا المهمة التي تشير إليها الآيات ، مما له مساس بواقع الناس المعاصر ، حسب رؤيته واجتهاده - : - ، وذكر الهدايات المستنبطة منها .

٢- قسم السورة إلى مقاطع ، يتحدث عن كل مقطع بقدر من التفصيل ، ويعرض فيه التفسير عرضا إجماليا .

٤- من خلال حديثه عن موضوعات السورة لم يتطرق إلى الصلة والرابطة بين هذه الموضوعات وهذا هو أساس عملي في هذه الرسالة ، ولهذا فإن بعض الموضوعات التي استخرجها من السورة ، تحتاج إلى فحص وإعادة نظر .

ومن الكتب التي اهتمت بهذا الموضوع ، كتاب الشيخ / سعيد حوى ، وهو " **الأساس في التفسير** " ، وقد ذكر - : - في مقدمة كتابه ، أنه وضع هذا الكتاب لبيان الوحدة الموضوعية في سور القرآن ، ويجد القارئ والباحث أن المؤلف قد ابتكر طريقة جديدة للتفسير ، وفي نظري أنه لا غنى لكل باحث في التناسق الموضوعي عن النظر في الكتاب والاستفادة منه .

ومن خلال اطلاعي على ما كتبه في سور الأنفال تبين لي ما يأتي :

١- أنه اكتفى في مقدمة السورة ، بنقولات عن اثنين من كتب التفاسير فقط ، وهما تفسير روح المعاني للألوسي[١] ، وتفسير في ظلال القرآن لسيد قطب .

٢- أنه يبين محور السورة من خلال عنصر يحمل (كلمة في السورة) ، ثم يقسم السورة إلى مجموعات وفقرات ، ثم يبين علاقة السياق بين كل مجموعة ومجموعة ، إلا أن ما يلاحظ عليه كثيرا عند حديثه عن محاور السورة ، وسياق المجموعات والفقرات ، أنه يربط بينها وبين محاور سورة البقرة، ويستدل بأدلة كثيرة على ذلك، مما أفقد روح التناسق الموضوعي في السورة الواحدة.

---

(١) هو : محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي، شهاب الدين ، مفسر محدث أديب من أهل بغداد، صاحب التصانيف، توفي سنة سبعين ومائتين وألف . انظر : الزركلي ، الأعلام : (١٧٦/٧) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

٣- عند تعرضه لتفسير الآيات في السورة ، اكتفى في ذلك بمصدرين فقط وهما : تفسير ابن كثير(١) ، وتفسير النسفي(٢) ، وذكر في مقدمة كتابه أن سبب ذلك راجع إلى عدم توفر مزيد من المصادر عند كتابته لتفسير السور القرآنية ، وكان ذلك حال مكوثه في السجن .

وقد صدرت مؤخرا موسوعة علمية باسم **(التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم)** من إعداد : نخبة من أساتذة التفسير وعلوم القرآن، بإشراف أ.د. مصطفى مسلم(٣) ، وهي من إصدارات جامعة الشارقة، وقد بين المشرف في المقدمة منهج العمل فيه وهو باختصار كما يلي:

- ذكر مقدمة بين يدي السورة للتعريف بأسمائها وفضائلها ومكيها ومدنيها وعدد آياتها ومحور السورة ومناسباتها ، وذلك على أن لا تزيد الكتابة فيها عن خمس صفحات .
- تفسير موضوعات السورة تفسيرا إجماليا ، وبيان الهدايات المستنبطة منها ، وذلك على أن لا تزيد الكتابة في تفسير المقطع وبيان الهدايات المستنبطة منه عن سبع صفحات .

وإنني أود أن أشير في هذا المكان إلى أن التناسق الموضوعي للسور القرآنية شيء ، والتفسير الموضوعي لها شيء آخر كما هو واضح جلي للمتخصص ، بالرغم من أن لدي ملاحظات عامة على ما كتب في سورة الأنفال ، ومن أهم تلك الملاحظات :

- عدم التوسع في ذكر المناسبات بين السورة والآيات ، وبالتالي عدم وضوح التناسق بين موضوعات السورة .
- عدم التطرق إلى بيان مقاصد السور وأهدافها ، بشكل أوسع .
- القصور في توثيق النصوص ، وعدم إحالتها إلى مصادرها ومراجعها .
- قلة المصادر والمراجع فيها .

---

(١) هو : إسماعيل بن عمر بن كثير ، صاحب التصانيف ، تتلمذ على المزي وصاهره ، وله خصوصية بشيخ الإسلام ابن تيمية ، توفي سنة أربع وسبعين وسبعمائة . انظر : ابن حجر ، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق: محمد عبد المعيد ضان ، الهند : مجلس دائرة المعارف العثمانية ، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م .(١/ ٤٤٥) .

(٢) هو : عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي الحنفي ، علامة الدنيا أبو البركات ، صاحب التصانيف المفيدة في الفقه والأصول ، وكتابه في التفسير : مدارك التنزيل وحقائق التأويل ، توفى سنة ٧٠١ . انظر : المصدر السابق ، (١٧/٣) .

(٣) هو : الأستاذ الدكتور : مصطفى مسلم محمد ، أستاذ التفسير وعلوم القرآن ، درّس في جامعة الإمام بالرياض ، وفي جامعة الشارقة بالإمارات ، وهو من المهتمين بالتفسير الموضوعي وله فيه مؤلفات كثيرة ، ويعمل حالياً خبيراً في مركز تفسير للدراسات القرآنية بالرياض. انظر: موقع المكتبة الشاملة http://shamela.ws/index.php/author/1491.

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

وإنني حين أذكر هذه الملاحظات أعترف باستفادتي من هذه الموسوعة ، وهي لا تقلل أبدا من قيمتها ، فجزى الله القائمين عليها خير الجزاء .

ثانيا : الدراسات و المؤلفات الخاصة في سورة الأنفال :

لقد قمت بإجراء عملية بحث واسعة عنها ، في أروقة المكتبات العلمية الكبيرة ، وكذلك عن طريق الشبكة العنكبوتية ، كموقع فهرست مصنفات تفسير القرآن الكريم التابع لمجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة(١) ، وموقع ملتقى أهل التفسير(٢) ، وبعض الموسوعات الخاصة بالدراسات القرآنية مثل (كشاف الدراسات القرآنية) للدكتور: عبد الله الجيوسي ، والبحث كذلك في قواعد مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ، وغيرها ، فلم أجد - حسب إطلاعي القاصر - كتابا خاصا ، أو رسالة علمية تناولت سورة الأنفال من حيث التناسق الموضوعي فيها ، وربط آياتها وموضوعاتها ببعضها على نسق واحد ، إلا أن هناك مؤلفات ورسائل خاصة في سورة الأنفال ، وكلها لم تتطرق إلى هذا الجانب على الإطلاق ، ويغلب على أكثرها الفوائد الشرعية والدعوية والإيمانية لهذه السورة ، **ومن تلك المؤلفات في السورة :**

١- سورة الأنفال – عرض وتفسير– تأليف : مصطفى زيد المصري .

٢- من هدي سورة الأنفال ، تأليف : محمد أمين المصري .

٣- في ظلال سورة الأنفال ، تأليف : أبو بكر الجزائري .

٤- تفسير سورة الأنفال ، تأليف : الغزالي خليل عيد .

٥- أسباب النصر في سورة الأنفال لعبد الحميد بن محمود طهماز .

٦- النبأ الصادق في تفسير سورة الأنفال لمحمد الطيب النجار المصري .

٧- تفسير سورة الأنفال للدكتور / محمد عبد القادر أبي فارس .

ومن الرسائل التي جاءت حول هذه السورة ما يلي :

١ - الأحكام الفقهية في سورة الأنفال : للباحث : خالد صدام عبد المحسن جامعة بغداد ، كلية العلوم الإسلامية – ماجستير- وكانت المناقشة في سنة ١٩٩٠م ، وقد قامت دراسة الباحث على الأحكام الفقهية في سورة الأنفال ، وما يتعلق باختلاف الفقهاء حول تلك الأحكام ، ولم تتطرق الرسالة إلى تفسير السورة ولا التناسق الموضوعي في السورة .

---

(١) انظر : www.qurancomplex.org/tbooks/default.asp? .

(٢) انظر : www.tafsir.net .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

٢ - الجهاد كما تعرضه سورة الأنفال : للباحث : محمد الحاج سائي فطاني – ماجستير- كلية أصول الدين – جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، الرياض– قسم القرآن وعلومه، وقد نوقشت الرسالة عام ١٤٠١هـ ، وأشرف عليها د . عبد الغفار محمد عزيز .

ومن خلال مطالعتي للرسالة ظهر لي :

أ- أن الباحث تعرض لموضوع الجهاد من خلال السورة ، ودراسته دراسة موضوعية غير مستوفي لذلك .

ب- أسهب الباحث في موضوع الجهاد ، وما يتدرج تحته ، دون أن يتطرق لكثير من آيات السورة .

ج- لم يتطرق الباحث إلى موضوع (التناسق الموضوعي)، ولم تكن الدراسة حول التفسير.

٣ - التربية الجهادية في الإسلام من خلال سورة الأنفال : للباحث : أحمد تالي إدريس ، جامعة أم القرى ، كلية التربية – قسم التربية الإسلامية المقارنة – ماجستير ، ونوقشت هذه الرسالة عام ١٤١٠هـ ، وكان المشرف عليها ، د : عنتر لطفي محمد .

وهذه الرسالة مضمونها ظاهر من عنوانها فهي تربوية خالصة تطرقت للتربية الجهادية في الإسلام عموما، وجعلت سورة الأنفال مستنبطا لها من خلال التحدث عن غزوة بدر الكبرى، وما جرى فيه من حوادث ووقائع ، واستخراج الإضاءات التربوية من خلال ذلك ، وجعلت لذلك قواعد تربوية من خلال هذه السورة ، ولم تطرق إلى دراسة التناسق الموضوعي نهائيا ولا إلى التفسير الموضوعي .

٤ - أسرار التناسب والنظم في الأسماء الحسنى والصفات العلى في سورة الأنفال :

للباحثة : عواطف حمزة خياط ، إشراف : د. محمد علي الحسن العماري ، ماجستير – قسم البلاغة –كلية اللغة العربية – جامعة أم القرى ، ونوقشت الرسالة عام ١٤١٧هـ .

وبعد إطلاعي على الرسالة تبين لي ما يلي :

أ- أن هذه الدراسة لا تتعلق بالتفسير ، وإنما هي دراسة في علم البلاغة .

ب- لم تهتم الباحثة بالتناسق الموضوعي في السورة ، وإنما اقتصرت على التناسب والنظم في الأسماء الحسنى والصفات العلى في السورة ، وغالبها في أواخر الآيات .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

٥- **الأهداف الجهادية في سورتي الأنفال والتوبة :** للباحث : سيد حسن محجوب – ماجستير- بإشراف : د. الطاهر أحمد عبد الغفار – جامعة أم درمان – السودان ، ونوقشت الرسالة في عام ١٩٩٧هـ .

ومن خلال إطلاعي على الرسالة ظهر لي ما يلي :

أ- اهتم الباحث بذكر الأهداف الجهادية في سورتي الأنفال والتوبة ، وقد سرد مقومات كل هدف وعلاقته بالجهاد ، ومقوماته ، وكيفية تحقيقه ، وبيان عوائقه .

ب- أن الدراسة لم تكن لها علاقة بالتفسير الموضوعي ، ولم يتطرق الباحث كذلك إلى التناسق الموضوعي في بحثه .

ج- ركز الباحث في موضوع الرسالة على الجهاد في سبيل الله وأهميته وسرد الأهداف المستنبطة من سورتي الأنفال والتوبة ، دونما ذكر للموضوعات في السورة مطلقا .

٧ منهج البحث:

١ - **المنهج الوصفي :** وذلك في دراسة المصطلحات الأساسية والمفردات المتعلقة بهذه الدراسة ، والقيام بوصفها وصفًا شاملا مفصلا .

٢ - **المنهج التحليلي :** وذلك من خلال تحليل الموضوعات التي اشتملت عليها السورة ، وبيان تناسقها الموضوعي .

٧ آلية البحث :

١- سلكت في هذا البحث مسلكا التزمت فيه بالخطة المقررة لهذا المشروع من مجلسي القسم والكلية بالجامعة .

٢- قسمت السورة إلى ثلاث موضوعات ، ووضعت عنوانا مناسبا لكل موضوع .

٣- قمت بكتابة الآيات القرآنية الخاصة بكل موضوع من مواضيع السورة بالرسم العثماني .

٤- اكتفيت بذكر الرواية الصريحة والصحيحة في أسباب نزول السورة والآية إن وجدت .

٥- أقوم ببيان التناسق بين كل موضوع وآخر ، وربط كل موضوع بما قبله وما بعده .

٦- أتعرض بتوسع لمقاصد السورة وأهدافها .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

٧- أفسر آيات الموضوع الواحد تفسيرا إجماليا ، مع مراعاة وجه التناسب بين الكلمات والجمل الآيات ، وبيان المفردات الغريبة في الآيات ، وذلك بالرجوع إلى المعاجم اللغوية الشهيرة أو المختصة بشرح غريب القرآن أو الحديث ، مع التركيز على بلاغة التعبير القرآني في الموضوع الذي يخدم هدف السورة، أو محورا من محاورها .

٨- أكتفي بترقيم الآيات وعزوها إلى سورها بعد الآية مباشرة ، وليس في الهوامش السفلية .

٩- أقوم بتخريج الأحاديث والآثار من مصادرها الأصلية ، مع بيان درجة صحتها من خلال حكم العلماء عليها ، ما عدا الصحيحين ، مع الاكتفاء بهما أو بأحدهما إذا كان مرويا فيها .

١٠- أكتفي في الأحاديث بالإشارة إلى اسم المؤلف ، واسم الكتاب ، وعنوان الباب ، ورقم الحديث ، اختصاراً للهوامش ، وقد أعدل عن كتابة رقم الحديث إن تعسر ذلك .

١١- أوثق الأقوال الواردة في البحث من خلال عزوها إلى مصادرها الأصلية ، وعدم اللجوء إلى البديل إلا إن تعسر ذلك .

١٢- سأثبت المصادر والمراجع في الحاشية على الطريقة التالية : اسم المؤلف، اسم المصدر والمرجع ، (الجزء/والصفحة)، وأستوفي جميع معلومات المصدر والمرجع ، في أول موضع يأتي فيه.

١٣- سأترجم لجميع الأعلام ، ما عدا مشاهير الصحابة .

١٤- سأرتب المصادر والمراجع مفهرسة على حروف المعجم حسب أول حرف من المصدر أو المرجع .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

٧ هيكل البحث ومحتواه :

يشتمل البحث على : ((مقدمة وبابين وخاتمة)) .

المقدمة : وتشتمل على :

- أهمية الموضوع .
- أسباب اختيار الموضوع .
- أسئلة البحث
- أهداف البحث .
- الجهود والدراسات السابقة في الموضوع .
- منهج البحث .
- آلية البحث .
- هيكل البحث ومحتواه .

الباب الأول : التناسق الموضوعي في سورة الأنفال مقدمات تعريفية

ويشتمل على تمهيد وثلاثة فصول :

التمهيد : التعريف بالتناسق الموضوعي في السورة

ويشتمل على أربعة مطالب :

المطلب الأول : تعريف التناسق لغة واصطلاحا .

المطلب الثاني : تعريف الموضوعي لغة واصطلاحا .

المطلب الثالث : تعريف السورة لغة واصطلاحا .

المطلب الرابع : تعريف التناسق الموضوعي في السورة .

الفصل الأول : اسم السورة ، وفضلها ، وعدد آياتها ، وتاريخ نزولها.

ويشتمل على أربعة مباحث :

المبحث الأول : اسم سورة الأنفال ، وما اشتهر لها من أسماء.

المبحث الثاني : فضل سورة الأنفال .

المبحث الثالث : عدد آيات سورة الأنفال .

المبحث الرابع : تاريخ نزول سورة الأنفال .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

الفصل الثاني : المكي والمدني في السورة ، ومناسبتها لما قبلهما وما بعدها ، واختصاص السورة بما اختصت به .

ويشتمل على أربعة مباحث :

المبحث الأول : المكي والمدني في سورة الأنفال .

المبحث الثاني : مناسبة سورة الأنفال لما قبلها وما بعدها .

المبحث الثالث : اختصاص سورة الأنفال بما اختصت به .

الفصل الثالث : أسباب النزول الواردة في سورة الأنفال ، ومقاصد السورة وأهدافها.

ويشتمل على مبحثين :

المبحث الأول : أسباب النزول الواردة في سورة الأنفال .

المبحث الثاني : مقاصد سورة الأنفال وأهدافها .

الباب الثاني : التناسق الموضوعي في سورة الأنفال دراسة تطبيقة

ويشتمل على ثلاثة فصول :

الفصل الأول : مناسبات سورة الأنفال .

ويشتمل على ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : مناسبة اسم السّورة لموضوعاتها .

المبحث الثَّاني : مناسبة فاتحة السّورة لموضوعاتها .

المبحث الثالث : مناسبة فاتحة السورة لخاتمتها .

الفصل الثاني : موضوعات سورة الأنفال وتناسقها

ويشتمل على تمهيد وثلاثة مباحث :

التمهيد : بين يدي موضوعات السورة .

المبحث الأول : أهم أحداث غزوة بدر. ويشمل الآيات (١-١٢)، وفيه تمهيد وثلاثة محاور.

المحور الأول : الاختلاف في الأنفال والتوجيه الإلهي فيها .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

المحور الثاني : حالة المؤمنين عند خروجهم إلى بدر، والإرادة الإلهية من هذا الخروج .

المحور الثالث : استغاثة المؤمنين بربهم وما أعقبه من المدد الرباني .

المبحث الثاني : أسباب النصر والهزيمة . ويشمل الآيات (١٣-٥٤) ، وفيه تمهيد ومحوران.

المحور الأول : ارتباط النصر والهزيمة بالأسباب المادية والمعنوية .

المحور الثاني : عوامل وأسباب النصر والهزيمة .

المبحث الثالث : علاقة المسلمين بغيرهم وببعضهم في السلم والحرب . ويشمل الآيات : (٥٥-٧٥). وفيه تمهيد وثلاثة محاور .

المحور الأول : علاقة المسلمين بالكفار المعاهدين والمسالمين .

المحور الثاني : علاقة المسلمين بأسرى الكفار .

المحور الثالث : علاقة المسلمين بعضهم ببعض .

الفصل الثالث : تفسير آيات سورة الأنفال في ضوء تناسقها الموضوعي

الـخـاتـمـة

وتشتمل على :

أولا : نتائج البحث .

ثانيا : توصيات الباحث .

الـفـهــارس العامة

وتشتمل على :

أولا : فهرس الآيات القرآنية .

ثانيا : فهرس الأحاديث والآثار .

ثالثا : فهرس الأعلام .

رابعا : فهرس المصادر والمراجع .

خامسا : فهرس الموضوعات .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

البــاب الأول

التّناسقُ الموضوعيّ في سورة الأنفال

مقدمات تعريفية

ويشتمل على تمهيد وثلاثة فصول :

التمهـــيد : التعريف بالتناسق الموضوعي في السورة .

الفصل الأول: اسم سورة الأنفال ، وفضلها، وعدد آياتها ، وتاريخ نزولها.

الفصل الثاني : المكي والمدني في سورة الأنفال ، ومناسبتها لما قبلها وما بعدها،واختصاص سورة الأنفال بما اختصت به .

الفصل الثالث : أسباب النزول الواردة في سورة الأنفال ، ومقاصد السورة وأهدافها .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

التمهيد

التعريف بالتناسق الموضوعي في السورة

ويشتمل على أربعة مطالب :

المطلب الأول : تعريف التناسق لغة واصطلاحا .

المطلب الثاني : تعريف الموضوعي لغة واصطلاحا .

المطلب الثالث : تعريف السورة لغة واصطلاحا .

المطلب الرابع : تعريف التناسق الموضوعي في السورة .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

تمهيد

يتألف مصطلح **التناسق الموضوعي** من جزأين أو كلمتين ركبا تركيباً وصفياً ، وهما : «التناسق» و«الموضوعي» ، ولهذا سأورد تعريف كل منهما منفردا لغة واصطلاحا ، ثم أردف بتعريف "السورة " لغة واصطلاحا ، ثم أذكر تعريف المصطلح بمجموع أجزاءه .

المطلب الأول

معنى التناسق لغة واصطلاحا

أولا : معنى «التناسق » لغة :

التناسق : مصدر ، وفعله : تناسق ، وهو مزيد ، وأصل الفعل : نسَقَ ، والاسم منه : نسق بتحريك عين الفعل ، ونسق بتسكينها ، والنسق من كل شيء : ما كان على طريقة نظام واحد ، عام في الأشياء ، ويطلق على ما جاء من الكلام على نظام واحد ، والنَسْق : بتسكين السين : مصدر نسقت الكلام إذا عطفت بعضه على بعضه ،كما يطلق على التتابع ، يقال: ناسق بين الأمرين إذا تابع بينهما ، والتنسيق : التنظيم ، يقال : نسّقه تنْسيقا ، أي : نظّمه على السّواءِ [(١)].

وأصل استخدام هذه الكلمة في الدر والخرز واللؤلؤ وغيرها مما فيه زينة وحلية ، وهي مما يحتاج إلى نظمه بطريقة متناسبة توحي بالجمال والذوق ، واستخدامه في الكلام من المجاز ، يقال : كلام متناسق ، وقد تناسق كلامه ، وجاء على نسق ونظام [(٢)].

ومما تقدم يتضح لنا أن من معاني "تناسق الكلام" في اللغة ما يلي :

١- نظم الكلام وحسن تركيبه .

٢- عطف الكلام بعضه على بعض ، والنحويون يسمون حروف العطف: حروف النسق .

٣- الملاءمة والمتابعة بين أجزاء الكلام .

٤- توالى الكلام واتصال بعضه ببعض .

---

(١) ابن منظور ، جمال الدين محمد بن مكرم ، لسان العرب ، الطبعة الأولى ، تحقيق : نخبة من الأساتذة العاملين بدار المعارف ، القاهرة : دار المعارف ، (٦٨٢/١) . والزبيدي ، أبو الفيض محمد الملقّب بمرتضى الزَّبيدي ، تاج العروس من جواهر القاموس ، تحقيق : مجموعة من المحققين ، بيروت : دار الهداية ، (٤١٩/٢٦) ؛ والفيروز آبادي ، محمد بن يعقوب ، القاموس المحيط ، تحقيق : مكتبة التراث ، بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٤٠٦هـ، (١١٩٥) .

(٢) انظر : الزمخشري ، أساس البلاغة ، القاهرة : دار مطابع الشعب ، ١٩٦٠م ، (٩٥٣) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

وعند النظر والتأمل في هذه المعاني نجد أنها ترجع إلى معنى واحد وهو : حسن النظم والترتيب في الأشياء ، فلهذا يمكن القول بأن التناسق في الكلام لغة هو : النظم الجيد للكلام، المتصل بعضه ببعض ، مع حسن الترتيب .

ثانيا : معنى «التناسق » اصطلاحا :

لم أجد من علماء التفسير وعلوم القرآن من عرف مصطلح التناسق مفردا ، إلا أنه قد وردت هذه اللفظة في كلام بعض أهل العلم ، وكان الغرض منه بيان التعريف اللغوي السابق ، ومن ذلك ما جاء في كلام صاحب مناهل العرفان عند حديثه عن الخاصية الرابعة من خصائص القرآن الكريم ، حيث قال : « الخاصية الرابعة : ((جودة سبك القرآن وإحكام سرده)) ومعنى هذا : أن القرآن بلغ من ترابط أجزائه ، وتماسك كلماته ، وجمله ، وآياته ، وسوره ، مبلغا لا يدانيه فيه أي كلام آخر ، مع طول نفسه ، وتنوع مقاصده ، وافتنانه ، وتلوينه ، في الموضوع الواحد، إلى أن قال : فإذا هو وحدة متماسكة ، متآلفة ، على حين أنه كثرة متنوعة، متخالفة فبين كلمات الجملة الواحدة من **التناسق** ، ما جعلها رائعة التجانس ، والتجاذب ، وبين جمل السورة الواحدة ، من التشابك والترابط ، ما جعلها وحدة صغيرة ، متآخذة الأجزاء، متعانقة الآيات، فكأنما هو سبيكة واحدة ، تأخذ بالأبصار، على حين أنها مؤلفة من حلقات، لكل حلقة منها وحدة مستقلة في نفسها، ذات أجزاء ، ولكل جزء موضع خاص من الحلقة، ولكل حلقة وضع خاص من السبيكة ، لكن على وجه من جودة السبك ، وإحكام السرد ، جعل من هذه الأجزاء المنتشرة المتفرقة ، وحدة بديعة متآلفة ، تريك كمال الانسجام ، بين كل جزء وجزء ، ثم بين كل حلقة وحلقة ، ثم بين أوائل السبيكة، وأواخرها ، وأواسطها ، يعرف هذا الإحكام والترابط في القرآن ، كل من ألقى باله إلى التناسب الشائع فيه، من غير تفكك ، ولا تخاذل ، ولا انحلال ، ولا تنافر ، بينما الموضوعات مختلفة متنوعة، فمن تشريع إلى قصص، إلى جدل، إلى وصف، إلى غير ذلك» [١].

ومن خلال تأملي في المعاني اللغوية السابقة ، وكلام أهل العلم ، وبالنظر إلى القيد الذي قيد به التناسق وهو «الموضوعي» ، يمكن أن يُقال بأنّ التّناسق اصطلاحا هو : البحث في

---

(١) الزرقاني ، محمد عبد العظيم ، مناهل العرفان في علوم القرآن ، الطبعة الثالثة ، القاهرة : مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه : (٢/ ٣١٥-٣١٦) ، باختصار .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

ترابط موضوعات السورة وانتظامها ، وبهذا يظهر الفرق بينه وبين التناسب ، فالتناسب ما كان في إظهار الترابط بين الآيات والألفاظ والجمل ، والتناسق ما كان في إظهار الترابط بين موضوعات السورة الواحدة ، وسيأتي مزيد بيان لهذا التعريف في المطلب الرابع [١] .

المطلب الثاني

معنى الموضوعي لغة ، واصطلاحا .

أولا : معنى «الموضوعي» لغة :

نسبة إلى الموضوع ، وهو اسم مفعول ، وفعله وضع ، والمصدر وضعا وموضعا ؛ والوضع : الخفض للشيء وحطه وهو ضد الرفع وأعم من الحط[٢]، سواء كان ذلك بمعنى الحط والخفض أو بمعني الالتقاء والتثبت في المكان، وينقسم الوضع إلى نوعين:

الأول: وضع مادي حسي ، ومنه : وضعه على الأرض ، بمعني حطه وإلقائه وتثبيته عليها.

الثاني : وضع معنوي ، ومنه : الوضيع ، وهو الدنيء المهان الذليل ، الذي قعدت به همته أو نسبه ، فكأنه ملقى على الأرض ، موضوع عليها ، لا يفارق موضعه الذي التصق به [٣].

ويقال : وضعت الإبل وضيعة : رعت الحمض حول الماء ولم تبرح ... ووضعتها : ألزمتها المرعى فهي موضوعه ". وهذا المعنى هو الذي رجع إليه كثير من المعاصرين الذين كتبوا في التفسير الموضوعي ، وقالوا : « وعليه يكون الموضوع بمعنى الشيء الذي له صفة معينة ، وألزم مكانا معينا لا يبرحه إلى غيره »[٤] .

ويستخدم «الموضوع» في وصف الإبل بمعنى آخر ؛ فيقال للبعير : حسن الموضوع إذا كان سيره سريعا سهلا يخالف المرفوع[٥].

---

(١) انظر الصفحة (٢٩) .

(٢) الراغب، الحسين بن محمد الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، تحقيق: محمد كيلاني، بيروت: دار المعرفة،(٥٢٥).

(٣) انظر : الزبيدي ، تاج العروس : (٢٢/٣٣٥-٣٤١) .

(٤) من أوائل من أشار إلى هذا المعنى د . عبد الستار فتح الله سعيد في كتابه : (المدخل إلى التفسير الموضوعي) دار التوزيع والنشر الإسلامية ، القاهرة : ١٤٢٨هـ ، (٢٣) . وتبعه الأستاذ الدكتور : مصطفى مسلم في كتابه : (مباحث في التفسير الموضوعي) دمشق : دار القلم، ١٤٣٠هـ ، (١٥) ، ثم تبعهما د. صلاح الخالدي في كتابه : (التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق) ، الأردن : دار النفائس ، ١٤٢٨هـ ، (٣٣) .

(٥) انظر : ابن فارس ، أحمد بن فارس بن زكريا ، معجم مقاييس اللغة ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون ، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م . بيروت : دار الفكر ، (١٠٥٦) . وابن منظور ، لسان العرب : (٤٨٥٩/٦) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

فالأصل في لفظ "الموضوع" أنه وصف متعلق بالإبل ، واستعير ذلك في الكلام ، يقال : تكلمت بموضوع الكلام ومخفوضه[١]، فالموضوع يوصف به الكلام من حيث سهولته وتسلسله، ومن حيث إضماره وإخفاؤه ، ثم حصل التدرج والتوسع في ذلك حتى أصبح الموضوع : «المادة التي يبني عليها المتكلم أو الكاتب كلامه»[٢]، أو بمعنى آخر : الأمر الذي يدور حوله الحديث.

فالمعنى اللغوي المستخدم على ألسنة الناس اليوم لهذه الكلمة هو ما أشار إليه مؤلفوا المعجم الوسيط ، وذكرته أعلاه ، فيكون : «الموضوع» : هو الأمر الذي يدل عليه فحوى الكلام .

ثانيا : معنى «الموضوعي» اصطلاحا :

الموضوعي في اصطلاحي علماء التفسير المتأخرين هو : وصف يتعلق بموضوعات القرآن الكريم ، وهو نسبة إلى الموضوع ، والموضوع القرآني هو القضية الرئيسية التي تضمنتها آية أو آيات أو سورة أو سور من القرآن الكريم ، وتحديد هذا الموضوع يحتاج إلى منهج يتخذ من شمولية النظرة إلى نصوص الوحي سبيلا إلى فهمه في ضوء الواقع المعيش [٣].

المطلب الثالث

تعريف السورة لغة واصطلاحا

أولا : معنى السورة لغة .

السورة واحدة سُور القرآن ، وهي إما أن تكون مهموزة أو غير مهموزة، فمن همزها جعلها من أسأرت أي أفضلت من السؤر وهو ما بقي من الشراب في الإناء ، وتكون سميت سورة لأنها قطعة من القرآن .

ففي لسان العرب : « سُمّيت السّورة من القرآن سورة لأنّها درجة إلى غيرها ، ومن همزها جعلها بمعنى بقيّة من القرآن وقطعة ، وأكثر القراء على ترك الهمزة فيها ، وقيل : السورة من القرآن يجوز أن تكون من سُؤْرة المال ترك همزه لما كثر في الكلام »[٤].

---

(١) انظر : الزمخشري ، أساس البلاغة : (١٠٢٧) .

(٢) انظر : مجمع اللغة ، المعجم الوسيط : (١٠٤٠) .

(٣) الدغامين ، زياد ، التفسير الموضوعي ومنهجية البحث فيه ، الأردن : دار عمار ، (٢٥) .

(٤) ابن منظور ، لسان العرب : (٢١٤٧/٣) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

أو من السورة من البناء ، وهي ما حسُن وطال منه ، وتكون سميت سورة لارتفاع قدرها ، أو لأنّها منزلةٌ بعد منزلةٍ ، مقطوعةٌ عن الأخرى ، ففي الصحاح : « هي كل منزلة من البناء ، ومنه سورة القرآن ، لأنها منزلة بعد منزلة مقطوعة عن الأخرى »[١].

أو من التسور ، بمعنى : التصاعد ، يقال: تسوّرت الحائط ، إذا علوته ، ومنه قوله تعالى :

﴿ I J K ﴾ [ص: ٢١] ، فتكون سميت سورة لتركيب بعضها على بعض[٢].

ثانيا : معنى السورة اصطلاحا .

قال الجعبري[٣]: « السورة بعض قرآن يشتمل على آيٍ ، ذو فاتحة وخاتمة ، وأقلها ثلاث آيات »[٤].

وقال الزرقاني[٥] : « ويمكن تعريفها اصطلاحا بأنها : طائفة مستقلة من آيات القرآن ذات مطلع ومقطع » [٦] .

المطلب الرابع
تعريف التناسق الموضوعي في السورة

إن مصطلح التناسق الموضوعي في السورة هو مصطلح جديد في بابه ، لم أجد من علماء التفسير من تكلم فيه بتعريف جامع مانع ، إلا أنني ومن خلال استقرائي للخطة الموضوعة في هذا المشروع، وسؤالي لأساتذة التفسير في قسم الكتاب والسنة بجامعة أم القرى ، وعند التأمل

---

(١) الجوهري ، إسماعيل بن حماد ، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية ، تحقيق : أحمد عبد الغفور عطار ، الطبعة الرابعة، بيروت : دار العلم للملايين ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م ، (٢/٦٩٠) .

(٢) انظر : ابن منظور ، لسان العرب : (٣/٢١٤٧) .

(٣) الجعبري : إبراهيم بن عمر بن إبراهيم بن خليل ، برهان الدين ، أبو محمد الجعبري ، الخليلي الشافعي ، صاحب المصنفات الكثيرة في القراءات وغيرها ، توفي سنة ٧٣٢هـ ، انظر : الذهبي ، محمد بن أحمد بن عثمان أبو عبد الله ، معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار ، تحقيق : بشار عواد معروف ، شعيب الأرناؤوط ، صالح مهدي عباس ، الطبعة الأولى ، بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٤٠٤هـ ، (٢/٧٤٣) .

(٤) انظر : الزركشي ، البرهان : (١/٢٦٤)؛ والسيوطي ، الإتقان : (١/١٥٠) .

(٥) هو : محمد عبد العظيم الزرقاني ، من علماء الأزهر بمصر ، تخرج بكلية أصول الدين، وعمل بها مدرسا لعلوم القرآن والحديث، وتوفي بالقاهرة سنة١٩٤٨م، من أشهر كتبه:مناهل العرفان في علوم القرآن. انظر : الزركلي، الأعلام: (٦/٢١٠).

(٦) الزرقاني ، مناهل العرفان في علوم القرآن : (١/٢٨٥) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

في المعاني اللغوية السابقة، يمكن أن يقال أن هذا المصطلح يقصد به : تماسك المواضيع المتشعبة للسورة القرآنية وتناسبها ، ودورانها ضمن نسق وسياق واحد دون تنافر أو تفكك .

أو بعبارة أخرى : انتظام الموضوعات الواردة في السورة وتسلسلها ، ومعرفة أوجه وعلل الترابط والتلاحم بينها ، بحيث يكون كل موضوع آخذا بعنق الآخر ، في ترابط وتلاحم لا يخرج منه شيء خارج السياق .

وبهذه العبارات التعريفية للمصطلح يظهر أن مصطلح التناسق الموضوعي جانب من جوانب إعجاز القرآن الكريم ، وفن من فنونه ، فهو يبحث في نظم موضوعات السورة ، التي تؤدي في النهاية إلى توضيح صورة متكاملة عن الموضوع الكلي للسورة أو ما يسمى بالوحدة الموضوعية ، فهو مصطلح أعم من مصلح الوحدة الموضوعية ، وأخص من مصطلح التناسب.

فبهذا يظهر الفرق بين هذه المصطلحات الثلاث ، ولا شك أن بينهما عموم وخصوص ، فلا يمكن إدراك التناسق الموضوعي إلا عن طريق معرفة المناسبة ، ولا يمكن إدراك الوحدة الموضوعية إلا من خلال التناسق الموضوعي .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

الفصل الأول

اسم سورة الأنفال ، وفضلها ، وعدد آياتها ، وتاريخ نزولها

ويشتمل على أربعة مباحث :

المبحث الأول : اسم سورة الأنفال ، وما اشتهر لها من أسماء .

المبحث الثاني : فضل سورة الأنفال .

المبحث الثالث : عدد آيات سورة الأنفال .

المبحث الرابع : تاريخ نزول سورة الأنفال .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

المبحث الأول

اسم سورة الأنفال ، وما اشتهر لها من أسماء

ويشتمل على تمهيد ومطلبين :

المطلب الأول : التسمية التوقيفية لسورة الأنفال، ومعناها، ووجه التسمية.

المطلب الثاني : التسميات الاجتهادية لسورة الأنفال ، ومعانيها ، ووجوه تسميتها.

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

تمهيد

اختلف العلماء في أسماء سور القرآن كلها ، هل هي ثابتة عن النبي r أم أن بعضها كان باجتهاد من الصحابة رضي الله عنهم ؟ .

فذهب الجمهور إلى أن أسماء سور القرآن كلها توقيفية عن النبي r ، قال السيوطي: « وقد ثبت جميع أسماء السور بالتوقيف من الأحاديث والآثار ، ولولا خشية الإطالة لبينت ذلك»[١].

ومن الأدلة الواضحة على ذلك تلك الأحاديث الصحيحة التي وردت في فضائل سور القرآن ، والتي سماها النبي r بأسمائها .

إلا أن لبعض سور القرآن الكريم أسماء غير واحدة ، كسورة البقرة ، ويقال لها الفسطاط ، وسورة المائدة، ويقال لها العقودوالمنقذة ، وسورة النحل، وتسمى سورة النعم، وغيرها من السور.

قال الزركشي في ذلك : « وينبغي البحث عن تعداد الأسامي : هل هو توقيفي أو بما يظهر من المناسبات ؟ فإن كان الثاني فلن يعدم الفطن أن يستخرج من كل سورة معاني كثيرة تقتضي اشتقاق أسمائها وهو بعيد »[٢].

فالراجح أن كلها توقيفي ، إذ لو فتح هذا الباب لاستخرج كل فطن من كل سورة معاني كثيرة تقتضي اشتقاق أسمائها فسماه بها ، وفي ذلك مفاسد ومحاذير .

---

(١) السيوطي ، الإتقان : (٢/٣٤٧) .

(٢) الزركشي ، البرهان : (١/٢٧٠) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

المطلب الأول
التسمية التوقيفية لسورة الأنفال ، ومعناها ، ووجه التسمية

أولا : التسمية التوقيفية :

اشتهرت سورة الأنفال في عهد النبي r باسم (الأنفال) وقد جاء ذكر هذا الاسم فيما روي عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال : « لما كان يوم بدر قتل أخي عمير ، وقتلت سعيد بن العاص فأخذت سيفه ، فأتيت النبي r فقال : اذهب فاطرحه في القبض ، فرجعت وبي ما يعلمه إلا الله من قتل أخي وأخذ سلبي فما جاوزت قريبا حتى نزلت سورة الأنفال ، فقال لي رسول الله r : "فخذ سيفك"»(١).

فهذا الاسم هو الذي عرفت به السورة بين المسلمين ، وبه كتبت في المصاحف حين كتبت أسماء السورة ، وكتبت في كتب التفسير والحديث(٢).

ثانيا : معنى الأنفال لغة وشرعا :

أ) معنى الأنفال لغة :

قال ابن فارس(٣) : « النون والفاء واللام أصلٌ صحيح يدلُّ على عَطاء وإعطاء ، منه النَّافلة: عَطِيَّة الطَّوْعِ من حيثُ لا تَجِب ، ومنه نافلة الصَّلاة ، ومن الباب النفَل : الغُنْم، والجمع أنفال، وذلك أن الإمام ينفِّل المحارِبينَ ، أي : يُعطِيهم ماغَنِموه »(٤).

فالنفل يطلق في اللغة على العطية الزائدة على المطلوب ، فصلاة التطوع نافلة لأنها زيادة على الفرض الذي هو الأصل. وقال تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ﴾ [الأنبياء:٧٢]

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ، بحديث رقم : (١٥٥٥) (٢٢٢/١) ، وابن جرير في تفسيره : (١٧٣/٦) ، كلاهما من طريق محمد بن عبيد الله الثقفي ، وهو لم يدرك سعدا ، إلا أن له طريقا آخر عن مصعب بن سعد عن أبيه ، وسيأتي تخريجه في مبحث أسباب النزول الواردة في السورة ، الصفحة : (٧٥) .

(٢) انظر : صحيح البخاري (١٧٠٢/٤) ، قال رحمه الله : تفسير سورة الأنفال . وانظر : صحيح مسلم : (٢٤٥/٨) ، قال رحمه الله : باب في سورة براءة والأنفال والحشر .

(٣) هو : أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا القزويني، الإمام العلامة ، اللغوي المحدث ، صاحب كتاب "المجمل" كان من رؤوس أهل السنّة، ومات بالريّ سنة خمس وتسعين وثلاثمائة. انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء: (١٠٣/١٧-١٠٦).

(٤) ابن فارس ، معجم مقاييس اللغة : (٤٥٦/٥) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

أي: زيادة على ما سأل، وإنما سُمِّيتْ الغنيمة نفلا ؛ لأنّ الْمسلمين فضلُوا بِها زيادة خير من الله تعالى ، حيث أن سائِر الأمم لم تحل لهم الغنائم(١).

قال ابن عطية (٢): « والنافلة في كلام العرب : الزيادة على الواجب ، وسميت الغنيمة نفلا ، لأنها زيادة على القيام بالجهاد ، وحماية الدين والدعاء إلى الله U » (٣).

ب) معنى الأنفال شرعا :

قال ابن جرير الطبري(٤) : « اختلف أهل التأويل في معنى "الأنفال" التي ذكرها الله في هذا الموضع ، فقال بعضهم : هي الغنائم ، وقال آخرون : هي أنفال السرايا . وقال آخرون : هي الخمس الذي جعله الله لأهل الخُمُس » ، ثم قال رحمه الله : « وأولى هذه الأقوال بالصواب في معنى: "الأنفال"، قولُ من قال: هي زيادات يزيدها الإمام بعض الجيش أو جميعهم، إما من سهمه على حقوقهم من القسمة ، وإما مما وصل إليه بالنفل ، أو ببعض أسبابه ، ترغيبًا له ، وتحريضا لمن معه من جيشه على ما فيه صلاحهم وصلاح المسلمين، أو صلاح أحد الفريقين ، وإنما قلناذلك أولى الأقوال بالصواب، لأن"النفل"في كلام العرب، إنما هوالزيادةعلى الشيء»(٥).

وعلى هذا فالمراد بالأنفال دائر بين أمرين : إما الغنائم مطلقا ، وإما الزيادات التي تعطى لمن لهم عناء كبير ، وبلاء حسن في الموقعة ، والأمران وإن بدا أنهما مختلفان ولكن الواقع أنهما متداخلان يؤثر كل منهما في الآخر ، فالزيادة هي في الأصل جزء من الغنيمة .

---

(١) انظر : ابن منظور ، لسان العرب : (١١/٦٧٠-٦٧١) مادة (ن ف ل) ، والزبيدي : تاج العروس : (١٧/٣١) ، والرازي ، مفاتيح الغيب : (١٥/٩٢) .

(٢) هو : عبد الحق بن غالب بن عبد الملك بن عطية، الإمام الكبير قدوة المفسرين أبو محمد الغرناطي القاضي ، كان فقيهاً عارفاً بالأحكام والحديث والتفسير ، مولده سنة ثمانين وأربعمائة ، ومات سنة إحدى وأربعين وخمسمائة . انظر : السيوطي ، طبقات المفسرين ، تحقيق : علي محمد علي ، الطبعة الأولى ، القاهرة : مكتبة وهبة ، ١٣٩٦هـ ، (٥٠) .

(٣) انظر : ابن عطية ، المحرر الوجيز : (٢/٤٩٦) .

(٤) هو : محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الطبري ولد في آمل طبرستان وإليها نسبته ، سنة أربع وعشرين ومائتين ، رأس المفسرين على الإطلاق ، كان إماماً في علوم التفسير والفقه والحديث والتاريخ ومتقناً لقراءة حمزة الزيات وجمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره ، توفي ببغداد سنة عشر وثلاثمائة . انظر : السيوطي ، طبقات المفسرين : (٨٢) .

(٥) انظر : الطبري ، جامع البيان : (١٣/٣٦٦) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

ثالثا : وجه التسمية :

سميت هذه السورة بسورة الأنفال ، لأن أول آية افتتحت بها ورد فيها اسم الأنفال ، بل وتكرر فيها ، فذكر فيها حكم الأنفال ، فقال تعالى : ﴿ ! " # %& ') ﴾، ولم يرد لفظ الأنفال في غيرها من سور القرآن الكريم[١].

المطلب الثاني

التسميات الاجتهادية لسورة الأنفال، ومعانيها، ووجوه تسميتها

أولا : سورة بدر .

سميت هذه السورة ب(سورة بدر) وقد ذكر ذلك السيوطي في الإتقان ، واستدل له بما رواه سعيد بن جبير[٢] قال : « قلت لابن عباس : سورة الأنفال ؟ قال :تلك سورة بدر» [٣].

وذكر هذا الاسم الفيروز آبادي[٤] في كتابه بصائر ذوي التمييز [٥].

أ) معنى التسمية :

بدر : بدر إلى الشيء أسرع وبابه دخل ، وبادر القوم ، تسارعوا وابتدروا السلاح ، وسمي البدر بدرا لمبادرته الشمس بالطلوع في ليلته ، وقيل سمي به لتمامه ، وبدر موضع يذكر ويؤنث، وهو اسم ماء[٦]، مشهور بين مكة والمدينة أسفل وادي الصفر ، وبه كانت الوقعة المباركة التي

---

(١) انظر : ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٣٦٦/١٣) .

(٢) هو : سعيد بن جبير بن هشام ، الإمام الحافظ المقرئ المفسّر ، أبو محمد الكوفي أحد الأعلام ، روى عن ابن عباس فأكثر وجوّد ، قتله الحجاج سنة خمس وتسعين . انظر : الذهبي ، سير أعلام النبلاء : (٣٢١/٤) .

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب التفسير ، سورة الحشر ، حديث برقم : (٤٨٨٢) ، (٣٦٤/٦) ، ومسلم ، كتاب التفسير ، باب (في سورة براءة والأنفال والحشر) حديث برقم : (٣٠٣١) ، (٢٣٢٢/٤).

(٤) هو : محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم الشيرازي الفيروز آبادي أبو الطاهر مجد الدين ، صاحب القاموس ، وبصائر ذوي التمييز ، ولد في سنة ٧٢٩هـ ، وتوفي سنة : ٨١٦هـ ، انظر : الأدنروي ، أحمد محمد ، طبقات المفسرين ، الطبعة الأولى ، تحقيق : سليمان بن صالح الخزي ، ١٩٩٧م ، المدينة المنورة : مكتبة العلوم والحكم ، (٣١٣) .

(٥) انظر : الفيروز آبادي ، والفيروز آبادي ، محمد بن يعقوب ، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ، تحقيق: محمد علي النجار ، بيروت : المكتبة العلمية ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م : (٤٣١/٣) .

(٦) انظر : الرازي ، مختار الصحاح : (٧٣/١) ، وابن منظور ، لسان العرب مادة (بدر) : (٤٨/٤) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

أظهر الله بها الإسلام وفرق بين الحق والباطل ، وقد نشأت في بدر بلدة نامية تبعد عن المدينة المنورة (١٥٥كيلو) ، وتبعد عن سيف البحر قرابة (٤٥كيلو) وموقعها بالنسبة للمدينة في الجنوب الغربي [١].

ب) وجه التسمية :

علل الفيروز آبادي وجه تسمية السورة بسورة بدر بقوله : « لأن معظمها في ذكر حرب بدر ، وما جرى فيها » [٢].

ثانيا : سورة الجهاد .

سمى البقاعي هذه السورة بـ(سورة الجهاد) ولم يذكر لذلك سندا أو أثرا [٣].

أ) معنى التسمية :

لغة : الجهاد مصدر للفعل الرباعي (جاهد) ، يقال: جاهد يُجاهِدُ جِهاداً ومُجاهدةً ، وأصل هذه الكلمة (المشَقّة) ، كما في معجم مقاييس اللغة : « الجيم والهاء والدال أصله المشقة ، ثم يحمل على ما يقاربه » [٤] .

وقد جاء لمادة (جهد) في اللغة عدة معان ، منها : المشقة ، والطاقة ، والمبالغة واستفراغ الوسع ، والطلب ، والقتال .

ففي لسان العرب: « الجهْد و الجُهْد : الطاقة . تقول : اجهد جهدك ، وقيل : الجهْد المشقة ، والجُهْد الطاقة ... وجاهد العدوّ مجاهدةً وجهاداً قاتله ، وجاهد في سبيل الله ... والجهاد المبالغة واستفراغ الوسع في الحرب أو اللسان أو ما أطاق من شيء »[٥].

وفي القاموس المحيط : « وبالكسر [أي الجِهاد] القتال مع العدو كالمجاهدة »[٦].

---

(١) انظر: الحموي ، ياقوت ، معجم البلدان ، بيروت : دار الفكر ، (٣٥٨/١) ،ومعجم الأمكنة الواردة ذكرها في صحيح البخاري لسعد بن جنيدل (٦٤ ، ٦٨) .

(٢) انظر : ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٣٦٦/١٣) .

(٣) انظر : البقاعي ، نظم الدرر : (٢١٤/٨) .

(٤) انظر : ابن فارس : معجم مقاييس اللغة : (٤٨٦/١) .

(٥) انظر : ابن منظور ، لسان العرب : (١٣٣/٣، ١٣٥) .

(٦) انظر : الفيروز آبادي ، القاموس المحيط : (٣٥١/١) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

ويمكن أن نستنتج من هذه النقول ما يلي : أن الجهاد في اللغة لفظ عام يراد به استفراغ الوسع ، وبذل الطاقة ، وتحمل المشقة لبلوغ غاية معينة ، سواء كان جهاداً بالمقاتلة ، أو بالمجادلة ، أو ببذل النفس أو المال ، أو غير ذلك .

وشرعا : تعددت عبارات الفقهاء في التعريف الشرعي للجهاد ، إلا أن التعريف الذي أذكره هو في نظري أقرب هذه التعريفات في الدلالة على هذا المصطلح ، لوضوحه، واختصاره، وخلوه من التكرار والحشو، واشتماله على عدة قيود صحيحة للجهاد الشرعي ، وهو : «قتال مسلم كافراً غير ذي عهد ، بعد دعوته للإسلام وإبائه ، إعلاءً لكلمة الله»(١).

ب) وجه التسمية :

سميت سورة الأنفال بسورة الجهاد ، لأن المحور الرئيسي لهذه السورة يتحدث عن الجهاد وبيان أحكامه(٢).

وهذان الاسمان اللذين ذكرتهما اجتهاديان من السلف وأهل العلم ، ولم يثبت عن الرسول r شيء من ذلك .

---

(١) انظر : الموسوعة الفقهية الكويتية : (١٢٤/١٦) .

(٢) انظر : البقاعي ، نظم الدرر : (٢١٤/٨) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

المبحث الثاني

ما ورد في فضل سورة الأنفال

ويشتمل على مطلبين :

المطلب الأول : فضل القرآن الكريم .

المطلب الثاني : فضل سورة الأنفال .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

المطلب الأول
فضل القرآن الكريم

لا شك أن فضل القرآن الكريم كبير وعظيم ، فهو كتاب أخرج الله به الناس من جاهلية جهلاء ، وضلالة عمياء ، وهداهم به من الظلمات إلى النور ، وهو الكتاب الذي ختم الله به الكتب ، وأنزله على نبي ختم به الأنبياء ، وبدين ختم به الأديان ، وهو كلام الله العظيم ، وصراطه المستقيم ، ونظامه القويم ، مناط به كل سعادة ، هو رسالة الله الخالدة ، ومعجزته الدائمة ، ورحمته الواسعة ، وحكمته البالغة ، ونعمته السابغة ، نهل منه العلماء ، وشرب من مشربه الأدباء ، وخشعت لهيمنته الأبصار ، وذلت له القلوب ، وقام بتلاوته العابدون والراكعون والساجدون، وهو « كلية الشريعة، وعمدة الملة، وينبوع الحكمة، وآية الرسالة ، ونور الأبصار والبصائر ، فلا طريق إلى الله سواه ، ولا نجاة بغيره ، ولا تمسك بشيء يخالفه » [١] .

هو كتاب الإسلام في عقائده ، وعباداته ، وحكمه ، وأحكامه ، وآدابه ، وأخلاقه ، وقصصه ، ومواعظه ، وعلومه ، وأخباره ، وهدايته ، ودلالته ، وهو أساس رسالة التوحيد ، والرحمة المسداة للناس ، والنور المبين ، والمحجة البيضاء التي لا يزيغ عنها إلا هالك .

وقد وردت الأدلة الكثيرة من الكتاب والسنة في فضائل القرآن ، حيث تحدثت عن فضل هذا الكتاب المبين ، قال تعالى : ﴿ / 0 1 2 3 4 5 ﴾[الإسراء:٩] ، في سائر مناحي الحياة ، ولذا جعله تبيانا لكل شيء وهدى ، قال تعالى : ﴿ ? @ A B C D E F G H ﴾[النحل:٨٩].

وقال r : « لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله القرآن وقام به آناء الليل ، ورجل آتاه الله مالا فهو يتصدق به آناء الليل وآناء النهار » [٢].

---

(١) الشاطبي ، إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي ، الموافقات ، تحقيق : أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان ، الطبعة الأولى ، السعودية : دار ابن عفان ، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م : (٣٤٦/٣) .

(٢) أخرجه البخاري ، كتاب فضائل القرآن ، باب اغتباط صاحب القرآن ، برقم : (٥٠٢٥) وأخرجه مسلم : كتاب صلاة المسافرين ، باب فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه ، برقم : (٨١٦) .كلاهما من حديث عبد الله بن عمر .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

وعن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: قال رسول الله r :«خيركم من تعلم القرآن وعلمه»[١].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله r : « الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة ، والذي يقرأ القرآن ويتعتع فيه وهو عليه شاق له أجران » [٢].

وعن أبي أمامة الباهلي[٣] رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله r : « اقرءوا القرآن فإنه يأتي شفيعا لأصحابه »[٤].

المطلب الثاني

فضل سورة الأنفال

دلّت الأدلّة الكثيرة على أفضلية بعض السّور والآيات ، ومنها قوله تعالى : ﴿ " # $ % & ' ( ) * + , ﴾ [البقرة: ١٠٦] ، ومنها الأحاديث الصحيحة التي وردت في فضل بعض الآيات والسّور ، وهي مبثوثة في كتب السنة المطهّرة ، وفي كتب فضائل القرآن ، وكلّها تدلّ دلالةً واضحةً على ثبوت هذا التّفاضل.

وسورة الأنفال لم يثبت في فضلها حديث صحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم ، إلا أنها نالت قدرا من الفضل الذي أسند لعموم سور القرآن ، بالإضافة إلى خصائص أخرى ، أوجزها في الآتي :

---

(١) أخرجه البخاري ، كتاب فضائل القرآن ، باب خيركم من تعلم القرآن وعلمه ، برقم : (٥٠٢٨) .

(٢) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها باب فضل الماهر بالقرآن والذي يتتعتع به ، برقم ٧٩٨ ، وعند البخاري في كتاب التفسير ، سورة عبس ، برقم : (٤٩٣٧) بلفظ : «مثل الذي يقرأ القرآن وهو ماهر به » .

(٣) هو : صدي بن عجلان الباهلي ، صحابي مشهور بكنيته ، واسمه : أرسله النبي r إلى قومه فأسلموا عن آخرهم ، مات سنة ٨٦ هـ ، أو قبلها ، وله مائة وست سنين . انظر : ابن حجر ، الإصابة : (٣/٤٢٠) .

(٤) أخرجه مسلم : كتاب صلاة المسافرين ، باب فضل قراءة القرآن ، برقم : (٨٠٤) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

أولاً : أنها من السبع الطوال :

فعن واثلة بن الأسقع[١] t ، عن النبي r قال : « أعطيت مكان التوراة السبع ، وأعطيت مكان الزبور المئين ، وأعطيت مكان الإنجيل المثاني ، وفضلت بالمفصل »[٢].

ثانيا : أنها تحدثت بإسهاب عن أهم أحداث يوم بدر الذي سمي بيوم الفرقان .

وقد سمي هذا اليوم أيضا كما في نص الآية القرآنية بيوم التقى الجمعان وهما : (الجمع المسلم والجمع الكافر) ، ففرق الله فيه بين الحق والباطل ، ونصر فيه حزبه وأولياءه ، وهزم حزب الشيطان وأتباعه ، وبعد ذلك اليوم قويت دولة الإسلام ، وغزوة بدر هي الغزوة التي نزلت الملائكة تقاتل مع المؤمنين ، فحقق الله لرسوله r نصره ووعده .

فعن ابن عباس رضي الله عنهما : « أنها نزلت في بدر»[٣].

وعن أَبِي أُمامة الْبَاهلي قَال : سألت عبادة بن الصامت[٤] عن الأنفال، فقال: فينا معشر أصحاب بدر نزلت، حين اختلفنا في النفل، وساءت فيه أخلاقنا، فانتزعه الله من أيدينا وجعله إلى رسول الله r فقسمه رسول الله r بين المسلمين عن بواء ، يقول: على السواء[٥].

---

(١) هو : واثلة بن الأسقع بن كعب ، صحابي مشهور ، أسلم قبل تبوك وشهدها ، وكان من أهل الصفة ، نزل الشام وعاش بها ، وكان آخر الصحابة موتا بدمشق ، مات وله : (١٠٥) . انظر : الإصابة : (٦/٥٩١) .

(٢) مسند الإمام أحمد ، (٢٨/١٨٨) برقم : (١٦٩٨٢) ، قال الهيثمي : فيه عمران القطان ، وثقه ابن حبان وغيره ، وضعفه النسائي وغيره ، وبقية رجاله ثقات . انظر : الهيثمي ، مجمع الزوائد : (٧/ ١٣٢) برقم : (١١٦٢٥) .

والمراد بالسبع : هي السور السبع الطوال ، وهي التي أولها البقرة وآخرها براءة ، لأنهم كانوا يعدون الأنفال وبراءة سورة ، واختلف عن ابن عباس في السورة السابعة بين يونس والكهف ، وأما المئون فهي: كل سورة تزيد على مائة آية أو تقاربها. **والمثاني:** هي السور التي آيها أقل من مائة آية ؛ لأنها تثنى أكثر مما يثنى الطوال والمئون، أو لتثنية الأمثال فيها بالعبر والخبر والقصص، وقد تسمى سور القرآن كلها مثاني . **والمفصل** : هو ما ولي المثاني من قصار السور ، سمي بذلك لكثرة الفصول التي بين السور بالبسملة، وقيل : لقلة المنسوخ منه ، ولهذا يسمى بالمحكم . واختلف في أوله على اثني عشر قولا، والذي عليه الأكثر أن أوله من سورة القتال . انظر: الزركشي ، البرهان : (١/٢٤٥) ؛ والسيوطي ، الإتقان: (١/١٧٣).

(٣) أخرجه البخاري : كتاب التفسير ، باب سورة الأنفال (٥/١٩٨) .

(٤) هو : عبادة بن الصامت بن قيس الأنصاري الخزرجي أبو الوليد ، شهد بدرا والمشاهد كلها مع النبي r ، وكان أحد النقباء بالعقبة ، وله مناقب كثيرة ، مات بالرملة سنة ٣٤هـ ، وقيل غير ذلك ، انظر : ابن حجر ، الإصابة : (٣/٦٢٦).

(٥) أخرجه الإمام أحمد : (٣٧/ ٤١٥) برقم : (٢٢٧٥٤) . وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/٢٦) : رجاله ثقات .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

ثالثا : أنها تقرأ في مواطن الحرب والقتال :

وقد كان قوّاد جيوش المسلمين يجعلون لكل كتيبةٍ قارئا ، فإذا حمي الوطيس واشتدت الحرب كان يقرأ سورة الأنفال لتحيا معاني الإيمان في القلوب ، ولتشتدّ الحمية لهذا الدين في النفوس .

ومن ذلك ما ذكره أصحاب المغازي والسير أنه في وقعة القادسية [(١)]، صلى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه الظهر بأصحابه ، وأمر غلاما –كان عمر رضي الله عنه ألزمه إياه ، وكان من القراء – بقراءة سورة الأنفال– كان المسلمون كلهم إذ ذاك يتعلمونها ، فقرأها على الكتيبة التي تليه، وقرئت في كل كتيبة ،فهشت قلوب الناس ، وعرفوا السكينة مع قراءتها[(٢)].

---

(١) موضع بينه وبين الكوفة خمسة عشر فرسخا ، انظر : الحموي ، معجم البلدان : (٦/٧) ، وكانت وقعة القادسية في خلافة عمر سنة ١٤ هجرية بين المسلمين والفرس ، وفيها انتصر المسلمون على الفرس . انظر : المصدرين التاليين .

(٢) انظر : الطبري ، محمد بن جرير ، تاريخ الأمم والملوك ، الطبعة الأولى ، بيروت : دار الكتب العلمية ،١٤٠٧هـ : (٣٤/٢) ، ابن كثير ، أبو الفداء إسماعيل بن عمر الدمشقي ، البداية والنهاية ، تحقيق : علي شيري ، الطبعة الأولى ، بيروت : دار إحياء التراث العربي ، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م : (٨/٧) ؛ وقال الطبري : وكان القارئ هو المقداد بن الأسود .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

المبحث الثالث

عدد آيات سورة الأنفال ، وبيان اختلاف العلماء في ذلك

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

تمهيد

اختلف العلماء في عد بعض آي سور القرآن الكريم ، ومن رحمة الله تعالى وفضله أن حفظ لهذه الأمة قرآنها ، فقال U : ﴿ g h i j k l m ﴾ [الحجر: ٩].

فكان أن سخر الله تعالى بعض علماء الأمة للاهتمام والعناية بهذا القرآن ، من خلال قيامهم بإحصاءٍ دقيقٍ لسُوَره وآياته وكلماته وحروفه وفواصله ، وبعدّ آيات كلّ سورة ، وبيان الاختلاف في عدّ العادّين وسببه ، وكان هذا غاية في التّوثيق والضّبط والعناية .

ولهذا فإن عدّ الآيات ليس بدعاً من العمل ، أو فضلةً من العلم ، بل إنّ له لأصلاً في السنّة المشرّفة ، فقد ورد في السنّة ذكرُ الآية والآيتين والعدد من الآيات ، وفي ذلك أحاديثُ كثيرةٌ مشهورة، ولا شكّ أنّ معرفة عدد آيات السّور مبحثٌ مهمٌّ لأنّ « ترتيب الآيات في سورها واقعٌ بتوقيفه r وأمره ، من غير خلافٍ في هذا بين المسلمين » (١)، ولا مجالَ للقياس فيه(٢).

وقد يختلف العلماء في عد بعض آيات السور ، قال الزركشي مبينا سبب ذلك : « اعلم أن سبب اختلاف العلماء في عد الآي والكلم والحروف أن النبي r كان يقف على رءوس الآي للتوقيف ، فإذا علم محلها وصل للتمام ، فيحسب السامع أنها ليست فاصلة » (٣).

ومعنى ذلك : أن من نظر إلى الوقف قال : إنها رأس آية ، ومن نظر إلى الوصل لم يقل إنها آية ، فما ثبت أن النبي r كان يقف دائماً عليه يعتبر فاصلة ، وما وصله دائما ليس فاصلة، والذي وقف عليه مرة ووصله أخرى احتمل الوجهين ، أي : الوقف للفاصلة أو للاستراحة ، واحتمال الوصل لغير الفاصلة ، أو أنها فاصلةٌ وُصِلت ، وهذا كلّه لا غضاضة فيه ولا محظور، لأنه لا يؤدي إلى الزيادة ولا النقصان في القرآن الكريم ، إذ هو لا يدل إلا على تعيين محل الفصل أو الوصل ، والقرآن الكريم محفوظٌ من الزيادة والنقصان والتحريف والتبديل(٤).

---

(١) الغرناطي ، البرهان في تناسب سور القرآن : (٧٩) .

(٢) انظر : السيوطي ، الإتقان في علوم القرآن : (١/٢٠٧) .

(٣) الزركشي ، البرهان : (١/٢٥٢) .

(٤) عبد الكافي ، عمر بن محمد بن عبد الكافي ، عدد سور القرآن وآياته وكلماته وحروفه ، تحقيق : خالد حسن أبو الجود ، مكتبة الإمام البخاري للنشر والتوزيع ، (١٧-١٨).

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

عدد آيات سورة الأنفال واختلاف العلماء في ذلك .

اختلف علماء العد في عدد آي السورة الكريمة على ثلاثة أقوال ، وسأذكر هذه الأقوال مع توضيحها وتوجيهها .

أولا : ذكر الأقوال :

القول الأول : أنها خمس وسبعون آية ، عند أهل الكوفة .

القول الثاني : أنها ست وسبعون ، عند أهل الحجاز والبصرة .

القول الثالث : أنها سبع وسبعون آية ، عند أهل الشام [١].

ثانيا : ذكر المواضع المخلتف فيها :

أن أهل البصرة عدو ﴿V W ﴾ آية ، وتركوا عد الآية (٦٣) ، وذلك قوله تعالى : ﴿ (* + , - ﴾ ، وأن أهل الحجاز عدوا إلى قوله تعالى : ﴿كَانَ مَفْعُولًا﴾ الأول آية ، وأما أهل الشام فإنهم عدوا ﴿V W ﴾آية، وإلى قوله تعالى : ﴿كَانَ مَفْعُولًا﴾آية[٢].

ثالثا : توجيه الاختلاف :

إن من عد ﴿ W ﴾ آية ، قال : أنها تشبه فواصل الآية التي قبلها والتي بعدهما فهي مشاكلة لهما ، وأيضا لتمام الكلام بها ، ففاصلة الآية التي قبلها تنتهي بـ﴿ C D E ﴾ ، وفاصلة الآية التي بعدها ينتهي بـ﴿ [\ ] ^ ﴾ ، وأن من ترك قال : أن الآية التي بعدها قصيرة لا تناسب آيات سورة الأنفال ، وأن من عد ﴿كَانَ

---

(١) انظر : الداني ، أبو عمرو عثمان بن سعيد الأموي ، البيان في عد آي القرآن ، تحقيق : د.غانم قدوري الحمد ، الطبعة الأولى ، الكويت : مركز المخطوطات والتراث ، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م (١٥٨)؛ والقاضي، عبد الفتاح عبد الغني، الفرائد الحسان في عد آي القرآن، ومعه شرح نفائس البيان، الطبعة الأولى، المدينة المنورة: مكتبة الدار، ١٤٠٤هـ. (٣٦).

(٢) انظر : الداني ، عد آي القرآن : (١٥٨) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

مَفْعُولًا﴾ الأول آية ، قال : مساواة بالآيات التي تنتهي بها ، وأن من ترك قال : أن ﴿كَانَ مَفْعُولًا﴾ الثاني ليس فاصلة بالإجماع ، وليس مشابهة لفواصل سورة الأنفال ، وأن من عد ﴿ - ﴾ آية قال : أنها للمشابهة والمشاكلة ، وأن من تركها قال : عدم انقطاع الكلام ، لتعلق ما بعده به [١].

(١) انظر : موسى ، عبد الرزاق علي إبراهيم ، المحرر الوجيز في عد آي الكتاب العزيز شرح أرجوزة العلامة الشيخ محمد متولي ، الطبعة الأولى ، الرياض : مكتبة المعارف ، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م ، (٨٦) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

المبحث الرابع

تاريخ نزول سورة الأنفال

ويشتمل على مطلبين :

المطلب الأول : بيان تاريخ نزول سورة الأنفال.

المطلب الثاني : أحوال نزول السورة .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

المطلب الأول

بيان تاريخ نزول السورة

نزلت سورة الأنفال بعد غزوة بدر الكبرى مباشرة ، وكانت غزوة بدر في رمضان في السنة الثانية لهجرة الرسول r .

قال ابن كثير في البداية والنهاية في ذكر ما وقع في السنة الثانية من الهجرة من الحوادث: «وقع فيها كثير من المغازي والسرايا ومن أعظمها وأجلها بدر الكبرى التي كانت في رمضان منها ، وقد فرق الله بها بين الحق والباطل والغي والهدى »(١).

وكان المسلمون مرهوبين قبل هذه الغزوة ، وبعدها قويت شوكتهم ، وتعززت مكانة الرسول r ، وقوي دينه ، وازداد المسلمون ثقة بربهم وبرسوله r .

قال ابن هشام : « فلما انقضى أمر بدر أنزل الله U فيه من القرآن الأنفال بأسره فكان مما نزل منها في اختلافهم في النفل حين اختلفوا » (٢).

وقد عرفت سورة الأنفال بسورة بدر ، كما سبق عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : تلك سورة بدر(٣) ، وهذا مما يؤكد على أن نزول السورة كان في غزوة بدر .

يقول ابن عاشور : « اتفق رجال الأثر كلهم على أنها نزلت في غزوة بدر ، قال ابن إسحاق(٤): أنزلت في أمر بدر سورة الأنفال بأسرها ، وكانت غزوة بدر في رمضان من العام الثاني للهجرة بعد عام ونصف من يوم الهجرة ، وذلك بعد تحويل القبلة بشهرين وكان ابتداء نزولها قبل الانصراف من بدر فإن الآية الأولى منها نزلت والمسلمون في بدر قبل قسمة مغانمها،

---

(١) انظر : ابن كثير ، البداية والنهاية : (٥/٥) .

(٢) ابن هشام ، عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري ، السيرة النبوية ، تحقيق : طه عبد الرءوف سعد ، بيروت : دار الجيل ، ١٤١١هـ ، : (٦٦٧/١) .

(٣) تقدم تخريجه في مبحث اسم السورة ، الصفحة : (٣٦) .

(٤) ابن إسحاق : هو محمد بن إسحاق بن يسار العلامة الحافظ الأخباري ، صاحب السيرة النبوية ، قال الإمام الذهبي: «أما في أحاديث الأحكام فينحط حديثه فيها عن رتبة الصحة إلى رتبة الحسن» ، مات سنة خمسين ومائة . انظر : الذهبي ، سير أعلام النبلاء : (٣٣/٧-٥٥) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

كما دل عليه حديث سعد بن أبي وقاص ، والظاهر أنها استمر نزولها إلى ما بعد الانصراف من بدر »[١].

ومن المناسب عقب بيان تاريخ نزول هذه السورة أن أذكر أحوال نزولها مبينا فيها الأسباب والأحداث المصاحبة لتلك الغزوة التي تحدثت عنها السورة .

المطلب الثاني : أحوال نزول سورة الأنفال

لقد كان المسلمون عند هجرتهم من مكة إلى المدينة ، وفرارهم بدينهم من بطش كفار قريش تركوا أموالهم وأهليهم فاستولى المشركون على تلك الأموال والممتلكات ، إلا أن مواساة الأنصار لهم في أموالهم وديارهم ومقاسمتهم لها أذهب عنهم بعضا مما يجدونه من الحزن في مفارقة الأموال والديار .

ولهذا عندما علم النبي r أن عيرا لقريش قادمة من الشام تحمل أموالا لهم أحب أن يسترد بعضا من أموال المهاجرين التي أخذت عنهم ظلما وعدوانا ، فقال لمن حضر من المسلمين : «هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها »[٢].

ومن المعلوم المؤكد أنه r حين خروجه من المدينة لم يكن في نيته قتال ، وإنما كان قصده عير قريش ، ولهذا قال لأصحابه : « ولا يخرج معنا إلا من كان ظهره حاضرا »[٣] .

فخرجوا في (٣١٩) مسلما[٤] ، من المهاجرين (٨٦) ، ومن الأوس (٦١) ، ومن الخزرج (١٧٠) ، وإنما كان عدد الخزرج أكثر من الأوس ؛ لأن الأوس كانوا يسكنون في منطقة العوالي على أطراف المدينة، ولهذا لم يستطيعوا تعبئة أنفسهم واللحاق بالجيش .

---

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير:(٢٤٥/١٠)،والحديث أخرجه مسلم،كتاب الجهادوالسير،باب الأنفال،برقم: (٤٦٥٤).

(٢) أخرجه ابن هشام في السيرة : (٦٠٦/١) ، وصححه الألباني في فقه السيرة (١٦٦) ، وقال : رواه ابن هشام عن ابن إسحاق بسنده الصحيح عن ابن عباس .

(٣) رواه مسلم في كتاب الإمارة ، باب ثبوت الجنة للشهيد : (٤٤/٦) برقم : (٥٠٢٤) .

(٤) ثبت هذا العدد في رواية لمسلم ، انظر : كتاب الجهاد والسير ، باب الإمداد بالملائكة : (١٣٨٤/٣) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

وقد استعمل النبي r ابن أم مكتوم[١]، على الصلاة بالناس ثم رد أبا لبابة[٢]واستعمله على المدينة [٣].

ولما وصل المسلمون إلى آبار بدر ، عسكروا هناك ، وكان أبو سفيان[٤] قد أرسل العيون ، عند اقترابه من المدينة ، وتقصى الأخبار ، فعلم أن الرسول r قد استنفر المسلمين للاستيلاء على العير ، وأنه سيقطع عليهم الطريق في بدر ، سلك طريق الساحل ، وأرسل أحد مرافقيه[٥] ليستنفر قريشا لحماية القافلة ، فلما علمت قريش بالخبر ، استعدت للخروج دفاعا عن قافلتها، فخرج ألف من المشركين ، منهم مائة فرس ومائة دارع وسبعمائة جملا ، فلما نجت القافلة أرسل أبو سفيان إلى أبي جهل أن ارجع فقد نجت القافلة ، إلا أن أبا جهل أصر على ملاقاة جيش المسلمين، وقال: « لا والله لا نرجع حتى نرد بدرا، فنقيم ثلاثا، ننحر الجزر، ونطعم الطعام ونشرب الخمر ، وتعزف علينا القيان ، فتسمع بنا العرب فلا يزالون يهابوننا أبد الدهر» [٦].

فتقدم معظم جيش المشركين [٧]إلى منطقة بدر التي يتواجد فيها المسلمون ، فلم يعد نجاة القافلة هدفهم ، بل تأديب المسلمين وتخليص طرق التجارة من تعرضهم[٨].

---

(١) اختلف في اسمه فقيل : عبد الله ، وقيل : عمرو ، واسم أبيه قيل : زائدة ، وقيل : قيس ، وقيل : عمرو ، إلا أنه صحابي مشهور بنسبته إلى أمه أم مكتوم واسمها عاتكة ، وهو قديم الإسلام ، نزل بشأنه سورة عبس ، كان يستخلفه النبي صلى الله عليه وسلم في عامة غزواته ومنها بدر، شهد القادسية معه الراية، ثم رجع إلى المدينة، فمات بها، ويقال : استشهد يوم القادسية . انظر: ابن حجر ، الإصابة : (٦٠١/٤) .

(٢) صحابي مشهور بكنيته ، مختلف في اسمه ، فقيل : بشير ، وقيل : رفاعة ، بن عبد المنذر من الأوس،كان أحد النقباء ليلة العقبة، مات بعد مقتل عثمان بن عفان، ويقال: عاش إلى بعد الخمسين. انظر: ابن حجر ، الإصابة : (٣٤٩/٧) .

(٣) انظر : ابن هشام ، السيرة النبوية : (٦١٢/٢) .

(٤) هو : صخر بن حرب بن أمية القرشي مشهور باسمه وكنيته ، كان رأس المشركين يوم أحد ويوم الأحزاب ، أسلم عام الفتح وشهد حنينا والطائف ، مات في خلافة عثمان بن عفان . انظر : ابن حجر ، الإصابة : (٤١٣/٣-٤١٤) .

(٥) هو : ضمضم بن عمرو الغفاري .

(٦) رواه ابن هشام في السيرة : (١٦٦/٣) .

(٧) لأن بني زهرة رجعوا لما علموا بنجاة القافلة .

(٨) انظر : العمرى ، أكرم ضياء ، المجتمع المدني في عصر النبوة : (٤٣) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

فقبل بداية الغزوة استشار النبي r أصحابه ، فقام أبو بكر ، فقال فأحسن ، ثم قام عمر كذلك ، ثم قام المقداد[١] فذكر نحو ذلك فقال : « والذي بعثك بالحق ، لو سلكت بنا برك الغماد[٢] لجاهدنا معك » ، فقال r : « أشيروا علي » ، فعرفوا أنه يريد الأنصار ، وكان يتخوف أن لا يوافقوه، لأنه لم يبايعوه إلا على نصرته ممن يقصده في المدينة ، لا أن يسير بهم إلى العدو، فقال له سعد بن معاذ[٣] : «امض يا رسول الله r لما أمرت به، فنحن معك»[٤].

وقد كانت غزوة بدر هي الجولة الأولى من جولات الحق في مواجهة الباطل ، ورد البغي والطغيان ، وإنقاذ المستضعفين من الرجال والنساء والولدان ، الذين قعد بهم الضعف في مكة وأخذوا في الضراعة إلى الله .

ولقد هيأ الله للمؤمنين في هذه الغزوة ظروفا ساعدتهم في كسب النصر، على قلة في عددهم وضعف عددهم ، وعلى عدم تهيئهم للقتال ، وبها عرف أنصار الباطل أنه مهما طال أمده ولمع برقه ، وامتد سلطانه ، وقويت شوكته ، فلا بد له من يوم يخر فيه صريعا أمام روعة الحق وقوة الإيمان، وهكذا كانت غزوة بدر ، كانت نصرا للمؤمنين وهزيمة للمشركين ، وكانت في الوقت نفسه حافزة للقلوب الحية المؤمنة أن يجد سيرها في طريق الهدى والرشاد ، وقاطعة للأمل على ذوي القلوب المريضة أن يستمر لهم سلطان أو تعلو لهم كلمة أو تثبت لهم قدم .

---

(١) هو : المقداد بن عمرو بن ثعلبة بن مالك ، المعروف بالمقداد بن الأسود . وإنما نسب إليه لأن المقداد حالفه فتبناه الأسود ، وهو قديم الإسلام من السابقين وهاجر إلى أرض الحبشة ، شهد بدرا وأحدا والمشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ومناقبه كثيرة ، مات سنة ثلاث وثلاثين . انظر : ابن حجر ، الإصابة : (٦/ ٢٠٢) .

(٢) بفتح الباء وقد تكسر ، وبكسر الغين المعجمة ، وقد تضم ، وهو موضع وراء مكة بخمس ليال مما يلي البحر ، وهو اليوم معروف بـ"البرك" بلدة مرفأ على الساحل ، جنوب مكة على قرابة (٦٠٠) كيلو ، بين حلي والقنفذة على الساحل الشرقي للبحر الأحمر ، ولها واد يسمى بهذا الاسم . انظر : ياقوت الحموي ، معجم البلدان : (١/ ٣٩٩) .

(٣) هو : سعد بن معاذ بن النعمان ، سيد الأوس ، يكنى أبا عمرو ، شهد بدرا ، ورمي بسهم يوم الخندق ، فعاش بعد ذلك شهرا حتى حكم في بني قريظة ، وأجيبت دعوته في ذلك ، ثم انتقض جرحه فمات ، قال النبي صلى الله عليه وسلم عند موته اهتز له عرش الرحمن . انظر : ابن حجر ، الإصابة : (٣/٨٤) .

(٤) أخرجه مسلم في كتاب الجهاد والسير ، باب غزوة بدر ، برقم : (١٧٧٩) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

وقد كان للمسلمين في تلك الغزوة شئون ، كان لهم في أولها حينما طلب إليهم الرسول أن يخرجوا لمصادرة العير القرشية شأن ، هو : أيخرجون طاعة للرسول ؟ أولا يخرجون ، حرصا على أموالهم في المدينة ؟ وكان لهم بعد أن خرجوا – ووجدوا العير قد مرت وفاتهم أن يحصلوا عليها– شأن ، هو : أيستجيبون للرسول ويقاتلون قوى الشرك التي تكتلت وخرجت من مكة لقتالهم ، أو يرجعون لأنهم لم يخرجوا للقتال ولم يستعدوا للنضال ؟ وكان لهم بعد أن أمدهم الله بروح من عنده – وأمكنهم من عدوهم القوي بالقتل والأسر والغنيمة – شأن : ففي الأسرى أيقتلونهم أم يطلقون سراحهم بالفداء ؟ وفي الغنائم التي حصلوا عليها : أيختص بها الشبان المحاربون أم يشاركهم فيها الحراس وأصحاب الرأي؟ (١).

ولذلك عندما انتهت تلك الغزوة الكبرى بنصرهم ، وأعلى الله شأنهم ، ونصرهم على عدوهم ، وقع اختلافهم فيما بعد ذلك من المغنم والأنفال التي غنموها من أعدائهم ، فزعم المشيخة من الصحابة أنهم لزموا الرايات فلم يبرحوها، وتقدم الشبان يريدون النفل، لأن النبي r وعدهم بأنه من قتل قتيلا فله سلبه (٢)، فأدبهم الله U بذلك بإنزال هذه السورة .

---

(١) انظر : شلتوت ، تفسير القرآن الكريم : (٣٩٩/١) .

(٢) سيأتي تخريج هذا الأثر وبعض الآثار الأخرى في مبحث (أسباب النزول الواردة في السورة) ، في الصفحة : (٧٥) وما بعدها .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

الفصل الثاني

المكي والمدني في سورة الأنفال ، ومناسبتها لما قبلهما وما بعدها ، واختصاص السورة بما اختصت به .

ويشتمل على ثلاثة مباحث :

المبحث الأول: المكي والمدني في سورة الأنفال .

المبحث الثاني : مناسبتها لما قبلها وما بعدها .

المبحث الثالث : اختصاص سورة الأنفال بما اختصت به .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

المبحث الأول

المكي والمدني في سورة الأنفال

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

تمهيد

كان القرآن الكريم قد أنزل على رسول الله r مفرقا ومنجما مدة ثلاث وعشرين سنة ، منها ثلاث عشرة سنة في مكة المكرمة قبل الهجرة ، ومنها عشر سنين في المدينة المنورة بعد الهجرة ، ولذا قسم العلماء - رحمهم الله - القرآن إلى قسمين : مكي و مدني .

وللعلماء في تعريف المكي والمدني اصطلاحات ثلاثة :

الاصطلاح الأول : أن المكي ما نزل بمكة ، ولو بعد الهجرة ، والمدني ما نزل بالمدينة .

الاصطلاح الثاني : أن المكي ما وقع خطابا لأهل مكة ، والمدني ما وقع خطابا لأهل المدينة .

الاصطلاح الثالث : أن المكي ما نزل قبل هجرته r إلى المدينة ، وإن كان نزوله بغير مكة، والمدني ما نزل بعد هذه الهجرة ، وإن كان نزوله بمكة .

وهذا التقسيم الأخير لوحظ فيه زمن النزول وهو تقسيم صحيح سليم ؛ لأنه ضابط حاصر ومطرد لا يختلف بخلاف سابقيه ، ولذلك اعتمده العلماء واشتهر بينهم [١].

ثم إن العمدة في معرفة المكي والمدني هو النقل الصحيح عن الصحابة الذين كانوا يشاهدون أحوال الوحي والتنزيل، والتابعين الآخذين عنهم، ولم يرد عن النبي r في ذلك قول[٢] .

ولمعرفة المكي والمدني فوائد : منها : تمييز الناسخ من المنسوخ ، ومنها : معرفة تاريخ التشريع وتدرجه الحكيم بوجه عام ، وذلك يترتب عليه الإيمان بسمو السياسة الإسلامية في تربية الشعوب والأفراد .

ومن فوائده أيضا : الثقة بهذا القرآن ، وبوصوله إلينا سالما من التغيير والتحريف ، ويدل على ذلك اهتمام المسلمين به كل هذا الاهتمام[٣].

---

(١) انظر : الزركشي ، البرهان : (١/ ١٨٧) ، الزرقاني : مناهل العرفان : (١/١٩٣-١٩٤) .

(٢) انظر : الزرقاني : مناهل العرفان : (١/١٩٦) .

(٣) الزركشي : البرهان في علوم القرآن : (١/١٩٥) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

المبحث الأول
المكي والمدني في سورة الأنفال

عند النظر في كلام أهل العلم حول مدنية سورة الأنفال ومكيتها وجدت أن أقوالهم يمكن تلخيصها في قولين :

القول الأول : أنها مدنية بجميع آياتها ، وهو قول جمهور العلماء ، قال ابن عطية : « هي مدنية كلها ، كذا قال أكثر الناس »[(١)] .

القول الثاني : أنها مدنية إلا قوله تعالى : ﴿ ` a b c d ﴾ والسبع الآيات التي بعدها ، وروي هذا القول عن ابن عباس وعكرمة[(٢)] ومجاهد[(٣)] [(٤)] .

القول الراجح : والذي يترجح من القولين هو ما ذهب إليه جمهور العلماء من أن هذه السورة مدنية بجميع آياتها وذلك للأسباب التالية :

أولا : نقل غير واحد من العلماء الإجماع على أن سورة الأنفال مدنية ، قال الفيروز آبادي: «اعلم أن هذه السورة مدنية بالإجماع »[(٥)]، ويقول البقاعي: « مدنية إجماعا نزلت في بدر»[(٦)].

---

(١) ابن عطية ، المحرر الوجيز : (٣/٨) .

(٢) عكرمة : هو العلامة ، الحافظ ، المفسر ، أبو عبد الله عكرمة بن عبد الله المدني القرشي بربري الأصل، مولى ابن عباس ، من كبار التابعين ، قال عنه النسائي : ثقة ، ووثّقه ابن معين وأبو حاتم والعجلي ، مات سنة خمس ومائة . انظر: الذهبي ، سير أعلام النبلاء : (٥/١٢-٣٦) ؛ وابن حجر ، تهذيب التهذيب : (٧ /٢٦٣-٢٧٣) .

(٣) مجاهد : هو شيخ القراء و المفسرين ، مجاهد بن جبر المكي أبو الحجاج ، روى عن ابن عباس فأكثر وأطاب ، وعنه أخذ القرآن والتفسير والفقه، توفي سنة مائة ، وقيل غير ذلك . انظر : الذهبي ، سير أعلام النّبلاء : (٤/٤٤٩) .

(٤) انظر : أثر عكرمة ومجاهد في تفسير الطبري (١٣/ ٥٠٢) برقم : (١٥٩٧٦) ، وإسنادهما ضعيف ؛ وفيهما ابن جريج وهو مدلس من الثالثة وقد عنعن ، انظر : ابن حجر ، التقريب : (٥٢٠/١) ، وطبقات المدلسين : (٩٥) .

قال الأستاذ أحمد شاكر في تعليقه على هذا الأثر في تفسير الطبري : (٥٠٢/١٣) : « والقطع بأن هذه الآية أو اللاتي تليها آيات نزلت بمكة أمر صعب لا يكاد المرء يطمئن إلى صوابه ، والاعتراض على ذلك له وجوه كثيرة لا محل لذكرها هنا » .

(٥) الفيروز آبادي ، بصائر ذوي التمييز : (٢٢٢/١) .

(٦) انظر : البقاعي ، مصاعد النظر في مقاصد السور : (١٤٤/٢) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

ثانيا : تضعيف العلماء لرواية ابن عباس وغيرها ، فقد قال الحافظ ابن حجر[١]: « فقد اتفقوا على أن الأنفال مدنية ، لكن قيل إن قوله تعالى : ﴿ ` a b c d ﴾ الآية نزلت بمكة ، ثم نزلت سورة الأنفال بالمدينة ، وهذا غريب جدا »[٢].

ثالثا : أنه يمكن أن يرد على دعوى مكية هذه الآية أن حديث الآية عن مكر قريش في العهد المكي لا يعني نزول الآية في ذلك الوقت ، فهناك كثير من الآيات المدنية تتحدث عن أمور كانت في مكة قبل الهجرة ، ففي هذه السورة نفسها نجد قول الله تبارك وتعالى : ﴿ ! " # $ % & ' ﴾ أليس هذا في العهد المكي ؟ والآية مدنية باتفاق أهل العلم .

قال ابن عطية مشيرا إلى هذا التوجيه : « ويحتمل عندي قول عكرمة ومجاهد : هذه مكية أن أشار إلى القصة لا إلى الآية » [٣].

ويمكن أن نخلص إلى أن هذه الآيات مدنية ، وحديثها عن أحداث وقعت في مكة لا يعني مكية الآيات ؛ إذ هي تذكر الرسول r بنعمة الله في الإنجاء من مكر القوم ، وتصف حال قريش في الماضي ، وأن القول بمكيتها قول يفتقد الدليل ، فكل ما اعتمد عليه يبدو أنه استنباط من معنى الآية ، وهو استنباط يحتاج إلى دليل .

---

(١) هو : أحمد بن علي العسقلاني الشهير بابن حجر، حافظ الإسلام في عصره ، صاحب التصانيف الشهيرة ، توفي سنة اثنتين وخمسين وثمانمائة : انظر : السخاوي ، محمد عبد الرحمن ، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، بيروت : دار مكتبة الحياة ، (٣٦/٢.) .

(٢) انظر : ابن حجر ، فتح الباري : (٤١/٩) .

(٣) ابن عطية ، المحرر الوجيز : (٤٧/٨) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

المبحث الثاني

مناسبة سورة الأنفال لما قبلها وما بعدها

ويشتمل على تمهيد ومطلبين :

تمهيد : تعريف المناسبة لغة واصطلاحا .

المطلب الأول : مناسبة سورة الأنفال لسورة الأعراف التي قبلها .

المطلب الثاني : مناسبة سورة الأنفال لسورة التوبة التي بعدها .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

تمهيد

أولا : تعريف المناسبة لغة :

قال ابن فارس في معجم مقاييس اللغة : « النون ، والسين ، والباء ، كلمة واحدة ، قياسها اتصال شيء بشيء ، منه النسب ، سمي لاتصاله ، وللاتصال به تقول: نسبْتُ أنْسب، وهو نسِيبُ فلان . والنسيب : الطريق المستقيم ، لاتصال بعضه من بعض »[(١)].

وفي لسان العرب : « تقول: ليس بينهما مُناسبة ، أي: مُشاكلة »[(٢)].

وفي مختار الصحاح:« فلان يناسب فلانا، فهو نسيبه ، وبينهما مناسبة، أي: مشاكلة»[(٣)].

وقال الزركشي : « والمناسبة في اللغة : المقاربة ، وفلان يناسب فلانا ، أي : يقرب منه ويشاكله ، ومنه النسيب الذي هو القريب المتصل كالأخوين وابن العم ونحوه وإن كانا متناسبين بمعنى رابط بينهما وهو القرابة ، ومنه المناسبة في العلة في باب القياس الوصف المقارب للحكم لأنه إذا حصلت مقاربته له ظن عند وجود ذلك الوصف وجود الحكم »[(٤)].

إذاً فالمناسبة في اللغة تعني : الاتصال ، والمقاربة ، والمماثلة .

ثانيا : تعريف المناسبة اصطلاحا :

قام البقاعي بتعريف المناسبة في الاصطلاح ، فقال : « علم تعرف منه علل ترتيب أجزائه، وهو سر البلاغة لأدائه إلى تحقيق مطابقة المعاني لما اقتضاه الحال ، وتتوقف الإجادة فيه على معرفة مقصود السورة المطلوب ذلك فيها ، ويفيد ذلك معرفة المقصود من جميع جملها »[(٥)].

ويقول مناع القطان[(٦)] في تعريفها : « وجه الارتباط بين الجملة والجملة في الآية الواحدة ، أو بين الآية والآية في الآيات المتعددة ، أو بين السورة والسورة »[(٧)].

---

(١) ابن فارس ، معجم مقاييس اللغة ، (٥/٤٢٣-٤٢٤) .

(٢) ابن منظور ، لسان العرب : (١/٦٨٢) .

(٣) الرازي ، زين الدين محمد بن أبي بكر ، مختار الصحاح : (٦٨٨) .

(٤) الزركشي ، البرهان في علوم القرآن : (١/٣٥) .

(٥) البقاعي : نظم الدرر : (١/٥) .

(٦) هو : الشيخ مناع خليل القطان ، من مواليد قرية شنشور بمحافظة المنوفية بمصر بتاريخ ١٣٤٥هـ ، شارك في كثير من الأنشطة العلمية والدعوية ، وله جهود في كثير من المجالات ، ومؤلفات في شتى الموضوعات ، توفي يوم الاثنين ، ٦/٤/١٤٢٠هـ ، وصلي عليه في مسجد الراجحي ، ودفن في مقابر النسيم بالرياض. انظر : موقع الشبكة الدعوية http://www.daawa-info.net/bio.php?id=92 .

(٧) القطان ، مباحث في علوم القرآن : (٩٢) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

المطلب الأول
مناسبة سورة الأنفال لسورة الأعراف التي قبلها

لا ريب أن فهم العلاقات التناسبية والروابط التناسقية بين سورة الأنفال والأعراف مما يعين على فهم أدق لجوهر السورة نفسها ، ويمكن أن نلحظ أن هناك وشائجا وتناسقا بينما وسأتناول ذلك من جانبين :

الجانب الأول : مناسبة فاتحة سورة الأنفال لخاتمة الأعراف :

أولا : ختم الله U سورة الأعراف بالأمر بذكره في جميع الحالات ﴿ وَٱذۡكُر ´ µ
¶ ¸ وَخِيفَةٗ وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ﴾[الأعراف:٢٠٥].
وذكر في مفتتح سورة الأنفال ، ما يحدثه ذكر الله عند المؤمنين من الآثار الحميدة ﴿ 7
8 9 : ; < = > ? @ A B C D E F
G H ﴾.

ثانيا : وفي هذه الآية أيضا إشارة إلى مناسبة أخرى وهي ما يحدثه سماع القرآن المأمور به في آية سورة الأعراف ، حيث قال تعالى : ﴿ © قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴾[الأعراف:٢٠٤] ، فهاتان مناسبتان واضحتان .

الجانب الثاني : مناسبة موضوعات السورتين :

أولا : سورة الأعراف في مضمونها الحديث عن قصص الأنبياء مع أقوامهم ، ومضمون سورة الأنفال في الحديث عن شيء من سيرة النبي العظيم مع قومه .

قال البقاعي : « ومناسبتها للأعراف أنه لما ذكر تعالى كما تقدم قصص الأنبياء عليهم السلام مع أممهم في تلك ، ناسب أن يذكر قصة هذا النبي الكريم r وعليهم مع قومه وأنه لما أطنب في قصة موسى عليه السلام كان ذلك ربما أوهم تفضيله على الجميع فأتى بقصة المخاطب بهذا القرآن في سورتين كاملتين ؛ الأنفال في أول أمره وأثنائه ، وبراءة في ختام أمره وانتهائه ، وفرق بين القصتين »(١).

---

(١) البقاعي ، نظم الدرر : (٣/١٨٢) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

ثانيا : لما قص سبحانه على نبيه r في سورة الأعراف أخبار الأمم ، وقطع المؤمنين من مجموع ذلك بأنه لا يكون الهدى إلا بسابقة السعادة لافتتاح السورة من ذكر الأشقياء بقصة إبليس وختمها بقصة بلعم[(١)] ، وكلاهما كفر على علم ، ولم ينفعه ما قد كان حصل عليه ، ونبه تعالى عباده على الباب الذي أتي منه على بلعم بقوله سبحانه : ﴿ { ~ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ﴾[الأعراف:١٧٦] ، فأشار I في هذه السورة إلى أن إتباع الأهواء أصل كل ضلال، ونبه المؤمنين على ما فيه من الحزم من ترك الأهواء جملة فقال تعالى : ﴿ " ! # % & ' (﴾[الأنفال:١] ، فكأنه قد قيل لهم : اتركوا ما ترون أنه حق واجب لكم ، وفوضوا في أمره لله ورسوله ، فذلك أسلم لكم وأحزم في ردع أغراضكم ، وقمع شهواتكم ، وترك أهوائكم [(٢)].

ثالثا : وأيضا لما فصل الله U في سورة الأعراف قصص آل فرعون وإغراقهم وما حل بهم، أجمل في سورة الأنفال ذكرهم فقال I : ﴿ 5 6 7 9 : ; = > ? @ A B C D F G H ﴾[الأنفال:٥٤].

رابعا : ولما أشار I في سورة الأعراف إلى سوء زعم الكفرة في القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿ n o p q r s t ﴾[الأعراف:٢٠٣]، صرح I بذلك في سورة الأنفال بقوله جل شأنه : ﴿ s t u v w x y z { | } ~ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٣١ ﴾.

---

(١) هو : بلعم ، ويقال: بلعام بن باعوراء ، ويقال: ابن باعر ، كان يسكن قرية من قرى البلقاء ، وكان مستجاب الدعوة ، دعا للجبارين على موسى وبني إسرائيل ، فاندلق لسانه ، فوقع على صدره ، وانسلخ من دينه . انظر : ابن عساكر ، تاريخ دمشق : (١٠/٤٠٠-٤٠٣) .

(٢) انظر : الغرناطي ، البرهان في تناسب سور القرآن : (١٠٣) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

المطلب الثاني

مناسبة سورة الأنفال لسورة التوبة التي بعدها

إن الصلة والمناسبة بين سورتي الأنفال والتوبة واضحة وجلية جدا ، ولعلّ من القرائن الدالة على ذلك ظن الصحابة أنهما سورة واحدة[١] .

قال ابن الزبير الثقفي : « اتصالها بالأنفال أوضح من أن يتكلف توجيهه ، حتى أن شدة المشابهة والالتئام – مع أن الشارع لم يكن بين انفصالهما- أوجب أن لا يفصل بينهما ﴿ ! " # $ ﴾ »[٢].

ويقول محمد رشيد رضا[٣] : « فهي كالمتممة لسورة الأنفال في معظم ما فيها من أصول الدين وفروعه والسنن الإلهية والتشريع » ، ويتجلى لنا هذا الاتصال وهذا التناسب من خلال الجوانب التالية :

الجانب الأول : مناسبة خاتمة الأنفال لفاتحة التوبة .

أولا : في خاتمة سورة الأنفال تحذير من المشركين وتمهيد للتبرؤ منهم، ودعوة لذلك ممن يخشى نقضه للعهود، قال تعالى :﴿ b c d e f g h i j k ﴾.

---

(١) وذلك في الأثر الذي أخرجه الإمام أحمد (١/٥٣٠) برقم : (٥٠٠) ، وأبو داود كتاب الصلاة ، باب من جهر بالبسملة ، برقم : (٧٨٦) ، والترمذي ، كتاب تفسير القرآن ، باب سورة التوبة ، برقم : (٣٠٨٦) المروي عن ابن عباس رضي الله عنهما في سؤاله عثمان بن عفان رضي الله عنه سبب جمعه بين سورتي الأنفال والتوبة ، من دون فصل بينهما بالبسملة ،. قلت : وهذا الحديث فيه ذكر سبب جمع عثمان بن عفان رضي الله عنه بين سورتي الأنفال وبراءة، من دون فصل بينهما بالبسملة ، وفيه قال : « فقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يبين لنا أنها منها ، فمن ثم قرنت بينهما ولم أكتب بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم» . ففي هذا الأثر إيهام بأن الخليفة قد تصرف -على الأقل- في ترتيب هاتين السورتين ، وقد رد كثير من علماء الحديث هذه الرواية ، وضعفوها من حيث الإسناد ، وذلك لدورانه في كل رواياته على الراوي يزيد الفارسي ، وقد ضعفه الشيخ الألباني ، وللشيخ أحمد شاكر كلام نفيس مطول في تحقيقه لهذا الحديث في مسند أحمد (١/٣٢٩-٣٣٠) وقد ضعفه أيضا .

(٢) الغرناطي ، البرهان في تناسب سور القرآن : (١٠٧) .

(٣) هو : محمد رشيد بن علي رضا القلموني ، البغدادي الأصل ، الحسيني النسب ، أحد رجال الإصلاح، من الكتاب، العلماء بالحديث والأدب والتاريخ والتفسير ، ولد ونشأ في القلمون ، ثم رحل إلى مصر سنة ١٣١٥هـ ، فلازم الشيخ محمد عبده وتتلمذ له ، واستقر بمصر إلى أن توفي فجأة في(سيارة) كان راجعا بها من السويس إلى القاهرة، ودفن بالقاهرة، أشهر آثاره مجلة (المنار) ، و (تفسير القرآن الكريم) ولم يكمله ، وغيرهما . انظر : الزركلي ، الأعلام : (٦/١٢٦) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

وجاءت فاتحة التوبة معلنة البراءة من المشركين ، ورد عهدهم بسبب غدرهم ، وذلك لأن من ينقض العهد ليس له إلا الحرب في الدنيا والآخرة ، يقول البقاعي: « ولما كانت مناسبة أولها الداعي إلى البراءة ممن يخشى نقضه للعهد لآخر الأنفال المبين لمن يصلح للولاية المختتم بشمول العلم ...وقدمت الأنفال مع قصرها على براءة مع طولها واشتباه أمرها على الصحابة في كونها سورة مستقلة أو بعض السورة كما قدمت آل عمران مع قصرها على النساء ... فكان ما ذكر من البراءة والتولي شرحًا لآخر الأنفال »[١] .

ثانيا : في ختام سورة الأنفال أمر بأن يوالي المؤمنين بعضهم بعضا ، وأن يكونوا منقطعين عن الكفار بالكلية،وصرح سبحانه في سورة التوبة[١] بقوله تعالى: ﴿ ! " # $ ﴾[٢].

الجانب الثاني : مناسبة فاتحة الأنفال لخاتمة التوبة .

جاء في فاتحة سورة الأنفال بيان زيادة إيمان المؤمنين عند سماعهم لتلاوة آيات الله تعالى ، قال تعالى : ﴿ ? @ A B C D ﴾[الأنفال:٢].

وفي ختام سورة التوبة جاء وصف زيادة إيمان المؤمنين الصادقين ، مع زيادة استبشارهم بوعد الله ، قال الله تعالى : ﴿ 3 4 5 6 7 8 9 : ; < = ﴿ ? @ A B C D E ﴾[التوبة :١٢٤] .

الجانب الثالث : مناسبة موضوعات السورتين .

أولا : أن الأنفال تضمنت الأمر بالقتال في سبيل الله : ﴿ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ © ﴾ وترك مهادنة الكفار ، وبينت أحكام الفرار من الزحف ، وحكم النسبة المطلوبة فيها بالثبوت ، ولحوق التأثيم للكفار ، وأنها على الضعف ، وحكم المغانم ، وحكم الأسرى ، وحكم ولاية المؤمنين ، ومن يدخل تحت هذه الولاية ، ومن يخرج عنها .

---

(١) البقاعي ، نظم الدرر : (٢٥٨/٣) .
(٢) انظر : الألوسي : روح المعاني ، (١٦١-١٦٩/١٠).

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

وجاء في سورة التوبة من عهد إليه من المشركين ، والبراءة منهم ، إذا لم يوفوا ، وحكم من استجار منهم إلى ما يتعلق بهذا أو كله باب واحد ، وأحكام متواردة على قضية واحدة ، وهو تحرير حكم المخالف ، فالتحمت السورتان أعظم التحام [(١)].

ثانيا : تناولت سورة الأنفال موضوع الجهاد وبيان فضله على المجاهدين فيه، ودعوة العباد للجهاد لإحقاق الحق ودمغ الباطل، قال تعالى : ﴿ v w x y z { | } ~ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ © بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ ´ µ ¶ ¸ ﴾ .

وفي سورة التوبة يأمر عباده المؤمنين بقتال الكافرين وجهادهم، لإبطال باطلهم ليعذبهم ويخزيهم، ويشف صدور المؤمنين قال الله تعالى: ﴿ ! " # $ % & ' ( ) * + ﴾ [التوبة :١٤] .

ثالثا : تحدثت سورة الأنفال عن صد المشركين عن المسجد الحرام ، وبينت بعض العبادات التي كانوا يقومون بها عند المسجد ، قال الله تعالى : ﴿ ! " # $ % & ' ( ) * + , - . / 0 1 2 3 4 5 6 7 8 9 : ; < = > ? A B C D E F ﴾. وفي التوبة جاء بيان من يستحق عمارة المسجد الحرام ، قال تعالى : ﴿ i j k l m n o p q r s t u v w x y { | } ~ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴾[التوبة:١٨].

رابعا : في سورة الأنفال ترغيب بالإنفاق والصدقات فقال : ﴿ I J K L M N O ﴾ ، وقال تعالى : ﴿..وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ ، وبيان لقسمة الغنائم وتحديد لمصارف الخمس منها ، قال

---

(١) انظر : الغرناطي ، البرهان في تناسب سور القرآن : (١٠٧).

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

تعالى: ﴿ " # $ % & ' ( ) * + , - .
/ 0 1 2 3 4 5 6 7 8 9 : ; < = ?
@ A B C D ﴾ ، وفي سورة التوبة حديث عن فريضة الزكاة وتحديد لمصارفها
الثمانية ، فقال تعالى: ﴿ q r s t u v w x
y z { | } ~ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ
© ﴾ [التوبة :٦٠].

خامسا : في" الأنفال"ذكر العهود ، وفي "براءة" نبذ العهود ، إلا إن سورة الأنفال تناولت العهود بأن يأخذ المسلمون حذرهم في معاملة المشركين وعهودهم ، فقال : ﴿ U V W X Y Z [\ ] ^ _ ` a ﴾ ، وأمر بنبذ عهدهم إذا ما لاحظ المسلمون خيانة من المشركين ، فقال : ﴿ m n o p q r s t u w x y z { | ﴾ ، وفي" التوبة "أمر بالوفاء الكامل للمشركين المعاهدين الذين حافظوا على عهودهم فلم ينقصوه أو ينقضوه فقال تعالى: ﴿ ` a b c d e f g h i j k l m n o p q s t u v w [التوبة :٤] ، ثم أمر برد عهودهم إذا ما حاولوا الإخلال بها ، فقال تعالى :
﴿ ! " # $ % & ' ( ) * + , - . 0 1 2 3 4 6 7 8 9 ﴾ [التوبة :٧] .

سادسا : تناولت" الأنفال "موضوع المنافقين والذين في قلوبهم مرض بآية واحدة، فقال:
﴿k l m n o p q r s t v w x y z { | } ~ ﴾ ، وفي" التوبة" فصل جلّ في علاه بإسهاب معظم صفاتهم التي يتصفون بها .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

سابعا : أن في سورة الأنفال أمرا بالإعداد في سبيل الله فقال I : ﴿ وَأَعِدُّواْ © مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ ﴾[الأنفال:٦٠] وفي سورة التوبة [٤٦] نعي على المنافقين بعدم الإعداد فقال تعالى: ﴿ y z { | } ~ ﴾.

ثامنا : تناولت" الأنفال" الفتنة ، بمعنى : البلاء والعذاب ، فقال تعالى ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٢٥ ﴾، يقول البقاعي: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ ﴾ « أي: بلاء مميلا محيلا » ، وتناولت كذلك موضوع الفتنة بمعنى الشرك والكفر، قال الله تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ © وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ ´ µ ¶ ¸ ﴾ ، ومعنى الفتنة هنا : هو الشرك والكفر . ويدل عليه قوله تعالى : ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ . وتناولت سورة التوبة الفتنة بمعنى البلاء ، قال الله تعالى: ﴿... ´ µ ¶ ¸ لَهُمۡ﴾[التوبة:٤٧] ، والمعنى : يطلبون فيكم الشر والفساد والذلة ، ومن هذه التفاسير ، تتبين لنا خطورة الفتنة بتعدد معانيها المهلكة ، ولذلك حذّر الله تعالى منها ، وحذّر المؤمنين أن تكون مقصدًا لهم من أي طريق لها.

والخلاصة فإن سورة الأنفال جاءت مجملة لعدد من الأحكام والأوامر التي فصلتها سورة التوبة ، فمن تلك الأحكام ، العهود ، فقد جاءت في سورة الأنفال بدون تفصيل ، وافتتحت سورة التوبة بتفصيل الكلام فيها ، وذكر في الأنفال الترغيب في إنفاق المال في سبيل الله ، وجاء ذلك بأبلغ وجه في براءة ، وجاء أيضا في سورة الأنفال ذكر المنافقين والذين في قلوبهم مرض ، وفصل ذلك في التوبة أتم تفصيل [١].

(١) انظر : تفسير المراغي : (٢/١٦٢، ١٦٣) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

المبحث الثالث

اختصاص سورة الأنفال بما اختصت به

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

المبحث الثالث

اختصاص سورة الأنفال بما اختصت به

لقد اختصت سورة الأنفال من بين سائر سور القرآن الكريم بعدد من الموضوعات والجمل والألفاظ .

أولا : أبرز ما اختصت به سورة الأنفال من موضوعات ، ما يلي :

- **أن سورة الأنفال اختصت بالحديث عن بدر تفصيلا .**

- **أبرزت هذه السورة أسباب التنازع ، وبينت عاقبته** ، قال تعالى : ﴿ ! " # $ % & ' (.....0 ﴾ .

- **الأمر بالثبات في القتال ، وبيان مواطن جواز الفرار** . قال تعالى: ﴿ © ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ´ µ ¶ ¸ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفٗا لِّقِتَالٍ أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ .....١٦ ﴾.

- **الحديث عن قتل الله للكفار** . قال تعالى: ﴿ ! " # $ % ...9 ﴾.

- **التذكير بحال ضعف المؤمنين والتذكير بالتمكين** . قال تعالى: ﴿ ! " # $ % & ' ( ) * + , - . / 0 1 2 3 4 ﴾.

- **التذكير بمكر الكفار بالنبي صلى الله عليه وسلم** . قال تعالى: ﴿ ` a b c d e f g h i j k l m o p q r ﴾.

- **الحديث عن عبادات المشركين وصلاتهم عند البيت** . قال تعالى: ﴿ 8 9 : ; < = > ? A B C D E F ﴾.

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

- **الحديث عن الغنائم وقسمتها** . قال تعالى: ﴿ " # $ % & ' ( ) * + , - . / 0 .... D ﴾.

- **بيان رؤية النبي صلى الله عليه وسلم المشركين الرؤيا المنامية ، وهم في قلة** . قال تعالى: ﴿ l m n o p q s t u v w x y z { | ~ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾.

- **ذكر تزيين الشيطان للمشركين أعمالهم وقتالهم للمؤمنين** ، قال تعالى: ﴿ D E F G H I J K L M N O P Q R ...... j ﴾.

- **الأمر بإعداد القوة ، وكيفية الجنوح للسلم** . قال تعالى : ﴿وَأَعِدُّواْ © مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ ´ µ ¶ ....﴿٦٠﴾ ﴾ .

- **الحديث عن كيفية معاملة الأسرى** ، قال تعالى: ﴿ ! " # $ % & ' ( ) * + , - . / 0 1 2 3 4 5..... : ﴾.

ثانيا : ومن أبرز ما اختصت به سورة الأنفال من جمل وألفاظ ما يلي :

- **ذكر لفظة الأنفال** ، قال تعالى : ﴿ ! " # % & ' (...6 ﴾.
- **جملة (ذات الشوكة)**. قال تعالى: ﴿ { ~ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ ﴾ .
- **جملة (دابر الكافرين)** . قال تعالى : ﴿...وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ ﴾.
- **لفظة (مردفين)** . قال تعالى : ﴿... ( ) * + , ﴾.
- **جملة (يغشيكم النعاس)** . قال تعالى : ﴿ B C D E F ... X ﴾.
- **لفظة (زحفا)** . قال تعالى: ﴿ © ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا ... µ ﴾.
- **لفظتي (متحرفا ومتحيزا)** . قال تعالى : ﴿ ¶ ¸ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفٗا لِّقِتَالٍ أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ ...﴿١٦﴾ ﴾.

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

- **لفظتي (رميت) و(رمى)** . قال تعالى : ﴿ ! " # $ % ' ( ) * + , - ..... 9 ﴾.

- **جملة (إن تستفتحوا)** . قال تعالى : ﴿ A B C D E .... [﴾.

- **جملة (يحول بين المرء وقلبه)** . قال تعالى : ﴿... أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

- **لفظتى (مكاء وتصدية)** ، قال تعالى : ﴿ 8 9 : ; < = > ? .... F ﴾.

- **جملة (فيركمه جميعا)** . قال تعالى : ﴿... i j k l m ... r ﴾.

- **جملة (يوم الفرقان)** . قال تعالى : ﴿... 5 6 7 8 9 : ... D ﴾.

- **جملة العدوة الدنيا والعدوة القصوى** ، قال تعالى : ﴿E F G H I J K L M N ... k ﴾.

- **لفظة (فانبذ)** ، قال تعالى : ﴿ m n o p q r s t u ... | ﴾.

- **جملة (رباط الخيل)** ، قال تعالى : ﴿وَأَعِدُّواْ © مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ ...﴿٦٠﴾ ﴾.

- **جملة (ترهبون به)** قال تعالى : ﴿تُرْهِبُونَ بِهِۦ ´ µ ¶ ...﴿٦٠﴾ ﴾.

- **جملة (جنحوا للسلم فاجنح لها)**. قال تعالى : ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا....﴿٦١﴾ ﴾.

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

الفصل الثالث

أسباب النزول الواردة في سورة الأنفال ، ومقاصد السورة وأهدافها

ويشتمل على مبحثين :

المبحث الأول : أسباب النزول الواردة في سورة الأنفال .

المبحث الثاني : مقاصد سورة الأنفال وأهدافها .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

المبحث الأول

أسباب النزول الواردة في سورة الأنفال

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

تمهيد

أولا : التعريف بأسباب النزول لغة :

السبب في اللغة : هو الحبل الذي يصعد به إلى الشيء ، وقد جعل عبارة عن كل شيء يتوصل به إلى غيره عينا كان أو معنى(١).

النزول في اللغة : هو الهبوط من أعلى إلى أسفل(٢)، وهذا المعنى هو المراد بالنزول الذي يوصف به القرآن الكريم بخلاف ما ذهب إليه بعض أهل الأهواء والبدع من أن هذا المعنى لا يليق بنزول القرآن على وجه الحقيقة لاقتضائه الجسمية والمكانية والانتقال(٣).

ثانيا : التعريف بأسباب النزول اصطلاحا :

أ) تعريف الإمام السيوطي : «والذي يتحرر في سبب النزول أنه ما نزلت الآية أيام وقوعه»(٤).

ب) تعريف الدكتور مناع القطان : « ما نزل قرآن بشأنه وقت وقوعه كحادثة أو سؤال »(٥).

ثالثا : فوائد معرفة أسباب النزول : ولمعرفة أسباب النزول فوائد كثيرة أجملها فيما يأتي :

١- معرفة وجه الحكمة الباعثة على تشريع الحكم .

٢- تخصيص الحكم به عند من يرى أن العبرة بخصوص السبب .

٣- أن اللفظ قد يكون عاما ، ويقوم الدليل على تخصيصه ، فإذا عرف السبب قصر التخصيص على ما عدا صورته، فإن دخول صورة السبب قطعي ، وإخراجها بالاجتهاد ممنوع.

٤- الوقوف على المعنى ، وإزالة الإشكال ودفع توهم الحصر .

٥- معرفة اسم من نزلت فيه الآية ، وتعيين المبهم فيها .

٦- تثبيت الوحي وتيسير الحفظ والفهم ، وتأكيد الحكم في ذهن من يسمع الآية إذا عرف سببها (٦).

---

(١) انظر : الراغب ، المفردات في غريب القرآن : (٣٩١) ، والفيروز آبادي ، القاموس المحيط : (٤٦٨/٢) .

(٢) انظر : الراغب ، المفردات في غريب القرآن : (٧٩٩) ، وابن فارس ، معجم مقاييس اللغة : (٥/ ٤١٧) .

(٣) ينظر في هذه المسألة : ابن قدامة ، عبد الله بن أحمد المقدسي ، إثبات صفة العلو ، الطبعة الأولى ، تحقيق : بدر عبد الله البدر : الكويت : الدار السلفية ، ١٤٠٦هـ (٨٦-٨٧) ؛ وابن القيم ، اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية ، الطبعة الأولى ، بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م ، (١٨١-١٨٤) .

(٤) السيوطي ، الإتقان (١٠١/١) .

(٥) القطان ، مباحث في علوم القرآن : (٧٨) .

(٦) انظر:الزركشي،البرهان في علوم القرآن(٢٢/١)، والسيوطي، الإتقان: (٢٩/١)، والزرقاني، مناهل العرفان:(١٠٦/١).

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

المبحث الأول

أسباب النزول الواردة في السورة

أولا : سبب نزول السورة :

عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال : « نزلت في أربع آيات . أصبت سيفا فأتى النبي r فقال : يا رسول الله نفلنيه[١]. فقال : ضعه ، ثم قام ، فقال له النبي r : ضعه من حيث أخذته ، ثم قام ، فقال : نفلنيه يا رسول الله فقال : ضعه ، فقام . فقال : يا رسول الله نفلنيه، أأجعل كمن لا غناء له ؟ فقال له النبي r : ضعه من حيث أخذته ، قال: فنزلت هذه الآية: ﴿ ! " # %| & ' (|﴾ »[٢].

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال : « خرجنا مع النبي r فشهدت معه بدرا فالتقى الناس فهزم الله تبارك وتعالى العدو فانطلقت طائفة في آثارهم يهزمون ويقتلون فأكبت[٣]طائفة على العسكر يحوونه[٤]ويحمونه وأحدقت طائفة برسول الله r لا يصيب العدو منه غرة[٥]حتى إذا كان الليل وفاء[٦]الناس بعضهم إلى بعض قال الذين جمعوا الغنائم نحن حويناها وجمعنا ها فليس لأحد فيها نصيب ، وقال الذين خرجوا في طلب العدو لستم بأحق بها منا نحن نفينا[٧]عنها العدو وهزمناهم ، وقال الذين أحدقوا برسول الله r لستم بأحق بها منا نحن أحدقنا برسول الله r وخفنا أن يصيب العدو منه غرة ، واشتغلنا به فنزلت : ﴿ ! " #| % & ' (| * + , - . |﴾ فقسمها رسول الله r

---

(١) النفل : بالتحريك الغنيمة ، وجمعه أنفا ل. والنفل بالسكون وقد يحرك الزيادة . النهاية (٥/ ٩٩) مادة (نفل) .

(٢) أخرجه مسلم ،كتاب الجهاد والسير ، (١٣٦٨/٣،١٣٦٧) برقم : (١٧٤٨) ، وأحمد في المسند (١١٧/٣) رقم (١٥٣٨)، وانظر رقم (١٦١٤،١٥٦٧،١٥٥٦) ، وأبو داود ، كتاب الجهاد ،باب في النفل (١٧٧/٣) رقم (٢٧٤٠)، والترمذي ، أبواب تفسير القرآن ، باب ومن سورة الأنفال (١٦١/٥) رقم (٣٠٦٩)، والنسائي في الكبرى ، كتاب التفسير ، برقم : (١١١٩٦).

(٣) أكبت : يكب الرجل على عمل إذا لزمه . النهاية (١٣٨/٤) مادة (كب) .

(٤) حوى : أي خم وجمع . انظر : المصدر السابق : (٤٦٥/١) مادة (حوا) .

(٥) غرة : أي غفلة . انظر : المصدر السابق : (٣٥٥/٣) مادة (غرر) .

(٦) فاء : أي رجع وأصل الفيء الرجوع . انظر : المصدر السابق : (٤٨٢/٣) مادة (فيأ).

(٧) نفي : النفي هو الطرد والإبعاد . انظر : المصدر السابق : (١٠١/٥) مادة (نفا).

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

على فواق[١] بين المسلمين قال : وكان رسول الله r إذا أغار في أرض العدو نفل الربع ، وإذا أقبل راجعا وكل الناس نفل الثلث ، وكان يكره الأنفال ويقول ليرد قوي المؤمنين على ضعيفهم»[٢].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال : قال رسول الله r يوم بدر: « من فعل كذا وكذا فله من النفل كذا وكذا ، قال : فتقدم الفتيان ، ولزم المشيخة الرايات فلم يبرحوها[٣]، فلما فتح الله عليهم قال المشيخة كنا ردءا[٤] لكم لو انهزمتم لفئتم إلينا ، فلا تذهبوا بالمغنم ونبقى فأبى الفتيان وقالوا : جعله رسول الله r لنا فأنزل الله : ﴿ ! " # $ % & ' ( ) * + , - . ﴾ إلى قوله ﴿] ^ _ ` a b c d e f g ﴾ يقول : فكان ذلك خيرا لهم فكذلك أيضا فأطيعوني فإني أعلم بعاقبة هذا منكم » [٥].

---

(١) فواق : أي قسمها في قدر فواق ناقة ، وهو مابين الحلبتين من الراحة ، وقيل : أراد التفضيل في القسمة كأنه جعل بعضهم أفوق من بعض على قدر غنائهم وبلائهم . انظر : المصدر السابق : (٤٧٩/٣) مادة (فواق) .

(٢) أخرجه أحمد في المسند : (٤٢١/٣٧، ٤٢٢) عن معاوية بن عمرو ، برقم : (٢٢٧٦٢) ؛ والنسائي ، في السنن الكبرى : (١٤٩/٧) ، برقم : (٤١٤٩) من طريق محبوب بن موسى . كلاهما (محبوب ، ومعاوية) عن أبي إسحاق الفزاري ، وأخرجه الترمذي ، في السنن : (١٥٦١) ، والحديث مداره على عبد الرحمن بن الحارث ، فقد ضعفه ابن المديني ، والنسائي ، وقال عنه الإمام أحمد : متروك ، وقال أبو حاتم : شيخ ، وقال ابن معين : ليس به بأس ، انظر ابن حجر، التهذيب : (١٤١/٦-١٤٢)، وفي إسناده سليمان بن موسى الأشدق (صدوق في حديثه بعض لين، وخولط قبل وفاته بقليل)، انظر: ابن حجر، التقريب: (٢٦١٦)، وقد قال عنه البخاري حينما سأله الترمذي عنه كما في العلل الكبير: (٢٥٧/١)، قال : لا يصح هذا الحديث ، إنما روى هذا الحديث داود بن عمرو عن أبي سلام عن النبي r مرسلا .

(٣) برح مكانه : أي زال عنه . انظر : ابن منظور ، لسان العرب : (٤٠٨/٢) مادة (برح) .

(٤) الردء : هو العون والناصر . ابن الأثير ، النهاية : (٢١٣/٢) مادة (ردأ) .

(٥) أخرجه أبو داود ، كتاب الجهاد ، باب في النفل : (١٧٥/٣،١٧٦) ، برقم : (٢٧٣٧) ، والحاكم في المستدرك (١٣١٩/٢) من طريق خالد بن عبد الله الواسطي ، وفي (٢٧٣٨) من طريق هشيم بن بشير ، وفي (٢٧٣٩) من طريق يحيى بن زكريا بن أبي زائدة، والنسائي في الكبرى ، كتاب التفسير ، (٣٤٩/٦) برقم : (١١١٩٧)، وابن حبان (٤٩٠/١١) برقم : (٥٠٩٣) . وهو صحيح الإسناد كما قاله ابن حبان والحاكم .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

هكذا جاء في سبب نزول هذه الآيات الكريمة ، وقد أورد المفسرون هذه الأسباب عند تفسيرها كالطبري ، والبغوي(١) ، وابن العربي(٢) ، وابن عطية ، والقرطبي(٣) ، وابن كثير ، وابن عاشور ، والواحدي(٤) ، والسيوطي ، في أسباب النزول (٥).

فأما حديث عبادة بن الصامت السابق فقد قال عنه البخاري : لا يثبت ، كما تقدم ذلك في دراسة إسناده(٦).

فيبقى النظر حينئذ في حديثي سعد بن أبي وقاص وابن عباس ، فحديث سعد ذكر فيه أن الآية نزلت فيه، وحديث ابن عباس ذكر أن الآية نزلت في اختلاف الصحابة في المغنم يوم بدر.

فأما حديث سعد فيعضده أمور :

أ- أن أحد رواته الإمام مسلم .

ب- أن سعدا صاحب القصة ، وصاحب القصة غالبا أعلم بها من غيره .

جـ - أن سعدا كان يصرح بنزول أربع آيات فيه ، هذه الآية إحداها .

وأما حديث ابن عباس فيؤيده لفظ الآية ، فإن الله تعالى قال في كتابه : ﴿ ! ﴾ ولم يقع في حديث سعد رضي الله عنه سؤال .

---

(١) هو : الحسين بن مسعود بن محمد العلامة أبو محمد البغوي الفقيه الشافعي، وكان من العلماء الكبار العابدين كان إماماً في التفسير والحديث والفقه، توفي سنة ستة عشرة وخمسمائة . انظر : الذهبي ، سير أعلام النبلاء : (٤٣٩/١٩) .

(٢) هو : القاضي أبو بكر ، محمد بن عبد الله العربي الأندلسي المالكي، صاحب التصانيف ، توفي بفاس سنة ثلاثٍ وأربعين وخمسمائة . انظر : الذهبي ، سير أعلام النبلاء : (١٩٧/٢٠) .

(٣) هو : محمد بن أحمد الأنصاري ، المفسر صاحب الجامع ، له تصانيف كثيرة ، ومن أشهر كتبه : الجامع لأحكام القرآن ، توفي سنة إحدى وسبعين وستمائة ، انظر : فرحون ، لأبي إسحاق إبراهيم بن علي المالكي ، الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب ، تحقيق : محمد الأحمدي أبو النور ، القاهرة : دار التراث للطبع والنشر ، (٣٠٨/٢) .

(٤) هو : علي بن أحمد بن محمد الواحدي النيسابوري ، إمام في العربية والتفسير ، صاحب البسيط والوسيط والوجيز في التفسير ، توفي سنة : ثمانٍ وستين وأربعمائة . انظر : سير أعلام النبلاء (٣٣٩/١٨).

(٥) انظر : الطبري ، جامع البيان : (١٧١/٩-١٧٥) ؛ البغوي ، معالم التنزيل : (٢٢٧/٢-٢٢٨) ؛ وابن العربي ، أحكام القرآن : (٨٣٤/٢) ؛ وابن عطية ، المحرر الوجيز : (٦/٨) ، والقرطبي ، الجامع لأحكام القرآن : (٣٦٠/٧) ؛ وابن كثير ، تفسير القرآن العظيم : (٢٨٣/٢-٢٨٤) ، وابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٢٤٨/٩) والواحدي ، أسباب النزول : (٢٠٤/٤) ، والسيوطي ، لباب النقول : (٣١٧/٧).

(٦) تقدم تخريجه في الصفحة السابقة (٧٦) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

ولهذا قال ابن المزين[١] عن حديث سعد : « يقتضي أن يكون ثم سؤال عن حكم الأنفال، ولم يكن هنالك سؤال عن ذلك على ما يقتضيه هذا الحديث ، وقال بعضهم: إن (عن) بمعنى (من) لأنه إنما سأل شيئا معينا وهو السيف وهو من الأنفال »[٢].

والذي يظهر أن سبب نزول الآيات الكريمة حديث ابن عباس رضي الله عنهما في اختلاف الصحابة وتنازعهم يوم بدر في الغنائم ، وذلك لصحة سنده ، وموافقته لسياق القرآن ، واعتماد جمهور العلماء عليه كما قال الشنقيطي[٣]، والله تعالى أعلم[٤] .

ثانيا : **سبب نزول الآية التاسعة** :

قال الله تعالى: ﴿ ! " # $ % & ' ( ) * + , ﴾.

فعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: حدثني عمر بن الخطاب قال : « لما كان يوم بدر، نظر رسول الله r إلى المشركين وهم ألف ، وأصحابه ثلاثمائة وتسعة عشر رجلا ، فاستقبل نبي الله r القبلة ثم مد يديه فجعل يهتف[٥]بربه « اللهم أنجز لي ما وعدتني ، اللهم آت ما وعدتني ، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض » فما زال يهتف بربه ، مادا يديه ، مستقبل القبلة، حتى سقط رداؤه عن منكبيه[٦]، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فألقاه على

---

(١) هو : أحمد بن عمر بن إبراهيم ، أبو العباس الأنصاري القرطبي ، فقيه مالكي ، من رجال الحديث ، يعرف بابن المزين ، كان مدرسا بالاسكندرية وتوفي بها ، ومولده بقرطبة ، من كتبه : (المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم) توفي سنة ٦٥٦هـ ، انظر : الزركلي ، الأعلام : (١/١٨٦) .

(٢) ابن المزين ، المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم ، الطبعة الأولى ، بتحقيق : محي الدين ديب مستو - أحمد محمد السيد - يوسف علي بديوي - محمود إبراهيم بزال ، دمشق : دار ابن كثير ، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م : (٣/٥٣٥) .

(٣) هو : محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي ، ولد في تَنْبة بموريتانيا ، قدم من بلاده للحج وبقي في السعودية ، واشتغل بالتدريس والفتيا ، كان عضواً في هيئة كبار العلماء بالسعودية ، له عدة مصنفات أشهرها أضواء البيان . توفي سنة ١٣٩٣هـ. انظر : مقال عطية محمد سالم ، مع صاحب الفضيلة والدنا الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله ، مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ، السنة السادسة- العدد الثالث، رجب ١٣٩٤هـ ، (٢٨) وما بعدها .

(٤) انظر : الشنقيطي ، أضواء البيان : (٢/٣٦٥) .

(٥) يهتف : أي يدعوه ويناشده . انظر: ابن الأثير ، النهاية في غريب الحديث والأثر : (٥/٢٤٣) مادة (هتف) .

(٦) المنكب : مابين الكتف والعنق . انظر: ابن الأثير ، النهاية : (٥/١١٣) مادة (نكب).

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

منكبيه ، ثم التزمه[1]من ورائه وقال : يا نبي الله كفاك[2]مناشدتك[3]ربك فإنه سينجز لك ما وعدك ، فأنزل الله U ﴿ ! " # $ % & ' ( ) * + ﴾ فأمده الله بالملائكة[4].

هكذا جاء في سبب نزول هذه الآية الكريمة . وقد أورد بعض المفسرين هذا الحديث في سبب نزول هذه الآية منهم الطبري ، والبغوي ، والقرطبي ، وابن كثير ، وابن عاشور[5].

وهذا الحديث سبب لنزول الآية الكريمة لصحة إسناده ، وتصريحه بالنزول ، وموافقته لسياق القرآن ، واعتماده عند المفسرين ، والله أعلم .

ثالثا : **سبب نزول الآية التاسعة عشر** :

قال الله تعالى : ﴿ A B C D E G H I J K M N O P Q R S T U V W X Y Z [﴾.

عن عبد الله بن ثعلبة بن صعير[6] قال : « كان المستفتح يوم بدر أبو جهل ، وإنه قال حين التقى القوم : اللهم أينا كان أقطع للرحم ، وآتى لما لا نعرف فافتح[7]الغد ، وكان ذلك استفتاحه فأنزل الله : ﴿ A B C D E ﴾[8].

---

(١) الالتزام : الاعتناق . انظر : ابن منظور ، لسان العرب : (١٢/ ٥٤٢)) مادة (لزم).

(٢) كذاك : أي حسبك الدعاء . انظر: ابن الأثير ، النهاية : (١٦١/٤) مادة (كفى) .

(٣) المناشدة : الطلب والسؤال وهو من النشيد أي رفع الصوت ، انظر : ابن الأثير ، النهاية : (٥٣/٥) مادة (نشد).

(٤) أخرجه مسلم ، كتاب الجهاد والسير ، باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر ،برقم : (١٧٦٣)، وأحمد في المسند (٣٣٤/١) برقم: (٢٠٨) والترمذي، أبواب تفسير القرآن ، باب ومن سورة الأنفال:(١٦٢/٥،١٦٣) برقم:(٣٠٨١ ٠).

(٥) انظر : الطبري ، جامع البيان : (٤٠٩/١٣) ؛ والبغوي ، معالم التنزيل : (٣/ ٣٣٢) ، والقرطبي ، الجامع لأحكام القرآن : (٣٧٠/٧) ، وابن كثير ، تفسير القرآن العظيم : (٢٨٩/٢) ، وابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٢٧٤/٩) .

(٦) هو عبد الله بن ثعلبة بن صعير ، رأى النبي صلى الله عليه وسلم وهو صغير ، يقال : أنه ولد قبل الهجرة ، ويقال: بعدها ، مسح النبي صلى الله عليه وسلم وجهه ورأسه عام الفتح ودعا له ، مات سنة سبع أو تسع وثمانين ، وله ثلاث وثمانون سنة ، وقيل : تسعون ، وقيل : غير ذلك . انظر : ابن حجر ، الإصابة : (٣١/٤) .

(٧) أي أنصر واحكم . انظر: ابن الأثير ، النهاية : (٤٠٧/٣) مادة (فتح) .

(٨) أخرجه النسائي في الكبرى ،كتاب التفسير ، قوله تعالى : ﴿إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح ﴾ (٣٥٠/٦) . رقم (١١٢٠١) ، والحاكم ، في المستدرك : (٣٢٨/٢) من طريق صالح بن كيسان ، وقال : " هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ، ولم يخرجاه " ، ووافقه الذهبي .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

هكذا جاء في سبب نزول الآية الكريمة ، وقد أورد جمهور المفسرين هذا الأثر منهم الطبري والبغوي وابن عطية والقرطبي وابن كثير والشنقيطي وابن عاشور والسيوطي والواحدي[١].

والذي يظهر أن هذا الأثر مرسل من صحابي صغير ، له رؤية ، ولم يثبت له سماع[٢] ، ولم يدرك واقعة بدر ، ولهذا اختلف العلماء في المخاطبين بهذه الآية ، وسيأتي مزيد بيان عند الحديث عن التناسق الموضوعي فيها[٣] .

رابعا : سبب نزول الآيات الثاني والثلاثون إلى الرابع والثلاثون :

قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالُوا © إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا ´ µ ¶ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ ! " # $ % & ' ( ) * + , - . / 0 1 2 3 4 5 6 7 ﴾.

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال أبو جهل : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ، فنزلت : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ ! " # $ % & ' ( ) * + , - . / 0 1 2 3 4 5 6 7 ﴾[٤].

هكذا جاء في سبب نزول هذه الآية الكريمة ، وقد أورد جمهور المفسرين هذا الحديث ، لكنهم مع ذلك مختلفون فيه ، فمنهم من يذكر نزول الآية بسبب هذا القول ، ومنهم من

---

(١) انظر : الطبري ، جامع البيان : (١٣/ ٤٥٢) ؛ والبغوي ، معالم التنزيل : (٣/٣٤٧) ، والقرطبي ، الجامع لأحكام القرآن : (٧/٣٨٦-٣٨٧) ، وابن كثير ، تفسير القرآن العظيم : (٢/٢٩٦) ، وابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٩/٢٩٨) ، والشنقيطي، أضواء البيان : (٢/٣٤٧) ، والواحدي ، أسباب النزول: (٤/٢٠٩)؛ والسيوطي، لباب النقول: (٧/٣٢٤) .

(٢) انظر : ابن حجر ، التقريب : (٣٢٤٢) . وانظر ترجمته في الإصابة : (٤/٣١) .

(٣) انظر في الصفحة : (١٢٦) وما بعدها .

(٤) أخرجه البخاري ، كتاب التفسير ، سورة الأنفال ، باب : ﴿وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك...﴾ برقم : (٤٣٧١)و(٤٣٧٢) ، ومسلم ، كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ، باب في قوله تعالى : ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم﴾ ، برقم : (٢٧٩٦) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

أغفل ذكر النزول ، واكتفى بذكر كلام أبي جهل ، ومنهم من روى أن هذا القول صادر من أبي جهل والنضر ، كالبغوي[١]، ومنهم من أسند إلى النضر بن الحارث وحده ، كالطبري [٢].

والذي يظهر لي أن الحديث المذكور مع صحته ليس سبب نزول الآية لوجود زمن طويل بين القصة والنزول ، والآية تذكير للنبي r لما جرى بينه وبين المشركين ، كما تقدم بيانه في مبحث المكي والمدني من السورة [٣].

خامسا : سبب نزول الآية السادسة والستين :

قال الله تعالى : ﴿ l m n o p q r s t u v w x y z { | } ~ مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ © ﴿٦٦﴾ ﴾ .

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال لما نزلت : ﴿ V W X Y Z [\ | ﴾ شق ذلك على المسلمين حين فرض عليهم أن لا يفر واحد من عشرة ، فجاء التخفيف ، فقال : ﴿ l m n o p q r s t u v w x y z { | ﴾ قال : فلما خفف الله عنهم من العدة ، نقص من الصبر بقدر ما خفف عنهم[٤].

هكذا جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما في نزول الآية ، وقد أورد الطبري ، والقرطبي ، وابن كثير[٥]هذا الحديث على تفاوت بينهم في سياقه طولا وقصرا .

والذي يظهر أن هذا الحديث هو سبب نزول قوله تعالى : ﴿ l m n o ﴾ ، وأنه قد شق على المسلمين ثبات الواحد منهم لعشرة من الكافرين ، وأن روايات الحديث تشير إليه، وسند الحديث صحيح ، وارتباطه بالحدث واضح وهو موافق للفظ الآية ، والله أعلم .

---

(١) انظر : البغوي ، معالم التنزيل : (٣/٣٥٢) .

(٢) انظر : الطبري ، جامع البيان : (١٣/٥٠٥-٥٠٧) .

(٣) انظر في الصفحة : (٥٧) .

(٤) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب :﴿الآن خفف الله عنكم﴾ (٤/١٧٠٧) ، برقم : (٤٣٧٦) وبرقم : (٤٣٧٥).

(٥) انظر : الطبري ، جامع البيان : (١٤/٥٣) ؛ والقرطبي ، الجامع لأحكام القرآن : (٨/٤٤) ،؛ وابن كثير ، تفسير القرآن العظيم : (٢/٢٢٤) ، والواحدي ، أسباب النزول : (٣/٢١٥) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

سادسا : سبب نزول الآية السابعة والثامنة والتاسعة والستين:

قال الله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ ´ µ ¶ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ ﴾.

فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : حدثني عمر بن الخطاب قال : لما كان يوم بدر ، نظر رسول الله r إلى المشركين وهم ألف ، وأصحابه ثلاثمائة وتسعة عشر رجلا ، فاستقبل نبي الله r القبلة ثم مد يديه فجعل يهتف بربه: « اللهم أنجز لي ما وعدتني اللهم آت ما وعدتني . اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض » فما زال يهتف بربه ، مادا يديه، مستقبل القبلة ، حتى سقط رداؤه عن منكبيه فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه ثم التزمه من ورائه وقال: يانبي الله كذاكمناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك فأنزل الله U :

﴿ ! " # $ % & ' ( ) * + , ﴾ فأمده الله بالملائكة ، قال ابن عباس : بينما رجل من المسلمين يومئذ يشتد[(١)] في أثر رجل من المشركين أمامه ، إذ سمع ضربة بالسوط فوقه . وصوت الفارس يقول : أقدم حيزوم[(٢)]، فنظر إلى المشرك أمامه فخر مستلقيا . فنظر إليه فإذا هو قد خطم[(٣)] أنفه ، وشق وجهه كضربة السوط فأخضر[(٤)] ذلك أجمع ، فجاء الأنصاري فحدث بذلك رسول الله r فقال : «صدقت ، من مدد السماء الثالثة » فقتلوا يومئذ سبعين وأسروا سبعين ، قال ابن عباس: فلما أسروا الأسارى قال رسول الله r لأبي بكر وعمر : « ما ترون في هؤلاء الأسارى؟ » فقال أبو بكر: يا نبي الله هم بنوا العم والعشيرة أرى أن تأخذ منهم فدية ، فتكون لنا قوة على الكفار ، فعسى الله أن يهديهم للإسلام ، فقال رسول الله r : (ما ترى يابن الخطاب) قلت : لا والله يا رسول الله ، ما أرى الذي رأى أبو بكر ، ولكن أرى أن تمكنا فنضرب أعناقهم فتمكن

---

(١) يشتد : أي يعدو . انظر : ابن الأثير ، النهاية : (٤٥٢/٢) مادة (شدد) .

(٢) حيزوم: اسم فرس جبريل . أراد أقدم ياحيزوم فحذف حرف النداء. انظر: المصدر السابق: (٤٦٧/١) مادة (حيزم).

(٣) خطم : أي وسم من خطمت البعير إذا كويته خطا من الأنف إلى أحد خديه وتسمى تلك السمة الخطام . انظر المصدر السابق : (٥٠/٢) مادة (خطم).

(٤) اخضر : أي اسود . انظر : ابن منظور ، لسان العرب : (٢٤٥/٤) ، مادة (خضر).

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

عليا من عقيل(١) فيضرب عنقه . وتمكني من فلان " نسيبا لعمر" فأضرب عنقه ، فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها(٢). فهوي رسول الله r ما قال أبو بكر ولم يهو ما قلت . فلما كان من الغد جئت فإذا رسول الله r وأبو بكر قاعدين يبكيان ، قلت : يا رسول الله أخبرني من أي شيء تبكي أنت وصاحبك فإن وجدت بكاء بكيت ، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما. فقال رسول الله r : « أبكي للذي عرض علي أصحابك من أخذهم الفداء ، لقد عرض علي عذابهم أدنى من هذه الشجرة » شجرة قريبة من نبي الله r ، وأنزل الله ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ ´ µ ¶ ¸ ﴾ إلى قوله ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمۡتُمۡ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا﴾ فأحل الله الغنيمة لهم(٣).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله r : « لم تحل الغنائم لقوم سود الرؤوس قبلكم، كانت تنزل النار من السماء فتأكلها، فلما كان يوم بدر أسرع الناس في الغنائم فأنزل الله U : ﴿ لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٦٨ فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمۡتُمۡ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾(٤).

هكذا جاء في سبب نزول هذه الآية، وقد أورد جمهور المفسرينهذه الأحاديث عند تفسيرها منهم الطبري ، والبغوي ، وابن العربي ، وابن عطية ، والقرطبي ، وابن كثير ، وابن عاشور(٥).

والذي يترجح أن نزول قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ ﴾إلى قوله﴿عَظِيمٞ ﴾ كان بشأن أخذ الفداء واستبقاء الأسرى ، وهو ما دل عليه حديث ابن عباس رضي الله عنهما الذي رواه من طريق من نزلت الآيات تأييدا لما ذهب إليه وهو عمر بن الخطاب ، وأن قوله : ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمۡتُمۡ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا﴾ نزلت رافعة للحرج الناشئ عن توبيخهم على أخذ والفداء ، والله أعلم .

---

(١) هو : عقيل بن أبي طالب ابن عم النبي صلى الله عليه وسلم يكنى أبا يزيد ، أسلم قبل الحديبية ، وحضر فتح خيبر ، وشهد غزوة مؤتة ، ومات في خلافة معاوية . انظر : ابن الأثير ، أسد الغابة : (٧٧٩/١) .

(٢) هم الأشراف والعظماء والرؤوس . انظر: ابن الأثير ، النهاية : (٥٥/٣) ، مادة (صند) .

(٣) أخرجه مسلم ، كتاب الجهاد والسير ، باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر ، برقم : (١٧٦٣) .

(٤) أخرجه الترمذي ، أبواب تفسير القرآن ، باب ومن سورة الأنفال ، برقم (٣٠٨٥) والنسائي في الكبرى ، كتاب التفسير ، باب قوله تعالى : ﴿حلالا طيبا ﴾ برقم (١١٢٠٩) ، وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح .

(٥) انظر : الطبري ، جامع البيان : (٦٦/١٤) ؛ والبغوي ، معالم التنزيل : (٣٧٧/٣) ؛ وأحكام القرآن: (٨٧٩/٢-٨٨٣)؛ وابن عطية ، المحرر الوجيز: (١١١/٨-١١٦)، والقرطبي ، الجامع لأحكام القرآن : (٤٥/٨-٥١) ؛ وابن كثير ، تفسير القرآن العظيم : (٣٢٥/٢-٣٢٦) ؛ وابن عاشور ، التحرير والتنوير: (٧٢/١٠-٧٨) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

المبحث الثاني

مقاصد سورة الأنفال وأهدافها

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

المبحث الثاني

مقاصد سورة الأنفال وأهدافها

قبل الحديث عن مقاصد سورة الأنفال وأهدافها ، ينبغي أن أتطرق إلى الظروف والأجواء التي نزلت فيها هذه السورة ، لأن بمعرفتها قد تفتح لنا الأبواب واسعا أمام المقصد الكلي والهدف الرئيسي التي من أجلها أنزلت .

فكما هو معلوم ومذكور في حديثنا عن مكية السورة ومدنيتها أن الراجح فيها أنها مدنية بالإجماع ، وأنها نزلت والمسلمون في المدينة ، وقد لاقوا ألواناً من المكر وعداوة المشركين عند تأسيس دولتهم في المدينة ، فكانوا في حاجة ماسة إلى موقعة عظيمة ينتصر فيه الحق ، ويندحر فيه الباطل ، فكانت معركة بدر هي فاتحة الغزوات في تاريخ الإسلام المجيد ، وبداية النصر لجند الرحمن ، ويومها كان اليوم الذي أراده الله U أن يكون فرقانا بين الحق والباطل، وبين الخبيث والطيب، فجاءت سورة الأنفال عقب هذه الغزوة ، لتربي هذا الجيل المؤمن المتطلع لإعلاء كلمة الله U من خلال هذه الغزوة ، على ما ينبغي أن يكونوا عليه تجاه الصمود في وجه الباطل بكل جرأة وشجاعة ، والأخذ بأسباب النصر المادية والمعنوية .

فالسورة من أولها إلى آخرها حديث عن أسباب النصر، وما يلزم جماعة المسلمين من الإعداد له ، واتخاذ الوسائل والاحتياطات اللازمة له ، وفي مقدمتها تقوى الله تعالى ، وطاعته وطاعة رسوله r ، وإعداد العدة والثبات في ساحة القتال ، والبعد عن التنازع والاختلاف ، وعدم الإصغاء للإشاعات والأراجيف التي يثبتها الأعداء وهي ما يعرف اليوم بالحرب النفسية ، وأيضا فإن النصر لا يأتي صدفة ولا فجأة ، وإنما يحتاج إلى قوانين وأسس، فهذه السورة جاءت أيضا تتحدث عن هذه القوانين والأسس من خلال غزوة بدر ، إلا أنها يمكن أن تكون عامة لكل الغزوات والمعارك بين الحق والباطل .

ولهذا فإنه يمكننا القول بأن المقصد الكلي في هذه السورة هو بيان أسباب النصر ، وأن هذه الأسباب تنقسم إلى : أسباب ربانية ، وأسباب مادية ، وكلاهما مرتبطان ببعض ، فالسورة الكريمة تحدثت عن التمسك بكلا السببين ، فأمرت المؤمنين أول ما أمرتهم بتقوى الله تعالى ، فهو أساس كل نصر ، وكل فلاح في الدنيا والآخرة ، وقد تكررت التقوى كثيرا في هذه السورة، مما يدل على عظمتها وأهميتها في جانب النصر .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

ثم ثنت السورة بالأمر بالوحدة وإصلاح ذات البين ، وعدم الفرقة والتنازع ، ونجد هذا الأمر أيضا تكرر في السورة ولكن بصورة النهي عن التنازع وبيان نتيجته وهو الفشل وذهاب الريح .

وثلثت بالأمر بالطاعة لله ولرسوله ، وهو عام يشمل الأمرين السابقين وغيرهما ، وتكرر هذا أيضا في السورة .

فكأن فاتحة هذه السورة أشارت إلى جميع ما في هذه السورة من أسباب النصر وضده ، وفي ذلك براعة استهلال للمقصد الكلي للسورة .

ولقد أشارت موضوعات السورة الرئيسية أن النصر الذي حصل للمؤمنين في بدر لم يكن معجزة ربانية فقط ، بل اقترن بأسباب مادية من تخطيط وجهد وبذل ، فبالرغم من كون هذه الغزوة أول غزوة مع الكفار فإنه لم يكن المسلمون يريدون قتالاً ، بل كان خروجهم هو الاستيلاء على قافلة قريش الذين أَخْرَجوا المهاجرين من ديارهم واغتصبوا أموالهم ، إلا أن الله غز وجل أراد للمؤمنين غير ما أرادوا لأنفسهم من الغنيمة ، فظهرت إرادة الله تعالى منذ خروج النبي r من بيته مع المؤمنين ، فكانت استشارة النبي r لأصحابه في قتال المشركين ، أكبر دليل على اقتران النصر الإلهي بالأسباب المادية ، وكان دعاء الرسول r والمؤمنين ولجوءهم إلى الله أعظم سبب يجمع بينهما ، فالنبي r لم يترك الأخذ بالأسباب ، ولم يتكل على الأسباب وحدها ، دون الاعتماد على مسبب الأسباب ، ولهذا قال تعالى عقب تلك الاستغاثة : ﴿6 7 8 9 : ;﴾ .

إذاً يمكن القول بأن المقصد الكلي لهذه السورة الكريمة هو بيان أسباب النصر والإرشاد إلى التوازن والترابط بين هذين الأمرين .

وإظهار ذلك وإبرازه يكون على النحو التالي:

أولا : الأمر باجتماع الكلمة والنهي عن التنازع : وذلك في افتتاحية السورة بالسؤال عن الأنفال ، والإجابة بردها إلى الله ورسوله ، فذلك صرف لأنظارهم عنها إلى ما هو أهم من ذلك ، وأمروا بإصلاح ذات البين، ووحدة الصف ، وترك المشاحنات والمخاصمات في الأمور الدنيوية.

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

ثانيا : إظهار امتنان الله U في غزوة بدر ، وبيان أن النصر من عنده . وذلك من خلال :

- **ترتيبه لهذه المعركة** ، فبعد أن كان غرض المؤمنين أخذ العير ، رتب الله U أمرا آخر، لم يكن في حسبانهم ، وهو : مواجهة كفار قريش ، مريدا بذلك إحقاق الحق وإبطال الباطل.

- **تهيئته لنفوس المؤمنين لخوض المعركة** ، حيث أنامهم الله U قبل المعركة ، وبعد أن استيقظوا من نومهم أنزل عليهم من السماء ماء لكي يغتسلوا ويتوضأوا ويتنشطوا للقتال .

- **إنزاله للملائكة** ، وهذا واضح في قوله تعالى : ﴿ ! " # $ % & ' ( ) * + , ﴾ .

- **تعيينه مكان المعركة وزمانها** ، فحتى مكان المعركة وزمانها كان بترتيب من الله حيث ذكر الله U ذلك في قوله : ﴿ E F G H I J K L M N P Q R S T ﴾ فالعدوة الدنيا - حيث كان المسلمون - تتمتع بنوعية خاصة من التراب حيث إن المطر كان عند نزوله يثبّت الرمال تحت أقدام المسلمين مما يسهل حركتهم ، وأما في العدوة القصوى فكان المطر يسبب سيولاً عند نزوله مما يعيق حركة جنود الكفار وفرسانهم ، إنها قدرة الله تعالى مقدّر النصر وناصر المؤمنين .

- **تحريضه لالتقاء الجيشين** ، وذلك برؤية المؤمنين الكفار قليلاً فلا يخافون ، ورؤية المشركين المؤمنين قليلاً فيستهترون ، فقال تعالى : ﴿ l m n o p q s t u v w x y z { | } ~ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذۡ يُرِيكُمُوهُمۡ إِذِ ٱلۡتَقَيۡتُمۡ فِيٓ © قَلِيلٗا وَيُقَلِّلُكُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِهِمۡ لِيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗاۗ µ ¶ ٱلۡأُمُورُ ﴿٤٤﴾ ﴾ .

- **إسناده حقيقة القتل والرمي إلى نفسه سبحانه وتعالى** ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ ! " # $ % ' ( ) * + , - ﴾.

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

ثالثا : أهمية الأخذ بأسباب النصر المعنوية والمادية .

أ) فمن الأسباب المعنوية ما يأتي:

- **طاعة الله ورسوله وعدم التنازع** ، حيث أمر الله U المؤمنين بهما في قوله تعالى : ﴿ ! " # $ % & ' (* , - . / ﴾ .

- **ترك الرياء والعجب** ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ 1 2 3 4 5 6 7 8 9 ﴾ .

- **ترك الخيانة والغدر** ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ 5 6 7 8 9 : ; < = > ? ﴾.

- **الاستغاثة بالله** U ، **وكثرة ذكره** ، كما في قوله تعالى : ﴿! " # $ % ﴾ ، وفي قوله تعالى : ﴿...وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ .

ومن الأسباب المادية ما يأتي :

- **الثبات في وجه العدو ، وعدم الفرار من الزحف** ، قال تعالى : ﴿ © ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ´ ﴾ .

- **التجهز بكل أسباب القوة ، التي ترهب الأعداء** ، قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ © مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ ´ µ ¶ ﴾ .

- **الإنفاق في سبيل الله تعالى** ، وذلك في قوله تعالى : ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ﴾ .

- **التحريض على الجهاد وقتال الأعداء ،ومراعاة موازين القوى المادية** ، وذلك في قوله تعالى: ﴿ O P Q R S T V W X Y Z [\ ^ _ ` a b c d e f g h i j k l m n o p q r s u v w x y z { } ~ مِّنكُمۡ أَلۡفٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفَيۡنِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ © ﴾ .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

رابعا : دعوة المشركين إلى الإسلام والانتهاء عن مناوئة المسلمين ، قال تعالى: ﴿s t u v w x y z { | } ~ فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٣٨﴾.

خامسا: ضرب المثل بالأمم الماضية والتي عاندت رسل الله، ولم تشكر نعمته، قال تعالى : ﴿ كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيّٞ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٥٢﴾.

سادسا : التحذير من المنافقين ، وكيدهم ، وعدم تصديق شائعاتهم وأراجيفهم ، قال تعالى :﴿k l m n o p q r s t v w x y z { | } ~﴾.

سابعا : بيان علاقة المسلمين بغيرهم وبعضهم ، وقد تناولتها السورة من خلال ما يأتي :

أ) بيان العلاقة بين المسلمين والمعاهدين والمسالمين ، وذلك على النحو التالي :

- **أخذ الحَيْطة والحذر منهم** ؛ لأنَّهم كما قال تعالى :﴿J K L M N O P Q R S T U V WX Y Z [\ ] ^ _ ` a﴾.

- **ردّ العهود إليهم إن خِيف منهم غدر وخيانة** ، قال تعالى : ﴿m n o p q r s t u wx y z { | ﴾.

-**التجهز لكل الاحتمالات سواء كانت سلما أو حربا** ، فقال تعالى : ﴿وَأَعِدُّواْ © مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ ´ µ ¶ ¸ مِن دُونِهِمۡ﴾.

- **إيثار السلم على الحرب متى وجدت الطرق الداعية للسلم** ، قال تعالى : ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٦١﴾ .

- **ترسيخ عقيدة كفاية الله لنبيه والمؤمنين ، وأنَّ حسبهم وكافيهم هو الله تعالى** ، فمهما حاول الكفار المعاهدون والمسالمون أن ينالوا النصر بخداع المؤمنين والغدر بهم فإنَّما حسب النبي

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

r ومَن اتبعه مِن المؤمنين الله تعالى ، قال تعالى : ﴿ F G H I J K L M N ﴾ .

ب) بيان العلاقة بين المسلمين والأسرى ، وذلك على النحو التالي :

- **جواز إثخان القتل في الأسرى** ، قال تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ ´ ¶ µ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْأَخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ ﴾ .

- **جواز أخذ الفداء منهم** ، قال تعالى : ﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَـٰلًا طَيِّبًا ۚ ﴾ .

- **دعوتهم إلى الإسلام وتطييب خاطرهم** ، قال تعالى : ﴿ ! " # $ % & ' ( ) * + , - . / 0 1 2 3 4 5 7 8 9 : ﴾ .

- **أخذ الحذر والحيطة من خيانة الأسرى ، فهم لما يخرجوا بعد من ربقة الكفر** ، وتطمين النبي r والمؤمنين من خيانتهم قال تعالى : ﴿ ; < = > ? @ A B C D F G H I ﴾.

ج) بيان العلاقة بين المسلمين بعضهم ببعضهم :

- **ربط المؤمنين بعضهم ببعضهم على اختلاف ألوانهم ومراتبهم بولاية الإيمان** ، فقال تعالى : ﴿ J K L M N O P Q R S T U V W X Y Z ﴾ .

- **عظم مكانة الهجرة في الإسلام** ، وأن من لم يهاجر لا يستحق كامل الولاية والنصرة من المؤمنين ، قال تعالى : ﴿ \ ] ^ _ ` a b c d e f g ﴾.

- **إلحاق المؤمنين المهاجرين المجاهدين اللاحقين بالسابقين في الولاية والنصرة** ، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مِنكُمْ ﴾.

- **تعزيز ولاية القربي بين المؤمنين ، وبيان مكانة أولي الأرحام في الإسلام**، قال تعالى: ﴿ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ ﴾ .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

البـــاب الثاني

التّناسقُ الموضوعيّ في سورة الأنفال

دراسةٌ تطبيقيَّةٌ

ويشتمل على ثلاثة فصول :

الفصل الأول : مناسبات سورة الأنفال .

الفصل الثاني : موضوعات سورة الأنفال وتناسقها .

الفصل الثالث: تفسير آيات السورة وفق تناسقها الموضوعي.

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

الفصل الأول

مناسبات سورة الأنفال

ويشتمل على ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : مناسبة اسم السّورة لموضوعاتها .

المبحث الثّاني : مناسبة فاتحة السّورة لموضوعاتها .

المبحث الثالث : مناسبة خاتمة السورة لفاتحتها .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

المبحث الأول

مناسبة اسم سورة الأنفال لموضوعاتها

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

المبحث الأول

مناسبة اسم سّورة الأنفال لموضوعاتها

ينبغي لقارئ القرآن الكريم أن يتأمل في أسماء سوره ، ويمعن النظر فيها ، فهي بلا شك عنوان للسورة ، ومدخل إليها ، يقول الزركشي : « ينبغي النّظر في وجه اختصاص كلِّ سورةٍ بما سمِّيت به » (١) وقد ذكرَ بعض هذه الوجوه ومنها :

١- تسميتُها بما يُذكر فيها من قصّةٍ غريبةٍ أو أحكامٍ خاصّةٍ أو أحوالٍ تفصيليّةٍ وذكرَ أمثلةً لذلك: فسورة البقرة لذكر قصة البقرة، وسورة النساء لما تردّد فيها من كثير من أحكام النساء، وسورة الأنعام لما ورد فيها من تفصيل أحوالها.

٢- التكرار في الكلمات. وذكر مثالاً لذلك سورة "هود" التي تكرّر اسمه فيها أربع مرات، مع أنّ السورة تضمنت الحديث عن كثير من الأنبياء. وسورة "ق" لما تكرَّر فيها من ذكر الكلمات بلفظ قاف، وهكذا جميع السور التي افتتحت بالحروف المقطّعة.

٣- الإنفراد؛ فسورة نوح لمّا انفردت بقصته مع قومه ولم يقع فيها ذكر غيره من الأنبياء سميت باسمه، وكذلك سورة "يونس" وسورة "يوسف" وسورة "مريم" وسورة "الجن" وسورة "لقمان" وسورة "المنافقون" وغيرها.(٢)

ووضح الدكتور محمد خليل جيجك(٣) ما أجملَه الزركشيُّ من وجوه فقال: « إن السور القرآنية المنقولة إلينا بتواتر قطعي، التي لا يجاريها ولا يدانيها في قطعيتها أيُّ نصّ أو كتابٌ آخر تأخذ أسماءها إمّا من :

١- أوّل كلمتها، كما في "ق" و "ص".

٢- أو من أول كلمة ذكرت في أول جملها كما في "الملك" و "فصلت".

٣- وإما من صاحب قصة غريبة ذكر فيها كما في:"النمل"و"البقرة"و"مريم"و"لقمان"و "الروم".

---

(١) الزركشي ، البرهان في علوم القرآن : (١/٢٧٠-٢٧٢) .

(٢) انظر : الزركشي ، المصدر السابق : (١/٢٧٠-٢٧٢) .

(٣) هو : محمد خليل جيجك ، أبو فاطمة ، من أهالي وان في تركيا ، أستاذ وعميد بكلية الإلهيات في جامعة بينكول، بتركيا، له كتب وأبحاث مطبوعة. انظر: موقع المؤتمر الدولي للدراسات القرآنية:http://www.quranicconferences.com.

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

٤- وإما من اسم نبي ذكر فيها مجادلته مع قومه "كيونس"و"يوسف"و"هود" و "نوح"....

٥- وإما من اسمٍ يتبوأ موقعاً هاماً باعتبار ما مرّ فيه ذكره "كالنحل" و "العنكبوت" و"الكهف" و"الأعراف" و"الفرقان" و "الإسراء" و "الشعراء" و"القصص" و "الأحقاف".

٦- وإما من ذكر مجموعة متجانسة فيها كما في: "الأنبياء".

٧- وإما لملابسة أن ذكر فيها أحكام جنس أو أجناس "كالنساء" و "الأنعام"(١).

واعتبر الفراهي(٢)-رحمه الله- أسماء السور على أربعة أوجه فقال: «ولما كان اسم الشيء عنواناً لمعناه، وقد اشتهر من الأسماء مالا يخبر عن معناها، فاعلم أن أسماء السور على أربعة أوجه:

الأول : تسميتها بلفظ من أوائلها ، فمنه ما نقله السيوطي : سورة الحمد ، والبراءة ، وسورة سبحان ، وطه ،... وغير ذلك.

الثاني : تسميتها بلفظ اختص بها كالزخرف والشعراء والحديد والماعون، وغير ذلك، فهذه الأسماء لا تنبئ عن مقصد السورة، ولكنها كالشامة والسمة تتميز بها مسمياتها ...

الثالث : تسميتها بلفظ يخبر عن بعض المعاني العظيمة كتسمية سورة النور لاشتمالها على آية النور، وتسمية سورة آل عمران وسورة النساء، وسورة إبراهيم، وسورة يونس، وكثير من الأسماء على هذا الأسلوب.

الرابع : تسمية السورة بما ينبئ عن المقصد الذي بنيت له السورة، فمنها تسمية الفاتحة بسورة الصلاة، وتسمية براءة، وسورة بني إسرائيل، وسورة محمد بسورة القتال، وسورة الإخلاص والمعوذتين ...» (٣).

وتساءل السيوطي لماذا لم يفرد لموسى u سورة تسمى به مع كثرة ذكره في القرآن؟ وكذلك آدم u ذكرت قصته في عدّة سور ولم تسمَّ به سورة ؟ وكذلك قصة الذبيح من بدائع

(١) انظر: جيجك ، دلالة أسماء سور القرآن الكريم من منظور حضاري، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٢١هـ، (١٨٣).

(٢) الفراهي : هو عبد الحميد بن عبد الكريم بن قربان ، ويعرف بحميد الدين الفراهي ؛ نسبة إلى "فريها" قريته بالهند، ولد سنة ١٢٨٠هـ ، وتوفي وهو يقرأ القرآن الكريم سنة ١٣٤٩هـ ، كان بارعاً في العربية والفارسية والإنجليزية والعبرية ، ألف في التّفسير وعلوم القرآن بضعة عشر كتابا ، من أشهرها:نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان ولم يتمّه، دلائل النّظام، مفردات القرآن ، وإمعان في أقسام القرآن.. انظر ترجمته في مقدمة كتابه : مفردات القرآن ، الإمام عبد الحميد الفراهي، تحقيق : د. محمد أجمل أيوب الإصلاحي، بيروت : دار الغرب الإسلامي ، ٢٠٠٢م (١١-٤١) .

(٣) الفراهي ، تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان : (٦٢) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

القصص وردت في سورة الصافات ولم تسمَّ به؟ وقصة داود u ذكرت في سورة "ص" ولم تسم به ؟ ولم يذكر لذلك جواباً ، واكتفى بالتعليق على ذلك بقوله : « فانظر في حكمة ذلك! » [١] .

ومما سبق يمكن أن ندرك أن ما ذكره العلماء في هذا الباب إنما هو استقراء لبعض الوجوه في التسمية ، لكنه لا يسير على قاعدة واحدة مطردة بحيث يمكن التسليم بأن اسم كل سورة مترجم عن مقصودها ، كما يقول البقاعي : « وقد ظهر لي : أن اسم كل سورة مترجم عن مقصودها لأن اسم كل شيء تظهر المناسبات بينه وبين مسماه عنوانه الدال إجمالا على تفصيل ما فيه » [٢].

ولهذا أود أن أشير هنا إلى أنه ليس من الضروري أن يدل اسم السورة على محورها الأساس وعمودها الرئيس ومقصودها الأهم دلالة واضحة كما هو الأمر في سورة الأنفال ، فليس اسم الأنفال هو المحور الرئيس في السورة .

يقول الفراهي : « ليس العمود هو أعظم المقاصد حقيقة ، بل هو الشيء الجامع الذي به رباط السورة بأسرها ولكنه أهمُّ الأمور بياناً في سورة ذُكر فيها ، ألا ترى آية النور تتلألأ في وسط السورة كواسطة العقد في الوشاح، أو كتعرض الثريا في كبد السماء ، مع أنها ما جاءت إلا تبعاً ، وعمود السورة حسن الأدب في أمور ربّات البيوت ، ولذلك أمر النبي الكريم r بتعليمها النساء لكي يعلمن مالهن وما عليهن » [٣].

وبعد هذا التمهيد اليسير أشير هنا إلى أنَّ مناسبة اسم هذه السورة الكريمة «سورة الأنفال» لموضوعاتها تتضح من خلال ما سيأتي :

أولا : علاقة اسم السورة بالمحور العام يتضح من خلال أن الأنفال هو ما ينفله المسلمون من أعدائهم في جهادهم ، فتعلقه بالمحور العام للسورة وهو القتال والجهاد في سبيل الله ظاهر جدا لأن النفل لا يمكن الحصول عليه إلا من خلال القيام بفريضة الجهاد في سبيل الله .

---

(١) انظر : السيوطي ، الإتقان : (١٨٣/١) .
(٢) البقاعي ، نظم الدرر : (١٨/١- ١٩) .
(٣) الفراهي ، نظام القرآن : (٤٣) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

ثانيا : علاقة اسم السورة بالموضوع الأول وهو : «الحديث عن أهم أحداث غزوة بدر» يتضح من خلال أن قضية الأنفال والتنازع فيها كانت من أهم الأحداث التي أثارت الجدل والنزاع بين المسلمين عقب انتصارهم في بدر .

ثالثا : علاقة اسم السورة بالموضوع الثاني وهو : «أسباب النصر والهزيمة » يتضح من خلال أن الأنفال والغنائم لا تحصل للمؤمنين إلا بعد أخذهم بأسباب النصر ، وتجنب أسباب الهزيمة ، فكان هذا بيانا وشرطا لما يتوصل به إلى الظفر بتلك الأنفال والغنائم .

رابعا : علاقة اسم السورة بالموضوع الثالث وهو : «علاقة المسلمين بغيرهم وببعضهم في السلم والحرب » يتضح من خلال أن النفل والغنيمة التي تؤخذ من العدو المنهزم من المهم جدا معرفة نفسيات من أخذت منهم وهم على قسمين : **قسم خارج المغنم** قد فروا ونجوا من قبضة المسلمين ، فهولاء لهم تعامل خاص ، وعلاقة خاصة ، فإما الدخول معهم في عهود ومواثيق وسلم إن اقتضت المصلحة ذلك ، فإن حافظوا عليها فبها ونعمت ، وإن حاولوا الخداع والخيانة والمكر فيستعان بالله على قتالهم وتحريض المؤمنين ضدهم وتشريد وتخويف من وراءهم من الكفار ، **وقسم داخل المغنم** ، وهؤلاء لهم تعامل خاص بهم أيضا فإما الإثخان فيهم ، وإما أخذ الفداء منهم وفك رقابهم ، وإما تشجيعهم على الدخول في الإسلام ، ووعدهم خيرا إن هم رغبوا في الإسلام ، ثم في الختام كان ولا بد من إنزال المسلمين المجاهدين الغانمين منازلهم ومراتبهم وبيان علاقتهم ببعضهم ، وما يربطهم من رابط الولاء والنصرة ، ومن رابط الرحم والقرابة ، فكان هذا الموضوع وهو آخر موضوع في السورة، واضح المعالم والعلاقة باسم السورة الكريمة .

فخلاصة القول في مناسبة اسم السورة لموضوعاتها : أن اسم السورة الكريمة «الأنفال» مشتق بل ومنسوج مما دار في السورة من موضوعات ، فذكر اسم الأنفال فقط يصور للقارئ والسامع معاني القتال والجهاد والنصر ، فتتضح لديه موضوعات السورة الكريمة وضوحا تاما بمجرد معرفة معنى الاسم .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

المبحث الثاني

مناسبة فاتحة سورة الأنفال لموضوعاتها

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

المبحث الثاني

مناسبة فاتحة سورة الأنفال لموضوعاتها

إن سورة الأنفال بجميع موضوعاتها الثلاثة تتحدث عن الجهاد ، وتحث على الأخذ بأسباب النصر ، وتحذر من الهزيمة والوقوع فيه ، فكان افتتاح السورة الكريمة بمسألة الأنفال براعة استهلال لهذا المحور العام ، حيث تشير هذه الفاتحة إلى حدث من أهم أحداث غزوة بدر وهي قضية الأنفال والغنائم ، وما حدث من الاختلاف ، وما نزل من الأوامر والأحكام الإلهية الخاصة فيها والعامة ، وهذا يدل دلالة قوية على صلة الفاتحة بموضوعات السورة ، ويدل كذلك على وحدة الموضوع والهدف العام الذي تقصده وهو الجهاد في سبيل الله .

قال تعالى في فاتحة هذه السورة : ﴿ ! " # % & ' (* +
, - . 0 1 2 3 4 5 6 7 8 9 :
; < = > ? @ A B C D E F G H I
J K L M N O P Q R S U V W X
Y Z [\ ﴾ .

فهذه الآيات الأربع الأولى جاءت لتعالج نفوس المؤمنين الذي شاركوا وشهدوا غزوة بدر ، وتطهرها من الاختلاف الذي ينشأ عن قسمة الأنفال والغنائم ، فالأمة المؤمنة إذا اشتغلت بجانب حب المادة والتعلق بها ، تناست مصدر عزتها وقوتها وهو الجهاد في سبيل الله ، وتفرقت كلمتها وضعفت شوكتها ، وزالت عزتها وتمكن أعداؤها منها ، فمزقوها شر ممزق، وتركت ما يأمرها به إيمانها ، فناسبت هذه الفاتحة موضوع « الحديث عن أهم أحداث غزوة بدر ».

كما أن لهذه الفاتحة مناسبة ظاهرة للموضوع الثاني للسورة وهو : « أسباب النصر والهزيمة » حيث أرشدت هذه الفاتحة إلى العناصر الرئيسية التي يجب على المسلمين أن يتحلوا بها حتى

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

يحصلوا على الظفر والنصر ، فقال تعالى : ﴿ * + , - . / 0 1 2 3 4 5 ﴾ ، وقد تكررت هذه العناصر الرئيسة في الموضوع الثاني بشكل أوسع ، وفصلت في ذلك ، حيث أخذت آيات الموضوع الثاني تنادي المؤمنين الذي ذكروا في فاتحتها بست نداءات ﴿ \ ] ^ ﴾ ، فأمرتهم بالثبات في أرض المعركة ، وبالطاعة والاستجابة لله ولرسوله ، وحذرتهم من العصيان والخيانة والافتتان بأعراض الدنيا من الأموال والأولاد ، وذكرتهم بسابق نعمته عليهم وبحاضرها حين آواهم وأيدهم بنصره ، ورزقهم من الطيبات، بعد أن كانوا مستضعفين في الأرض ، وحين مكر الكفار برسولهم ليثبتوه أو يقتلوه أو يخرجوه ، وهذا كله متفرع مما ذكرته فاتحة السورة ، حيث إن تلاوة تلك الأوامر وهذه النعم الإلهية مما يزيد المؤمنين إيمانا وصلاحا ، وبهذا اتضحت مناسبة فاتحة السورة للموضوع الثاني.

كما أن لهذه الفاتحة مناسبة ظاهرة بالموضوع الثالث للسورة وهو : « علاقة المسلمين بغيرهم وببعضهم في السلم والحرب » حيث أمرت فاتحة السورة المؤمنين بطاعة الله تعالى وطاعة رسوله والتوكل عليه في جميع شؤون حياتهم ومن أهمها تلك التي تكون بينهم وبين غيرهم من الكفار ، من المواثيق والعهود ، حيث قال تعالى في آيات الموضوع الثالث : ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ ، وأيضا فإن إيمان المؤمنين وطاعتهم لله ولرسوله يمنعانهم من الغدر والخيانة ، ونقض العهد ، ويدعوانهم إلى الالتزام بالمواثيق والعهود ، والمحافظة عليه .

فخلاصة القول في مناسبة فاتحة سورة الأنفال لموضوعاتها ، أن شخصية سورة الأنفال اتضحت من خلال فاتحتها ، وأن جميع موضوعاتها مستمدة منها ، ومن مضامين تلك الفاتحة.

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

المبحث الثالث

مناسبة فاتحة سورة الأنفال لخاتمتها

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

المبحث الثالث

مناسبة فاتحة سورة الأنفال لخاتمتها

لقد افتتحت هذه السورة الكريمة بالدعوة إلى إصلاح ذات البين ، دعوة صريحة حاسمة ﴿ , - . ﴾، ولا يمكن إصلاح ذات البين إلا بمعرفة ما يربط بينها ، فجاء في ختام السورة ذكر ذلك الرابط ، وهو رابط الولاء والنصرة ، فقال تعالى : ﴿ J K L
M N O P Q R S T U V W X Y
Z \ ] ^ _ ` a b c d e f g i j k l
m n o p q r s t v w x y z ﴾ .

قال السيوطي في بيان مناسبة ختم السورة بهذه الآية والتي بعدها : « هذه غاية البراعة في ختام هذه السورة ، وظهر لي في وجه الختم بها ما لم أقف عليه لأحد وذلك أن السورة لما نزلت في تنازعهم في الأنفال وحثهم على إصلاح ذات البين ، وذكرهم بنعمه ، وحذرهم من التنازع غاية التحذير إلى ما آخر ما تقدم ، ختمها بذكر أن المؤمنين بعضهم أولياء بعض ، فلا ينبغي تنازعهم ، بل اللائق بهم التواد والتحاب والتواصي والتوافق ، وألا يكون عرض الدنيا الفاني الزائل قاطعا بينهم ، ولذا ورد فيما تقدم ذم من يريد عرض الدنيا ، وقلل الدنيا وحقرها، فسماها عرضا ، وأورد هذه الآيات هنا مشتملة على غاية البلاغة واستيفاء الأقسام ، فذكر أن المهاجرين والأنصار بعضهم أولياء بعض، ووقف ولاية من آمن ولم يهاجر على الهجرة ، وبين أن هذه الولاية الموقوفة هي ولاية الخصوص ، وأما ولاية العموم ، وهي النصرة في الدين فثابتة ، ثم بين أن الكفار بعضهم أولياء بعض ، وهو تحذير من موالاة أحد منهم بقرينة ما عقبه من التهديد ، لقوله : ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾ إلى آخره ، ثم استطرد إلى ذكر ولاية أخرى أخص مما تقدم، وهي ولاية التوارث ، فذكر أنها خاصة بذوي الأرحام ، بخلاف غير القرابة ، وإن كان لهم

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

مطلق الولاية في التناصر والتواد ، فانظر إلى عظم وقع هذه الجملة هنا ، ولم تكن لتقع موقعا أحسن من هذا الموقع ، وخلل أثناء هذه الولايات بالثناء على أصناف المؤمنين والوعد الحسن لهم » [١] .

وقد تكرر في ختام السورة ما جاء في فاتحتها من قوله تعالى : ﴿ ¶ د ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ إلا أن في تلك زيادة ﴿ V ﴾ حيث قال تعالى : ﴿ P Q R S U V W X Y Z [\ ﴾ .

يقول السيوطي مبينا المناسبة في ذلك : « أقول لهذه مناسبة آخرة السورة لأولها ، وخاتمتها لفاتحتها ، لتقدم نظير ذلك أول السورة ، ولما تقدم هناك وصفهم بأعمال القلوب من الخوف والزيادة في الإيمان والتوكل ، زاد في الوعد ﴿ V ﴾ ، ولما لم يكن هنا سوى الأفعال البدنية والمالية اقتصر على المغفرة والرزق الكريم المذكور من أول السورة في مقابلتها »[٢] .

---

(١) السيوطي ، قطف الأزهار في كشف الأسرار : (٢/١١٢٥-١١٢٦) .
(٢) السيوطي ، المصدر السابق : (٢/١١٢٧-١١٢٨) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

الفصل الثاني

موضوعات سورة الأنفال وتناسقها

ويشتمل على تمهيد وثلاثة مباحث :

التمهيد : بين يدي موضوعات سورة الأنفال .

المبحث الأول : أهم أحداث غزوة بدر . ويشمل الآيات (١-١٢) ، وفيه ثلاثة محاور .

المبحث الثاني : أسباب النصر والهزيمة . ويشمل الآيات (١٣-٥٤) ، وفيه محوران .

المبحث الثالث : علاقة المسلمين بغيرهم وبعضهم في السلم والحرب. ويشمل الآيات : (٥٥-٧٥). وفيه ثلاثة محاور .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

التمهيد

بين يدي موضوعات سورة الأنفال

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

التمهيد

إن سورة الأنفال من السور التي لها سياق خاص ، وتناسق موضوعي واضح ، وترابط متميز في محورها العام ، يقول محمد عزت دروزة[١] : «وفصول السورة منسجمة متسلسلة السياق مما يسوغ القول إنها نزلت دفعة واحدة ، أو فصولا متتابعة عقب وقعة بدر»[٢].

وبعد التأمل والتدبر في كل آية من آيات السورة ، وجدت أن المحور الرئيس الذي تدور حوله السورة الكريمة هو (الجهاد في سبيل الله) ، إذ أنها نزلت -كما تقدم ذكره - في شأن غزوة من أهم غزوات الجهاد ، وهي غزوة بدر ؛ فقد كانت أول غزوة في الإسلام ، ووصفت في هذه السورة بالفرقان لتميزها ، وأهميتها في حياة المسلم المجاهد ؛ فكانت نبراسا حول موضوع "الجهاد" ، ولذلك اهتمت السورة بهذه الغزوة ، واستخرجت منه الكثير من الأسباب التي أدت إلى نصر المؤمنين في جهادهم وهزيمة الكافرين ، ووضعت القواعد والأسس للعلاقات بين المسلمين وغيرهم في السلم والحرب ، إضافة إلى ما أكدت عليه السورة على المقصود الأعظم من الجهاد وهو نشر الدين الإسلامي .

فالمتأمل في موضوعات السورة الكريمة يلاحظ تميزها بعدد من المواضيع التي تهدف إلى بناء الجماعة المسلمة لمواجهة الجولات القادمة مع معسكر الشرك والكفر ، فغلب على السورة الأسلوب الخطابي الذي يتجه إلى مخاطبة القلوب ، وتحريك المشاعر وإثارة العواطف ، ويذكي الحماس في النفوس ، ويحملها على الصمود بوجه صولات الأعداء ، ويدفعها إلى الإقدام لتشتيت جموعهم ، ويتجلى ذلك في كثرة النداء والأمر والنهي في السورة ، بصيغة ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ المتبوعة بفعل الأمر أو النهي، ست مرات، كما جاءت صيغة ﴿ ! " ﴾ ثلاث مرات[٣] .

---

(١) هو : محمد عزة بن عبد الهادي دروزة ، ولد في نابلس سنة ١٨٨٧م ، وتوفي في دمشق ، سنة ١٩٨٤م ، كان أديباً ومؤرخاً وصحفياً ومترجماً ومفسراً للقرآن ، انظر : محمد عزة دروزة : صفحات من حياته وجهاده ومؤلفاته ، بقلم : حسين عمر حمادة ، بيروت : الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين . ١٩٨٣م.

(٢) دروزة ، التفسير الحديث : (٧/٧) .

(٣) رشيد رضا ، تفسير المنار : (١١٤/١٠-١١٦) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

وقد نزلت هذه السورة الكريمة في وقت كانت فيه الأمة الإسلامية بحاجة إلى ما يشد من عزم جنودها ، ويخرجها من ضعفها وتغلب أعدائها عليها ، ويقوي معنويات أبنائها ، ومن هنا يمكن القول بأن سورة الأنفال عالجت موضوعاً واحداً يدور حول الجهاد في سبيل الله وما يتعلق به من قواعد وأحكام ، وقد تتبعت بعض الموضوعات الجانبية للسورة فوجدتها مرتبطة غاية الارتباط بالموضوع الكلي للسورة ، ومحورها العام .

وقد قسمت هذه السورة الكريمة على إثر ذلك التأمل والتدبر إلى موضوعات ثلاث ، وقد جاءت على النحو التالي :

الموضوع الأول : أهم الأحداث الواقعة في غزوة بدر : وجاء هذا الموضوع من الآية (١) إلى الآية (١٢) ، وذلك من قوله تعالى : ﴿ ! " # % & '
(* + , - . 0 1 2 3 4 5 Z إلى قوله
تعالى : ﴿ Y Z [\ ] ^ _ ` a b d e f g
h i j k l m n o p ﴾.

الموضوع الثاني : أسباب النصر والهزيمة . وجاء هذا الموضوع في الآيات (١٣) إلى الآية (٥٤)، وذلك من قوله تعالى : [r s t u v x y
z { | } ~ ٱلۡعِقَابِ Z إلى قوله تعالى: [5 6 7 9
: ; = > ? @ A B C D F G H Z.

الموضوع الثالث: علاقة المسلمين بغيرهم وبعضهم في السلم والحرب ، وجاء هذا الموضوع في الآيات من(٥٥) إلى (٧٥) ، وذلك من قوله تعالى : ﴿ J K L
M N O P Q R S ﴾. إلى قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمۡۚ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ﴾.

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

المبحث الأول

أهم أحداث غزوة بدر

ويشمل الآيات (١ - ١٢) ، وجاء ذلك على ثلاثة محاور:

المحور الأول : الاختلاف في الأنفال والتوجيه الإلهي فيها .

المحور الثاني : حالة المؤمنين عند خروجهم إلى بدر ، والإرادة الإلهية من هذا الخروج .

المحورالثالث: استغاثة المؤمنين بربهم، وما أعقبه من المدد الرباني.

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

تمهيد

بعد التأمل والتدبر في هذه الآيات الكريمة ، يرى الباحث أنها تدور حول موضوع واحد يتعلق بـ(أهم أحداث غزوة بدر) ، وقد جاء الحديث عن هذا الموضوع في هذه الآيات على ثلاثة محاور :

المحور الأول : الاختلاف في الأنفال ، والتوجيه الإلهي فيها .

المحور الثاني : حالة المؤمنين عند خروجهم إلى بدر ، والإرادة الإلهية من هذا الخروج .

المحور الثالث : استغاثة المؤمنين بربهم ، وما أعقبه من المدد الرباني .

الحديث عن المحور الأول

(الاختلاف في الأنفال ، والتوجيه الإلهي فيها)

جاء الحديث عن هذا المحور في الآيات الأربع الأولى من السورة (١-٤) .

قال الله تعالى : ﴿ ! " # % & ' (* + , - .
0 1 2 3 4 5 6 7 8 9 : ; < = > ?
@ A B C D E F G H I J K L M
N O P Q R S U V W X Y Z [\ ﴾.

لقد استهلت السورة الكريمة بأول محور من محاور الموضوع الأول (أهم أحداث غزوة بدر) متحدثة في بدايته عن سؤال الصحابة y عن حكم الأنفال والغنائم التي غنموها في غزوة بدر، وهذا السؤال لم يأت إلا عن اختلاف حول الأنفال والغنائم ، ومما يدل على ذلك قول عبادة بن الصامت : « فينا معشر أصحاب بدر نزلت حين اختلفنا في النفل ، وساءت فيه أخلاقنا، فانتزعه الله من أيدينا ، وجعله إلى رسول الله r ، فقسمه رسول الله r بين المسلمين...»[(١)].

وقد كان هذا المحور حديث الصحابة رضوان الله عليهم فور انتهاء موقعة بدر ، ومن طبيعة النفوس البشرية بعد النصر والظفر أن تدركها نشوة الظفر ، وأن يكون لهذه النشوة شيء من

(١) تقدم تخريجه في مبحث ما ورد في فضل سورة الأنفال ، الصفحة (٤٢) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

الأثر باعتزازها بما صنعت وإعجابها بما قدمت ، وكان ذلك يهدد وحدة الكلمة ، ووحدة الجماعة ، فلذا كان حريا أن ينال قسطا من الاهتمام ، ويجعل مركز البحث وأول نقاطه ، وقد عالجته الآيات الكريمة معالجة قوية حاسمة ، وأوضحت أن الموضوع موضوع إيمان ، فإما استمساك بالإيمان وأداء لشروطه ، وإما إهمال وضياع ، أو نزول على أقل الأحوال عن حال كُمَّل الإيمان التي ينبغي أن يكون عليها أصحاب النبي r .

يقول ابن الزبير الغرناطي : « ثم ذُكِّروا بما ينبغي لهم أن يلتزموا فقال تعالى : ﴿ 7 8 .....﴾ إلى قوله : ﴿ C D ﴾ ، ثم نُبِّهوا على أن أعراض الدنيا من نفل أو غيره ، لا ينبغي للمؤمن أن يعتمد عليه اعتمادا يدخل عليه ضربا من الشرك ، والتفاتا إلى غير الله سبحانه ، بقوله : ﴿ E F G ﴾ ، ثم ذُكِّروا بما وُصِف به المتقون في الصلاة والإنفاق ، ثم قال: ﴿ P Q R S ﴾ تنبيها على أن من قصر على هذه الأحوال ، أو لم يأت بها على كمالها، لم يخرج عن الإيمان ، ولكن نزل عن درجة الكمال بحسب تقصيره، وكأن في هذا إشعارا بعذرهم في كلامهم في الأنفال ، وأنهم قد كانوا في مطلبهم على حالة من الصواب وشوب من التمسك والإتباع ، لكن أعلى الدرجات ما بين لهم ومنحوه ، وأنه الكمال والفوز»(١).

وقد تضمنت آيات هذا المحور بيانا لصفات خمس من صفات كُمَّل الإيمان ، فقال : ﴿ 7 8 9 : ; < = > ? @ A B C D E F G H I J K L M N O ﴾ .

وقد جاءت هذه الصفات متناسقة غاية التناسق مع المحور العام للسورة ، وهو (الجهاد في سبيل الله) ، ومترابطة أشد الترابط مع المحور الخاص بموضوع (أهم أحداث غزوة بدر) ، فقد كان الاختلاف في الأنفال فيه شيء من التنزل عن المرتبة الإيمانية التي ينبغي أن يكون عليها خيار المؤمنين المجاهدين في سبيل الله ، ولا سيما الصحابة رضوان الله عليهم .

---

(١) الغرناطي ، البرهان في تناسب سور القرآن : (١٠٣-١٠٤) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

فخيار المؤمنين لا توجل قلوبهم عند ذكر أعدائهم ، ولا تبكي أعينهم عند حلول المصائب بل تطمئن إلى أمر الله ، ويزداد إيمانهم في مواطن القتال والبأس فيثقون بنصر الله U لهم ، ومنشأ تلك الزيادة والثقة هي من الآيات التي تتلى عليهم والتي فيها بشارة الله لهم بالنصر ، فيتوكلون على الله في جهادهم لأعدائهم غير ملتفتين إلى قوة الأعداء وكثرة عددهم وعتادهم ، متخذين في ذلك جميع الوسائل والأسباب التي تعينهم على النصر ، وهم بعد ذلك غير راغبين في الدنيا ، ولا سائلين عن الأنفال والغنائم ، فهم لا يخشون فقرا ، بل يعتمدون ويتوكلون على الله تعالى في جميع شؤون حياتهم ، مستعينين في ذلك بإقامة الصلاة ، فإن المصلى لا يجزع ولا يهلع ولا يمنع ، قال تعالى :﴿ K L M N O P Q R S T U V W X Y Z [\ ﴾ [سور المعارج:١٩-٢٢]، ومستعينين كذلك بالإنفاق على الضعفاء والمساكين سواء من أموالهم الخاصة أو مما غنموه من معارك الجهاد ، فإن هؤلاء كما قال عليه الصلاة والسلام : « ابغوني الضعيف ، فإنكم إنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم »(١) .

يقول السعدي : « قدم تعالى - أمام هذه الغزوة الكبرى المباركة - الصفات التي على المؤمنين أن يقوموا بها ، لأن من قام بها استقامت أحواله ، وصلحت أعماله ، التي من أكبرها الجهاد في سبيله »(٢).

وقد ربط الدكتور عبد الله دراز ذكر الصلاة بموضوع الجهاد ، فقال : « إن الخطاب هنا بالصلاة وغيرها يتوجه إلى المجاهدين من حيث هم مجاهدون ليحل المشاكل التي يثيرها موقف الجهاد نفسه ، فأول هذه المشاكل مشكلة الصلاة في الحرب ألا يكون الجهاد رخصة في إسقاط هذا الواجب أو في تأجيله يجيبنا الكتاب العزيز لا رخصة في ترك الصلاة ولا في تأجيلها لا في سلم ولا في حرب لا في أمن ولا في خوف » إلى أن قال : « والصلاة كما نعلم قوة معنوية على العدو وعدة من عدد النصر لا جرم كان من الحكمة أن تزود بها أرواح المجاهدين ،

(١) رواه النسائي في كتاب الجهاد ، باب الاستنصار بالضعيف ، برقم : (٣١٧٩) ، من حديث أبي الدرداء ، وصححه الألباني .
(٢) السعدي ، تيسير الكريم الرحمن : (١/٣١٥-٣١٦) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

والصلاة في الوقت نفسه طهرة للنفس من مساوئ الأخلاق تنقيها من دنس الشح والحرص على حطام الدنيا »[١].

وإنما ذكر الله U هذه الصفات الخمس هنا لأن جميع التكاليف داخلة تحتها ، إلا أنه تعالى خص من الصفات الباطنة التوكل بالذكر على التعيين ، ومن الأعمال الظاهرة الصلاة والزكاة على التعيين ، تنبيهاً على أن أشرف الأحوال الباطنة التوكل، وأشرف الأعمال الظاهرة، الصلاة والزكاة[٢].

وخلاصة القول في آيات هذا المحور أنها كانت تربية إيمانية من الله تعالى لأصحاب نبيه r بعد هذا النصر العظيم الذي أنعم به عليهم في بدر ، لتطهير نفوسهم من الاختلاف الذي ينشأ عن حب المال والتطلع إلى المادة ، وصيانتها من أن تصيبها غوائل النصر ، ودفعها إلى الحفاظ على ما فيه نصرهم وقوتهم .

---

(١) انظر : دراز ، النبأ العظيم : (٢٠٥) .

(٢) انظر : الرازي ، مفاتيح الغيب : (١٠١/١٥) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

الحديث عن المحور الثاني

(حالة المؤمنين عند خروجهم إلى بدر ، والإرادة الإلهية من هذا الخروج) .

جاء الحديث عن هذا المحور في الآيات (٥-٨) .

قال تعالى : ﴿] ^ _ ` a b c d e f g h i j k l m n o p q r s t u v w x y z { | } ~ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ © بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ ´ µ ¶ ¸ ﴾.

تمضي آيات هذا المحور في سياق الحديث عن أهم الأحداث للموقعة التي تمخضت عنها اختلاف الصحابة في الأنفال وتنازعهم عليها ، فتستعرض آيات هذا المحور حالة المؤمنين أثناء خروجهم إلى غزوة بدر، وتعقد الشبه بين ما جاء في المحور الأول من الاختلاف في الأنفال ، وبين هذا المحور وهو حالة بعضهم من التردد والحذر من مواجهة قوة قريش في تلك الموقعة .

وقد توسطت بين هذين المحورين كاف التشبيه ، مشبهة حالة اختلافهم في الأنفال وما وقع بينهم من المخاصمة في شأنها ، بحالتهم حين أخرج الله نبيه محمدا r إلى مقابلة إحدى الطائفتين فقد كان من بعض المسلمين شيء من التردد والخوف ، وعدم الاستجابة .

يقول ابن عطية : « إن هذه الكاف شبهت هذه القصة التي هي إخراجه من بيته بالقصة المتقدمة التي هي سؤالهم عن الأنفال ، كأنهم سألوا عن النفل وتشاجروا فأخرج الله ذلك عنهم، فكانت فيه الخيرة كما كرهوا في هذه القصة انبعاث النبي r فأخرجه الله من بيته فكانت في ذلك الخيرة ، فتشاجرهم في النفل بمثابة كراهيتهم ها هنا للخروج، وحكم الله في النفل بأنه لله وللرسول دونهم هو بمثابة إخراجه نبيه r من بيته، ثم كانت الخيرة في القصتين فيما صنع الله»(١).

---

(١) ابن عطية ، المحرر الوجيز : (٣/٢٤٥) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

وقد صورت آيات هذا المحور ما كان في نفوس بعض المؤمنين من أهل بدر من الخوف والتردد والحذر من مواجهة العدو الكافر ، فشبهته بحال من يجر إلى القتل ويساق إلى الموت ، وهو شاهد لأسبابه ، ناظر إلى موجباته ، وما كانت هذه المرتبة من الخوف والجزع إلا لقلة عددهم ، وعدم تأهبهم لمواجهة عدوهم(١) .

ولقد أراد النبي r أن يستنطق ما بداخل الصحابة رضوان الله عليهم ، ويعرف رأيهم في المواجهة التي سيخوضونها ضد الباطل وأئمة الكفر ، فقد استشار r الصحابة y فتكلم أبو بكر وعمر ، والمقداد بن عمرو ، وكل ذكر أحسن الكلام وأجمله ، إلا أنه أراد أن يسمع رأي الأنصار، فقال: « أشيروا علي أيها الناس»، فتكلم سعد بن معاذ كلاما طويلا حسنا سُرّ به النبي r عقبه ونشطه ، غير أن مقالتهم بالتأكيد لم تكن هي مقالة جميع الذين خرجوا من المدينة مع رسول اللّه r فلقد كره بعضهم القتال كما قلنا ، وعارض فيه ، لأنهم لم يستعدوا لقتال ، إنما خرجوا لملاقاة الفئة الضعيفة التي تحرس العير فلما أن علموا أن قريشا قد نفرت بخيلها ورجلها ، وشجعانها وفرسانها، كرهوا لقاءها كراهية شديدة ، هي هذه الكراهية التي رسمها التعبير القرآني صورتها بطريقة فريدة .

وقد ختم النبي r استشارته للصحابة في مواجهة قريش بكلمات كانت لها مدلولاتها ، حيث قال لهم : « سيروا وأبشروا ، فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين ، والله لكأني أنظر الآن إلى مصارع القوم »(٢) ، فسار الأصحاب y ممتثلين أمر الرسول r قد ذهب عنهم ما ألم ببعضهم من تردد يسير حين علموا أن حكم رسول الله r هو المسير إلى الأعداء ، فساروا وقلوبهم مجتمعة وعزائمهم ماضية .

ولقد ظهر في آيات هذا المحور وعد الله تعالى للجماعة المسلمة أحد شيئين في خروجهم ذلك ، فإما أن يعطيهم قافلة المشركين بما فيها ، وإما أن ينصرهم على جيش المشركين ، وقد

---

(١) انظر : الرازي ، مفاتيح الغيب : (١٠٢/١٥) ، وأبو السعود ، إرشاد العقل : (٦/٤) .

(٢) انظر : ابن كثير ، البداية والنهاية : (٣٢١/٣)، وقال : « رواه ابن إسحاق ، وله شواهد من وجوه كثيرة » ثم ذكر تلك الشواهد من عدة وجوه .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

رغبت أنفس بعض المسلمين بالقافلة إذ لا قتال ولا مشقة ولا مخاطرة ، فهم يحبون أن يكون لقائهم مع الطائفة التي لا حول لها ولا منعة ولا قتال، وهي القافلة التي فيها عير قريش وتجارتها، ولكن مراد الله كان غير ذلك ، فالله أراد أن يجمع بينهم وبين الطائفة التي لها الشوكة والقتال ليصر المسلمين عليهم ، فيظهر دينه ، ويرفع كلمة الإسلام، ويجعله عاليا على الأديان ، وهو أعلم بعواقب الأمور ، وهو الذي يدبر للمسلمين فيحسن التدبير ، فقد أراد فريق منهم أمرا ، وأراد الله أمرا آخر ، وأين ما أراد الله مما أرادوه ، أراد جل شأنه تثبيت المؤمنين وإرهاب المشركين ، وأن تتم المعجزة الإلهية ، وتنتصر القلة على الكثرة تمهيدا لنصر دينه وإعلاء كلمته كل هذه المعاني عوتب بها فريق المؤمنين عتابا أليما ممتزجا بالحجة البينة والأدلة القاطعة (١).

يقول سيد قطب : « لقد أراد الله - وله الفضل والمنة - أن تكون ملحمة لا غنيمة ؛ وأن تكون موقعة بين الحق والباطل ، ليحق الحق ويثبته ، ويبطل الباطل ويزهقه . وأراد أن يقطع دابر الكافرين ، فيقتل منهم من يقتل ، ويؤسر منهم من يؤسر ، وتذل كبرياؤهم ، وتخضد شوكتهم ، وتعلو راية الإسلام وتعلو معها كلمة الله ، ويمكن الله للعصبة المسلمة التي تعيش بمنهج الله ، وتنطلق به لتقرير ألوهية الله في الأرض ، وتحطيم طاغوت الطواغيت ، وأراد أن يكون هذا التمكين عن استحقاق لا عن جزاف - تعالى الله عن الجزاف - وبالجهد والجهاد ، وبتكاليف الجهاد ومعاناتها في عالم الواقع وفي ميدان القتال ، نعم . أراد الله للعصبة المسلمة أن تصبح أمة ؛ وأن تصبح دولة ؛ وأن يصبح لها قوة وسلطان ، وأراد لها أن تقيس قوتها الحقيقية إلى قوة أعدائها ، فترجح ببعض قوتها على قوة أعدائها ! وأن تعلم أن النصر ليس بالعدد وليس بالعدة ، وليس بالمال والخيل والزاد ، إنما هو بمقدار اتصال القلوب بقوة الله التي لا تقف لها قوة العباد . وأن يكون هذا كله عن تجربة واقعية ، لا عن مجرد تصور واعتقاد قلبي . ذلك لتتزود العصبة المسلمة من هذه التجربة الواقعية لمستقبلها كله ؛ ولتوقن كل عصبة مسلمة أنها تملك في كل زمان وفي كل مكان أن تغلب خصومها وأعداءها مهما تكن هي من القلة ويكن

(١) انظر : حوى ، الأساس في التفسير : (٢١٢٤/٣) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

عدوها من الكثرة ؛ ومهما تكن هي من ضعف العدة المادية ويكن عدوها من الاستعداد والعتاد، وما كانت هذه الحقيقة لتستقر في القلوب كما استقرت بالمعركة الفاصلة بين قوة الإيمان وقوة الطغيان ، فأين ما أرادته العصبة المسلمة لنفسها مما أراده الله لها؟ لقد كانت تمضي - لو كانت لهم غير ذات الشوكة - قصة غنيمة ، قصة قوم أغاروا على قافلة فغنموها ! فأما بدر فقد مضت في التاريخ كله قصة عقيدة ، قصة نصر حاسم وفرقان بين الحق والباطل ، قصة انتصار الحق على أعدائه المدججين بالسلاح المزودين بكل زاد ؛ والحق في قلة من العدد، وضعف في الزاد والراحلة ، قصة انتصار القلوب حين تتصل بالله ، وحين تتخلص من ضعفها الذاتي ، بل قصة انتصار حفنة من القلوب من بينها الكارهون للقتال ! ولكنها ببقيتها الثابتة المستعلية على الواقع المادي ، وبيقينها في حقيقة القوى وصحة موازينها ، قد انتصرت على نفسها ، وانتصرت على من فيها ، وخاضت المعركة والكفة راجحة رجحاناً ظاهراً في جانب الباطل؛ فقلبت بيقينها ميزان الظاهر ؛ فإذا الحق راجح غالب »[١] .

---

(١) انظر : سيد ، في ظلال القرآن : (٣/١٤٨١-١٤٨٢)

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

الحديث عن المحور الثالث

(استغاثة المؤمنين بربهم ، وما أعقبه من المدد الرباني) .

وقد جاء الحديث عن هذا المحور في الآيات (٩-١٢) .

قال تعالى: ﴿ ! " # $ % & ' ( ) * + ,
- . / 0 1 2 3 4 6 7 8 9 : ; = > ? @
A B C D E F G H I J K L M N O
P Q R S T U V W X Y Z [\ ] ^
_ ` a b d e f g h i j k l
m n o p q ﴾ .

لقد جاءت آيات هذا المحور في سياقها التناسقي الموضوعي الرائع ، فبعد أن ذكرت آيات المحورين السابقين ، اختلاف المؤمنين في الأنفال وجاء التوجيه الرباني فيها ، وذكرت حالتهم عند الخروج وبينت الإرادة الإلهية من هذا الخروج ، جاء هذا المحور لبيان أن المؤمنين عندما علموا أنه لا بد لهم من القتال، وأن تلك إرادة الله تعالى ، جعلوا يدعون الله تعالى ، ويبتهلون إليه ، ويستغيثون به .

ولقد كانت استجابة الله تعالى لاستغاثتهم سريعة ومباشرة ، وذلك لدلالة الفاء في ﴿ $ ﴾ ، وأنبأهم أنه ممدهم أولا بألف من الملائكة مردفين .

ثم ذكر الله U أن هذا الإمداد ليس إلا بشارات للمؤمنين لبث الطمأنينة في قلوبهم ، لأن حقيقة النصر ليست إلا من عنده I .

يقول سيد قطب : « ومع عظمة هذا الأمر ودلالته على قيمة هذه العصبة وقيمة هذا الدين في ميزان الله ؛ إلا أن الله I لا يدع المسلمين يفهمون أن هناك سبباً ينشئ نتيجة ، إنما يرد الأمر كله إليه سبحانه تصحيحاً لعقيدة المسلم وتصوره ، فهذه الاستجابة، وهذا المدد ، وهذا الإخبار به ، كل ذلك لم يكن إلا بشرى ، ولتطمئن به القلوب ، أما النصر فلم يكن إلا من عند الله ولا يكون ، هذه هي الحقيقة الاعتقادية التي يقررها السياق القرآني هنا ، حتى لا يتعلق قلب المسلم بسبب من الأسباب أصلاً ، لقد كان حسب المسلمين أن يبذلوا ما في

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

طوقهم فلا يستبقوا منه بقية ؛ وأن يغالبوا الهزة الأولى التي أصابت بعضهم في مواجهة الخطر الواقعي ، وأن يمضوا في طاعة أمر الله ، واثقين بنصر الله ، كان حسبهم هذا لينتهي دورهم ويجيء دور القدرة التي تصرفهم وتدبرهم ، وما عدا هذا فكان بشارة مطمئنة ، وتثبيتاً للقلوب في مواجهة الخطر الواقعي ، وإنه لحسب العصبة المؤمنة أن تشعر أن جند الله معها لتطمئن قلوبها وتثبت في المعركة ، ثم يجيء النصر من عند الله وحده ، حيث لا يملك النصر غيره »(١).

ثم تمضي آيات هذا المحور في سياق الحديث عن بعض ما أمده الله تعالى للمؤمنين ، وأنعم عليهم عقب تلك الاستغاثة ، فعندما ذُكر المدد الإلهي بجيش الملائكة، وهم في حقيقتهم فوق طاقة المعرفة البشرية يعقبها ذكر مدد من الأسباب العادية ، ومظاهر الكون التي يعرفون من حولهم ، وهو ذلك النعاس الذي غشيهم في غير موطنه ، وعلى غير انتظار ، فقد كانت هذه الغشية ، وهذه الطمأنينة ، مدداً من أمداد الله للمؤمنين قبيل معركة بدر ، وكانت تلك حالة نفسية عجيبة ، لا تكون إلا بأمر الله وقدره وتدبيره ، فإن النوم يجافي عيون من أثقل الهم والقلق قلبه.

يقول الطاهر ابن عاشور : « لقد أبدع نظم الآيات في التنقل من قصة إلى أخرى من دلائِل عناية الله تعالى برسوله r وبالمؤمنين ، حيث قَرَنها بزمانها ، وجعل ينتقل من إحداها إلى الأخرى بواسطة ﴿إذ﴾ الزمانية ، وهذا من أبدع التخلص ، وهو من مبتكرات القرآن ، ولذلك فالظرف في هذه الآية مفعول فيه لجملة الآية السابقة : ﴿ 6 7 ﴾ فإن إغشاءهم النعاس كان من أسباب النصر ، فلا جرم أن يكون وقت حُصوله طرفاً للنصر»(٢).

ثم أردف الله تعالى ذلك المدد بمدد آخر قبيل المعركة فكان الماء النازل من السماء ، ليطهرهم من دنس ورجز الشيطان ، ويثقون بوجود العناية الإلهية لهم ، فتتماسك الأرض من تحتهم فتثبت أقدامهم .

يقول سيد قطب : « والمدد على هذا النحو مدد مزدوج : مادي وروحي ، فالماء في الصحراء مادة الحياة ، فضلاً على أن يكون أداة النصر ، والجيش الذي يفقد الماء في الصحراء يفقد أعصابه قبل أن يواجه المعركة ، ثم هذه الحالة النفسية التي صاحبت الموقف ووسوس بها الشيطان! حالة التحرج من أداء الصلاة على غير طهر لعدم وجود الماء (ولم يكن قد رخص لهم بعد في التيمم ، فقد جاء هذا متأخراً في غزوة بن المصطلق في السنة الخامسة) ، وهنا تثور

(١) سيد ، في ظلال القرآن : (١٤٨٣/٣- ١٤٨٤) .
(٢) ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٢٧٦/٩) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

الهواجس والوساوس ، ويدخل الشيطان من باب الإيمان ليزيد حرج النفوس ووجل القلوب! والنفوس التي تدخل المعركة في مثل هذا الحرج وفي مثل هذا القلق تدخلها مزعزعة مهزومة من داخلها ، وهنا يجيء المدد وتجيء النجدة ، ﴿ M L K J I H G N O P Q R S T U V W ﴾ ، ويتم المدد الروحي بالمدد المادي ، وتسكن القلوب بوجود الماء ، وتطمئن الأرواح بالطهارة ؛ وتثبت الأقدام بثبات الأَرض وتماسك الرمال »(١).

وبعد أن ذكر الله U ما فعل للمسلمين قبيل المعركة من نعم عديدة ، ذكرهم بنعمة أخرى خفية أظهرها الله لهم ليشكروه عليها ، ولتتذكرها الأجيال، فيقاتلوا ويتوكلوا على الله، واثقين بنصره وتأييده(٢)، فقال تعالى:﴿ Y Z [\ ] ^ _ ` a b d e f g h i j k l m n o p q ﴾.

قال أبو حيان(٣) : « هذا أيضاً من تعدد النعم إذ الإيحاء إلى الملائكة بأنه تعالى معهم أي ينصرهم ويعينهم ، وأمرهم بتثبيت المؤمنين والإخبار بما يأتي بعد من إلقاء الرعب في قلوب أعدائهم ، والأمر بالضرب فوق أعناقهم ، وكلّ بنان منهم من أعظم النعم ، وفي ذلك إعلام بأنّ الغلبة والظفر والعاقبة للمؤمنين »(٤) .

وبعد التأمل والتدبر والحديث عن هذه المحاور الثلاث ، تبين من خلالها أنها أتت لتذكر أهم أحداث غزوة بدر ، وتبين عناية الله لرسوله وللمؤمنين ، في غزوة كانت نبراسا وقدوة للمجاهدين في سبيل الله ، يستقون منها دروسا عديدة في الجهاد ، ومن أهمها عدم التعلق بالمادة ، وتصحيح النية لكي يكون هدف الجهاد هدفا ساميا لإعلاء كلمة الله في الأرض، والتعلق به والالتجاء إليه والاستغاثة به وحده ، وبذلك يضمنون النصر على أعدائهم ظاهرا وواقعا .

---

(١) سيد ، في ظلال القرآن : (٣/ ١٤٨٥) .

(٢) انظر : حوى ، الأساس في التفسير : (٣/ ٢١٢٧) .

(٣) هو: محمد بن علي بن يوسف بن حيان، إمام النحاة، ألف في التفسير والحديث والأدب وغيرها ، ولد في غرناطة سنة أربع وخمسين وستمائة ، وتوفي سنة خمس وأربعين وسبعمائة . انظر : الصفدي ، صلاح الدين خليل بن أيبك، الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، بيروت: دار إحياءالتراث١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م،(١٧٥/٥).

(٤) أبو حيان ، البحر المحيط : (٤/٤٦٥) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

المبحث الثاني

أسباب النصر والهزيمة

ويشمل الآيات (١٣-٥٤) ، وجاء ذلك في محورين :

المحور الأول : ارتباط النصر والهزيمة بالأسباب المادية والمعنوية.

من الآية : (١٣-٤١) .

المحور الثاني : عوامل وأسباب النصر والهزيمة .

من الآية : (٤٢-٥٤) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

تمهيد

بعد التأمل والتدبر في هذه الآيات الكريمة ، وما قبلها من بداية السورة الكريمة ، تبين لي أنها سيقت لبيان (أسباب النصر والهزيمة) ، بعد تلك الموقعة العظيمة التي تحدثت عنها الآيات السابقة ، والتي وهب الله فيها المؤمنين نصرا عظيما ، وأنزل الهزيمة النكراء على أعداءه وأعداء دينه وأولياءه ، وقد جاء الحديث في هذه الآيات الكريمة عن هذا الموضوع من خلال محورين :

المحور الأول : ارتباط النصر والهزيمة بالأسباب المادية والمعنوية ، من الآية : (١٣-٤١).

المحور الثاني : عوامل وأسباب النصر والهزيمة ، من الآية : (٤٢-٥٤) .

الحديث عن المحور الأول

(ارتباط النصر والهزيمة بالأسباب المادية والمعنوية)

جاء الحديث عن هذا المحور في الآيات : (١٣-٤١) .

قال تعالى : ﴿ r s t u v x y z { | } ~
ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾ © ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ
ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ´ µ ¶ ¸ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا
إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ ! " #
6 5 3 2 1 0 / - , + *) (' % $
E D C B A @ ? > = < ; : 9 8 7
Y X W V U T S R Q P O N M K J I H G
h g f e d c b a ` _ ^] \ [Z
y x w v u t s r q p o n m l k j i
z { | } ~ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم © ﴿٢٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ ´ µ ¸ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ
وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ ....

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٢٥﴾

- , + *) (' & % $ # " !

; : 9 8 7 6 5 4 3 2 1 0 / .

H G F E D C B A @ ? > = <

W V U T S R Q P O N M L K J I

i h g f e d c b a ` _ ^] \ [Y X

{ z y x w v u t s r q p o m l k

| } ~ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذۡ قَالُواْ © إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ

مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا ´ µ ¶ ¸ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ

لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ﴿٣٣﴾ ! " # $ % &

4 3 2 1 0 / . - , + *) ('

C B A ? > = < ; : 9 8 7 6 5

Q O N M L K J I H G F E D

` _ ^] \ [Z Y W V U T S R

o m l k j i h g f e d c b a

p q r s t u v w x y z { | } ~ فَقَدۡ

مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ © وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ

فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ ´ µ ¶ ¸ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡۚ نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ

وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾ ! " # $ % & ' ( ) * + , -

< ; : 9 8 7 6 5 4 3 2 1 0 / .

. ﴾ D C B A @ ? =

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

فبعد أن ذكر الله عز وجل في آيات الموضوع الأول ، أهم أحداث غزوة بدر ، وكيف تم النصر العظيم للمؤمنين، والهزيمة الساحقة على الكافرين ، جاء الحديث في آيات هذا المحور مسوقا لبيان أسباب هذا النصر وتلك الهزيمة ، فبدأ أولا بذكر سبب هزيمة كفار قريش ، فذكر أنها كانت بسبب كفرهم ومشاقتهم لله ورسوله، فقال تعالى : ﴿ r s t u v x y z { | } ~ ٱلْعِقَابِ﴾، وأن هذه الهزيمة التي نزلت بهم أولا ليست إلا بداية خذلان الله لهم، حيث ينتظرهم في الآخرة عذاب النار﴿ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾.

ثم عقب بعد ذلك ببيان سبب نصر المؤمنين في غزوة بدر ، بأسلوب التحذير والنهي ، في إشارة إلى أنه لا يستحق النصر من يفرط في الأسباب المادية والمعنوية ، ومن أهم تلك الأسباب بعد الإيمان بالله تعالى ، -المشار إليه بالنداء للمؤمنين - ، الشجاعة التي تجعل صاحبها يقدم على مواجهة عدوه ، ولا يهون في ساعات الوغى ، ولا يفر من أمام أعدائه ، بل يثبت ويقبل بصدره على الموت وقتال العدو، فقال تعالى: ﴿ © ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ´ ﴾.

وأيضا لما ذكر الله U استغاثة المؤمنين به وإجابتهم على الفور في الآيات السابقة ، فقد يظن الظان أن الاستغاثة والدعاء وحدهما يكفيان في الحروب ، فيخشى من مواجهة العدو، فأشار I في هذه الآية إلى أنه وإن كان النصر من عنده I إلا أنه يجب عليهم مكافحة العدوّ ومواجهته ، وعدم الفرار عنه .

وفي هذا المعنى يقول ابن عاشور : « لما ذكَّرَ الله المسلمين بما أيدهم يوم بدر بالملائكة والنصر من عنده ، وأكرمهم بأن نصرهم على المشركين الذين كانوا أشد منهم ، وأكثر عدَداً وعُدداً ، وأعقبه بأن أعلمهم أن ذلك شأنه مع الكافرين به ، اعترض في خلال ذلك بتحذيرهم من الوهن والفرار ، وفي هذا تدريب للمسلمين على الشجاعة والإقدام والثبات عند اللقاء ، وهي خطة محمودة عند العرب لم يزدها الإسلام إلاّ تقوية »(١).

---

(١) ابن عاشور ، التحرير ولتنوير : (٩/٢٨٦) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

وقد بين سبحانه في هذه الآية أن تولية الأدبار محرمة ، وأن صاحبه يستحق الغضب والعقوبة من الله تعالى ، واستثنى الله U من ذلك حالتين ، فقال تعالى : ﴿ ¶ ¸ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ ﴾ .

وقد جعل النبي r الفرار يوم الزحف من السبع الموبقات ، فقال u : «اجتنبوا السبع الموبقات - أي المهلكات - قالوا : يا رسول الله وما هن ؟ قال : الشرك بالله، والسحر ، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولي يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات» (١).

ولما ذكر الله U أن الثبات في المعركة والشجاعة والإقدام وعدم الفرار من العدو مطلب مهم في الجهاد ، وسبب عظيم من أسباب نصر الله U للمؤمنين على عدوهم ذكر في الآية التي بعدها سببا آخر كان مرتبطا بالنصر الإلهي للمؤمنين في الموقعة التي تحدثت عنها الآيات السابقة ، فقد أشارت الآية إلى أنه يجب على المؤمنين أن لا يركنوا إلى الأسباب المادية الظاهرة وأن لا يفتنوا بها ، بل ليعلموا أن هناك أسبابا معنوية خفية يؤيد الله به عباده المؤمنين ، وألا ينسوا أن حقيقة القتل والنصر هما بعون الله وتأييده ، فكم من جريح لا يموت في المعركة ، وغير مجروح يموت فيها ، وكم من ضربات بالسيف تخطئ هدفها ، وكم من سهم يخطئ هدفه ، إلا أن من كان الله ناصره ﴿ 6 7 8 9 : ; ﴾ فإنه سيسدد ضرباته ورمياته وتصيب أهدافها مباشرة ، ولهذا قال تعالى: ﴿ ! " # $ % ' ( ) * + , - ﴾.

وإلى ما ذكرته من علاقة التناسق يشير ابن عاشور بقوله : « والتفريع بالفاء تفريع العلة على المعلول ، فإن كون قتل المشركين ورميهم حاصلاً من الله لا من المسلمين يفيد تعليلاً وتوجيهاً لنهيهم عن أن يولوهم الأدبار ، ولأمْرهم الصبر والثبات وهو تعريض بضمان تأييد الله إياهم إن امتثلوا لقوله ، فإنهم إذا امتثلوا ما أمرهم الله كان الله ناصرهم ، وذلك يؤكد الوعيد على تولية

---

(١) أخرجه البخاري ، في كتاب الجمعة ، باب قوله تعالى : ﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما..﴾ برقم : (٢٧٦٦). وباب رمي المحصنات ، برقم : (٢٧٦٦) ؛ ومسلم ، باب بيان الكبائر وأكبرها ، برقم (٨٩) . وكلاهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

الأدبار ، لأنه يقطع عذر المتولين والفارين » إلى أن قال : « كان المقصود إعلامهم بنفي ما يظنونه من أن حصول قتل المشركين يوم بدر كان بأسباب ضَرب سيوف المسلمين ، فأنباهم أن تلك السيوف ما كان يحق لها أن تؤثر ذلك التأثير المصيب المطرد العام الذي حل بأبطال ذوي شجاعة ، وذوي شوكة وشِكّة ، وإنما كان ضرب سيوف المسلمين صورياً ، أكرم الله المسلمين بمقارنته فعلَ الله تعالى الخارقَ للعادة ، فالمنفي هو الضرب الكائنُ سببَ القتل في العادة ، وبذلك كان القتل الحاصل يومئذٍ معجزة للرسول r ، وكرامة لأصحابه ، وليس المنفي تأثير الضرب في نفس الأمر بناء على القضاء والقدر ، لأنه لو كان ذلك لم يكن للقتل الحاصل يوم بدر مزية على أي قتل يقع بالحق أو بالباطل ، في جاهلية أو إسلام ، وذلك سياق الآية الذي هو تكريم المسلمين وتعليل نهيهم عن الفرار »(١).

وقد حصل الرمي الذي ذكر في الآية في غزوة بدر على القول الراجح من أقوال العلماء ، فقد روى ابن إسحاق وغيره : «أن رسول الله r بعد أن حرّض المؤمنين على القتال يوم بدر أتاه جبريل ، فقال : خذ قُبْضة من تراب فارمهم بها ، فأخذ حفنة من الحصاء ، فاستقبل بها المشركين ، ثم قال : «شاهت الوجوه » ثم نفحهم بها ، ثم أمر أصحابه فقال : «شُدوا» فكانت الهزيمة على المشركين »(٢).

ولما ذكر الله U تلك الأسباب المادية التي ارتبطت بالنصر الإلهي في معركة بدر ، ذكر أن الغرض منه هو اختبار المؤمنين مدى صبرهم وإيمانهم وثقتهم بالله U وبنصره ، وبتنفيذ تكاليفه في الجهاد ، وإلا فإن الله U لا يحتاج إلى الأسباب المادية ، بل هو قادر على إنزال النصر عليهم وهزيمة الكفار من غير مباشرة منهم للأسباب ، فقال تعالى : ﴿ / 0 1 2 3 ﴾ .

---

(١) ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٩/٢٩٣- ٢٩٤) .

(٢) انظر : مغازي الواقدي : (١/٩٥) ، والطبري في تفسيره رقم : (١٥٨٢٢) ، والطبراني في الكبير برقم : (٣١٢٧)، والأوسط، برقم : (٩٠٩٧) ، والبيهقي ، دلائل النبوة : (٣/٧٩) ، وأبو نعيم ، دلائل النبوة : (٢/ ٦٠٥ -٦٠٦) ، وهذه الروايات كلها دالة على رمي النبي صلى الله عليه وسلم بالتراب أو الحصى في وجوه المشركين يوم بدر ؛ وقد وردت من طرق لا تخلو من مقال ؛ إلا أن بمجموعها وبسياق الآية الكريمة ترتقي إلى درجة الحسن . انظر : العواجي ، محمد ، مرويات الإمام الزهري في المغازي ، الطبعة الأولى ، مكتبة المدينة الرقمية ، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م ، (١/ ٢٣) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

وهذا الذي ذكرته من أن المراد بالبلاء هنا هو اختبار الله تعالى وامتحانه للمؤمنين باتخاذ الأسباب المادية في جهاد أعداءهم ، هو الموافق لسياق الآيات وتناسق الموضوعات ، وقد ذهب إلى ذلك بعض أهل العلم ، فقد نقل أبو حيان عن بعضهم أنه قال : « ولولا أنَّ المفسرين اتفقوا على حمل البلاءِ هنا على النعمة ، وإلاَّ لكان يحتمل المِحْنَة بالتكليف فيما بعده من الجهاد ، حتى يقال : إنّ الذي فعله تعالى يوم بدر كان السبب في حصول تكليف شاق عليهم فيما بعد ذلك من الغزوات » [١].

وأيضا كان هناك غرض إلهي آخر من مباشرة المؤمنين للأسباب المادية ، وهو توهين أمر المشركين وكيدهم بأيد المؤمنين ، ويشف صدورهم منهم ، وذلك ما ذكره I بقوله: ﴿ : ; < = > ? ﴾ .

ولما ذكر الله تعالى الأسباب المادية التي ارتبطت بنصره للمؤمنين في معركة بدر ، ذكر الأسباب المعنوية فبدأ بأهم سبب معنوي في المعارك الجهادية وخاصة في معركة بدر ، فقد كان دعاء الله تعالى وطلب النصر منه ، واستغاثة المؤمنين به ، واستجابته لهم ، واضحا جدا من خلال آيات الموضوع الأول ، ولهذا قال تعالى في آيات هذا المحور : ﴿ A B C D E ﴾ ، والمعنى: إن تستنصروا الله فقد جاءكم النصر[٢] .

وقد اختلف العلماء في المراد بالخطاب هنا ، فذكر جمهور العلماء إلى أن الخطاب هنا موجه إلى المشركين ، فيكون الكلام اعتراضاً خوطب به المشركون في خلال خطابات المسلمين بمناسبة قوله : ﴿ : ; < = > ? ﴾ والخطاب التفات من طريق الغيبة .

وقد استدل أصحاب هذا القول بالآثار المروية في سبب نزول هذه الآية الكريمة ، وأنها نزلت في استنصار أبي جهل وأصحابه في معركة بدر ، وقد ذكرت ذلك في مبحث أسباب النزول[٣].

ومن المفسرين من جعل الخطاب في هذه الآية موجها للمسلمين ، لكون خطاب المشركين بعد الهجرة قد صار نادراً ، لأنهم أصبحوا بُعداء عن سماع القرآن [٤].

---

(١) أبو حيان ، البحر المحيط : (٤/٤٧٢) .
(٢) انظر : أبو حيان ، البحر المحيط : (٤/٤٧٢) .
(٣) انظر : الصفحة (٧٩) .
(٤) ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٩/٣٠٠) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

قال الرازي : « اعلم أن أكثر المفسرين حملوا قوله: ﴿A B﴾ على أنه خطاب للكفار ، واحتجوا بقوله تعالى : ﴿وَإِن تَعُودُوا نَعُدْ﴾ فظنوا أن ذلك لا يليق إلا بالقتال ، وقد بينا أن ذلك يحتمل الحمل على ما ذكرناه من أحوال المؤمنين ، فسقط هذا الترجيح »(١).

وقد ذكر ابن عاشور أن كلا القولين يمكن أن يكونا مرادا ، فقال : « فهذان تفسيران للآية والوجدان يكون كلاهما مراداً »(٢).

إلا أنني ومن خلال تأملاتي في تناسق محاور موضوع هذه الآيات ، اتضح لي أن القول الثاني هو المراد والمناسب في هذا المقام ، وفي سياق التناسق الموضوعي فيها ، لأنه لم يرد خطاب للكفار لا قبل هذه الآية ولا بعدها ، ولأن محور الآيات هنا يدور حول بيان ارتباط نصر الله للمؤمنين في معركة بدر بالأسباب المادية والمعنوية .

وقد ذكر الألوسي أن سياق الآيات تدل على ذلك ، فقال : « وأيد كون الخطاب في الجميع للمؤمنين بقوله تعالى : ﴿ \ ] ^ _ ` a b c ﴾ »(٣).

ولما ذكر I أهم الأسباب المعنوية التي أدت إلى نصر المؤمنين ذكر سببا آخر لا يقل أهمية عن سابقه بالنسبة للمؤمنين وهو طاعة الله تعالى وطاعة رسوله والحذر من مخالفتهما ، فقال تعالى : ﴿ \ ] ^ _ ` a b c d e f ﴾ .

قال ابن عاشور : « وفي هذا رجوع إلى الأمر بالطاعة الذي افتتحت به السورة في قوله : ﴿ 0 1 2 3 4 5 ﴾ رجوع الخطيب إلى مقدمة كلامه ودليلِهِ ليأخذها بعد الاستدلال في صورة نتيجة أسفر عنها احتجاجه ، لأن مطلوب القياس هو عين النتيجة ، فإنه لما ابتدأ فأمرهم بطاعة الله ورسوله بقوله : ﴿ 0 1 2 3 4 5 ﴾ في سياق ترجيح ما أمرهم به الرسول r على ما تهواه أنفسهم ، وضرب لهم مثلاً لذلك بحادثة كراهتهم

(١) الرازي ، مفاتيح الغيب : (١١٥/١٥) .
(٢) ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٣٠١/٩) .
(٣) الألوسي ، روح المعاني : (١٨٨/٩) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

الخروج إلى بدر في بدء الأمر ومجادلتهم للرغبة في عدمه ، ثم حادثة اختيارهم لقاء العير دون لقاء النفير خشية الهزيمة ، وما نجم عن طاعتهم الرسول عليه الصلاة والسلام ومخالفتهم هواهم ذلك من النصر العظيم والغُنم الوفير لهم مع نزارة الرزء ، ومن التأييد المبين للرسول r ، والتأسيس لإقرار دينه ، ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ © بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ﴾ وكيف أمدهم الله بالنصر العجيب لما أطاعوه وانخلعوا عن هواهم ، وكيف هزَم المشركين ؛ لأنهم شاقوا الله ورسوله ، والمشاقة ضد الطاعة تعريضاً للمسلمين بوجوب التبرؤ مما فيه شائبة عصيان الرسول r ، ثم أمرهم بأمر شديد على النفوس ألا وهو ﴿إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ´ ﴾ وأظهر لهم ما كان من عجيب النصر لما ثبتوا كما أمرهم الله ﴿ ! " # $ % ﴾، وضمن لهم النصر إن هم أطاعوا الله ورسوله وطلبوا من الله النصر، أعقب ذلك بإعادة أمرهم بأن يطيعوا الله ورسوله ولا يتولوا عنه، فذلكة[١] للمقصود من الموعظة »[٢].

ويقول سعيد حوى : « هذا هو التوجيه في هذا المقطع ، وهو أمر بالطاعة المطلقة لله والرسول ، وأمر بالسماع الدقيق لرسول الله r في شأن القتال وغيره في الظاهر والباطن ، وبدون ذلك لا يكون نصره رباني ، فالنصر الرباني مفتاحه وشرطه وسببه الطاعة الكاملة لله والرسول r ، وقد كان هذا في حياة رسول الله r واضحا ، وأما بعد وفاته عليه الصلاة والسلام ، فالطاعة لله ورسوله تكون بالتزام كتاب الله وسنة رسوله r من قبل المسلمين أمراء وجند ، ومن ثم طاعة الأمراء في الله ، وبدون ذلك لا يقوم قتال ولا جهاد رباني»[٣].

ثم استطردت الآيات بعد ذلك في تشويه مخالفة أوامر الله ورسوله ، وذلك بالتمثيل والتنظير، حيث أن لهما أثرا عظيما في حث النفس على التشبه أو التجنب ، فقال تعالى محذرا من المخالفة : ﴿ h i j k l m n o p r s t u v w x y z { ﴾ .

---

(١) الفذلكة هي : مجمل ما فصل وخلاصته ، انظر : المعجم الوسيط : (٦٧٨/٢) .

(٢) ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٣٠٢/٩-٣٠٣) .

(٣) حوى ، الأساس في التفسير : (٣٠٢/٩-٣٠٣) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

ولما أمر I بعموم طاعته وطاعته رسوله ، وكان ذلك من الأسباب المعنوية لنصرة الله لهم في معركة بدر ، أمرهم بالاستجابة له ولرسول إذا دعاهم لما فيه حياتهم من مجاهدة الكفار وطلب الحياة الأبدية [١] ، وعدم التقاعس والمجادلة فيه ، كما حدث من بعضهم في غزوة بدر، إلا أنهم في النهاية عندما أذعنوا لطاعة الله ورسوله ، واستجابوا لداعي الجهاد ، نصرهم الله تعالى على عدوهم ، فقال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ ´ µ ﴾ .

ويبدو للمتأمل أن ثمة ربطا واضحا بين استجابة الله تعالى لدعوتهم واستغاثتهم له بعد أن وجدوا الموت أمام أعينهم كما تقدم في الآيات السابقة ، وبين أمر الله تعالى لهم باستجابة ما يدعوه ورسوله إليه مما فيه حياتهم في هذه الآية : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ ´ µ ﴾ .

ثم إن المؤمنين لما دعوا -في هذه الآية- إلى القتال والجهاد ، وكانوا في غاية الضعف والقلة خافت قلوبهم ، وضاقت صدورهم ، فقيل لهم : قاتلوا في سبيل الله تعالى إذا دعيتم ، ﴿ ¸ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ ﴾ فيبدل الأمن خوفا ، والجبن جرأة [٢].

وإنني أرى تناسقا آخر بين التحذير من الفتنة التي لا تصيب الذي ظلموا خاصة في قوله تعالى : ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةً ﴾ وبين كراهة فريق من المؤمنين عن الاستجابة لما دعاهم النبي r من مواجهة كفار قريش في معركة بدر ، ومجادلتهم النبي r في ذلك ، إلا أن الله U لطف بهم ، فأنجاهم من تلك الفتنة التي كانت ستعصف بالمؤمنين لولا لطف الله ورحمته بهم ولجاءت على الظالم الذي لم يستجب لداعي الجهاد والقتال ، وعلى الذين استجابوا له .

قال الألوسي : « وقد أخرج نهيهم عن ذلك على أبلغ وجه ، وأقيم الظالمون مقام ضميرهم تنبيها على أن تعرض الفتنة وهي افتراق الكلمة من أشد الظلم لا سيما من هؤلاء الأجلاء»[٣].

---

(١) الألوسي ، روح المعاني : (١٩٢/٩) .
(٢) انظر : الألوسي ، روح المعاني : (١٩٢/٩) .
(٣) الألوسي ، المصدر السابق : (١٩٤/٩) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

وقال ابن عاشور : « إن المسلمين إن لم يكونوا كلمة واحدة في الاستجابة لله وللرسول عليه الصلاة والسلام دب بينهم الاختلاف ، واضطربت أحوالهم ، واختل نظام جماعتهم باختلاف الآراء ، وذلك الحال هو المعبر عنه بالفتنة »[١] .

ثم استطردت الآيات بعد ذلك في بيان ما كان عليه حال المؤمنين قبل موقعة بدر ، من الضعف والذل والهوان ، وكيف يسر لهم I أسباب النصر والتأييد والعز من غير مظانها ، فكيف هم بعد ذلك لا يطيعون الله ورسوله ، ولا يستجيبون لأوامرهما التي فيها حياة لهم ، فقال تعالى : ﴿ ! " # $ % & ' ( ) * + ﴾ .

ويبدو للمتأمل أن ثمة تناسقا واضحا في هذه الآية مع المحور العام للسورة وهو (الجهاد في سبيل الله) حيث إنها جاءت لتذكر المؤمنين بحالهم قبل الجهاد من الضعف والذل ، وحالهم بعد الجهاد من القوة والعزة والتمكين ، وهذه الآية صادقة على المؤمنين في كل عصر ، فإنهم إن تركوا الجهاد في سبيل الله عاد عليهم حالهم قبل الجهاد من الضعف والهوان على الأمم ، وإن استجابوا لداعي الجهاد عاد إليهم النصر والتمكين والتأييد من الله U .

وأيضا ففي قوله تعالى : ﴿ / 0 1 ﴾ إشارة إلى محور من محاور الموضوع الأول وهو اختلافهم في حكم الأنفال ، وأن الغنائم والأنفال من طيبات ما رزقهم الله تعالى[٢].

قال ابن عاشور : « عُطف على الأمر بالاستجابة لله فيما يدعوهم إليه ، وعلى إعلامهم بأن الله لا تخفى عليه نياتُهم ، وعلى التحذير من فتنة الخلاف على الرسول r ، تذكيرُهم بنعمة الله عليهم بالعزة والنصر، بعد الضعف والقلة والخوف، ليذكروا كيف يسر الله لهم أسباب النصر من غير مظانها ، حتى أوصلهم إلى مكافحة عدوهم ، وأن يتقيَ أعداؤُهم بأسَهم ، فكيف لا يستجيبون لله فيما بعد ذلك ، وهم قد كثروا وعزوا وانتصروا ، فالخطاب للمؤمنين يومئذٍ ، ومجيء هذه الخطابات بعد وصفهم بالذين آمنوا إيماء إلى أن الإيمان هو الذي ساقَ لهم هذه الخيرات كلها ، وأنه سيكون هذا أثَرَه فيهم كلما احتفظوا عليه كُفُوه من قبل سُؤالهم، ومن قبل تسديد حالهم ، فكيف لا يكونون بعد ترفّه حالهم أشد استجابة وأثبت قلوباً »[٣].

---

(١) ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٣١٦/٩) .

(٢) الألوسي ، روح المعاني : (١٩٥/٩) .

(٣) ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٣١٩/٩) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

ولما أمر الله تعالى في الآيات السابقة بالطاعة والاستجابة له ولرسوله ، وأشارت الآيات الكريمة إلى أنهما كانا من أهم الأسباب المعنوية لنصرة المؤمنين في موقعة بدر ، حذرهم الله تعالى ونهاهم عن العصيان الخفي ، وذلك بأن يظهروا الطاعة والاستجابة في ظاهر أمرهم ويبطنوا المعصية والمخالفة[١]، وذلك لأن أمر الجهاد يحتاج إلى الصدق والموافقة ظاهرا وباطنا ، فقال تعالى : ﴿ 5 6 7 8 9 : ; < = > ? ﴾ .

ثم جاءت الآية التي بعدها ﴿ A B C D E ﴾ ذاكرة أهم سببين يحملان المرء على الخيانة وهما الافتتان بالأموال والأولاد ، ففي الجهاد فإن الافتتان بالمال قد يؤدي إلى الغلول ، وربما أدى ذلك إلى الاختلاف كما حصل عقب غزوة بدر ، أو الهزيمة كما حصل في غزوة أحد ، والافتتان بالأولاد يؤدي إلى الجبن والهلع والخوف .

قال البقاعي : « ولما كان سبب الخيانة غالباً محبة المال أو الولد ، وكان سبب التقاول المسبب عنه إنزال هذه السورة - كما سلف بيانه أولها - الأموال من الأنفال ، وكان من أعظم الخيانة في الأنفال الغلول ، وكان الحامل على الغلول المحنة بحب جمع المال إما استلذاذاً به أو لإنفاقه على محبوب ، وكان الولد أعز محبوب ؛ حسن كل الحسن إيلاء ذلك قوله : ﴿ A B C D E ﴾ »[٢].

وأيضا فإن الأموال والأولاد أمانة وعارية يجب أن لا يفرط فيها المؤمن بالافتتان بها ، والميل إليها ، فإنهما من أعظم ما يعيق المؤمن عن تقديم نفسه وماله للجهاد في سبيل الله ، ويسببان الهزيمة والخذلان .

ثم لما نهي الله I عن الخيانة لله ولرسوله وللأمانات جاءت الآية التي بعدها بعلاج تلك الأسباب التي قد تؤدي إلى الهزيمة، فقال:﴿ L M N O P Q R S T ﴾.

قال الرازي : « واعلم أنه تعالى لما حذر عن الفتنة بالأموال والأولاد ، رغب في التقوى التي توجب ترك الميل والهوى في محبة الأموال والأولاد »[٣].

---

(١) انظر : المصدر السابق .

(٢) البقاعي ، نظم الدرر : (٣/٢٠٧) .

(٣) الرازي ، مفاتيح الغيب : (١٥/ ١٢٣) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

وقال البقاعي: « ولما ذكرهم ما كانوا عليه قبل الهجرة من الضعف ، وامتنّ عليهم بما أعزهم به، وختم هذه بالتحذير من الأموال والأولاد الموقعة في الردى، وبتعظيم ما عنده الحامل على الرجاء تلاها بالأمر بالتقوى الناهية عن الهوى بالإشارة إلى الخوف من سطواته إشارة إلى أنه يجب الجمع بينهما، وبين تعالى أنه يتسبب عنه الأمن من غيره في الأولى والنجاة من عذابه في الأخرى »[١].

وقال ابن عاشور : «وعقب التحذير من العصيان والتنبيه على سوء عواقبه ، بالترغيب في التقوى وبيان حسن عاقبتها وبالوعد بدوام النصر واستقامة الأحوال إن هم داموا على التقوى ، ففعل الشرط مراد به الدوام ، فإنهم كانوا متقين ، ولكنهم لما حُذروا من المخالفة والخيانة ناسب أن تفرض لهم الطاعة في مقابل ذلك ، ولقد بَدَا حُسنُ المناسبة إذ رُتبتِ على المنهيات تحذيراتٌ من شرور وأضرار ، من قوله : ﴿ r s t u v w x ﴾ وقوله ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً ﴾ ، ورتب على التقوى : الوعد بالنصر ومغفرة الذنوب وسعة الفضل »[٢] .

وذكر سبحانه في هذه الآية خلاصة ما كان مرتبطا بالنصر الإلهي في معركة بدر ، وهو تقواه سبحانه بامتثال أوامره واجتناب نواهيه ، وقد ختمت آيات هذا المحور بقضية التقوى لأنها المحور الرئيسي الذي تدور عليها الأوامر والنواهي ، وخاصة فيما يتعلق بالجهاد في سبيل الله ، ولذلك ذكر الله نتيجة التقوى ، فقال : ﴿ R S T ﴾ وقد كان يوم بدر فارقا بين الحقّ والباطل ؛ لأنّه أول يوم ظهر فيه نصر المسلمين الضعفاء على المشركين الأقوياء ، وكفى بذلك فرقانا وتمييزا بين من هم على الحقّ ، ومن هم على الباطل .

قال ابن عاشور : « وقد أشعر قوله : ﴿ R S T ﴾ أن الفرقان شيء نافع لهم فالظاهر أن المراد منه كل ما فيه مخرج لهم، ونجاة من التباس الأحوال ، وارتباك الأمور ، وانبهام المقاصد، فيؤول إلى استقامة أحوال الحياة ، حتى يكونوا مطمئني البالِ منشرحي الخاطر وذلك يستدعي أن يكونوا: منصورين، غالبين، بُصراء بالأمور، كَمَلة الأخلاق، سائرين في طريق الحق والرشد، وذلك هو ملاك استقامة الأمم ، فاختيار الفرقان هنا ، لأنه اللفظ الذي لا يؤدي غيرُه مُؤداه في هذا الغرض وذلك من تمَام الفصاحة »[٣].

---

(١) البقاعي ، نظم الدرر : (٣/ ٢٠٧) .

(٢) انظر : ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٩/ ٣٢١) .

(٣) ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٩/ ٣٢٦) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

وفي بيان علاقة هذه الآيات بالمحور العام للسورة وهو (الجهاد في سبيل الله) يقول سعيد حوى : « لاحظنا أن السورة تفصيل لما له علاقة في فرضية القتال ، وفي هذا المقطع مجموعة أمور كلها مهمة في شأن القتال لإحراز النصر ، الثبات والانضباط والمسارعة إلى النفير والكتمان والتقوى ، في خمسة توجيهات كل منها مبدوء بقوله تعالى : ﴿ L M N ﴾ وكل منها شرط رئيسي لإحراز النصر ، إذ أنك عندما تكون مكشوفا لعدوك ما أسهل أن يكيدك عدوك ، وعندما لا تكون مسارعة للقتال ، ما أسرع أن يضربك عدوك ، وعندما لا يكون انضباط ما أسرع أن تنتهي معركتك بالفشل ، وبدون صبر على القتال لا يكون إلا الاستسلام ، وعندما لا تكون تقوى فلا جهاد ربانيا موجود أصلا » [(١)].

ثم تحدثت آيات المحور أيضا عن ارتباط هزيمة كفار قريش بأسباب صدرت عنهم ، فبدأت بذكر نموذج لفتنهم النبي r عن أداء رسالته وهو في مكة ، وتآمرهم عليه بكل الوسائل المادية والمعنوية ، وفي ذكر هذا النموذج الخاص بالنبي r إشارة إلى ما كان عليه الصحابة رضوان الله عليهم في مكة من التضييق عليهم ، وعلى أداء شعائر دينهم إذ كان الرسول r قائدهم وإمامهم ، وفي ذلك منة عظيمة من الله تعالى على نبيه والمؤمنين ، وعود إلى ما تقدم من قوله تعالى : ﴿ ! " # $ % & ' ( ) * . ....﴾ .

قال الزمخشري : « لما فتح الله عليه ، ذكره مكر قريش به حين كان بمكة ، ليشكر نعمة الله U في نجاته من مكرهم واستيلائه عليهم ، وما أتاح الله له من حسن العاقبة » [(٢)].

وقال ابن عاشور : « يجوز أن يكون عطف قصة على قصة من قصص تأييد الله رسوله عليه الصلاة والسلام والمؤمنين فيكون ﴿ " ﴾ متعلقا بفعل محذوف تقديره (واذْكر إذ يمكر بك الذين كفروا) ، ويجوز أن يكون عطفاً على قوله : ﴿ " # $ % & ' ﴾ فهو متعلق بفعل (اذكروا) من قوله ﴿ ! " # $ ﴾ ، فإن المكر بالرسول عليه الصلاة والسلام مكر بالمسلمين ، فهذا تعداد لنعم النصر ، التي أنعم الله بها على رسوله r والمؤمنين ، وهذه نعمة خاصة بالنبي r ، والإنعام بحياته وسلامته نعمة تشمل المسلمين كلهم ، وهذا

(١) حوى ، الأساس في التفسير : (٢١٥٣/٤) .
(٢) الزمخشري ، الكشاف : (٢٠٤/٢) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

تذكير بأيام مُقامهم بمكة ، وما لاقاه المسلمون عموماً وما لاقاه النبي r خصوصاً وأن سلامة النبي r سلامة لأمته » (١).

وقد ذكر أكثر المفسرين قصة تآمر مشركي قريش في دار الندوة على النبي r ، حيث دخل عليهم إبليس في صورة شيخ ، وذكر أنه من أهل نجد ، فقال بعضهم : قيدوه نتربص به ريب المنون ، فقال إبليس : لا مصلحة فيه ، لأنه يغضب له قومه فتسفك له الدماء ، وقال بعضهم أخرجوه عنكم تستريحوا من أذاه لكم ، فقال إبليس : لا مصلحة فيه لأنه يجمع طائفة على نفسه ويقاتلكم بهم. وقال أبو جهل : الرأي أن نجمع من كل قبيلة رجلاً فيضربوه بأسيافهم ضربة واحدة فإذا قتلوه تفرق دمه في القبائل فلا يقوى بنو هاشم على محاربة قريش كلها ، فيرضون بأخذ الدية ، فقال إبليس : هذا هو الرأي الصواب ، فأوحى الله تعالى إلى نبيه بذلك، وأذن له في الخروج إلى المدينة ، وأمره أن لا يبيت في مضجعه وأذن الله له في الهجرة (٢).

ولما ذكر سبحانه تآمرهم على الرسول الكريم r ، ومكرهم به ، جاء ذكر تآمرهم على الوحي الذي أنزل على الرسول r ، ومكرهم بما جاء به من الآيات البينات ، فقال تعالى :

﴿ s t u v w x y z { | } ~ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾.

قال البقاعي : «ولما ذكر مكرهم بالرسول ، ذكر مكرهم بما أرسل به » (٣).

وقد ذكرت في هذه الآية غاية مكابرة المشركين وبهتانهم على ما جاء به الرسول الكريم من الوحي من عند الله ، طاعنين فيه بأن هذا القرآن ما هو إلا حكايات وأساطير للأمم السابقة ، وكأنهم بطعنهم على القرآن يطعنون على من جاء به وهو محمد r ، مثيرين بذلك فتنة بين المسلمين ، وقد تحداهم الله تعالى في غير هذه السورة بمعارضة القرآن ، ثم بعشر سور منه ، ثم بسورة منه ، وقد عجزوا عن ذلك وأفحموا ، فدل ذلك على أن مقولتهم هذه إنما هي مكابرة ومعاندة للحق .

---

(١) ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٣٢٧/٩) باختصار .

(٢) تقدم تخريج هذا الأثر في مبحث المكي والمدني في السورة ، وقد ذكرت هناك أن الراجح في هذه الآية أنها ليست مكية ، وإنما هي تذكير بواقعة حدثت في مكة ، وأن الآثار الواردة في الاحتجاج بمكيتها ضعيفة . انظر: الصفحة (٥٧) .

(٣) البقاعي ، نظم الدرر : (٣/ ٢١١) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

قال البقاعي : « وهذا غاية المكابرة لأنه قد تحداهم بقطعة من مثله إن كان له - كما يزعمون - مثل ، وبالغ في تقريعهم ، فما منعهم من إبراز شيء مما يدعون ، وليس بينهم وبينه بزعمهم إلا أن يشاؤوا »(١).

وإنما لم تذكر الردود على هذا الزعم والطعن من الكفار ، لأن إيراد هذا الطعن في هذا المكان هو حكاية عما تقدم ذكره في عدد من السور القرآنية ، كما في سورة البقرة التي نزلت قبل هذه السورة من قوله: ﴿ وَإِن ´ µ ¶ ¸ نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ ﴾ [البقرة:٢٣] ، وقد ذكر هناك أنهم عجزوا عن الإتيان به أو بمثله ، وأيضا فليس في هذا الموضع مناسبة في إيراد الردود على هذا الزعم ، لنزول هذه الآيات عقب انتصار النبي r والمؤمنين ، ومجيء سياق الآيات في بيان سبب استحقاق الكفار للهزيمة في معركة بدر .

ولزيادة فتنة المؤمنين في دينهم ، وصد الناس عن سماع القرآن ، قالوا قاطعين على بطلان ما جاء به محمد r ﴿ وَإِذْ قَالُوا۟ © إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا ´ µ ¶ ¸ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ ، فإنهم بزعمهم لو لم يكونوا متأكدين من بطلان هذا الذي جاء به محمد r لما دعوا على أنفسهم بهذا الدعاء .

قال سيد قطب : « وهو دعاء غريب يصور حالة من العناد الجامح الذي يؤثر الهلاك على الإذعان للحق ، حتى ولو كان حقا! إن الفطرة السليمة حين تشك تدعو اللّه أن يكشف لها عن وجه الحق ، وأن يهديها إليه ، دون أن تجد في هذا غضاضة. ولكنها حين تفسد بالكبرياء الجامحة ، تأخذها العزة بالإثم ، حتى لتؤثر الهلاك والعذاب ، على أن تخضع للحق عند ما يكشف لها واضحا لا ريب فيه »(٢).

وبهذا يظهر التناسق الموضوعي واضحا في هذه الآية وما تقدمها من آيات ، وذلك أنهم حين مكروا بالنبي r وأرادوا التخلص ، ثم ردوا ما جاء به من الوحي عند ربه ، وشددوا على بطلانه بدعائهم على أنفسهم ، ومطالبتهم بإنزال العذاب عليهم ، دل على أنهم معترفون صيغة ومضمونا بأنهم أعداء لنبوة محمد r وأصحابه ، ولما جاء به من عند الله تعالى ، وأنهم

(١) البقاعي ، نظم الدرر : (٣/٢١٠) .
(٢) سيد ، في ظلال القرآن : (٣/ ١٥٠٥) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

انتهوا من تحقيق أمره ، ودفع نبوته ، وبهذه الأمور المذكورة استحقوا العذاب قطعا، وهم شهداء على أنفسهم في ذلك، ولكن إرادة الله U لها اعتبارات عليا على كل ما يدور في خلد الكفار، فقد أخر عقابهم وعذابهم إلى حين وقوع معركة بدر ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ .

قال ابن عاشور : « وإذ كان هذا القول إنما يلزم قائله خاصة ومن شاركه فيه ونطقَ به مثل النضر وأبي جهل ومَن التزم ذلك وشارك فيه من أهل ناديهم ، كانوا قد عرضوا أنفسهم به إلى تعذيب الله إياهم انتصاراً لنبيه وكتابه ، وكانت الآية نزلت بعد أن حق العذاب على قائلي هذا القول وهو عذاب القتل المهين بأيدي المسلمين يومَ بدر ، وكان العذاب قد تأخر عنهم زمناً اقتضته حكمة الله ، بين الله لرسوله في هذه الآية سبب تأخر العذاب عنهم حين قالوا ما قالوا، وأيقظ النفوس إلى حلوله بهم وهم لا يشعرون »[(١)].

وقال سيد قطب : « ويعقب السياق على هذا العناد ، وعلى هذا الادعاء ، بأنهم مع استحقاقهم لإمطار الحجارة عليهم من السماء وللعذاب الأليم الذي طلبوه - إن كان هذا هو الحق من عنده - وإنه للحق مع هذا فإن اللّه فد أمسك عنهم عذاب الاستئصال الذي أخذ به المكذبين قبلهم »[(٢)].

وقد ذكر الله تعالى أهم سببين أديا إلى تأخر العذاب عن الكفار بعد ما استحقوه بأفعالهم وأقوالهم تلك وهما :

السبب الأول : وجود النبي r بينهم فقال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾، وفي ذلك كرامة له عليه الصلاة والسلام ، وبيان لمكانته عند ربه ، وأن خروجه عليه الصلاة والسلام من بين أظهرهم علامة على إرادة الله إنزال العذاب عليهم .

قال ابن عاشور : « قوله : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾ كناية عن استحقاقهم، وإعلام بكرامة رسوله r عنده، لأنه جَعل وجوده بين ظهراني المشركين مع استحقاقهم العقاب

---

(١) ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٣٣٣/٩) باختصار .

(٢) سيد ، في ظلال القرآن : (١٥٠٥/٣) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

سبباً في تأخير العذاب عنهم، وهذه مكرمة أكرم الله بها نبيه محمداً r فجعل وجوده في مكان مانعاً من نزول العذاب على أهله »[١].

السبب الثاني : طلب المشركين المغفرة من ربهم ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾، وفي ذلك إشارة ضمنية إلى أنه يجب عليهم الرجوع عن كفرهم ، والدخول في الإسلام ، فذلك هو العمل الذي يغفر الذنوب ويَجُبُّ ما قبله .

قال ابن عاشور : « فبعد أن هدد المشركين بالعذاب ذكرهم بالتوبة من الشرك بطلب المغفرة من ربهم بأن يؤمنوا بأنه واحد ، ويصدقوا رسولَه ، فهو وعد بأن التوبة من الشرك تدْفع عنهم العَذاب وتكون لهم أمناً وذلك هو المراد بالاستغفار»[٢].

وقد دلت هذه الآية على فضيلة الاستغفار وبركته بإثبات أن المسلمين أمنوا من العذاب الذي عذب الله به الأمم ؛ لأنهم استغفروا من الشرك بإتباعهم الإسلام ، وقد روى الترمذي عن أبي موسى الأشعري[٣] قال : قال رسول الله r : « أنزل الله عليّ أمانين لأمتي ، ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ فإذا مَضَيْت تركتُ فيهم الاستغفار إلى يوم القيامة »[٤].

ولما كان هذان السببان اللذان أخرا العذاب عنهم غير متوفرين عند المشركين ، حيث خرج النبي r من بينهم وهاجر إلى المدينة ، وهم أصروا في مكة على الكفر ومعاندة الحق ، واستمروا على فتنة المؤمنين في دينهم وصدهم عن بيته ، وتشويشهم على النبي r والمؤمنين عند أداء الصلاة وقراءة القرآن بالتشويش والتشغيب والسخرية بهم ، قال تعالى: ﴿ ! "

$ % & ' ( ) * + , - . / 0 1 2

---

(١) ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٩/٣٣٣- ٣٣٤) باختصار .

(٢) ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٩/٣٣٤) باختصار .

(٣) هو : عبد الله بن قيس بن سليم أبو موسى الأشعري مشهور باسمه وكنيته معا ، أسلم قديما ، ولم يذكروه في مهاجرة الحبشة ، قدم المدينة بعد فتح خيبر صادفت سفينته سفينة جعفر بن أبي طالب فقدموا جميعا واستعمله النبي صلى الله عليه و سلم على بعض اليمن ، واستعمله عمر على البصرة ، ثم استعمله عثمان على الكوفة ، ثم كان أحد الحكمين بصفين ، ثم اعتزل الفريقين ، مات سنة اثنتين وقيل أربع وأربعين . انظر : ابن حجر ، الإصابة : (٤/٢١٢-٢١٥) .

(٤) أخرجه الترمذي في سننه ،كتاب التفسير ، باب سورة الأنفال ، برقم : (٣٠٨٢) ، وضعفه الألباني .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

A ? > = < ; : 9 8 7 6 5 4 3

. ﴾ F E D C B

قال ابن عاشور : « وهو ارتقاء في بيان أنهم أحقاء بتعذيب الله إياهم، بياناً بالصراحة»(١).

والمعنى : كيف لا يعذبون ، والحال أنهم مستحقون للعذاب فهو واقع بهم لا محالة وإن تأخر مدته ، وأبطأ عنهم أوانه وقوعاً(٢) .

وقال سيد قطب : « إنه لا يمنع العذاب عنهم ما يدعونه من أنهم ورثة إبراهيم ، وسدنة بيت اللّه الحرام ، فهذه ليست سوى دعوى لا أساس لها من الواقع ، إنهم ليسوا أولياء هذا البيت ولا أصحابه ، إنهم أعداء هذا البيت وغاصبوه ! إن بيت اللّه الحرام ليس تركة يرثها الخلف عن السلف ، إنه بيت اللّه يرثه أولياء اللّه المتقون للّه .. ومثله دعواهم أنهم ورثة إبراهيم u فوراثة إبراهيم ليست وراثة دم ونسب إنما هي وراثة دين وعقيدة »(٣).

ومن المعروف أن المشركين لم تكن لهم صلاة ، فتسمية مكائهم وتصديتهم صلاة مشاكلة تقديرية ؛ لأنهم لما صدوا المسلمين عن الصلاة وقراءة القرآن في المسجد الحرام عند البيت ، كان من جملة طرائق صدهم إياهم تشغيبهم عليهم وسخريتهم بهم يحاكون قراءة المسلمين وصلاتهم بالمكاء والتصدية ، وهما التصفير والتصفيق (٤).

وقد عذبهم الله تعالى في معركة بدر ، جزاء على أعمالهم الشنيعة التي قاموا بها تجاه النبي r والمؤمنين ، فأذاقهم طعم القتل والأسر والهزيمة ، وسلط عليهم عباده المؤمنين الذين فتنوهم في دينهم ، فقال : ﴿ A B C D E ﴾ .

ولما ذكر الله U نماذج من فتنهم للنبي r والمؤمنين والتي كانت سببا في هزيمتهم وخذلانهم في غزوة بدر، أعقب ذلك ببيان أنهم مستمرون في ذلك بالرغم مما ذاقوه من العذاب والهوان ، بكل ما أوتوا من قوة ووسيلة ، ومن أهمها القوة المادية ، فقال تعالى : ﴿ G H I

(١) ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٣٣٥/٩) باختصار .

(٢) انظر : البقاعي ، نظم الدرر : (٢١٣/٣) .

(٣) سيد ، في ظلال القرآن : (١٥٠٦/٣).

(٤) انظر : ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٢٩/٢) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

W V U T S R Q O N M L K J

. ﴾ ^] \ [Z Y

قال البقاعي : « ولما أخبر سبحانه عن أحوال الكفار في الأعمال البدنية ، وكان غلبهم مع كثرتهم وقوتهم مستبعدا ، أخبر بما يقربه مبيناً لأعمالهم المالية »[١].

وقال ابن عاشور : « لما ذُكر صدهم المسلمين عن المسجد الحرام الموجب لتعذيبهم ، عُقب بذكر محاولتهم استئصال المسلمين وصدهم عن الإسلام وهو المعني بـ﴿ N O﴾ »[٢].

وفي ذكر إنفاق الأموال هنا ، وما تقدم من قوله تعالى : ﴿ v w x y z ﴾ تناسق واضح ، حيث أنه لما سلمت لقريش تجارتها وأموالها التي كانت بحوزة أبي سفيان ، لم يشكروا الله تعالى على ذلك ، بل استمروا على عنادهم وكفرهم ، وصدهم الناس عن دين الله، حتى إنهم جيشوا بتلك الأموال الجيوش لغزو المسلمين في أحد والأحزاب .

قال البقاعي : « وهذا الكلام منطبق على ما كان سبب نزوله الآية وعلى كل ما شاكله ، وذلك أنهم لما قهروا في بدر قال لهم أبو سفيان : إنه ينبغي أن تنفقوا مال تلك كله ، وذلك أنها التي كانت معه - ونحث على حرب محمد ، فأجابوا وأنفقوا على غزوة أحد فحصل لهم فيها بعض ظفر ثم تعقبه الحسرة والمغلوبية في بدر الموعد وكل ما بعدها »[٣] .

وقد أنذرهم الله تعالى من أنهم لا يحصلون من إنفاقهم هذا على طائِل فيما أنفقوا لأجله ، بل سيتحسرون ويندمون على ذلك ، ولا يحصلوا على مقصودهم بالغلبة على المسلمين .

ثم توعدهم الله تعالى في الدنيا بأنهم سيغلبون وسيهزمون ، وفي ذلك ارتقاء في الإنذار بخيبتهم وخذلانهم ، فإنهم بعد أن لم يحصلوا من إنفاقهم على طائِل تُوعدوا بأنهم سيغلبهم المسلمون بعد أن غلبوهم أيضا يومَ بدر، وهو إنذار لهم بغلب فتح مكة وانقطاع دابر أمرهم ، وتوعدهم في الآخرة بأنهم سيحشرون إلى جهنم ، وبئس المصير والمحشر[٤] .

---

(١) البقاعي ، نظم الدرر : (٢١٥/٣) .

(٢) ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٣٤٠/٩) .

(٣) انظر : البقاعي ، نظم الدرر : (٢١/٣) .

(٤) انظر : ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٣٤١/٩) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

قال سيد قطب : « والكفار ينفقون أموالهم ليتعاونوا على الصد عن سبيل اللّه .. هكذا فعلوا يوم بدر ، على نحو ما ذكرنا في سياق الحديث عن الموقعة من كتب السيرة.. وهكذا ظلوا بعد بدر يستعدون للوقعة التالية. واللّه ينذرهم بالخيبة فيما يبغون وبالحسرة على ما ينفقون، ويعدهم الهزيمة في الدنيا وعذاب جهنم في الآخرة »[١].

ولما ذكر الله U ما سيحل على الكفار في الدنيا من الهزيمة والخذلان ، وفي الآخرة من الحشر في جهنم ، ذكر حكمة ذلك وهو أن يتميز الخبيث من الطيب ، والمؤمن من الكافر ، والفاسد من الصالح ، فتكون كلمة أهل الإيمان عالية مرفوعة في الدنيا ، وأهلها منعمون في الجنة ، وكلمة أهل الكفر والفساد سافلة مهزومة في الدنيا ، وأهلها محشورون ومعذبون في نار جهنم ، ثم يزيد من عذابهم فيجعلهم من الأشياء القذرة الحقيرة التي تجمع إلى بعضها لترمى دفعة واحدة في جهنم .

قال سيد قطب : « والتعبير القرآني يجسم الخبيث حتى لكأنه جرم ذو حجم ، وكأنما هو كومة من الأقذار ، يقذف بها في النار ، دون اهتمام ولا اعتبار! ﴿ i j k l m ﴾ وهذا التجسيم يمنح المدلول وقعا أعمق في الحس ، وتلك طريقة القرآن الكريم في التعبير والتأثير »[٢].

وبعد التقرير الحاسم ، والإخبار القطيع عن مصير الكفر والكافرين في الدنيا والآخرة ، يتجه الخطاب الإلهي إلى النبي r لينذر الكافرين إنذاره الأخير ، ثم أمر الله U نبيه r بمخاطبة من بقي من المشركين ممن ذاقوا طعم الهزيمة في موقعة بدر ، إن ينتهوا ويكفوا عن مقاتلة المؤمنين ، ويدخلوا في السلم كافة ، فإنه I سيتجاوز عنهم كل ما كان منهم قبل ذلك، من سعيهم لقتل النبي r ، واستهزائهم بالقرآن، وصدهم الناس عن دين الله، وإنفاقهم الأموال الطائلة لمحاربة الإسلام وأهله ، فالإسلام يَجُبُّ ما قبله ، قال تعالى : ﴿ s t u v w x y z { | ﴾، ثم بعد هذا الترغيب أيضا ترهيب لكل من تسول له نفسه بالعود إلى تلك الأسباب الشنيعة بأن مصيره هو الهزيمة ، والدمار الشامل ، كما جرت بذلك سنة الله U

---

(١) سيد ، في ظلال القرآن : (١٥٠٦/٣) .

(٢) سيد ، المصدر السابق : (١٥٠٧/٣) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

في الأولين المكذبين ، وقد رأوا بأم أعينهم كيف أهلك الله U أصحابهم من المشركين في يوم بدر، فقال تعالى: ﴿ { ~ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾.

قال ابن عاشور : « جرى هذا الكلام على عادة القرآن في تعقيب الترهيب بالترغيب ، والوعيد بالوعد ، والعكس ، فأنذرهم بما أنذر ، وتَوعّدَهم بما توعد ثم ذكّرهم بأنهم متمكنون من التدارك وإصلاح ما أفسدوا ، فأمر الله نبيه r بأن يقول لهم ما يفتح لهم باب الإنابة » إلى أن قال : « والمراد بالعَود الرجوع إلى ما هم فيه من مناوأة الرسول r والمسلمين ، والتجهز لحربهم ، مثل صنعهم يوم بدر » [(١)] .

ثم يتجه الخطاب الإلهي للمؤمنين بعد ما توعد I كفار قريش إن هم عادوا إلى سابق عهدهم من أذية المؤمنين وفتنتهم في دينهم ، عادت إليهم سننه التي مضت في الأولين ، يأمرهم بقتال الكفار ويحثهم عليه ، ويطمئنهم بأن اللّه مولاهم ونصيرهم ، لئلا يظنوا أن ذلك التوعد هو توعد هلاك استئصال مباشر من عند الله تعالى ، في إشارة إلى ارتباط النصر والهزيمة بالأسباب المادية والمعنوية ، قال تعالى : ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ © ﴾ .

قال الرازي : « اعلم أنه تعالى لما بين أن هؤلاء الكفار إن انتهوا عن كفرهم حصل لهم الغفران وإن عادوا فهم متوعدون بسنة الأولين أتبعه بأن أمر بقتالهم إذا أصروا » [(٢)].

ولما كان لمواجهة الكفار ومقاتلتهم ينجم عنها حالتان ، وهما حالة إسلام وإقبال ، وكفر وإعراض وإخلال ، قال الله تعالى مبينا لحكم هاتين الحالتين : ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ﴾ أي عن قتالكم بالمواجهة بالإسلام فاقبلوا منهم ، وإن لم ينتهوا عن قتالكم، و﴿تَوَلَّوْاْ﴾ عن الاستجابة والقبول بالإسلام ، وثبتوا على كفرهم وعنادهم ، فأيقنوا بنصر اللّه ومعونته لكم ، فتوكلوا عليه ولا تعتمدوا على كثرة عدد المسلمين ولا تخافوا من قلتهم ؛ لأن الله U هو متولي أموركم فلا تبالوا بهم ولا تخشوا بطشهم، وهو نعم المولى ونعم النصير فلا يضيع من تولاه، ولا يغلب من نصره[(٣)].

---

(١) ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٣٤٤/٩-٣٤٥) .

(٢) الرازي ، مفاتيح الغيب : (١٣١/١٥) .

(٣) انظر : البقاعي ، نظم الدرر : (٢١٧/٣- ٢١٨) ، وتفسير المراغي : (٢٠٩/٩) ، وابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٢٦٧/٩) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

وقد جاءت هذه الآية موضحة ومبينة هدفين أساسين للقتال والجهاد في سبيل الله وهما :

الأول : دفع الأذى والفتنة عمن يعتنقون هذا الدين، ويعلنون تحررهم من حاكمية الإنسان، ويرجعون بعبوديتهم لله وحده ، ويخرجون من العبودية للعبيد في جميع الصور والأشكال ، وهذا لا يتم إلا بوجود عصبة مؤمنة ذات تجمع حركي تحت قيادة تؤمن بهذا الإعلان العام ، وتنفذه في عالم الواقع ، وتجاهد كل طاغوت يعتدي بالأذى والفتنة على معتنقي هذا الدين ، أو يصد بالقوة وبوسائل الضغط والقهر والتوجيه من يريدون اعتناقه .

الثاني : تحطيم كل قوة في الأرض تقوم على أساس عبودية البشر للبشر -في صورة من الصور – وذلك لضمان الهدف الأول ، ولإعلان ألوهية الله وحدها في الأرض كلها ، بحيث لا تكون دينونة إلا لله وحده – فالدين هنا بمعنى الدينونة لسلطان الله – وليس هو مجرد الاعتقاد.

إذًا فالهدف النهائي من الجهاد في سبيل الله هو الوصول إلى وضع عالمي تكون فيه كلمة الله هي العليا ، والسلطان للمسلمين ، لا من أجل إكراه على دين ، ولكن حتى لا تبقى سلطة أو وضع يحول بين إنسان وحرية الدخول في الإسلام ، وإقامة شعائره ، فالمراد بالفتنة اضطهاد المسلمين ، والتفنن بزخرفة الباطل على كثير من الناس لصدهم عن دين الله تعالى [١].

فإذا تحقق من الجهاد إنهاء شوكة العدو ، فكف عن معاداته لانتشار التوحيد في الأرض ، ودخل في دين الله U ، فقد زال كل مبرر لإنشاب القتال ، ولكن هذه الآيات تحذر هؤلاء الكفار أن يكون إنهاء معاداتهم حيلة وخداعاً على جند الله ، لأن الله U بصير بهم ، ومطلع عليهم، ويعلم حيلهم، وسيبطلها، وسيجازيهم على ما عملوه ويعملوه في محاربة الإسلام وأهله.

ولما أمر الله U المؤمنين بقتال الكافرين ، ووعدهم بالنصر عليهم ، ذكر لهم ما سيكون لهم عقب النصر وهزيمة الكافرين ، وهي الغنيمة ، فجاء بيان قسمة الله U فيها، فقال تعالى :

﴿ " # $ % & ' ( ) * + , - . /
0 1 2 3 4 5 6 7 8 9 : ; < =) ? @
A B C D ﴾ .

---

(١) انظر : سيد ، في ظلال القرآن : (٣/١٥٠٨) ، وحوى ، الأساس في التفسير : (٤/٢١٧٤-٢١٧٥) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

قال الرازي : « اعلم أنه تعالى لما أمر بالمقاتلة في قوله ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ ﴾ وكان من المعلوم أن عند المقاتلة قد تحصل الغنيمة لا جرم ذكر الله تعالى حكم الغنيمة » [(١)].

وقال سيد قطب : « السياق متصل بين مطالع هذا الدرس وخواتم الدرس الماضي ، فهو استطراد في أحكام القتال الذي بدأ الحديث عنه هناك في قوله تعالى : ﴿... s t
u v w x y z { | } ~ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾
وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ © وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ ´
µ ¶ ¸ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾ ﴾ ، ثم
تابع الحديث في هذا الدرس عن أحكام الغنائم التي تنشأ من النصر في ذلك القتال الذي بين غايته وهدفه : ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ © وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ﴾، ومع أن غاية الجهاد قد تحددت بهذا النص الواضح وتبين منها أنه جهاد للّه ، وفي سبيل أهداف تخص دعوة اللّه ودينه ومنهجه للحياة .. ومع أن ملكية الأنفال التي تتخلف عن هذا الجهاد قد بت في أمرها من قبل ، فردت إلى اللّه والرسول ، وجرّد منها المجاهدون لتخلص نيتهم وحركتهم للّه .. مع هذا وذلك فإن المنهج القرآني الرباني يواجه الواقع الفعلي بالأحكام المنظمة له. فهناك غنائم وهناك محاربون. وهؤلاء المحاربون يجاهدون في سبيل اللّه بأموالهم وأنفسهم : هم يتطوعون للجهاد ، وهم يجهزون أنفسهم على نفقتهم الخاصة وهم يجهزون غيرهم من المجاهدين الذين لا يجدون ما ينفقون .. ثم هم يغنمون من المعركة غنائم. يغنمونها بصبرهم وثباتهم وبلائهم في الجهاد .. ولقد خلص اللّه نفوسهم وقلوبهم من أن يكون فيها شيء يحيك من شأن هذه الغنائم فرد ملكيتها ابتداء للّه ورسوله .. وهكذا لم يعد من بأس في إعطائهم نصيبهم من هذه الغنائم - وهم يشعرون أنهم إنما يعطيهم اللّه ورسوله - فيلبي هذا الإعطاء حاجتهم الواقعية ، ومشاعرهم البشرية ، دون أن ينشأ عنه محظور من التكالب عليه ، والتنازع فيه ، بعد ذلك الحسم الذي جاء في أول السورة ، إنه منهج اللّه الذي يعلم طبيعة البشر ويعاملهم بهذا المنهج المتوازن المتكامل ، الذي يلبي حاجات الواقع كما يلبي مشاعر البشر وفي الوقت ذاته يتقي فساد الضمائر وفساد المجتمع ، من أجل تلك المغانم !» [(٢)].

---

(١) الرازي ، مفاتيح الغيب : (١٥/١٦٩) .

(٢) سيد ، في ظلال القرآن : (٣/١٥١٨) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

وقال حوى : « إن آية الغنائم في المقطع صدرت بقوله تعالى ﴿ " ﴾ مما يشير إلى أن موضوع الغنائم مما ينبغي علمه ، لما يترتب على ذلك من خيرات وبركات ، وإحقاق حق ، وإزهاق باطل ، إن المسلمين قد فرض عليهم ، وأعطوا سلطانا على أموال الكافرين ونسائهم وذراريهم هذا حق لهم ، وذلك في الوقت نفسه تحتاجه عملية الجهاد المستمرة »(١).

ولقد قررت هذه الآية الكريمة حكم الغنائم وأمرت بقبول قسمة الله U فيها، والتصرف فيها وفق نظام منزل ليس لهم مخالفته ، مرتكزا على قاعدة الإيمان الكبرى ، ومدعمة بالبرهان المحسوس الذي يعمق الإيمان في النفوس ، ويجعل منه واقعا ملموسا من الشواهد المنظورة ، وجعل قبول حكمه في الغنائم من صميم الإيمان ، والحكمة في ذلك أن يكون مصدر التشريع هو الله ورسوله ولا تعويل على الأعراف والأهواء التي يجب أن تختفي تاما بسطوع الشرع الإلهي، وفي ذلك امتداد وترسيخ لما جاء في بداية السورة الكريمة في قوله تعالى: ﴿ ! " # % & ' (* + , - . 0 1 2 3 4 5 ﴾.

إن هذا الحكم الإلهي في الغنائم يضع المسلم الذي قاتل في سبيل الله وغنم بين خيارين : إما إيثاره على نفسه كل ما حاز من الغنيمة ، وإما إيثار شرع الله الذي يأمره أن يأخذ حقه بالمقدار الذي أذن له ، فالخضوع لحكم الله في الغنائم أو أي حكم منزل هو الخضوع للقرآن كله ، وهو الإيمان به ، ويظهر التناسق واضحا في النص الذي جاءت به الآية في قوله تعالى : ﴿1 2 3 4 5 6 7 8 9 : ﴾.

وقد أفادت الآية الكريمة أن الواجب في المغنم تخميسه ، وصرف الخمس إلى من ذكره الله تعالى ، وتقسيم الأربعة بين الغانمين بالعدل ، للراجل سهم ، وللفارس ثلاثة أسهم ، سهم له وسهمان لفرسه ، فهكذا قسم النبي r الغنائم عام خيبر ، وهذا ما رجحه ابن جرير الطبري ، وعزاه إلى الجمهور(٢).

وفي هذا التقسيم يتبين لنا مراعاة الشرع للجهود القتالية حيث كان لهم النصيب الأوفى ، كما أن في هذا التقسيم يتبين لنا من خلاله مبدأ التكافل في الأمة في الحقوق والواجبات ،

---

(١) حوى ، الأساس في التفسير : (٢١٧٤/٤-٢١٧٥) .

(٢) انظر : ابن جرير ، جامع الأحكام : (٥٤٥/١٣-٥٤٨) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

فالغنيمة ليست قاصرة على الجيش ، ولكنها تنسحب على الأمة كلها ، فللأمة بمجموعها حظ ونصيب في جهود الأفراد .

وإنما جاء تسمية اليوم الذي أنزل فيه القرآن ﴿9 : ﴾ لتشعر بعظمة هذا اليوم، وبعظمة ما منّ الله به على المؤمنين، ووجوب الأخذ به كله ، فهو عظيم بيومه ، وبكلامه ، وأحكامه ، لا انفصام لمؤمن عن أمر من أوامره ، وسماه الله فرقانا إذ جعله بداية عصر كوني جديد أخرج الناس به من ظلمات الجاهلية التي طمست إنسانية الإنسان إلى حياة ملؤها النور والحرية والعدل[١].

وفي تقسيم الغنائم على وفق ما شرع الله U تطهير للنفوس من الحرص والشح ، ودفع بها إلى الخير العام ، ورفع لها إلى درجاته ، ولإخلاص الجهاد لله ، ولا تلبث هذه الفضائل أن تصبغ سلوك المؤمن كله بصبغتها في أعمال الدنيا كما في الأعمال العظمى ، وبذلك يكون الالتزام بالنص الشرعي تربية عملية للإخلاص والطاعة والنظام وتزكية النفس ، وهذا الالتزام للنص الشرعي يهيئ الفرد للتكليف مع الأمة ، والتعامل مع الدولة ، ويحقق الانسجام بين الطرفين ، ولا تتماسك وحدة الأمة إلا بهذا التبادل الإيجابي ، وبذلك تكون الكلمة الأولى والسيادة للشرع والقانون الإلهي ، باعتباره عدالة خالصة ، ونظاما وافيا ، وتنظيما شاملا للوجود الإيماني الجديد والأمة المسلمة الناشئة [٢].

والإذعان لحكم الله في قسمة الغنيمة علقته الآية بإيمان المخاطبين بالله ، وهذا الإذعان والقبول ضروري للإيمان ، ونتيجة لازمة له ، وبأن ذلك الذي أنزل في يوم بدر من بشرى بالنصر ، وتثبيت المؤمنين من الملائكة كان – بعد إيمانهم – هو سر النصر الذي ظفروا به .

---

(١) انظر : نظم الدرر للبقاعي : (٢٤٧/٨) ، وابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٣٠٦/٩) .

(٢) انظر : شلتوت ، تفسير القرآن الكريم : (٧٨) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

الحديث عن المحور الثاني

(عوامل وأسباب النصر والهزيمة)

جاء الحديث عن هذا المحور في الآيات : (٤٢-٥٤)

قال تعالى : ﴿ E F G H I J K L M N P

^] \ [Z Y X W V T S R Q

p o n m l k j i h g e d c b a ` _

q s t u v w x y z { | ~ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ

ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ © قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا

كَانَ مَفْعُولًا µ ¶ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟

وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ ! " # $ % & '

8 7 6 5 4 3 2 1 0 / . - , * (

H G F E D C B A @ ? = < ; : 9

X W V U T R Q P O N M L K J I

j i h g e d c b a ` _ ^] \ [Z Y

{ z y x w v t s r q p o n m l k

| } ~ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ © وَأَدْبَٰرَهُمْ

وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ ´ µ ¶ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأْبِ

ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ

﴿٥٢﴾ ! " # $ % & ' ( ) * + , - . 0 1 2

3 4 5 6 7 9 : ; = > ? @ A B

C D F G H I ﴾ .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

فبعد أن ذكر الله عز وجل في آيات المحور السابق ، ارتباط النصر والهزيمة بالأسباب المادية والمعنوية من خلال غزوة بدر ، جاءت آيات هذا المحور لتبين أن هذا النصر له عوامل وأسباب يجب أن يأخذ بها المسلمون الذين آمنوا بالله ، وأيقنوا بنصره المؤزر الذي أنزله يوم الفرقان ، فهو I بمشيئته وقدرته سيهيئ تلك العوامل والأسباب التي تؤدي إلى نصر المؤمنين وهزيمة المشركين ، كما حصل في غزوة بدر ، حيث لم يكن بينهم وبين المشركين موعد زماني ولا مكاني ، فجمع الله تعالى الفريقين بقدرته ومشيئته لكي يقع هذا الفرقان ، بعد أن كان بعيدا كل البعد التقاء الجمعين ، بل ومستحيلا ، بسبب بعد المكان ، وقلة عدد المسلمين ، وكثرة عدد المشركين ، ﴿ V W X Y Z] ﴾، فقد قضى الله جل وعلا بإعزاز الإسلام وأهله ، وإذلال الشرك وأهله.

ومن هنا نستطيع أن نستنبط أن العامل الزماني والمكاني من أهم عوامل النصر ، وأنه مما ينبغي الحرص عليه من جانب المسلمين ، وذلك باختيار الزمان والمكان المناسبين للعمليات الجهادية .

فقد رويت في كتب السير والتاريخ قصة الحباب بن المنذر[١] وما أشار إلى النبي r من اختيار المكان المناسب للمعركة ، حيث قال للنبي r : أرأيت هذا المنزل ؟ أَمَنْزِلٌ أَنْزَلَكَهُ الله فليس لنا أن نتقدمه أو نتأخر عنه ؟ أم هو الرأي والحرب والمكيدة ؟ فقال r : بل هو الرأي والحرب والمكيدة ، فقال : يا رسول الله إن هذا ليس لك بمنزل ، فانهض بنا حتى نأتي أدنى ماء من القوم فننزله ، ونغور ما وراءه من الآبار ، ثم نبني عليه حوضا فنملؤه ماء فنشرب ولا يشربون ، فاستحسن رسول الله r ذلك من رأيه وفعله [٢].

---

(١) هو : الحباب بن المنذر بن الجموح الخزرجي ، يكنى أبا عمر ، شهد بدرا ، وقبل منه النبي صلى الله عليه وسلم مشورته ، مات في خلافة عمر ، وقد زاد على الخمسين . انظر : ابن حجر ، الإصابة : (١٠/٢) .

(٢) رواه ابن هشام عن ابن إسحاق في السيرة النبوية : (١٦٨/٣) ، وضعفه الألباني في فقه السيرة : (٢٢٤) . وانظر : ابن كثير ، البداية والنهاية : (٣٢٧/٣) وقال : « وذكر بعضهم أن الحباب بن المنذر لما أشار بما أشار به على رسول الله صلى الله عليه وسلم نزل ملك من السماء وجبريل عند النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال الملك : يا محمد ربك يقرأ عليك السلام ، ويقول لك : إن الرأي ما أشار به الحباب » اهـ .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

وقد تناولت الآيات الكريمة أيضا بعد ذلك ما هو أدق من عامل التوقيت الزماني والمكاني في هذه المعركة ، وذلك هو العامل النفسي الذي كان له دور كبير في معركة بدر ، وقد هيأ الله الفريقين نفسيا لاقتحام القتال ، فالسميع العليم ما كان ليخفى عليه شيء مما يعمل في نفوس الفريقين من الهواجس والصوارف عن الالتحام ، ولذلك فعل ما يزيل المثبطات من نفوسهم ويجرئ بعضهم على بعض ، فكان شغل المؤمنين الشاغل كثرة العدو وقلتهم ، وهو مثبط للهمم ، فأزال الله أثره بلطيف صنعه ، وبشر نبيه بالرؤيا ، ورؤيا الأنبياء حق ، فكان أن رأى النبي r في المنام قلة عدد المشركين ، وأخبر عليه الصلاة والسلام أصحابه بأن هذه الكثرة مآلها إلى الذلة والاندحار والهزيمة ، فكانت هذه الرؤيا هادفة لإخراج المؤمنين من مخاوفهم ، واجتماع كلمتهم ، وشجعتهم على القتال والالتحام [(١)].

ومن هنا نستطيع أن نستنبط أن العامل النفسي كان أهم عامل من عوامل النصر في معركة بدر ، ولا أدل على ذلك من تعدد الطرق التي هيأ الله بها نفوس المؤمنين في تلك المعركة ، فمنها ما كان مددا إلهيا كالملائكة والنعاس والمطر والبشارة بالنصر ، ومنها ما كان من خبر الرسول r حيث أخبر أصحابه بمصارع كفار قريش في تلك المعركة ، وأخبر كذلك بما رأى في المنام من قلة عدد المشركين، فهذه الأمور كلها تشير إلى أهمية تهيئة النفوس وتعبئتها قبل المعركة.

ثم كشفت الآيات الكريمة بعد ذكر العامل الزماني والمكاني والنفسي، الأسباب العامة التي تكفل النصر للمؤمنين بإذن الله ، فبدأت بعامل المواجهة والالتحام ، قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ ، ففي هذه الآية يقبل تعالى على عباده المؤمنين ويأمرهم بما يهيء لهم النصر ، ويستدعي عناية الله بهم وتأييدَه إيّاهم، فجمع لهم في هذه الآية وما بعدها ما به قوام النصر عند المواجهة والالتحام[(٢)]، وذلك أنه لما كانت ساعات المواجهة والالتحام من أصعب الأوقات وأشد اللحظات ، ناداهم الله تعالى بالإيمان ، اهتماما بهم ، وبالأوامر والوصايا التي تفيدهم في تلك الساعات .

---

(١) انظر : سيد ، في ظلال القرآن : (١٤٦٣/٣) .

(٢) انظر : ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٢٩/١٠) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

قال ابن عاشور : « وافتتحت هذه الوصايا بالنداء اهتماماً بها ، وجُعل طريق تعريف المنادى طريق الموصولية لما تؤذن به الصلة من الاستعداد لامتثال ما يأمرهم به الله تعالى ، لأنّ ذلك أخصّ صفاتهم تلقاءَ أوامر الله تعالى » [١].

فبدأ الله تعالى أمره للمؤمنين المجاهدين بالثبات ، وذلك لأن الثبات قوة معنوية وحسية ، قال المراغي: « إن الثبات قوة معنوية طالما كانت السبب في النصر والغلب بين الأفراد والجيوش، انظر إلى الرجلين الجلدين يتصارعان فيعيا كل منهما ، وتضعف قوته ، ويتوقع كل لحظة أن يقع صريعا ، ولكن قد يخطر له أن خصمه ربما وقع قبله فيثبت إلى اللحظة الأخيرة ، فيكون له الفلج والفوز على خصمه ، وهكذا في الحروب ، فإن من أهم أسباب النصر فيها الثبات وعدم اليأس ، بل الثبات نافع في كل أعمال البشر ، فهو الوسيلة في الفوز والنجاح فيها »[٢].

ثم أمر الله تعالى عباده المؤمنين المجاهدين أن يذكروه كثيرا عند تلاحم الرماح والسيوف ، فإن ذلك الموطن من أكثر المواطن التي يقع فيها الذهول عن كل شيء ، فأمروا بذكر الله إذ هو تعالى الذي يفزع إليه عند الشدائد ويستأنس بذكره ويستنصر بدعائه ومن كان كثير التعلق بالله ذكره في كل موطن حتى في المواضع التي يذهل فيها عن كل شيء ويغيب فيها الحسّ [٣].

ولما كان الأمر بالثبات يحتاج إلى معرفة فنون الحروب ومواطن الثبات ومواطن الكر والفر ، أمر الله بطاعته وطاعة رسوله ويدخل في ذلك طاعة أمراء الجيوش في المعارك ، فإنهم أعرف وأخبر بطبيعة الحروب ، واستراتيجيات الأعداء .

وهذه الطاعة هي من أقوى العوامل والأسباب في مواجهة العدو ، وتحقيق النصر ، قال ابن العربي في تفسيره لقوله تعالى:﴿ ! " # ﴾:« هذه الوصية هي العمدة التي يكون معها النصر ، ويظهر بها الحق ، ويسلم معها القلب ، وتستمر معها على الاستقامة الجوارح»[٤].

---

(١) ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٢٩/١٠) ، باختصار .

(٢) انظر : تفسير المراغي : (٩/١٠).

(٣) انظر : أبو حيان ، البحر المحيط : (٤٩٨/٤) .

(٤) انظر : ابن العربي ، أحكام القرآن لابن العربي : (٨٥٩/٢) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

ثم نهاهم الله تعالى عن التنازع والاختلاف سواء فيما يتعلق بالأمور الدينية ، أو فيما يتعلق بشؤون الحرب ، لأن بتنازعهم واختلافهم على التعليمات والأوامر ستحل عليهم الهزيمة ويحصل الفشل ، وتذهب قوة المؤمنين .

ثم أمرهم الله تعالى بشيء يعمّ نفعه على الفرد وعلى الجماعة، ويسهل عليهم الأمور الأربعة، التي أمروا بها آنفاً ، وذلك هو الصبر ، قال تعالى : ﴿ * ﴾ لأنّ الصبر هو تحمّل المكروه ، وما هو شديد على النفس ، وتلك المأمورات كلّها تحتاج إلى تحمّل المكاره ، فالصبر يجمع تحمّل الشدائد والمصاعب ، والأذى في سبيل الله (١).

ولما ذكر الله تعالى في الآيتين السابقتين خمسة عوامل وأسبابا للنصر في المعارك الجهادية ، وهي الثبات ، والذكر ، والطاعة وعدم التنازع ، والصبر ، عقب على ذلك بعاملين وسببين آخرين من عوامل وأسباب النصر ، وهما صلاح النية ، وصلاح العمل ، وذلك بالإخلاص لله وإخراج حظوظ النفس وقصد إعلاء كلمة الله تعالى ، قال تعالى : ﴿ 1 2 3 4 5 6 7 8 9 : ; < = ? @ A B C ﴾.

قال الرازي : « وحاصل الكلام أنه تعالى أمرهم عند لقاء العدو بالثبات والاشتغال بذكر الله ، ومنعهم من أن يكون الحامل لهم على ذلك الثبات البطر والرئاء ، بل أوجب عليهم أن يكون الحامل لهم عليه طلب عبودية الله » (٢).

ولهذا ختم الله U بقوله : ﴿ ? @ A B ﴾ في إشارة إلى أن الإنسان ربما أظهر من نفسه أن الحامل له والداعي إلى الفعل المخصوص طلب مرضاة الله تعالى مع أنه لا يكون الأمر كذلك في الحقيقة ، فبين تعالى كونه عالماً بما في دواخل القلوب وذلك كالتهديد والزجر عن الرئاء والتصنع (٣).

قال ابن عاشور في هذه الآية : « عطف نهي على أمر ، إكمالاً لأسباب النجاح والفوز عند اللقاء، بأن يتلبسوا بما يدنيهم من النصر ، وأن يتجنّبوا ما يفسد إخلاصهم في الجهاد»(٤).

---

(١) انظر : ابن عاشور ، التحرير والتنوير: (٣٢/١٠) .

(٢) الرازي ، مفاتيح الغيب : (١٦٩/١٥) .

(٣) انظر : المصدر نفسه : (١٦٩/١٥) .

(٤) انظر : ابن عاشور ، التحرير والتنوير: (٣٢/١٠) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

وقد نهى الله U في هذه الآية النفس المؤمنة أن تخرج للقتال متبطرة طاغية تتعاجب بقوتها ! وتستخدم نعمة القوة التي أعطاها الله لها في غير ما أرادها ، وإنما تخرج للقتال في سبيل الله ؛ تخرج لتقرير ألوهيته سبحانه في حياة البشر ، وتقرير عبودية العباد لله وحده ، وتخرج لتحطيم الطواغيت التي تغتصب حق الله في تعبيد العباد له وحده ، وتخرج لإعلان تحرير الإنسان في الأرض من كل عبودية لغير الله ، وتخرج لحماية حرمات الناس وكراماتهم وحرياتهم ، لا للاستعلاء على الناس واستعبادهم والتبطر بنعمة القوة باستخدامها هذا الاستخدام المنكر ، وتخرج متجردة من حظ نفسها في المعركة جملة ، فلا يكون لها من النصر والغلب إلا تحقيق طاعة الله في تلبية أمره بالجهاد ، وفي إقامة منهجه في الحياة ، وفي إعلاء كلمته في الأرض ، وفي التماس فضله بعد ذلك ورضاه ، حتى الغنائم التي تخلفها المعركة فهي من فضل الله .

ولما بين الله تعالى عوامل النصر عند ملاقاة الأعداء الظاهرين ، بين I عامل النصر تجاه عدوين لدودين مخفيين لا يظهران إلا عند اشتداد الكرب والخطب بالمسلمين ، وعندما تبلغ القلوب الحناجر ، وهما الشيطان والمنافقون .

ولما كان هذان العدوان لا يمكن مواجهتهما بالسلاح والعتاد ، تأخر ذكرهما ، وذلك لكون الجهاد في حقهما جهادا خاصا ، فهم في الحقيقة لا يستخدمون ضد المسلمين سوى الكيد والمكر والخديعة ، وتزيين الباطل الذي عليه الكفار ، ولذا كان عامل انتصار المجاهدين عليهم هو الالتجاء إلى الله والاعتماد والتوكل عليه ، والثقة به ، ولهذا ختم الله U هاتين الآيتين بقوله تعالى : ﴿ v w x y z { | } ﴾ (١).

ومن الأمثلة على أن من توكل على الله كفاه شر كيد الكائدين ومكر الماكرين ما ذكر الله تعالى في قوله تعالى : ﴿ D E F G H I J K L M N O P Q R ﴾ فقد أشارت هذه الآية الكريمة إلى أن الله U أفسد كيد الشيطان ووسوسته ، وذلك بعد أن قوى هذا اللعين عزم قريش على المسير ، إلا أنه عندما رأى نصر الله ومدده يتوالى على المسلمين ، ﴿ W X Y Z [\ ] ^ _ ` a b c d e f g h i ﴾ .

---

(١) انظر : التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم : (١٧٠/٣) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

كما أشارت الآية التي بعدها وهي قوله تعالى : ﴿k l m n o p q r s t v w x y z { | } ~ ﴾ إلى أن الله U نصر عباده المؤمنين بالرغم من تثبيط المنافقين لهم ، وزعزعة ثقتهم بالله تعالى ، إلا أن الله U لا يُضام من التجأ إليه ، وتوكل عليه ، فهو I عزيز منيع الجناب ، عظيم السلطان، حكيم في أفعاله، لا يضعها إلا في مواضعها ، فينصر من يستحق النصر ، ويخذل من هو أهل لذلك .

ثم لما انتهت الآيات السابقة من بيان عوامل وأسباب النصر، ناسب أن يذكر عوامل وأسباب الهزيمة ، وهذه العوامل والأسباب عامة في حق كل من اتصف بها وليست خاصة بكفار قريش وحدهم ، قال تعالى : ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ © وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ ´ µ ¶ ¸ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾﴾ .

قال ابن كثير : « وهذا السياق -وإن كان سببه وقعة بدر -ولكنه عام في حق كل كافر؛ ولهذا لم يخصصه تعالى بأهل بدر ، بل قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ © وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ »[١].

وقال سيد قطب : « وهذا النص - بما يعرضه من مشهد «عذاب الحريق» - يثير في النفس سؤالا : ترى هذا تهديد من الملائكة للذين كفروا بعذاب المستقبل المقرر لهم- كأنه واقع بهم - بعد البعث والحساب؟ أم إنهم يلاقون عذاب الحريق بمجرد توفيهم ؟ وكلاهما جائز ، لا يمنع مانع من فهمه من النص القرآني »[٢].

وقد تباينت آراء علماء التفسير والمناسبات في بيان علاقة هذه الآية بهذا المحور ، فقد ذكر بعضهم أنه لما شرح تعالى أحوال هؤلاء الكفار شرح أحوال موتهم ، والعذاب الذي يصل إليهم في ذلك الوقت[٣].

(١) ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم : (٧٧/٤) .

(٢) سيد ، في ظلال القرآن : (١٥٣٤/٣) .

(٣) انظر : الشربيني ، شمس الدين محمد الخطيب ، السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير ، بيروت : دار الكتب العلمية ، (٦٥٦/١) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

وفي هذه العلاقة بعد واضح عن سياق آيات المحاور السابقة ، وأيضا بعد عن سياق المحور العام للسورة ، إلا أن يقال أن بيان حالهم عند الموت استطراد في الآية لبيان عوامل وأسباب موتهم وهزيمتهم .

قال ابن عاشور : « يجوز أن يكون المراد بالذين كفروا جميع الكافرين حملاً للموصول على معنى العموم ، فتكون الآية اعتراضاً مستطرداً في خلال القصّة ، بمناسبة وَصف ما لقيه المشركون في ذلك اليوم ، الذي عجّل لهم فيه عذاب الموت »[١].

ويدل لما ذكرته من أن هذه العوامل والأسباب عامة على جميع الكفار ، هو ما جاء في سياق الآية من قول الملائكة لهؤلاء عند قبض أرواحهم وهو : ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ ´ µ ¶ ¸ لِّلۡعَبِيدِ﴾، ففي هذه المقالة انتقل سياق مشهد قبض أرواح الكافرين إلى تقرير الحقيقة الكلية وراءه ، وهو بيان للعوامل والأسباب التي أدت إلى هذا العذاب الدنيوي والأخروي .

فيكون معنى الآية : ذلك الأمر العظيم الذي نزل وسينزل بكم أيها الكفار من الهزيمة والعذاب في الدنيا والآخرة كان سببه الرئيسي هو ﴿بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ أي أسلفته من أعمال الشرك والفواحش ، فالشرك بالله وارتكاب ما حرمه الله تعالى من أهم العوامل التي تجلب التعاسة والهزيمة في الدنيا والآخرة ، وفي قوله : ﴿ ¶ ¸ لِّلۡعَبِيدِ﴾ إشارة إلى عامل الظلم والعدوان الذي كان هؤلاء الكفار متصفين به ، سواء ظلمهم لأنفسهم ، أو ما وقع منهم من ظلم على غيرهم ، وخاصة على المؤمنين بالله وفتنتهم في دينهم ، وقد جاء التصريح بذلك مرة أخرى في نهاية آيات هذا المحور فقال تعالى : ﴿ F G H ﴾ .

ولما ذكر الله U العوامل والأسباب التي أدت وستؤدي إلى هزيمة جميع المشركين ناسب أن يذكر أمثلة من أسلافهم ممن كانوا متصفين بتلك الأسباب والعوامل ، والذين استأصلهم الله تعالى بالعذاب ، فنصر بذلك عباده المؤمنين وألحق الهزيمة والخذلان بأعدائه الكافرين ، وفي ذلك أيضا تهديد وإنذار لكفار قريش فقال : ﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيّٞ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٥٢﴾ .

---

(١) انظر : ابن عاشور ، التحرير والتنوير: (٤٠/١٠) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

وفي التصريح بآل فرعون دون غيرهم في هذه الآية فيه إشارة واضحة إلى أن قلة عدد بني إسرائيل ، وكثرة أتباع فرعون ، لم تنفع آل فرعون في كسب المعركة والانتصار على موسى ومن معه ، بل حصل العكس تماما ، كما حصل في غزوة بدر للمشركين مع النبي r ومن معه ، وكأن التاريخ يعيد نفسه ، وفي ذلك تناسق واضح مع سياق موضوع أهم أحداث غزوة بدر .

ولما ذكر الله تعالى أهم العوامل والأسباب لهزيمة الكفار وعذابهم في الدنيا والآخرة ، ذكر سبحانه ما هو عام بهم وبغيرهم ، وذلك هو الكفر بنعم الله تعالى وجحودها ، وتغييرها ، فأسباب زوال النعم ونزول العذاب والنقم نابعة من سلوك الناس وأعمالهم ، قال تعالى: ﴿ ! " # $ % & ' ( ) * + , - . / 0 1 2 3 4 ﴾، فالله I ما لم يخلق العباد ليعذبهم، وإنما خلقهم ليرحمهم ويمن عليهم برحمته وإحسانه، ويسعدهم بطاعته وعبادته، قال تعالى:﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ﴾ [النساء : ١٤٧].

ثم ذكر I أمثلة من الأمم السابقة الذين كفروا بنعمته ، وقد تكررت هنا الآية السابقة في قوله تعالى: ﴿ 5 6 7 9 : ; ....﴾ إلا أن سياق الموضوعات يدل على أنه ليس هناك تكرار في المعنى ، فالآية الأولى قال تعالى : ﴿كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ وهذا يدل على أنهم كفروا بالآيات المثبتة لوجود الله تعالى وصدق الرسل وما جاءوا به من عند الله ، وفي هذه الآية قال تعالى : ﴿ = > ? ﴾ أي لم يصونوا النعم التي أعطاهم الرب I ، فنعم الله تعالى عطاء ربوبيته ، فهو I يساوي في عطاءه بين المؤمن والكافر وبين العاصي والطائع، ولا يفرّق بينهم بسبب الإيمان أو الكفر، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ à إِلَىٰ â ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾[البقرة:١٢٥].

وفي التصريح بآل فرعون في هذه الآية وبيان كيفية هلاكهم على وجه الخصوص فيه إشارة إلى كثرة ما كانوا فيه من النعم ، مع شدة معاندتهم وتكبرهم ، ومقارنة بمشركي مكة الذين أنعم الله تعالى عليهم بنعمة الأمن ووفرة الأرزاق ، وقد ذكرت في آيات كثيرة ما أنعم الله تعالى على فرعون حيث قال تعالى : ﴿N O P Q R S T U V W X Y

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

Z [\ ﴾[الدخان:٢٥-٢٧]، كما ذكرت في آيات كثيرة ما أنعم الله على قريش من نعمة توفر الأرزاق ، وبسط الأمن والأمان ، قال تعالى : ﴿ 2 3 4 5 6 7 8 9 : ; < = > ﴾ [النحل :١١٢] ، وقال تعالى : ﴿ L M N O P Q R S T U ﴾ [العنكبوت : ٦٧].

فلما بعث الله تعالى محمدا r يدعوهم إلى الإسلام ، كذبوه وعاندوا دعوته ، فغير الله تعالى حالهم ، ونزع عنهم نعمة الأمن والرخاء ، وسلط عليهم النبي r وأصحابه ، فبارت تجارتهم ، وفقدوا كثيرا من أموالهم وأنفسهم ، حتى فتح الله تعالى مكة المكرمة للنبي r والمؤمنين، قال تعالى:﴿ ? @ A B C D E F G H I ﴾ [النحل: ١١٢]، فتلك سنة الله تعالى الجارية في خلقه ، فالذي لا يعرف قدر النعمة ولا يشكر المنعم ، تسلب النعمة منه ، وتنزع عنه ، وشأن مشركي مكة فيما نزل بهم من الهزيمة والعذاب كشأن فرعون وقومه والأمم المكذبة قبلهم ، قال تعالى : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ ´ µ ¶ ¸ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[القصص:٥٨] .

قال سيد قطب : « ولا بد أن نقف قليلا عند نص هذه الآية : ﴿ ! " # $ % & ' ( ) * + , - . ﴾ إنه من جانب ، يقرر عدل اللّه في معاملة العباد فلا يسلبهم نعمة وهبهم إياها إلا بعد أن يغيروا نواياهم ، ويبدلوا سلوكهم ، ويقلبوا أوضاعهم ، ويستحقوا أن يغير ما بهم مما أعطاهم إياه للابتلاء والاختبار من النعمة التي لم يقدروها ولم يشكروها ، ومن الجانب الآخر يكرم هذا المخلوق الإنساني أكبر تكريم ، حين يجعل قدر اللّه به ينفذ ويجري عن طريق حركة هذا الإنسان وعمله ويجعل التغيير القدري في حياة الناس مبنيا على التغيير الواقعي في قلوبهم ونواياهم وسلوكهم وعملهم ، وأوضاعهم التي يختاروها لأنفسهم، ومن الجانب الثالث يلقي تبعة عظيمة - تقابل التكريم العظيم - على هذا الكائن ، فهو يملك أن يستبقي نعمة اللّه عليه ويملك أن يزاد عليها ، إذا هو عرف فشكر كما يملك أن يزيل هذه النعمة عنه إذا هو أنكر وبطر ، وانحرفت نواياه فانحرفت خطاه »[1].

---

(١) سيد ، في ظلال القرآن : (٣/ ١٥٣٥) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

المبحث الثالث

علاقة المسلمين بغيرهم وببعضهم في السلم والحرب

ويشمل الآيات (٥٥-٧٥) ، وجاء ذلك على ثلاثة محاور:

المحور الأول : علاقة المسلمين بالكفار المعاهدين والمسالمين.

من الآية : (٥٥-٦٦) .

المحور الثاني : علاقة المسلمين بأسرى الكفار.من الآية: (٦٧-٧١) .

المحور الثالث : علاقة المسلمين بعضهم ببعض. من الآية : (٧٢-٧٥).

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

تمهيد

بعد التأمل والتدبر في هذه الآيات الكريمة ، وبعد النظر في المحور العام والموضوع الكلي للسورة وهو (الجهاد في سبيل الله) ، تبين لي أن هذه الآيات السابقة مسوقة في إطار موضوع واحد وهو بيان (علاقة المسلمين بغيرهم وببعضهم في السلم والحرب) ، وقد جاء الحديث عن هذا الموضوع في الآيات الكريمة على ثلاثة محاور :

المحور الأول : علاقة المسلمين بالكفار المعاهدين والمسالمين ، من الآية : (٥٥-٦٦) .

المحور الثاني : علاقة المسلمين بأسرى الكفار ، من الآية : (٦٧-٧١) .

المحور الثالث : علاقة المسلمين ببعضهم البعض ، من الآية : (٧٢-٧٥) .

الحديث عن المحور الأول

(علاقة المسلمين بالكفار المعاهدين والمسالمين)

جاء الحديث عن هذا المحور في الآيات : (٥٤-٦٦)

قال تعالى : ﴿ X W V U T S R Q P O N M L K J i h g f e d c b a ` _ ^] \ [Z Y z y x w u t s r q p o n m l k j { | } ~ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْۚ إِنَّهُمۡ لَا يُعۡجِزُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُّواْ © مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ ´ µ ¶ ¸ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ۞ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٦١﴾ ! " # $ % & ') * + , - . / 0 1 3 4 5 6 7 8 9 : ; < = > ? @ B C D E F G H I J K L M N O P Q R S T V W X Y Z [\ ^ _ ` a b c d e f g h i j k l m n o p q r s u v w x y z { | } ~ مِّنكُمۡ أَلۡفٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفَيۡنِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ © ﴿٦٦﴾ ﴾ .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

فبعد أن ذكر الله عز وجل في آيات الموضوع الثاني أسباب النصر والهزيمة ، جاء الحديث في آيات هذا المحور لبيان علاقة المسلمين بالكفار المعاهدين والمسالمين ، وقد ناسب أن يأتي هذا المحور عقب ذلك الموضوع لأن حاجة المسلمين إلى هذه العلاقة من الأمور التي تساعدهم في كسب النصر ، وتجنب الهزيمة في جهادهم ضد أعداء الدين والدولة ، فالأخذ بها يساعدهم في ترتيب صفوفهم ، وتوزيع مهامهم ، والإعداد الجيد من جميع النواحي التي تتطلبها الأعمال الجهادية ، بل وقد يكون فيها الفتح من الله تعالى ، كما حصل مع النبي r والمسلمين في معاهدتهم ومصالحتهم لكفار قريش فيما سمي "بصلح الحديبية" ، وقد سماه الله تعالى فتحا[١].

قال دروزة : « الآيات تبدو فصلا مستقلا عن السياق السابق إلا أنها فصل متكامل جميعه في موضوع واحد ، وقد تكون نزلت بعد الآيات السابقة لها مباشرة فوضعت بعدها للتناسب الظرفي الموضوعي والله أعلم»[٢].

ولما كان الإسلام دين السلم والسلام ، جاء لرعاية مصالح الناس وسعادتهم في الدنيا والآخرة، والهدف من الجهاد في سبيل الله كما تقدم في الآيات السابقة ليس غاية في حد ذاته، وإنما هو وسيلة لعزة المسلمين وأمنهم وتأمين انتشار دعوتهم ، ولهذا شرع الله تعالى إلى جانب ما تقدم من شريعة الجهاد والقتال ، قيام العلاقات بين المسلمين والكفار ، وأعطى ولي أمر المسلمين المجاهدين الحق الشرعي في عقد المعاهدات والمواثيق معهم إذا رأى فيها مصلحة للمجاهدين في سبيله .

وبما أن الكفر لا يأتي بخير أبدا ، بل هو أصل كل شر وفساد في الأرض، والكفار أكثر الخلق شرا وضرا ، أشار في بداية الحديث عن هذه العلاقات أن تكون علاقة مشوبة بالحذر من غدرهم وشرهم وخيانتهم ، فقال تعالى : ﴿ J K L M N O P Q R S T U V W X Y Z [\ ] ^ _ ` a ﴾ .

---

(١) صلح الحديبية هو : صلح عقد في شهر شوال من العام السادس للهجرة بين المسلمين بقيادة النبي صلى الله عليه وسلم ، وبين قريش بقيادة سهيل بن عمرو ، بمقتضاه عقدت هدنة بين الطرفين مدتها عشر سنوات . انظر : ابن هشام ، السيرة النبوية : (٢٩١/٤) .

(٢) دروزة : التفسير الحديث : (٧٥/٧) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

ثم بين I كيفية التعامل في علاقتنا مع الكفار الناقضين للعهد ، فقال تعالى : ﴿ b c d e ﴾ أي فإذا ظفرت بهم في ميدان القتال وتمكنت منهم ، ﴿ f g h i ﴾ أي فاغلظ عليهم في القتال وشدد عليهم ، واضربهم ضربة تؤدب بها غيرهم ممن يريدون نقض العهد والغدر ﴿ j k ﴾ أي لعل ذلك يكون موعظة لهم يتعظون بها ، وينزجرون عن نقض العهد والغدر .

قال سيد قطب : في قوله تعالى : ﴿ b c d e f g h i j k l ﴾ : « وإنه لتعبير عجيب ، يرسم صورة للأخذ المفزع ، والهول المرعب ، الذي يكفي السماع به للهرب والشرود ، فما بال من يحل به هذا العذاب الرعيب ؟ إنها الضربة المروّعة يأمر اللّه تعالى رسوله r أن يأخذ بها هؤلاء الذين مردوا على نقض العهد ، وانطلقوا من ضوابط الإنسان ، ليؤمن المعسكر الإسلامي أولا ، وليدمر هيبة الخارجين عليه أخيرا وليمنع كائنا من كان أن يجرؤ على التفكير في الوقوف في وجه المد الإسلامي من قريب أو من بعيد »(١).

وبعد أن بين الله تعالى العلاقة مع الكفار الناقضين للعهد ، ناسب أن يبين العلاقة مع الكفار الراغبين في نقض العهد والغدر ، لأن التعامل معهم مختلف عن سابقه ، فقال تعالى : ﴿ m n o p q ﴾ ، أي غدرا ونقضا للعهد ، بعلامات وأمارات تلوح منهم .

قال ابن عطية : « ابتدأ تبارك وتعالى في هذه الآية بأمره بما يصنعه في المستقبل مع من يخاف منه خيانة إلى سالف الدهر ، وبنو قريظة لم يكونوا في حد من تخاف خيانته فترتب فيهم هذه الآية ، وإنما كانت خيانتهم ظاهرة مشتهرة ، فهذه الآية هي عندي فيمن يستقبل حاله من سائر الناس غير بني قريظة »(٢).

وقال البقاعي: «ولما أمره بما يفعل من تحقق نقضه، أرشده إلى ما يفعل من خاف غدره»(٣).

---

(١) سيد ، في ظلال القرآن : (١٥٤٢/٣) .

(٢) ابن عطية ، المحرر الوجيز : (٦٢٢/٢).

(٣) البقاعي ، نظم الدرر : (٢٣٥/٣) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

وقال ابن عاشور : « عطف حكم عام لمعاملة جميع الأقوام الخائنين بعد الحكم الخاصّ بقوم معينين الذين تلوح منهم بوارق الغدر والخيانة ، بحيث يبدو من أعمالهم ما فيه مخيلة بعدم وفائهم ، فأمَره الله أن يردّ إليهم عهدهم ، إذ لا فائدة فيه ، وإذ هم ينتفعون من مسالمة المؤمنين لهم ، ولا ينتفع المؤمنون من مسالمتهم عند الحاجة » (١).

وفي هذه الآيات دليل واضح ، وبيان صريح ، على أن العلاقة بين المسلمين وهؤلاء يجب أن تكون من الأساس علاقة حذر ورصد وترقب لأي مفاجآت قد تصدر من هؤلاء بالغدر والمكر، فلذلك رتّب نبذ العهد على خوف الخيانة ، دون وقوعها ، لأن شؤون المعاملات السياسية والحربية تجري على حسب الظنون ، ولا ينتظر تحقّق وقوع الأمر المظنون لأنّه إذا تريَّث وُلاة الأمور في ذلك يكونون قد عرضوا الأمة للخطر ، أو للتورّط في غفلة وضياع مصلحة ، فلذلك علّق نبذ العهد بتوقّع خيانة المعاهدين من الأعداء .

ثم بين الله تعاملِ طريق التعامل على أساس ذلك فقال : ﴿ r s t u ﴾ أي أعلمهم أنك نقضت العهد بينك وبينهم ، وفي هذا التعليم الإلهي يتبين لنا أن الإسلام دين سلام ووفاء وصدق ، وليس دين غدر وخيانة ، سواء في السلم والحرب، ومع الصديق والعدو، فالله **U** ﴿y z { ﴾ حتى ولو كانوا من المسلمين .

يقول سيد قطب : « إن الإسلام يعاهد ليصون عهده ؛ فإذا خاف الخيانة من غيره نبذ العهد القائم جهرة وعلانية ؛ ولم يخن ولم يغدر ؛ ولم يغش ولم يخدع؛ وصارح الآخرين بأنه نفض يده من عهدهم. فليس بينه وبينهم أمان ، وبذلك يرتفع الإسلام بالبشرية إلى آفاق من الشرف والاستقامة ، وإلى آفاق من الأمن والطمأنينة ، إنه لا يبيت الآخرين بالهجوم الغادر الفاجر وهم آمنون مطمئنون إلى عهود ومواثيق لم تنقض ولم تنبذ ؛ ولا يروّع الذين لم يأخذوا حذرهم حتى وهو يخشى الخيانة من جانبهم ، فأما بعد نبذ العهد فالحرب خدعة ، لأن كل خصم قد أخذ حذره؛ فإذا جازت الخدعة عليه فهو غير مغدور به إنما هو غافل! وكل وسائل الخدعة حينئذ مباحة لأنها ليست غادرة ! إن الإسلام يريد للبشرية أن ترتفع؛ ويريد للبشرية أن

---

(١) ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (١٠/٥١) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

تعف؛ لا يبيح الغدر في سبيل الغلب؛ وهو يكافح لأسمى الغايات وأشرف المقاصد؛ ولا يسمح للغاية الشريفة أن تستخدم الوسيلة الخسيسة . إن الإسلام يكره الخيانة ، ويحتقر الخائنين الذين ينقضون العهود؛ ومن ثم لا يحب للمسلمين أن يخونوا أمانة العهد في سبيل غاية مهما تكن شريفة ، إن النفس الإنسانية وحدة لا تتجزأ ؛ ومتى استحلت لنفسها وسيلة خسيسة ، فلا يمكن أن تظل محافظة على غاية شريفة ، وليس مسلمًا من يبرر الوسيلة بالغاية ، فهذا المبدأ غريب على الحس الإسلامي والحساسية الإسلامية، لأنه لا انفصال في تكوين النفس البشرية وعالمها بين الوسائل والغايات »[١] .

ولا يعني إعلام العدو بنقض العهد ونبذه عدم الحرص على مفاجأته بالهجوم فهذا أمر وذلك أمر آخر ، فمفاجأة العدو بالهجوم ، وإنزال الضربة الأولى به أمر مشروع في الإسلام ، سنه r ، وكان حريصا على تحقيقه في أكثر غزواته ، فكان إذا غزوة أخفى الجهة التي يقصدها، وإذا ما سئل عنها ورى بغيرها ، لكي يفاجئ العدو ، ويغزوهم وهم غارون غافلون .

وقد جاء في حديث ابن عمر[٢] رضي الله عنهما : « قد أغار رسول الله r على بني المصطلق[٣] وهم غارون » : أي غافلون [٤].

وعن كعب بن مالك[٥] t قال : « لم يكن رسول الله r يريد غزوة إلا ورى بغيرها »[٦].

---

(١) انظر : سيد ، في ظلال القرآن : (٣/١٥٤٢-١٥٤٣) . باختصار .

(٢) هو : عبد الله بن عمر بن الخطاب بن نفيل القرشي العدوى ، صحابي مشهور ، ولد سنة ثلاث من المبعث النبوي، وهاجر إلى المدينة وهو ابن عشر سنين ، ومات سنة أربع وثمانين . انظر : ابن حجر ، الإصابة : (٤/ ١٨١)

(٣) هم : بطن من خزاعة ، وهم : بنو جذيمة، وجذيمة هو المصطلق ، من الصلق : وهو رفع الصوت ، وهذه الغزوة كانت في شعبان من السنة الخامسة من الهجرة ، وغنم المسلمون فيها غنيمة كثيرة ، وسبيت فيها جويرية بنت الحارث ، وتزوجها النبي صلى الله عليه وسلم ، وأعتق المسلمون جميع نساء قومها . انظر : الذهبي ، تاريخ الإسلام : (٢/٢٥٩) .

(٤) أخرجه البخاري ، كتاب الجمعة ، باب من انتظر حتى تدفن ، برقم : (٢٥٤١) . ومسلم ، كتاب الجهاد والسير ، باب جواز الإغارة على الكفار الذين بلغتهم دعوة الإسلام من غير تقدم الإعلام بالإغارة ، برقم : (١٧٣٠) .

(٥) هو : كعب بن مالك بن أبي كعب ، أحد الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك ، فتاب الله عليهم ، مات بالشام في خلافة معاوية . انظر : ابن حجر ، الإصابة : (٥/٦١١) .

(٦) أخرجه البخاري، كتاب الجمعة ، باب من أراد غزوة فورى بغيرها ، ومن أحب الخروج يوم الخميس، برقم (٢٩٤٧).

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

ثم بين I أنه بالمرصاد لكل من يحاولون استغلال هذه العلاقة الطيبة والمبدأ الإسلامي الرفيع في إعلام العدو بنقض العهد ، فيحاولون المكر والخديعة ، فإنهم إن أفلتوا ونجوا من عقوبة الله والمؤمنين في هذا الموقف ، فلا يعتقدوا أنهم سيفتلون على الدوام فإن الله U محيط بهم ، وكل ما هنالك أن حكمته اقتضت إمهالهم ، وأنه سبحانه قادر على أن ينزل بهم عذابه في أي مكان وزمان [١]، ولهذا قال تعالى متوعدا ومتهددا : ﴿ { ~ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْۚ إِنَّهُمۡ لَا يُعۡجِزُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ .

قال أبو السعود[٢] : « وهذا على قراءة الخطاب لإزاحة ما عسى يحذر من عاقبة النبذ لما أنه إيقاظ للعدو ، وتمكين لهم من الهرب والخلاص من أيدي المؤمنين ، وفيه نفي لقدرتهم على المقاومة والمقابلة على أبلغ وجه وآكده»[٣].

قال البقاعي : « ولما كان بنذ العهد مظنة الخوف من تكثير العدو وإيقاظه ، وكان الإيقاع أولى بالخوف ، أتبع سبحانه ذلك ما يجري عليه ويسلي عن فوت من هرب من الكفار في غزوة بدر فلم يقتل ولم يؤسر»[٤].

وفي هذه الآية تسلية للنبي r على ما بدر من أعدائه من الخيانة مثل ما فعلت قريظة ، وما فعل عبد الله بن أبي بن سلول وغيرهم من فلول المشركين الذين نجوا يوم بدر، وطمأنة له وللمسلمين بأنّهم سيدالون منهم، ويأتون على بقيتهم، وتهديد للعدوّ بأنّ الله سيمكّن منهم المسلمين[٥].

ولما كان السبب الداعي للمعاهدين في نقض العهد والغدر والخيانة هو ما يرونه من ضعف المسلمين ، وعدم استعدادهم الجيد للمفآجات ، أمر الله I المؤمنين بالإعداد الجيد ،

---

(١) انظر : دروزة ، تفسير الحديث : (٧٤/٧) .

(٢) هو : محمد بن محمد العمادي الحنفي ، مشهور بأبي السعود ، صاحب التفسير ، توفي سنة اثنتين وثمانين وتسعمائة. انظر : ابن العماد ، شذرات الذهب : (٣٩٨/٨) .

(٣) أبو السعود ، إرشاد العقل السليم : (٣٢/٤) .

(٤) البقاعي ، نظم الدرر : (٢٣٥/٣) .

(٥) انظر : ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٥٣/١٠)

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

والجهوزية التامة للقوة العسكرية ، والحصول على كل أسباب القوة ، ووسائلها المادية والبشرية والمعنوية ، لمواجهة أي قوة عسكرية مهما كانت عدتها وعتادها ، وأيضا فإن الدخول في المعاهدات والمسالمات مع الأعداء ربما يؤدي إلى ترك عداوة الكفار ، وعدم القيام بواجب الجهاد في سبيل الله . قال تعالى : ﴿وَأَعِدُّواْ © مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ ´ µ ¶ ۦ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ٦٠﴾ .

ولما كانت الخيل أسرع وسائل الهجوم والكر والفر في ميادين القتال ، وهي أقوى الدّواب وأشد العدة وحصون الفرسان ، خصها الله I بالذكر تشريفا [١] ، وكأن بذكرها هنا معطوفا على إعداد القوة ، يوضح الله U مبدأ عسكريا هاما ، وهو : إضعاف العدو بقوة السلاح والرمي أولا ، ثم الهجوم عليه ثانيا بالخيل ، للقضاء عليه .

وقد حث النبي r على إعداد الخيل والفروسية للجهاد عليها في سبيل الله في أحاديث كثيرة ، منها : عن عروة البارقي[٢] t ، قال : قال رسول الله r : « الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة »[٣].

كما كان r يحث أصحابه على إتقان الرماية والفروسية والتدرب عليهما ، ويشترك معهم في ذلك ، فعن سلمة بن الأكوع[٤] t ، قال : خرج رسول الله r على نفر من أسلم ينتضلون[٥] بالسوق ، فقال : « ارموا بني إسماعيل فإن أباكم كان راميا ، ارموا ، ارموا وأنا مع

---

(١) انظر : ابن عطية ، المحرر الوجيز : (٢/٦٢٥) .

(٢) هو : عروة بن الجعد ويقال بن أبي الجعد ، جده مشهور وله أحاديث وهو الذي أرسله النبي صلى الله عليه وسلم ليشتري الشاة بدينار فاشترى به شاتين ، وكان فيمن حضر فتوح الشام ونزلها ثم سيره عثمان إلى الكوفة ، وكان في داره ستون فرسا مربوطة . انظر : ابن حجر ، الإصابة : (٤/٤٨٨) .

(٣) أخرجه البخاري : (٣/ ١٠٤٧) ، برقم : (٢٦٩٥) ، ومسلم ، (٦/٣٢) برقم : (٤٩٥٧) .

(٤) هو : سلمة بن عمرو بن الأكوع ، صحابي أول مشاهده الحديبية ، وكان من الشجعان ، ويسبق الفرس عدوا ، مات بالمدينة سنة أربع وسبعين . انظر : ابن حجر ، الإصابة : (٣/١٥١) .

(٥) أي يرْتمون بالسهام ، يقال : انْتَضَل القوم وتَناضَلوا : أي رَمَوا للسَّبْق . انظر : النهاية في غريب الأثر : (٥/١٥٨).

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

بني فلان » فأمسك أحد الفريقين بأيديهم ، فقال :«ما لكم لا ترمون ؟» فقالوا : كيف نرمي وأنت معهم ؟ ، فقال : «ارموا وأنا معكم كلهم»[١].

ثم بين I ما يترتب على إعداد القوة من عزة ومنعة ، ورهبة العدو ، وخوفه ، واحترامه للعهود والمواثيق ، كما أن في ذلك أيضا ترهيبا لأعداء آخرين لا نعلم حقيقتهم إما لكونهم يخفون عداوتهم ، أو لكونهم بعيدين عنا ولا نراهم ، إلا أن الله U يعلم بغضهم للإسلام والمسلمين ، ويرى كيدهم وتخطيطهم ، قال تعالى : ﴿تُرْهِبُونَ بِهِۦ ´ µ ¶ ¸ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ .

ولما كان إعداد القوة العسكرية تتطلب تحمل النفقات الباهظة لإعداد الأسلحة الكثيرة ، وتدريب الجنود على استعمالها ، حث الله U في نهاية الآية إلى الإنفاق في سبيله ، وذكر المنفقين في سبيله بثوابه الجزيل ، فقال تعالى : ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ .

ولما أمر I بإعداد القوة العسكرية لترهيب الأعداء ، أشار إلى أن ذلك لا يعني بالضرورة مباشرة القتال والحرب ، وأنَّهم عند هذا الإرهاب إذا مالوا إلى المصالحة ، فالحكم قبول المصالحة[٢]، قال تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾﴾ .

وفي هذه الآية دليل واضح على أن الإسلام دين سلام ووئام ، وأن الكفار إذا مالوا للسلم والمصالحة والمهادنة جاز للمسلمين أن يميلوا إليها ، بعد أن يستعدوا ويتهيئوا بكل الأسباب المادية ، ويعتمدوا على الله U ، ولا يخافوا من مكر أعدائهم وكيدهم ، لأنهم إن أرادوا من هذا السلم والصلح خداع المؤمنين، فإن الله U هو حسب المؤمنين ومولاهم ، وكما أيد رسوله r والمؤمنين ونصرهم في حرب بدر، فإنه I سيعصمهم من كيدهم وسينصرهم عليهم ، قال تعالى:

﴿ ! " # $ % & ') (* + , - . ﴾ .

---

(١) رواه البخاري ، كتاب الجمعة ، باب قول الله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ ....﴾ برقم : (٣٣٧٣) .

(٢) انظر : ابن عادل ، اللباب في علوم الكتاب : (٥٥٧/٩) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

قال ابن عاشور : « لما كان طلب السلم والهدنة من العدوّ قد يكون خديعة حربية ، ليَغزُوا المسلمين بالمصالحة ثمّ يأخذوهم على غرّة ، أيقظ الله رسوله لهذا الاحتمال فأمره بأن يأخذ الأعداء على ظاهر حالهم، ويحملهم على الصدق ، لأنّه الخُلق الإسلامي ، وشأن أهل المروءة، ولا تكون الخديعة بمثل نكث العهد ، فإذا بعث العدوَّ كفرُهم على ارتكاب مثل هذا التسفّل ، فإنّ الله تكفّل للوفي بعهده أن يقيه شرّ خيانة الخائنِين ، وليس هذا هو مقام نبذ العهد الذي في قوله : ﴿ m n o p q r s t u ﴾ فإنّ ذلك مقام ظهور أمارات الخيانة من العدوّ ، وهذا مقام إضمارهم الغدر دون أمارة على ما أضمروه »[١].

ولما امتن I نبيه محمدا r بتأييده له ونصره على أعداءه بنصر خارق للعادة وبأسباب باطنية ، من أول أيام دعوته عليه الصلاة والسلام ، استطردت الآيات الكريمة في ذكر منة أخرى على النبي r وهو تأليف الله بين قلوب أتباعه المؤمنين إذ جعَلهم متحابّين ، وذلك أعون له على سياستهم ، وأرجى لاجتناء النفع بهم ، إذ يكونون على قلب رجل واحد ، وهو أيضاً منة على المؤمنين إذ نزع من قلوبهم الأحقاد والإحن ، التي كانت دأب الناس في الجاهلية، فكانت سبب التقاتل بين القبائل ، بعضها مع بعض ، وبين بطون القبيلة الواحدة[٢] ، فقال تعالى : ﴿ / 0 1 3 4 5 6 7 8 9 : ; < = > ? @ B C D E ﴾ .

ويبدو للمتأمل في هذه الآية أن ثمة تناسقا مع ما جاء في بداية السورة من اختلاف الصحابة وتنازعهم في الأنفال ، في إشارة واضحة إلى أن الأمور المادية لا تجلب الألفة والمحبة ولا إصلاح ذات البين، فإنه عليه الصلاة والسلام لو أنفق ما في الأرض جميعا -وليس الأنفال والغنائم التي غنموها من كفار قريش فقط- لما استطاع أن يؤلف بين قلوبهم ، ولا أن يصلح ذات بينهم إلا أن الله U ألف بين قلوبهم ، وأصلح ذات بينهم ، وذلك بعد أن قاموا بطاعته وإتباع أمره .

---

(١) ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٦٢/١٠) .

(٢) انظر : ابن عاشور ، المصدر السابق : (٦٢/١٠-٦٣) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

ولما بيَّن I أنه كافي النبي r والمؤمنين بتأييده ونصره ، وخاصة فيما يتعلق بعلاقتهم مع الكفار المعاهدين والمسالمين ، بيَّن بعد ذلك أنه لا ينبغي عليهم أن يتكلوا على ذلك إلا بشرط أن يتخذوا جميع الأسباب ، فكلف نبيه r بأن يجهز المؤمنين ويحرضهم على القتال ؛ والثبات في أي مواجهة عسكرية بينهم وبين أعداءهم ، والصبر على ذلك ، وإن كان أعداد المشركين أكثر منهم ، فإنه تعالى كفيل بإنزال النصر والتأييد إن هم أطاعوا لذلك ، وفي هذا تناسق واضح بالمحور الذي تحدثت عنه آيات الموضوع الثاني وهو (ارتباط النصر والهزيمة بالأسباب المادية والمعنوية) ، لأن إنزال نصر الله U لا يكون إلا بعد الإتيان بالتكاليف الدينية والصبر عليها ، ولهذا جاء عقب وعد الله I نبيه r والمؤمنين بالكفاية والنصر ، بتكليف شاق عليهم ليعلم من يستحق النصر ممن لا يستحقه . فقال تعالى : ﴿ O P Q R S T V W X Y Z [\ ^ _ ` a b c d e f g h i j k ﴾.

قال أبو السعود: «بعدما بين كفايته إياهم بالنصر والإمداد أمر بترتيب مبادي نصره وإمداده»[١].

وقال ابن عاشور : « لما تكفّل الله له الكفاية ، وعطف المؤمنين في إسناد الكفاية إليهم ، احتيج إلى بيان كيفية كفايتهم ، وتلك هي الكفاية بالذبّ عن الحوزة وقتال أعداء الله »[٢].

ولما ندبهم إلى القتال ، أعلمهم بأنهم منصورون فيه إن لازموا آلة النصر[٣] فقال تعالى: ﴿V W X Y Z ﴾وقد جاء التقييد بالصبر في الشرط الأول لفظاً، وحذف من الثانية لدلالة ذكره في الأولى ، وجاء تقييد الشرط الثاني بقوله: ﴿d e f ﴾ لفظاً، وحذف من الشرط الأول في قوله: ﴿ [\ ﴾ وهذا غاية الفصاحة في الكلام ، حيث أثبت قيد من الجملة الأولى ، وحذف نظيره من الثانية ، وأثبت قيد في الثانية وحذف من الأولى[٤] .

---

(١) أبو السعود ، إرشاد العقل السليم : (٣٤/٤) .
(٢) ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٦٦/١٠) .
(٣) انظر : البقاعي ، نظم الدرر : (٢٣٩/٣) .
(٤) انظر : البقاعي ، المصدر السابق : (٢٤٠/٣) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

وإنما جاءت المصابرة علة للأمر بالتحريض ، أي حرضهم أولاً ؛ لأني أعنت كلاً منهم على عشرة ، فلا عذر لهم في التواني؛ وعَلَّلَ عُلُوَّهُم عليهم وغلبتهم على هذا الوجه بقوله بعد ذلك: ﴿ g h i j ﴾ أي هذا الذي أوجبته ووعدت بالنصر عنده بسبب أن الكفار ليس لهم فقه يعلمون به علم الحرب الذي دربه أهل الإيمان وإن كنتم ترونهم أقوياء الأبدان فيهم كفاية للقيام بما ينوبهم من أمر الدنيا لأنهم أبدان بغير معان ، كما أن الدنيا كذلك صورة بلا روح(١).

ولما كان الوعد السابق متضمنا وجوب مقاومة الواحد للعشرة وثباته ، وعدم الفرار عنهم ، خفف الله عنهم في هذه الآية بمقاومة الواحد للاثنين ، وقد كان المؤمنين قلة في بداية الأمر ، ولكن علم الله U أنهم سيكثرون فنزل التخفيف(٢)، فقال تعالى : ﴿ l m n o p q r s u v w x y z { | } ~ مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ © ﴿٦٦﴾ ﴾ .

ولما كان الصبر شديد المطلوبيّة أثبت في أولى جملتي التخفيف وحذف من الثانية لدلالة السابقة عليه ثم ختمت الآية بقوله : ﴿وَٱللَّهُ مَعَ © ﴾ مبالغةً في شدّة المطلوبيّة ، وأيضا لم تتعرض هذه الآية لحال الكفرة من الخذلان كما لم يتعرض هناك لحال المؤمنين مع أن مدار الغلبة في الصورتين مجموع الأمرين وهو نصر المؤمنين وخذلان الكفرة اكتفاء بما ذكر في كل مقام عما ترك في المقام الآخر، وأيضا لما قيد l في التخفيف ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ ترك ذلك في الآية السابقة اكتفاء بذلك ، وفي قوله تعالى : ﴿وَٱللَّهُ مَعَ © ﴾ إشارة إلى تأييدهم ، وأنهم منصورون حتما لأن من كان الله تعالى معه لا يغلب (٣).

---

(١) انظر : البقاعي ، المصدر السابق : (٣/٢٤٠) .

(٢) أبو السعود ، إرشاد العقل السليم : (٤/٣٤) .

(٣) انظر : أبو حيان ، البحر المحيط : (٤/٥١٢) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

الحديث عن المحور الثاني

(علاقة المسلمين بأسرى الكفار)

جاء الحديث عن هذا المحور في الآيات : (٦٧-٧١)

قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ ´ µ ¶ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَـٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ ! " # $ % & ' ( ) * + , - . / 0 1 2 3 4 5 7 8 9 : ; < = > ? @A B C D F G H I ﴾ .

فبعد أن تحدثت آيات المحور السابق عن علاقة المسلمين بالمعاهدين والمسالمين، وكانت تلك العلاقة غالبة ما تكون قبل المواجهة وقبل بداية الحرب، ولهذا ناسب أن يأتي عقب ذلك علاقة المسلمين بالأسرى ، لأن الأسر لا يكون إلا عند المواجهة وبعد بداية الحرب ، وعند انتهائها .

وأيضا فإنه سبحانه وتعالى لما ذكر في آيات المحور السابق أن الكفر مادة الشر ، وأن الكفار هم شر الدواب ، ثم عقب ذلك ببيان العلاقة التي تربط بين الكفر والإيمان ، وبين المؤمن والكافر ، فذكر منها علاقة السلم والحرب ، ناسب أن يذكر العلاقة التي ستكون بينهم بعد الحرب ، لأن الحرب ينتج عنها أخذ أسرى الكفار ، فذكر الله U في آيات هذا المحور علاقة الإسلام والمسلمين بهؤلاء الأسرى .

ولما كان المبدأ الذي أراده الله U في معركة بدر ، هو تشييد وبناء دولة الإسلام ، وتقويض كيان الباطل ، وكانت الغاية الإلهية من المعركة هو تبديد غرور قريش وفخرها وخيلائها بإنزال ضربة قاصمة توقظها من غفلة الغي ، وتجهض من قوتها ، وتبلغ في إيلامها وتفجيعها مبلغ مؤثرا ، إلا أنه كانت هناك أطماع وأغراض دنيوية لعبت دورا مهما في هذه المعركة المصيرية حيث صدرت من قلة من الصحابة رضوان الله عليهم قبل المعركة وبعدها ، وكانت في هذه الأغراض الدنيوية مخالفة صريحة للهدف والغاية الإلهية من هذه المعركة ، ولهذا جاء الخطاب الإلهي في بداية السورة وفي نهايته شديد الوقع في النفوس ، كارها ما صدر من المؤمنين سواء

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

إرادتهم أخذ العير قبل المعركة ، أو إرادتهم أخذ الفداء عقب المعركة ، لأن في كلتا الحالتين دلالة على حب الدنيا ، وعلى إبقاء الحياة على هؤلاء المشركين الذين أمرهم بإثخان القتل فيهم ، مما يضعف تمكين وغلبة وقهر وسلطان المؤمنين ، وكل هذا يؤكد مجانبة الصواب من بعضهم ، فكان الأمر جد خطير ، في بداية السورة وفي نهايتها .

ولهذا نجد إرادتين إلهيتين في بداية السورة ونهايتها ، حيث قال تعالى هناك : ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ © بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ وقال تعالى هنا : ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ ، كما نرى أيضا إرادتين من بعض المسلمين في البداية والنهاية حيث قال تعالى هناك : ﴿ { ~ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ ، وقال تعالى هنا: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا﴾ ، فكانت بداية السورة إرادة إلهية لإعلاء المسلمين في الدنيا ، وفي نهاية السورة إرادة إلهية لإعلاء المسلمين في الآخرة ، وكل هذا مما يزيد التناسق الموضوعي بين هذه المحاور وضوحا وجلاء .

كما أن الخطاب الإلهي في كلتا الحالتين وبعد ذلك الوقع الشديد على نفوس المسلمين جاء تكريما لهم ورحمة بهم ، فكان أن استجاب الله استغاثتهم به قبل المعركة فوهبهم النصر وألحق الهزيمة بأعدائهم، وأما بعد المعركة فقد أحل لهم ما أخذوه من الفداء والغنيمة من أسرى الكفار، والذي كان حراما على من سبقهم من الأمم ، وطيب خاطرهم بهذا الأمر .

قال البقاعي: «ولما تقدم الأمر بالإثخان في﴿ f g ﴾ ثم بإعداد القوة، ثم التحريض على القتال بعد الإعلام بالكفاية ثم إيجاب ثبات الواحد لعشرة ثم إنزال التخفيف إلى اثنين ؛ كان ذلك مقتضياً للإمعان في الإثخان، فحسن عتاب الأحباب في اختيار غير ما أفهمه هذا الخطاب، لكون ذلك أقعد في الامتنان عليهم بالعفو والغفران بسبب أن أكثرهم مال إلى الفداء »[١] .

ولما كانت آيات هذا المحور نازلة في أسرى بدر ، فعلاقتها بموضوع أهم أحداث غزوة بدر ظاهرة وواضحة ، كما أنها لا تقل وضوحا في تناسقها مع موضوع أسباب النصر والهزيمة ، فإن الأسر لا يكون إلا عقب الأخذ بأسباب النصر وتحقيقه في المعركة ، وبهذه العلاقات التناسقية بين الموضوعات وبين المحاور يتبين لنا عظمة القرآن الكريم ، فكما أنه معجز في نظمه ، معجز في ترتيب موضوعاته وتناسقها .

---

(١) انظر : البقاعي ، نظم الدرر : (٣/٢٤٥-٢٤٦) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

ولوضوح تعلق هذه الآيات بما قبلها ، يقول ابن عاشور : « استئناف ابتدائي مناسب لما قبله سواء نزل بعقبه أم تأخّر نزوله عنه فكان موقعه هنا بسبب موالاة نزوله لنزول ما قبله »(١).

وقد ذكر ابن عاشور أيضا سبب تأخر ترتيب هذه الآيات عن الموضوع الأول قائلا : «وعندي أن هذا تشريع مستقبل أخرّه الله تعالى رفقاً بالمسلمين الذين انتصروا ببدر ، وإكراماً لهم على ذلك النصر المبين ، وسدّاً لخلّتهم التي كانوا فيها ، فنزلت لبيان الأمر الأجدر فيما جرى في شأن الأسرى في وقعة بدر » (٢).

ولقد أشارت بداية آيات هذا المحور إلى سنة الله U الجارية في الأنبياء الماضين عليهم السلام ، وذلك أنهم كانوا إذا حاربوا أعداءهم وظفروا بهم ينكلونهم بالقتل ليعتبر به من وراءهم فيكفوا عن محاداة الله ورسوله ، وكانوا لا يأخذون أسرى حتى يثخنوا في الأرض، قال تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ ´ µ ¶ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ ﴾ .

قال ابن عاشور : « والمعنى أنّ النبي إذا قاتل فقتاله متمحّض لغاية واحدة ، هي نصر الدين ودفع عدائه ، وليس قتاله للملك والسلطان فإذا كان أتْباع الدين في قلّة كان قتل الأسرى تقليلاً لعدد أعداء الدين حتّى إذا انتشر الدين وكثر أتباعه صلح الفداء لنفع أتباعه بالمال ، وانتفاء خشية عود العدوّ إلى القوة . فهذا وجه تقييد هذا الحكم بقوله:﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ ﴾»(٣).

وهذه الآية ليست موجهة إلى النبي r لأنّه ما فعل إلاّ ما أمره الله به من مشاورة أصحابه، وإنما هي موجهة للمسلمين الذين أشاروا بالفداء ، ويدلّ لذلك قوله : ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا﴾ فإنّ الذين أرادوا عرض الدنيا هم الذين أشاروا بالفداء ، وليس لرسول الله r في ذلك حظّ ، وفيه ذلك إشارة أيضا إلى أنّ الرسول r غيرُ معاتَب لأنّه إنّما أخذ برأي الجمهور (٤).

ثم بينت آيات هذا المحور العلاقة التي ينبغي أن تكون بين المسلمين وبين هؤلاء الأسرى ، فذكرت أن هذه العلاقة ليست إلا علاقة تسلط وقهر ، مشوبة بالحذر والحيطة ، ولكونهم في

---

(١) ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٧٢/١٠) .

(٢) ابن عاشور ، المصدر السابق .

(٣) ابن عاشور ، المصدر السابق : (٧٣/١٠) .

(٤) انظر : حاشية الشهاب الخفاجي على البيضاوي : (٢٩١/٤) . وابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٧٥/١٠) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

عداد شر الدواب عند الله لم يوجه الله خطابه إليهم ، بل صرفه إلى نبيه r وأمره بمخاطبتهم -بعد ما شق على هؤلاء إباحة الله للمؤمنين أخذ أموالهم منهم- ، واستمالة قلوبهم ، وترغيبهم في الإسلام[١]، فقال تعالى: ﴿ ! " # $ % & ' ( ) * + , - . / 0 1 2 3 4 5 7 8 9 : ﴾ ، ويلاحظ أن في قوله تعالى: ﴿ $ % & ﴾ إشارة إلى هذه العلاقة ، وهي علاقة تسلط وقهر ، حيث جعلهم الله تعالى كالأداة التي في قبضة اليد يمكن أن يتصرف فيها الشخص كيف يشاء ، إلا أن هذه العلاقة التي بين المسلمين والأسرى يرجى لها أن تتحول إلى علاقة رحمة ومودة، لأن غاية الإسلام من استبقاء الأسرى ، ليس استبدادا ولا انتقاما ، ولا استغلالا، ولا ظلما، بل هو معرفة وتملس مكامن الخير والرجاء والصلاح في قلوبهم ، فيوقظ في فطرتهم أجهزة الاستقبال والتلقي والتأثر والاستجابة للدعوة الإسلامية[٢]، قال تعالى : ﴿ (* + , - . / 0 1 2 3 4 5 ﴾ ، وفي الوقت الذي يفتح الله للأسرى نافذة الرجاء والطمع في تحسين العلاقة بينهم وبين المسلمين ، تأتي الآية التي بعدها لتحذرهم ، ولتشير إلى أخذ الحيطة والحذر منهم ، وعدم الاتكال والارتكان إليهم ، فإنهم لمَّا يدخل الخير والإيمان في قلوبهم ، ويخرجوا بعد من زمرة شر الدواب ، فيتصور منهم جميع أشكال الخيانة والخداع والمكر، إلا أن الله U طمأن المؤمنين وخاصة النبي r إذ هو قائدهم بأن المكر السيء لا يحيق إلا بأهله ، وأنهم إن قاموا بالخيانة والمكر فإنهم سيلاقون نفس هذا المصير الذي لاقوه في غزوة بدر، فقال تعالى : ﴿ ; < = > ? @A B C D F G H ﴾.

قال البقاعي : « يريد الله أن يكون وبال ذلك راجعاً إليهم فيمكن منهم ، فلا تخشى من أمرهم ﴿ > ? @ A B ﴾ أي من قبل هذا الوقت بالكفر وغيره من أنواع الفسق ، ﴿ C ﴾ أي فأوجد الإمكان منهم ، فمثل ما أمكن منهم عند وقوع الخيانة سيمكنك منهم إذا أرادوا الخيانة ، فإن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون »[٣].

---

(١) انظر : الرازي ، مفاتيح الغيب : (١٦٢/١٥) .

(٢) انظر : في ظلال القرآن لسيد قطب : (١٥٥٣/٣) .

(٣) انظر : البقاعي ، نظم الدرر : (٢٤٦/٣-٢٤٧) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

الحديث عن المحور الثالث

(علاقة المسلمين ببعضهم البعض)

جاء الحديث عن هذا المحور في الآيات : (٧٢-٧٥) .

قال تعالى : ﴿ J K L M N O P Q R S T
U V W X Y Z \ ] ^ _ ` a b c d e f
g i j k l m n o p q r s t v w
x y z { | } ~ بَعۡضٍۚ إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ
وَفَسَادٞ © ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ´ µ
¶ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴿٧٤﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمۡ
فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمۡۚ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ﴿٧٥﴾ ﴾ .

وقد جاءت هذه الآيات الكريمة بعد المحور الأول والثاني اللذين تحدثت فيهما الآيات عن طبيعة العلاقة بين المجتمع المسلم ، وبين المجتمعات الكافرة من المحاربين والمعاهدين والمسالمين والأسرى ، وبينت الأحكام المنظمة لهذه العلاقات .

ولما كان أصناف المؤمنين في عهد النبوة ينقسمون إلى أربعة أصناف اقتضت المناسبة بيان العلاقات بين هذه الأصناف والأقسام ، والأحكام المنظمة في صلات كل منهم بالآخر .

قال دروزة : « يبدو لأول وهلة أنه لا صلة بين هذه الآيات والسياق السابق ، غير أن إنعام النظر يؤدي إلى لمس شيء من الاتصال فيما يتبادر لنا ، حيث إن وقعة بدر وطّدت أولا الأخوة بين المهاجرين والأنصار أشد من قبل لأنهما اشتركا في حرب ، وغدوا يتحملان تبعاتها الاجتماعية التي كانت شديدة في بيئة النبي وعصره ، ووطّدت ثانيا العداء الشامل بين المهاجرين والأنصار من جانب وبين كفار قريش من جانب ، وكان بين هؤلاء والمهاجرين صلات وشيجة من قربى ورحم ودم وصهر وشركة مال وملك ، فاقتضت حكمة التنزيل إنزال

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

الآيات لبيان الحكم في صلات كل منهم بالآخر ، ووضعت في آخر السورة إما لأنها نزلت بعد سابقاتها مباشرة أو للتناسب الموضوعي »[١] .

وكأن في اختتام السورة الكريمة بهذا المحور تناسقا واضحا مع سياق موضوعات السورة ، فبعد أن ذكرت السورة خوض المؤمنين والكفار معركة شرسة تجلى فيها المدد الرباني لتلك الفئة المؤمنة التي تمسكت بأسباب النصر المعنوي والمادي ، وابتعدت عن أسباب الهزيمة والخذلان الذي لحق بالمشركين المعادين لأولياء الله ، ثم بينت طبيعة العلاقة بين المجتمع المسلم وغيره من المجتمعات الكافرة ، فحاربوا من حاربوا ، وعاهدوا من عاهدوا ، وسالموا من سالموا ، وأسروا من أسروا ، ووضعت الحرب أوزارها ، وأخذ كل نصيبه من هذه المعركة ، التفت الله U في نهاية السورة إلى المؤمنين لإحكام العلاقة بين بعضهم البعض ، وبيَّن المنطلق الذي تنطلق منه هذه العلاقة ، والتي تقوم عليها كذلك ، إنها ليست علاقات الدم، ولا علاقات الأرض، ولا علاقات الجنس، ولا علاقات التاريخ، ولا علاقات اللغة ، ولا علاقات الاقتصاد.. ليست هي القرابة ، وليست هي الوطنية ، وليست هي القومية ، وليست هي المصالح الاقتصادية ، إنما هي علاقة العقيدة ، وعلاقة القيادة ، فـ﴿ K L M ﴾ إلى دار الهجرة والإسلام ، متجردين من كل ما يمسكهم بأرضهم وديارهم وقومهم ومصالحهم ، ﴿ N O P Q R S T U V ﴾ ودانوا معهم لعقيدتهم وقيادتهم في تجمع واحد ، ﴿ W X Y Z ﴾.﴿ \ ] ^ _ ﴾ ليس بينهم وبين المجتمع المسلم ولاية ﴿ ` a b c d e f g ﴾ لأنهم لم يتجردوا بعد للعقيدة ، ولم يدينوا بعد للقيادة ولم يلتزموا بعد بتعليمات المجتمع الواحد ، وفي داخل هذا المجتمع الواحد تعتبر قرابة الدم أولى في الميراث وغيره ، ﴿ { | } ~ بَعۡضٍ ﴾ كذلك، هذه هي الخطوط الرئيسية في العلاقات والارتباطات[٢]، كما تصورها آيات هذا المحور.

---

(١) دروزة ، التفسير الحديث : (٩٨/٧) .

(٢) انظر : سيد ، في ظلال القرآن : (١٥٥٣/٣) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

وقد قسم الله U المؤمنين في هذه الآيات إلى ثلاثة أقسام ، وبين طبيعة العلاقة بينهما، فالقسمين الأولين وهم المهاجرون والأنصار يوالي وينصر بعضهم بعضاً وأنهم يد واحدة على من سواهم ، وأما القسم الثالث وهم ﴿ \ ] ^ _ ﴾ ذكر طبيعة علاقة القسمين السابقين بهم فقال : ﴿ ` a b c d e ﴾ ولما كان هذا يوهم أنهم لما لم يهاجروا مع رسول الله r سقطت ولايتهم مطلقاً ، أزال الله تعالى هذا الوهم بقوله : ﴿ f g ﴾ وهذا يعني أنهم لو هاجروا لعادت تلك الولاية وحصلت ، والمقصود من هذا حملهم على المهاجرة وترغيبهم فيها ، لأنهم عندما يسمعون أن الله تعالى قطع الولاية بينهم وبين المسلمين ، وأنهم لو هاجروا حصلت تلك الولاية وعادت على أكمل الوجوه ، فلا شك أن هذا يصير مرغباً له في الهجرة ، والمقصود من المهاجرة كثرة المسلمين واجتماعهم وإعانة بعضهم لبعض ، وحصول الألفة الشوكة وعدم التفرقة(١).

ولما بين I طبيعة علاقة المؤمنين بتلك الفئة التي لم تهاجر بين أن قطع الولاية ليس المراد منه المقاطعة التامة كما في حق الكفار ، فقال تعالى : ﴿ i j k l m n ﴾ المعنى : أن هؤلاء المؤمنون الذين لم يهاجروا لو استنصروكم وطلبوا العون منكم بنفير أو مال لاستنقاذهم فأعينوهم ، فذلك فرض عليكم فلا تخذلوهم ، وإنما خصّ الاستنصار بالدين لأن الحمية والعصبية في غير الدين منهي عنها (٢).

ولما كان وجوب نصرتهم يوهم أنه يجب في كل حين استثنى الله U في حال وجود ميثاق ومعاهدة بينهم وبين الكفار ، فقال تعالى : ﴿o p q r s t ﴾.

قال أبو حيان: «لأن نصركم إياهم نقض للعهد فلا تقاتلون؛ لأنّ الميثاق مانع من ذلك»(٣).

وفي ذكر الميثاق والعهد في هذه الآية إشارة إلى ما ذكرته آيات المحور السابق (علاقة المسلمين بالمعاهدين والمسالمين) ، وفي ذلك تناسق موضوعي واضح بين هذه العلاقات ، لأن

---

(١) انظر : الرازي ، مفاتيح الغيب : (١٦٧/١٥) .

(٢) انظر : الرازي ، المصدر السابق . وأبو حيان : البحر المحيط (٥١٧/٤) .

(٣) أبو حيان ، البحر المحيط : (٥١٧/٤) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

في هذه الآية دعوة إلى احترام المسلمين لعهودهم وعلاقتهم مع المجتمع الكافر المعاهد والمسالم ، حتى ولو كانت حائلة أحيانا دون نصر مسلمين آخرين في بقعة أخرى .

قال دروزة في تفسير هذه الآية : « لم توجب على المهاجرين والأنصار نصرا لهؤلاء إلّا في حدود ضيقة ، فحريتهم الدينية هي مما يجب نصرهم فيها لأن الأمر متعلق بكلمة الله ودينه وهذا مما ينطوي في تعبير ﴿ i j k l ﴾ ومع ذلك جعل هذا الواجب في حدود ضيقة أيضا حيث جعله في حالة ما إذا كان الاستنصار على جماعة ليس بينهم وبين المسلمين ميثاق صلح وسلام ، أما حقوقهم ومصالحهم الدنيوية وما ينشأ عن التضامن القبلي أو العائلي من تبعات وواجبات فلا شأن لهم به »[١].

وقال سيد قطب في صدد بيان ما أشارت إليه هذه الآيات من علاقة المسلمين ببعضهم : «لقد انخلع كل من قال : أشهد أن لا إله إلا اللّه وأن محمدا رسول اللّه في مكة من الولاء لأسرته ، والولاء لعشيرته ، والولاء لقبيلته ، والولاء لقيادته الجاهلية الممثلة في قريش وأعطى ولاءه وزمامه لمحمد رسول اللّه r وللتجمع الصغير الناشئ الذي قام بقيادته، في حين وقف المجتمع الجاهلي يدفع عن وجوده الذاتي خطر هذا التجمع الجديد الخارج عليه حتى قبل اللقاء في المعركة الحربية ويحاول سحق هذا التجمع الوليد في نشأته ، عندئذ آخى رسول اللّه r بين أعضاء هذا التجمع الوليد وحولهم إلى مجتمع متكافل ، تقوم رابطة العقيدة فيه مقام رابطة الدم والنسب ، ويقوم الولاء لقيادته الجديدة مقام الولاء للقيادة الجاهلية ، ويقوم الولاء فيه للمجتمع الجديد مقام كل ولاء سابق ، ثم لما فتح اللّه للمسلمين دار الهجرة في المدينة بعد أن وجد فيها مسلمون بايعوا القيادة الإسلامية على الولاء المطلق ، والسمع والطاعة في المنشط والمكره ، وحماية رسول اللّه r مما يحمون منه أموالهم وأولادهم ونساءهم وقامت الدولة المسلمة في المدينة بقيادة رسول اللّه r عاد رسول اللّه فآخى بين المهاجرين والأنصار تلك المؤاخاة التي تقوم مقام رابطة الدم والنسب كذلك بكل مقتضياتها ، بما في ذلك الإرث والديات

---

(١) دروزة ، التفسير الحديث : (٩٩/٧) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

والتعويضات التي تقوم بها رابطة الدم في الأسرة والعشيرة ، ثم وجد أفراد آخرون دخلوا في هذا الدين عقيدة ولكنهم لم يلتحقوا بالمجتمع المسلم فعلا لم يهاجروا إلى دار الإسلام التي تحكمها شريعة اللّه وتدبر أمرها القيادة المسلمة ولم ينضموا إلى المجتمع المسلم الذي أصبح يملك دارا يقيم فيها شريعة اللّه ويحقق فيها وجوده الكامل بعد ما تحقق له وجوده في مكة نسبيا ، بالولاء للقيادة الجديدة ، مستقل ومنفصل عن المجتمع الجاهلي ومواجه له بهذا الوجود المستقل المميز ، وجد هؤلاء الأفراد سواء في مكة ، أو في الأعراب حول المدينة ، يعتنقون العقيدة ، ولكنهم لا ينضمون للمجتمع الذي يقوم على هذه العقيدة ولا يدينون فعلا دينونة كاملة للقيادة القائمة عليه ، وهؤلاء لم يعتبروا أعضاء في المجتمع المسلم ، ولم يجعل اللّه لهم ولاية -بكل أنواع الولاية - مع هذا المجتمع ، لأنهم بالفعل ليسوا من المجتمع الإسلامي ، وهذا الحكم منطقي ومفهوم مع طبيعة هذا الدين-التي أسلفنا- ومع منهجه ، فهؤلاء الأفراد ليسوا أعضاء في المجتمع المسلم ومن ثم لا تكون بينهم وبينه ولاية ، ولكن هناك رابطة العقيدة وهذه لا ترتب -وحدها- على المجتمع المسلم تبعات تجاه هؤلاء الأفراد اللهم إلا أن يعتدى عليهم في دينهم فيفتنوا مثلا عن عقيدتهم ، فإذا استنصروا المسلمين - في دار الإسلام - في مثل هذا ، كان على المسلمين أن ينصروهم في هذه وحدها، على شرط ألا يخل هذا بعهد من عهود المسلمين مع معسكر آخر. ولو كان هذا المعسكر هو المعتدي على أولئك الأفراد في دينهم وعقيدتهم! ذلك أن الأصل هو مصلحة المجتمع المسلم وما يترتب عليها من تعاملات وعقود ، فهذه لها الرعاية أولا ، حتى تجاه الاعتداء على عقيدة أولئك الذين آمنوا ، ولكنهم لم ينضموا للوجود الفعلي لهذا الدين المتمثل في التجمع الإسلامي ، وهذا يعطينا مدى الأهمية التي يعلقها هذا الدين على التنظيم الذي يمثل وجوده الحقيقي » [(١)].

ولما ذكر الله U علاقة المجتمع المسلم بعضه ببعض ، وكانت تلك ولاية عامة ، ذكر عقبها علاقة من نوع خاص ، وهو ولاية القرابة بعضها ببعض .

---

(١) سيد ، في ظلال القرآن : (٣/١٥٥٣) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

يقول سيد قطب : « لقد كانت لفترة البناء الأولى للوجود الإسلامي أحكامها الخاصة ، وتكاليفها الخاصة ، قام الولاء في العقيدة مقام الولاء في الدم ، في كل صوره وأشكاله ، وفي كل التزاماته ومقتضياته. بما في ذلك الإرث والتكافل في الديات والمغارم ، فلما أن استقر الوجود الإسلامي بيوم الفرقان في بدر عدلت أحكام تلك الفترة الاستثنائية ، اللازمة لعملية البناء الأولى ، المواجهة لتكاليفها الاستثنائية ، وكان من هذه التعديلات عودة التوارث والتكافل في الديات وغيرها إلى القرابة -ولكنه في إطار المجتمع المسلم في دار الإسلام : ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ فلا بأس بعد استقرار الوجود الفعلي للإسلام ، من أولوية ذوي القربى في داخل الإطار العام ، إن هذا يلبي جانبا فطريا في النفس الإنسانية. ولا ضرر من تلبية المشاعر الفطرية في النفس الإنسانية ، ما دام أن ليس هناك ما يعارض هذه المشاعر من تكاليف الوجود الإسلامي.. إن الإسلام لا يحطم المشاعر الفطرية ولكنه يضبطها. يضبطها لتستقيم مع الحاجات العليا للوجود الإسلامي فمتى انقضت هذه الحاجات عاد يلبيها في إطاره العام ، ومن ثم تكون لبعض الفترات الاستثنائية تكاليفها الخاصة ، التي ليست واردة في الأحكام النهائية للإسلام، التي تحكم المجتمع الإسلامي المستقر الآمن في حياته العادية»[١].

---

(١) سيد ، في ظلال القرآن : (٣/١٥٦٠-١٥٦١) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

الفصل الثالث

تفسير آيات سورة الأنفال

وفق تناسقها الموضوعي

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

افتتحت هذه السورة الكريمة بالسؤال عن الأنفال فقال تعالى : ﴿ ! " # ﴾، وفي ذلك براعة استهلال ، وذلك لأن الأنفال هي الأموال التي غنمها المسلمون عقب الانتهاء من غزوة بدر ، لتشعر فاتحة السورة القارئ والمستمع أن هناك غزوة انتصر فيها المسلمون وربحوا فيها الأنفال ، في إشارة إلى أن الإسلام قد صرع الكفر منذ أول معركة نازله فيها ، وأيضا فإن في ابتداء الحديث بنتائج النصر الذي كفله الله للمؤمنين ، تشويق وتربية لنفوس الصحابة والمؤمنين، بخلاف البدء بكلام يدل على تثاقل بعضهم في الخروج إلى الغزوة ، ومواجهة العدو، لأن ذلك يصور علاقة المؤمنين بنبيهم في صورة يأباها إيمانهم به ، وامتثالهم لأمره ، يصورهم في شقاق واختلاف مع قائدهم ورسولهم ، ويصوره في ثوب الكراهية الشديدة لمعالي الأمور وعز الحياة [(١)] ، وأيضا فإن عدم ذكر ماهية السائلين عن الأنفال يدل على أنه في حالة النزول كان السائل عن هذا السؤال معلوماً فانصرف اللفظ إليهم ، ولا شك أنهم كانوا أقواماً لهم تعلق بالغنائم والأنفال ، وهم أقوام من الصحابة اشتركوا في غزوة بدر ، وفي ابتداء الصحابة بالسؤال ؛ فيه إيذان بأن المسلمين لم يعلموا ماذا يكون في شأن الأنفال عندهم ، وأنهم حاوروا رسول الله عليه الصلاة والسلام في ذلك كما تقدم في أسباب نزول السورة ، فمنهم من تكلم بصريح السؤال ، ومنهم من خاصم أو جادل غيره بما يؤذن حاله بأنه يتطلب فهما في هذا الشأن ، وأيضا فإن في مجيء فعل السؤال بصيغة المضارع دال على تكرر السؤال ، إما بإعادته المرة بعد الأخرى من سائلين متعددين ، وإما بكثرة السائلين عن ذلك حين المحاورة في موقف واحد[(٢)].

ولما أخبر ‌I أنه لا شيء لهم في الأنفال إلا عن أمر الله ورسوله ، كان ذلك موجباً لتوقفهم على أمر الله ، فكانت التقوى هي الطريق الموجبة للوقوف خوفاً ، فأمرهم بها ، فقال تعالى : ﴿ * + ﴾ والمعنى: وإذا كان أمرُ الغنائم لله تعالى ورسوله فاتقوه تعالى واجتنبوا ما كنتم فيه من المشاجرة فيها والاختلاف الموجِب لسَخَط الله تعالى ، أو فاتقوه في كل ما تأتون وما تذرون فيدخُل موضوع الأنفال دخولاً أولياً، وإنما أظهر لفظ الجلالة هنا لتربية المهابة وتعليلِ الحُكم[(٣)]، وقدم الأمر بالتقوى هنا ؛ لأنها جامع الطاعات ، وبالرغم من أن في الجملة

---

(١) انظر: الطنطاوي، محمد السيد ، التفسير الوسيط، الطبعة الثالثة، القاهرة: مطبعة السعادة، ١٤٠٧هـ(٢٩/٦-٣٢) .

(٢) انظر : الرازي ، مفاتيح الغيب : (٩٢/١٥) ، وابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٢٤٨/٩) .

(٣) انظر : أبو حيان ، البحر المحيط : (٢٥٤/٩) ، وأبو السعود ، إرشاد العقل السليم : (٣/٤) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

السابقة رفعاً للنزاع بينهم في استحقاق الأنفال ، برده حكمها إلى الله ورسوله ، إلا أنه قد وقع ذلك على كراهة كثير ممن كانوا يحسبون أنهم أحق بتلك الأنفال ممن أعطيها ، تبعاً لعوائِدهم السالفة في الجاهلية فذكرهم الله بالتقوى قبل كل شيء ، لأنها توجب الرضى بحكم الله ، والوقوف بما يقسمه الرسول منها [١]، وفي عطف الأمر السابق بالأمر بالإصلاح ، إيذان بأن ما بينهم كان غير صالح ، فالأمر بالإصلاح في قوله تعالى : ﴿ , - . ﴾ دل على فساد ذات بينهم ، وأنه كانت بينهم مباينة ومباعدة ، ربما خيف أن تفضي بهم إلى فساد ما بينهم من المودة والمعافاة[٢]، والمعنى: اجعلوا الأمر الذي يجمعكم صالحاً غير فاسد ، وفي توسط الأمر بإصلاح ذات البين بين الأمرِ بالتقوى والأمرِ بالطاعة لأن فيه إظهارا لكمالِ العناية بالإصلاح بحسب المقام ، وليندرج الأمر به بعينه تحت الأمرِ بالطاعة [٣].

ثم ختمت الآية الكريمة بقوله : ﴿3 4 5 ﴾ وذلك لأن المراد بالإيمان هنا كمالُه ، وكمال الإيمان يدور على الخِصالِ الثلاثِ المذكورة فيما سبق وهو : طاعة الأوامرِ ، واتقاء المعاصي ، وإصلاح ذات البين بالعدل والإحسان [٤]، وهذه الجملة أيضا جواب شرط دلت عليه الجمل المتقدمة من قوله: ﴿ * + ﴾ إلى آخرها، لأن الشرط لما وقع عقب تلك الجمل كان راجعاً إلى جميعها على ما هو المقرر في الاستعمال ، وفي هذا إلهاب لنفوس الصحابة على الامتثال ، والمعنى : إن كنتم صادقين في دعوى الإيمان، فليس كل من يدعي شيئاً يكون صادقاً في دعواه حتى يحصل البيان بالامتحان[٥]، وليس في الإتيان في الشرط بـ ﴿3﴾ الدالة على عدم الجزم بوقوع الشرط تعريضاً بضعف إيمانهم ولا بأنه مما يشك فيه من لا يعلم ما تخفي صدورُهم ، ولكنها جاءت لتنشيط المخاطَبين، وحثّهم على المسارعة إلى الامتثال ، وتحريضهم على إظهار الخصال التي يتطلبها الإيمان في أحسن صُوره ومظاهره [٦].

---

(١) ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٢٥٣/٩) .

(٢) أبو حيان ، البحر المحيط : (٤٥٣/٤) .

(٣) انظر : أبو السعود ، إرشاد العقل السليم : (٤/ ٣) ؛ والألوسي ، روح المعاني : (١٦٤/٩) .

(٤) انظر : أبو السعود ، إرشاد العقل السليم : (٤/٤) .

(٥) انظر : البقاعي ، نظم الدرر : (١٨٤/٣) ، وابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٢٥٤/٩) .

(٦) انظر : ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٢٥٤/٩) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

ثم لما ذكر الله U الأوامر الثلاثة في الآية السابقة، وهي طاعته وطاعة رسوله، وتقواه، وإصلاح ذات البين ، واشترط أن تطبيقها من كمال الإيمان ، عرج إلى ذكر صفات المؤمنين تحريضا لتحقيق كمال الإيمان ، وبعث النفوس إلى الاتسام به والتباعد عن موانع زيادته وكماله، على سبيل البيان والتفصيل والتعليل .

قال الرازي : «اعلم أنه تعالى لما قال : ﴿ 0 1 2 3 4 5 ﴾ واقتضى ذلك كون الإيمان مستلزماً للطاعة ، شرح ذلك في هذه الآية مزيد شرح وتفصيل ، وبين أن الإيمان لا يحصل إلا عند حصول هذه الطاعات فقال: ﴿ 7 8 ﴾ الآية» (١).

وقال أبو السعود : « جملةٌ مستأنفةٌ مَسوقةٌ لبيان مَنْ أريد بالمؤمنين بذكر أوصافِهم الجليلةِ المستتبِعةِ لما ذكر من الخصال الثلاثِ، وفيه مزيدُ ترغيبٍ لهم في الامتثال بالأوامر المذكورةِ »(٢).

وقال ابن عاشور : «موقع هذه الجملة وما عطف عليها موقع التعليل لوجوب تقوى الله وإصلاح ذات بينهم وطاعتهم الله ورسوله ، لأن ما تضمنته هذه الجمل التي بعد ﴿ 7 ﴾ من شأنه أن يحمل المتصفين به على الامتثال لما تضمنته جُمل الأمر الثلاث السابقة»(٣).

وقد عرف المؤمنون في قوله تعالى : ﴿ 7 8 ﴾ تعريف جنس ، يفيد قصراً على أصحاب هذه الصفات مبالغة(٤)، وفي الاقتصار بـ﴿ ; > ﴾ لأن الذكر هنا يشمل النطق باسم من أسمائه أو بشأن من شؤونه ، مثل أمره ونهيه ، لأن ذلك لا بد معه من جريان اسمه أو ضميره أو موصوله أو إشارته أو نحو ذلك من دلائل ذاته ، وإنما أجملت الآية ذكر الله إجمالاً بديعاً ليناسب معنى الوجل في قوله : ﴿ = > ﴾ ، فذكرُ الله يكون : بذكر اسمه، وبذكر عقابه ، وعظمته ، وبذكر ثوابه ورحمته ، وكل ذلك يحصل معه الوجل في قلوب كُمّل المؤمنين ، لأنه يحصل معه استحضار جلال الله وشدة بأسه وسعة ثوابه، فينبعث عن ذلك الاستحضار توقعُ حلول بأسه، وتوقع انقطاع بعض ثوابه أو رحمته ، وهو وجل يبعث المؤمن إلى الاستكثار

---

(١) انظر : الرازي ، مفاتيح الغيب : (١٥/ ٩٥) .

(٢) انظر : أبو السعود ، إرشاد العقل السليم : (٤/٤) .

(٣) انظر : ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٩/٢٥٥) .

(٤) انظر : المصدر السابق .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

من الخير وتوقي ما لا يرضي الله تعالى وملاحظة الوقوف عند حدود الله في أمره ونهيه [١]، فالوجل هو الخوف مع الفزع فيكون لاستعظام الموجول منه[٢]، وأسند الوجل إلى القلوب لأن القلب يكثر إطلاقه في كلام العرب على إحساس الإنسان ، وقرارة إدراكه ، وليس المراد به العضو الذي يرسل الدم إلى الشرايين[٣]، وفي الاقتصار بوجل قلوب المؤمنين عند ذكر الله ، لأن الوجل حالان يحصلان للمؤمن عند ذكر الله ، والحال الآخر هو الأمل والطمع في الثواب فطوى ذكره هنا اعتماداً على استلزام الوجل إياه ، لأن من الوجل أن يَجل ، من فوات الثواب أو نقصانه ، ولهذا فلا منافاة بين هذا الوجل ، وبين الاطمئنان المذكور في قوله تعالى : ﴿أَلَا â ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨] لأن الاطمئنان هو: عبارة عن ثلج الفؤاد وشرح الصدر بنور المعرفة والتوحيد وهو يجامع الخوف ، وقد وفق بعضهم بين الآيتين بأن الذكر في إحداهما ذكر رحمة ، وفي الأخرى ذكر عقوبة [٤].

وفي ذكر جملة ﴿ ? @ A B C D ﴾ تناسق واضح مع ما سبقها لأنه لما ذكر حكم الأنفال ، ذكر بعد ذلك صفات أهل الإيمان الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم خشية ورهبة ، وازدادوا إيمانا بسماعهم لآيات الله من القرآن الكريم ، فتركوا الشقاق والنزاع في الأنفال ، وأذعنوا لحكم الله ورسوله r ، وأسند فعل زيادة الإيمان إلى آيات الله لأنها كانت هي سبب تلك الزيادة للإيمان .

قال ابن عاشور : « وحظ المقام المتعلق بأحكام الأنفال من هذه الزيادة هو أن سماع آيات حكم الأنفال يزيد إيمان المؤمنين قوة ، بنبذ الشقاق والتشاجر الطارئ بينهم في أنفس الأموال عندهم ، وهو المال المكتسب من سيوفهم ، فإنه أحب أموالهم إليهم » [٥].

---

(١) انظر : ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٢٥٦/٩) .
(٢) الراغب ، المفردات في غريب القرآن : (٣٤٢) .
(٣) انظر : ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٢٥٦/٩) .
(٤) انظر : الألوسي ، روح المعاني : (١٦٥/٩) .
(٥) ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٢٥٩/٩) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

وجاء التعبير في قوله تعالى : ﴿ ; > ﴾ و﴿ ? @ A ﴾ بصيغة الفعل المبنى للمفعول للإيذان بأن هؤلاء المؤمنين الصادقين إذا كانوا يخافون عند ما يسمعون من غيرهم آيات اللّه ، فإنهم يكونون أشد خوفا وفزعا عند ذكرهم للّه وعند تلاوتهم لآياته بألسنتهم وقلوبهم ، فالمقصود من هذه الصيغة : مدحهم ، والثناء عليهم ، وبيان الأثر الطيب الذي يترتب على ذكر اللّهو على تلاوة آياته(١).

وختمت هذه الآية الكريمة بقوله تعالى : ﴿ E F G ﴾ لأن التوكل على الله هو جماع الإيمان ، وهو إخلاص الاعتقاد بوحدانية الله ؛ وإخلاص العبادة له دون سواه ، وفي ذلك مناسبة واضحة لموضوع الآية وارتباطها بقصة الأنفال ، إذ أن فيها تنبيها للمؤمنين بأن أعراض الدنيا من نفل أو غيره لا ينبغي أن يعتمدوا عليه اعتماداً يدخل عليهم ضراراً من الشرك أو التفاتاً إلى غير الله سبحانه (٢).

قال ابن عاشور : « ومناسبة هذا الوصف للغرض : أنهم أمروا بالتخلي عن الأنفال ، والرضى بقسمة الرسول r فيها ، فمن كان قد حرم من نفل قتيله ، يتوكل على الله في تعويضه بأحسن منه » (٣).

وإنما تقدم الجار والمجرور في قوله : ﴿ E F G ﴾ إما للرعاية على الفاصلة ، وهذا من مقتضيات الفصاحة مع ما فيه من الاهتمام باسم الله ، وإما للتعريض بالمشركين ، لأنهم يتوكلون على إعانة الأصنام ، فيكون الكلام مدحاً للمؤمنين ، وتعريضاً بذم المشركين ، ثم إن فيه تحذيرا من أن تبقى في نفوس المؤمنين آثار من التعلق بما نهوا عن التعلق به ، لتوهمهم أنهم إذا فوّتوه فقد أضاعوا خيراً من الدنيا (٤).

وإنما جاء التوكل بصيغة المضارع للدلالة على تجدد إسناد أمورهم إليه I ، مهما وسوس لهم الشيطان بالفقر أو غيره (٥).

---

(١) انظر : الطنطاوي ، التفسير الوسيط : (٣٦/٦) .
(٢) البقاعي ، نظم الدرر : (٢٢٠/٨) .
(٣) ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٢٥٩/٩) .
(٤) انظر : ابن عاشور ، المصدر السابق .
(٥) انظر : البقاعي ، نظم الدرر : (١٨٤/٣) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

ولقد جاء ترتيب هذه الصفات في الآية أحسن ترتيب وأدق تنظيم ، حيث بدأ الله U الحديث بمقام الخوف ، إما خوف الإجلال والهيبة وإما خوف العقاب ، ثم ثانياً بالإيمان بالتكاليف الواردة ، ثم ثالثاً بالتفويض إلى الله والانقطاع إليه ورخص ما سواه [(١)].

ثم لما ذكر الله U فيما سبق بعض الصفات والأعمال القلبية للإيمان ، ومدح المؤمنين المتصفين بها ، من خشية وإخلاص وتوكل ، شرع في مدحهم ثانيا في الآية التي بعدها بمحاسن الأعمال القالبية الظاهرة من الصلاة والصدقة ، لأن العمل هو الدلالة الظاهرة للإيمان التي لا بد من ظهورها للعيان ، لتشهد بالوجود الفعلي لهذا الإيمان [(٢)].

قال الرازي : « واعلم أن المراتب الثلاثة المتقدمة أحوال معتبرة في القلوب والبواطن ثم انتقل منها إلى رعاية أحوال الظاهر ، ورأس الطاعات المعتبرة في الظاهر ورئيسها بذل النفس في الصلاة ، وبذل المال في مرضاة الله » [(٣)].

وإنما جاء ذكر أوصاف المؤمنين في هذه الآية بإعادة الموصول ﴿ I ﴾، للدلالة على الانتقال في وصفهم من غرض باطني إلى غرض ظاهري مختلف عما قبله ، وهو هنا غرض محافظتهم على ركني الإيمان وهما: إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة[(٤)] فقال تعالى: ﴿ J K L M N ﴾.

وعبر في جانب الصلاة بالإقامة للدلالة على المحافظة عليها ، ولم يقل "يؤدون الصلاة" أو "يصلون" لأنه ليس المراد أداء الصلاة فحسب ، بل المراد الإتيان بها على الوجه الكامل ، من الاطمئنان ، والخشوع ، وأداء الأركان التي أوجبها الله ، وجيء بالفعلين ﴿ J ﴾ و ﴿ N ﴾ بصيغة المضارع للدلالة على تكرر ذلك وتجدده منهم[(٥)].

---

(١) انظر : أبو حيان ، البحر المحيط : (٤/٤٥٥) .
(٢) انظر : الألوسي ، روح المعاني : (٩/١٦٧) .
(٣) الرازي ، مفاتيح الغيب : (١٥/٩٧-٩٨) .
(٤) انظر : ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٩/٢٦٠) .
(٥) انظر : ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٩/٢٦٠) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

ويتناسق ذكر الصلاة والإنفاق مع موضوع الأنفال ، وذلك أن الإتيان بركني الصلاة والإنفاق في معرض الحديث عن نزاع الأنفال هو أنه لما ذكر في بداية الآيات رد حكم الأنفال إلى الله ورسوله ، ذكر في نهايتها ما يقويهم ويعينهم على الرضا بهذا الحكم ، وهو اتصافهم بإقامة الصلاة ، ووصفهم بالإنفاق لأن الأنفال كانت أموالا اختلفوا فيها ، وأن أكثر ما يجلب الشحناء والبغضاء بين الناس هو في الأموال ، فكأنه ذكر الصلاة ليتقوا ويتقووا، وذكر الإنفاق، لأنها مما تزيل الشحناء والبغضاء ، وتصلح ذات البين .

ثم لما حقق أصحاب الصفات السابقة إيمانهم بأفعال القلوب والجوارح والأموال ، فاستوفوا بذلك جميع شعب الدين ، عظم سبحانه شأنهم في الآية التي بعدها ، وبين جزاءهم[(١)]، فقال تعالى : ﴿ P Q R S ﴾ .

قال الرازي في هذه الآية : « واعلم أن الله تعالى لما ذكر هذه الصفات الخمس أثبت للموصوفين بها أموراً ثلاثة » [(٢)].

وقال أبو السعود : « ﴿ P ﴾ إشارةٌ إلى من ذُكرت صفاتُهم الحميدة من حيث إنهم متصفون بها » [(٣)].

وإنما جاءت لفظ الإشارة المفيدة للبعد ﴿ P ﴾ ، تعظيما لشأن المتصفين بالصفات السابقة، وإيذانا بعلو رتبتِهم، وبُعدِ منزلتِهم في الشرف،وفي ذلك دلالةٌ على أنهم متمِّيزون بذلك عمن عداهم أكملَ تميز[(٤)]، وعرف المسند إليه في قوله : ﴿ Q R ﴾ بالإشارة لوقوعه عقب صفات لتدل الإشارة على أنهم أحرياء بالحكم المسند إلى اسم الإشارة من أجل تلك الصفات ، فكان المخبر عنهم قد تميزوا للسامع بتلك الصفات فصاروا بحيث يشار إليهم[(٥)].

وأما قوله : ﴿ S ﴾ فقد قال الرازي في بيان ما يتصل به : « قولان : أحدهما : بقوله ﴿ Q R ﴾ أي هم المؤمنون بالحقيقة ، والثاني: أنه تم الكلام عند قوله: ﴿ P Q R ﴾

(١) البقاعي ، نظم الدرر : (٢٢٢/٨) .
(٢) الرازي ، مفاتيح الغيب : (١٢٥/١٥) .
(٣) أبو السعود ، إرشاد لعقل السليم : (٤/٤) .
(٤) انظر : أبو السعود ، إرشاد العقل السليم : (٤/٤) .
(٥) ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٢٦١/٩) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

ثم ابتدأ ، وقال : ﴿ V U S ﴾»[١]. والحق يطلق كثيراً ، على الكامل في نوعه ، الذي لا سترة في تحقق ماهية نوعه فيه ، كما يقول أحد لابنه البار به : أنت ابني حَقا، ويطلق الحق على الصواب والحكمة ، فاسم الحق يجمع معنى كمال النوع [٢].

وفي ذكر الدرجات هنا تناسق مع ما قبلها ؛ لأنه لما كانت لصفات المؤمنين الخمس المذكورة سابقا والمشتملة على الأخلاق والأعمال درجات، كان جزاء المتصفين بها كذلك، والجملة جواب لسؤال من كأنه قال: فما جزاؤهم على ذلك؟ أو ما لهم بمقابلة هذه الخِصالِ ؟[٣]، وإنما جاءت الدرجات منونة للتعظيم ؛ ولأن التنوين لما أفاد الفخامة الذاتية ، جاء التأكيد بالدرجات بفخامة إضافية ، وهو قوله : ﴿ X W ﴾ وفي إضافة الظرفِ إلى الرب المضافِ إلى ضميرهم مزيدُ تشريفٍ ولطفٍ لهم ، وإيذانٌ بأن ما وعد لهم متيقَّنُ الثبوتِ ، والحصولِ ، مأمونُ الفوات [٤]، وفي تناسق ترتيب هذه الجزاءات في مقابل تلك الصفات المذكورة سابقا للمؤمنين ، يقول أبو حيان : « لما تقدمت ثلاث صفات قلبية وبدنية ومالية ترتّب عليها ثلاثة أشياء فقوبلت الأعمال القلبية بالدرجات ، والبدنية بالغفران ، وقوبلت المالية بالرزق الكريم وهذا النوع من المقابلة من بديع علم البيان»[٥].

ويقول الألوسي : « وقد يقال : قدم سبحانه الدرجات لأنها بمحض الفضل وذكر بعدها المغفرة لأنها أهم عندهم من الرزق مع إشتراكهما في كونهما في مقابلة شيء » [٦].

وذكر العلماء أن معنى كون الرزق كريما أن رازقه كريم ، ومن هنا وصفوه بالكثرة ، وعدم الانقطاع إذ من عادة الكريم أن يجزل العطاء ولا يقطعه، فكيف بأكرم الأكرمين تبارك وتعالى[٧].

---

(١) الرازي ، مفاتيح الغيب : (١٢٥/١٥) .

(٢) انظر : ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٢٦٢/٩) .

(٣) انظر : أبو السعود ، إرشاد العقل السليم : (٥/٤) ، والألوسي ، روح المعاني : (١٦٨/٩) .

(٤) انظر : المصدرين السابقين .

(٥) أبو حيان ، البحر المحيط : (٤٥٥/٤) .

(٦) الألوسي ، روح المعاني : (١٦٩/٩) .

(٧) انظر : الألوسي ، المصدر السابق : (١٦٩/٩) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

ولما تقدم في الآيات السابقة الأمر برد الأنفال إلى الله والرسول، والأمر بالتقوى ، وإصلاح ذات البين، وذكر صفات المؤمنين التي ينبغي أن يكونوا عليها ، من الخشية والرهبة من ذكر الله وزيادة الإيمان عند سماع آيات الله والتوكل عليه في جميع شؤون حياتهم، وإقامة الصلاة والإنفاق في سبيله، ذكرهم فيما بعد هذه الآيات بأنه هو من أخرجهم إلى القتال، وقدر لهم مواجهة العدو، وأن ذلك مما كانت تكرهه نفوسهم، كما في حكم الأنفال، وكأن الآيات السابقة كانت استهلالا بليغا للحديث عن أهم أحداث غزوة بدر التي كان من ثمارها تلك الأنفال .

وقد بدأت هذه الآية بوصف إخراج الله لنبيه r ، فقال تعالى : ﴿ [^ _ ﴾ والمراد بالإخراج هنا : إما الأمر بالخروج للغزو ، وإما تقديرُ الخروج له وتيسيره.

والمراد بقوله تعالى : ﴿ ` a ﴾ أي مسكنه r بالمدينة ، أو المدينة نفسها ؛ لأنها مثواه عليه الصلاة والسلام ، وزعم بعض العلماء أن المراد به مكة، ورد عليهم الألوسي بقوله:«وليس بذاك»[١]؛لأن الروايات الواردة في أسباب النزول تؤيد القول الأول ، وإنما عبر بالفريق في قوله:﴿ c d e f ﴾ هنا لأن آراءهم كانت تؤول إلى الفرقة، وأيضا فإن مجيء تأكيد خبر كراهية فريق من المؤمنين بإن ولام الابتداء، مستعمل في التعجيب من شأنهم، بتنزيل السامع غير المنكر لوقوع الخبر منزلة المنكر؛ لأن وقوع ذلك مما شأنه أن لا يقع، إذ كان الشأن إتباع ما يحبه الرسول، أو التفويض إليه، وما كان ينبغي لهم أن يكرهوا لقاء العدو ، ويستلزم هذا التنزيلُ التعجيبَ من حال المخبر عنهم بهذه الكراهية فيكون تأكيد الخبر كناية عن التعجيب من المخبر عنهم[٢] ، وإنما كانوا كارهين للخروج لأنها كانت أول غزوة غزاها النبي r ، ولم يكونوا متأهبين للقتال غاية التأهب ، وإنما خرجوا للقاء العير ، هذا مع أنهم في عدد يسير ، وعدد أهل النفير كثير ، وكانوا في غاية التأهب للقائهم .

ثم لما ذكر الله U كراهة فريق من المؤمنين للخروج ولقاء العدو في الآية السابقة ، شرع يذكر في الآية التي بعدها حكاية لما حدث من هذا الفريق الكاره للقتال ، وتصويره تصويرا معجزا لما استبد به من خوف وفزع[٣]، فجاء قوله : ﴿ i ﴾ بصيغة المضارع ، للإشارة

---

(١) الألوسي ، روح المعاني : (١٧٠/٩) .

(٢) ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٢٦٥/٩) .

(٣) انظر : رضا ، تفسير المنار : (٩٩/٩) ، والطنطاوي ، التفسير الوسيط : (٤٨/٦) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

إلى أنهم كانوا يكررون المجادلة وذلك لثني النبي r عن لقاء جيش الكفار والرجوع عنه ، وأيضا : لحكاية حال المجادلة زيادة في التعجيب منها [١].

ثم بين I حتمية هذا اللقاء ، وأنه أمر من الله لا بد منه ، وأن ذلك مما يرضيه I ، فقال تعالى : ﴿ j k l m n ﴾ أي وضح وضوحاً عظيما سهلا من غير كلفة نظر ، وذلك بفوات العير ، وتيسير أمر النفير ، وبإعلام الرسول r لهم تارة صريحاً ، وتارة تلويحاً[٢]، كقوله : « هذا مصرع فلان» ، ويضع يده على الأرض «هاهُنا ، هاهُنا»[٣].

ولما كان I قد حكم باللقاء والنصرة ، تأييداً لوليه وإعلاء لكلمته ، مع شدة كراهتهم لذلك ، شبه حالهم في المجادلة والكراهة بحال من يجادل ويمانع من يسوقه إلى ذات الموت ، فقال تعالى: ﴿ o p q r ﴾، وفي التعبير بالسوق إيذان بأنهم لا قدرة لهم على ممانعته[٤]، وإنما ذكر النظر إلى الموت ﴿ s t ﴾ أي : وهم ينظرون الموتَ ، لأن حالة الخوف من الشيء المخوف إذا كان منظوراً إليه تكون أشد منها لو كان يعلم أنه يساق إليه ولا يَراه ، لأن للحس من التأثير على الإدراك ما ليس لمجرد التعقل [٥].

ولما ذكر الله U في الآيات السابقة خطأ ما ذهب إليه بعض الصحابة من الاختلاف والتنازع في الأنفال وكراهة مواجهة العدو بالرغم من كونه هو الحق البين[٦]، شرع في تحميسهم وتشجيعهم بذكر وعده الذي لا يتخلف ، فقال تعالى : ﴿ v w x y z { | } ~ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ © بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ⑦ ﴾ .

---

(١) انظر : ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٢٦٥/٩) .

(٢) انظر : البقاعي ، نظم الدرر : (١٨٦/٣) ، وابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٢٦٥/٩) .

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الجهاد والسير ، باب غزوة بدر ، برقم : (١٧٧٩) .

(٤) انظر : البقاعي ، نظم الدرر : (١٨٦/٣) .

(٥) انظر : ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٢٦٧/٩) .

(٦) الزمخشري ، الكشاف : (٥٥٦/٢) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

قال البقاعي : « ولما لانوا بهذا الخطاب ، وأقبلوا على الملك التواب ، أقبل عليهم فقال : ﴿ V ﴾ أي اذكروا هذا الذي ذكره الله لكم ، وقد كان حالكم فيه ما ذكره ، ثم أقضى إلى سعادة عظيمة وعز لا يشبه عز »(١).

ومعنى قوله : ﴿ { ~ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ ﴾ أي : تودون الطائفة التي لا يخشى بأسها تكون لكم أي ملككم فتأخذونها(٢) ، وقوله : ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ © بِكَلِمَٰتِهِۦ ﴾ عطف على جملة ﴿ { ﴾ والمقصود من الإخبار بهذه الجمل الثلاث إظهار أن ما يودونه ليس فيه كمال مصلحتهم، وأن الله اختار لهم ما فيه كمال مصلحتهم ، وإن كان يشق عليهم، ويرهبهم ، فإنهم لم يطّلعوا على الأصلح بهم، فهذا تلطف من الله بهم(٣)، وقوله: ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ ﴾ الباء هنا للسببية ، وإنما ذكر هذا القيد للتنويه بإحقاق هذا الحق وبيان أنه مما أراد الله ويسره وبينه للناس من الأمر ، ليقوم كل فريق من المأمورين بما هو حظه من بعض تلك الأوامر ، وللتنبيه على أن ذلك واقع لا محالة لأن كلمات الله لا تتخلف ، وإنما جاء الجمع المعرف بالإضافة ليفيد العموم ، فيعم أنواع الكلام الذي يوحي به الله الدال على إرادته تثبيت الحق ، مثل آيات القرآن المنزلة في قتال الكفار ، وما أمر به الملائكة من نصرتهم المسلمين يوم بدر (٤)، وقوله : ﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي يستأصلهم بحيث لا يبقى منهم أحد ، فتأتي على آخر فرد منهم يكون في المؤخرة (٥).

ولما بينت الآية السابقة حالهم في إرادة غير ذات الشوكة ، وبينت اختيار ذات الشوكة ، والفرق بين إرادتهم وإرادة الله ، جاءت عقبها بيان الحكمة الداعمة لاختيار ذات الشوكة ، فالآية السابقة ميزت بين الإرادتين ، والتي بعدها بينت الغرض من ذلك ، فقال تعالى : ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ ´ µ ¶ ﴾ .

(١) البقاعي ، نظم الدرر : (١٨٧/٣) .

(٢) انظر : المصدر السابق .

(٣) انظر ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٢٧١/٩) .

(٤) انظر : المصدر السابق .

(٥) انظر : البقاعي ، نظم الدرر : (١٩٠/٣) ، وابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٢٧١/٩) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

قال أبو السعود في هذه الآية : « جملةٌ مستأنفةٌ سيقت لبيان الحِكمةِ الداعيةِ إلى اختيار ذاتِ الشوكة ونصرِهم عليها مع إرادتهم لغيرها ، واللامُ متعلقةٌ بفعل مقدر مؤخر عنها ، أي لهذه الغايةِ الجليلةِ فعَل ما فعَل لا لشيءِ آخرَ وليس فيه تكرارٌ إذ الأولُ لبيان تفاوتِ ما بين الإرادتين ، وهذا لبيان الحِكمةِ الداعية إلى ما ذكر » (١).

وفي قوله : ﴿وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ﴾ هذه الجملة هي ضد معنى قوله : ﴿ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ ﴾ ومن لوازمه، لأنه إذا حصل الحق ذهب الباطل ، وإنما جاءت لتدل على المبالغة (٢).

وقوله :﴿ ´ ﴾ شرط دال على المبالغة في الأحوال، وهو عطف على ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ﴾ أو على ﴿ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ﴾ والمعنى : يريد ذلك لذلك لا لغيره ، ولا يصد مراده ما للمعاندين من قوة(٣).

وقوله :﴿ µ ﴾الكراهة هنا كناية عن الاستعداد لمقاومة المراد من تلك الإرادة، فإن المشركين بكثرة عددهم وعُددهم ، يريدون إحقاق الباطل، وإرادة الله تنفذ بالرغم على كراهة المجرمين(٤).

ولما أثبت الآيات السابقة اختيار الله تعالى للمؤمنين إحدى الطائفتين اللتين وعد بها ، وأنها جاءت على غير ما تمنوا ، فبينما أرادوا الفوز بالغنيمة من غير قتال ، أراد الله تعالى لهم النفير ولقاء العدو، ليهزم الكفار ، وعندما وضعهم الله في هذا الاختيار ، أصبحوا يعانون من شدته، قبيل خوضه ، فلما لم يجدوا ملجأ يلجأون إليه غير الله تعالى ، استغاثوا به ، وهنا جاء المدد تتويجا لصدق من استغاثوا به ، بمزيد من نعم العون والتأييد ، وقد جاء سياق الآيات يبرز هذا التتويج في عبارة تحمل التذكير بنعم الله U ، فقال تعالى : ﴿ ! " # $ % & ' ( ) * + , ﴾ .

قال ابن عاشور : « يتعلق ظرف ﴿ ! " # ﴾ بفعل ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ﴾ لأن إرادة الله مستمر تعلقها بأزمنة منها زمانُ استغاثة النبي r والمسلمينَ ربّهم على عدوهم ، حين لقائهم مع عدوهم يومَ بدر ، فكانت استجابة الله لهم بإمدادهم بالملائكة ، من مظاهر إرادته

---

(١) أبو السعود ، إرشاد العقل السليم : (٤/٧) .

(٢) انظر : ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٩/٢٧٢) .

(٣) انظر : البقاعي ، نظم الدرر : (٣/١٩١) ، وابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٩/٢٧٣) .

(٤) انظر : ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٩/٢٧٣) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

تحقيقَ الحق فكانت الاستغاثةُ يوم القتال في بدر وإرادة الله أن يُحِق الحق حصلت في المدينة يوم وعَدَهم الله إحدى الطائفتين ، ورشح لهم أن تكون إحدى الطائفتين ذات الشوكة ، وبيْنَ وقت الإرادة ووقت الاستغاثة مدةَ أيام ، ولكن لما كانت الإرادة مستمرة إلى حين النصر يوم بدر صح تعليق ظرف الاستغاثة بفعلها ، لأنه اقترن ببعضها في امتدادها » [(١)].

وقد أشارت الآية إلى دعاء النبي r يوم بدر ، وقد تقدمت روايات سبب نزولها [(٢)]، وعلى هذا يكون ضمير ﴿ " ﴾ مراداً به النبي r ، وعبر عنه بضمير الجماعة ؛ لأنه كان يدعو لأجلهم ، ولأنه كان معلنا بدعائه وهم يسمعونه [(٣)].

والاستغاثة : طلب الغوث ، وهو الإعانة على رفع الشدة والمشقة ، ولما كانوا يومئذ في شدة، ودعوا بطلب النصر على العدو القوي ، كان دعاؤهم استغاثة[(٤)]، وإنما جيء هنا بصيغةُ المضارع والاستقبالِ لحكاية الحالِ الماضيةِ لاستحضار صورتها العجيبة[(٥)]، وذلك لسرعة الاستجابة الدالة عليها الفاء في قوله : ﴿ $ % ﴾ .

يقول البقاعي في مناسبة مجيء السين والتاء هنا : « ولما أسرع سبحانه الإجابة ، دل على ذلك بقوله: ﴿ $ ﴾ أي فأوجد الإجابة إيجاد من هو طالب لها شديد الرغبة فيها»[(٦)].

وقد ختمت هذه الآية بقوله تعالى : ﴿ & ' ( ) * + ﴾ لأن هذه الجملة هي الكلام المستجاب به ، وكانت عادتهم في الحرب إذا كان الجيش عظيماً أن يبعثوا طائفة منه ثم يعقبوها بأخرى لأن ذلك أرهب للعدو [(٧)].

ثم لما ذكر الله U في الآية السابقة نعمة المدد بالملائكة عطف عليها ما يدل على أن ذلك المدد لم يكن إلا بشرى ، فقال تعالى : ﴿ - . / 0 1 ﴾ أي ما جعل جوابكم

---

(١) انظر : ابن عاشور ، المصدر السابق : (٢٧٢/٩) .
(٢) انظر : في مبحث أسباب النزول الواردة السورة ، الصفحة : (٧٨) .
(٣) انظر : ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٢٧٤/٩) .
(٤) انظر : الراغب ، المفردات : (٣٦٧) ، وابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٢٧٤/٩-٢٧٥) .
(٥) أبو السعود ، إرشاد العقل السليم : (٤٦٩/٢) .
(٦) البقاعي ، نظم الدرر : (١٩٠/٨) .
(٧) انظر : ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٢٧٥/٩) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

بهذا الكلام إلاّ ليبشركم ، وإلاّ فقد كان يكفيكم أن يضمن لكم النصر دون أن يبين أنه بإمداد من الملائكة ، وإنما جاء التبشير بإمداد الملائكة لأن يوم بدر كان أول يوم لقي فيه المسلمون عدواً قوياً وجيشاً عديداً ، فبشرهم الله بكيفية النصر الذي ضمنه لهم بأنه بجيش من الملائكة ، لأن النفوس أمْيل إلى المحسوسات [(١)].

ولما كانت غزوة بدر أول غزوة يلاقي فيها المسلمون أعداءهم ، وكانوا بعد بروز الوعد الصادق لهم بإحدى الطائفتين كارهين للقاء ذات الشوكة جداً ، ثم وقع لهم ما وقع من النصر، كان المقام مقتضياً لإثبات عزة الله وحكمته على سبيل التأكيد إعلاماً بأن صفات الكمال ثابتة له دائماً ، فهو ينصر من صبر واتقى بعزته ، ويحكم أمره على أتم وجه بحكمته ، هذا فعله دائماً كما فعل في هذه الغزوة فلذلك قال معللاً لما قبله مؤكداً: ﴿ = > ? @ ﴾ [(٢)].

ولما ذكرت الآية السابقة المدد الإلهي بجيش الملائكة ، وهم في حقيقتهم فوق المعرفة البشرية جاء بيان المدد من الأسباب العادية ، ومظاهر الكون التي يعرفون من حولهم ، كالماء النازل من السماء ، وتماسك الأرض به من تحتهم ، ثم المدد الذي يفجره الله تعالى من داخلهم ، وهو ذلك النعاس الذي غشيهم في غير موطنه ، وعلى غير انتظار ، لأن النوم يجافي عيون من أثقل الهم والقلق قلبه، وما ذلك إلا مزيد فضل وتوالي نعم من الله تعالى، مولى المؤمنين وناصرهم[(٣)].

وحول هذا المعنى يقول البقاعي : « ولما ذكر البشرى والطمأنية بالإمداد ، ناسب أن يذكر لهم أنه أتبع القول الفعل فألقى في قلوبهم بعزته وحكمته الطمأنينة والأمن والسكينة بدليل النعاس الذي غشيهم في موضع هو أبعد الأشياء عنه وهو موطن الجلاد ومصاولة الأنداد والتيقظ لمخاتلة أهل العناد ، وكذا المطر وأثره ». [(٤)].

وقوله تعالى : ﴿ C D ﴾ جاء الفعل هنا بصيغة المضارع مع حصوله في الماضي لاستحضار هذه الحالة العجيبة في موطن لا يتوقع أن يحصل فيه ، و﴿ D ﴾ هو النوم غير

---

(١) انظر : البقاعي ، نظم الدرر : (١٩١/٣) ، وابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٢٧٦/٩).

(٢) انظر : البقاعي ، نظم الدرر : (١٩٢/٣) .

(٣) انظر : البقاعي ، المصدر السابق .

(٤) انظر : البقاعي ، المصدر السابق .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

الثقيل ، وهو مثل السِّنة ، وإنما أسند الغشي إلى النعاس حقيقة على المتعارف ، وقد علم أنه من تقدير الله بقوله : ﴿ F E ﴾ أي من الأمن ، وإنما كان النعاس أمناً لهم ؛ لأنه لا ينعس ولا ينام في مثل تلك الحال إلا الآمن ، ولأنهم لما ناموا زال أثر الخوف من نفوسهم في مدة النوم فتلك نعمة ، ولما استيقظوا وجدوا نشاطاً ، ونشاط الأعصاب يكسب صاحبه شجاعة ، ويزيل شعور الخوف الذي هو فتور الأعصاب[١]، وقوله : ﴿ F ﴾ هو وصف لـ﴿ E ﴾ لإفادة تشريف ذلك النعاس ، وأنه وارد من جانب الله U ، فهو لطف وسكينة ورحمة ربَانية، ويتأكد به إسناد الإغشاء إلى الله، وقوله : ﴿ G H ﴾ ذكر الله U في هذه الجملة آية الحياة وهو إنزال المطر ، بعد أن ذكر النعاس وهو آية الموت ، وقد جاءت هذه المِنة في وقت كان المسلمون في حاجة إليه ، وحقق كونه مطراً بقوله : ﴿ I J K ﴾، وإسناد هذا الإنزال إلى الله تعالى للتنبيه على أنه أكرمهم به ، وقد كان ذلك في غير الوقت المعتاد فيه نزول الأمطار في أُفُقِهم ، فلما أنزل الله المطر تلبدت الأرض فصار السير أَمكن لهم ، واستوحلت الأرض للمشركين فصار السير فيها متعباً ، فأمكن للمسلمين السبق إلى الماء من بدر ، ونزلوا عليه وادخروا ماء كثيراً من ماء المطر، وتطهروا وشربوا[٢] .

وقوله تعالى : ﴿ L M﴾ ابتدأ الله U بذكر أول فائدة من فوائد إنزال المطر وهو الطهارة ، وهي صفة من صفات الملائكة المقربين ، ثم ثنى بقوله : ﴿ N O P Q ﴾ لأنه لما كان الحدث والنجس الذي منه الجنابة مقربة من الخبائث الشيطانية ، ومبعدة من حضرات الملائكة ، ذكر هنا أنه I أبعد عنهم هذا الرجز الشيطاني ؛ لأن غالب الجيش لما ناموا احتلموا ، فأصبحوا على جنابة ، وذلك قد يكون من خواطر الشيطان يخيلها للنائِم ليفسد عليه طهارته بدون اختيار ؛ طمعاً في تثاقله عن الاغتسال ، حتى يخرج وقت صلاة الصبح ، ولأن فقدان الماء يلجئهم إلى البقاء في تنجس الثياب والأجساد ، والنجاسة تلائم طبع الشيطان[٣]، ويشتمل رجز الشيطان كذلك وسوسته لهم بالقلة والضعف والتخويف

(١) انظر : البقاعي ، نظم الدرر : (٣/١٩٢-١٩٣) ، وابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٩/٢٧٦) .
(٢) انظر : المصدرين السابقين .
(٣) انظر : ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٩/٢٨٠) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

بكثرة العدو[(١)]، وتقديم الجار والمجرور في قوله : ﴿ O P Q ﴾ فيه الإهتمام بالمؤمنين، وكذلك للرعاية على الفاصلة ، لأنها بنيت على مد وحرف بعده في هذه الآيات والتي بعدها ، ثم قال: ﴿ R ﴾ والربط حقيقته هو شد الوثاق على الشيء، وهو مجاز في التثبيت وإزالة الاضطراب[(٢)]، وقوله:﴿ S T ﴾ هذه الجملة مستعارة لبيان تمكن الربط، أي يؤمنّكم بكونكم واثقين بوجود الماء لا تخافون عطشاً[(٣)].

ولقد ختمت هذه الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿ U V W ﴾ وذلك أنه لما ذكر أسباب النصر الخفية الباطنة من غشيان النعاس ، وإنزال المطر للطهارة ، ذكر أن كل ذلك كان من أجل تثبيت أقدام المؤمنين وتقويتهم على القتال والانتصار على عدوهم ، وذلك بتمكينهم من السير في الرمل ، كي لا تسوخ فيها الأرجل ، وإذهاب الخوف من قلوبهم ، لأن الخائف لا تثبت قدمه في المكان الذي يقف به[(٤)].

ثم لما بين الله U في الآيات السابقة بعض ما أنعم به على المؤمنين في تلك الغزوة ، أتبع ذلك ببيان بقية النعم الأخرى ، فقال تعالى : ﴿Y Z [\ ] ^ _ `

a b d e f g h i j k l m n

o p q ﴾ ، فالوحي الإلهي إلى الملائكة يكون إما بطريق إلقاء هذا الأمر في نفوسهم بتكوين خاص ، وإما بإبلاغهم ذلك بواسطة ، وفي مجيء الضمير هنا موجها إلى النبي r ﴿ [﴾ ، لأن في ذلك تلطفاً به وتشريفا ، إذ كانت هذه الآية في تفصيل عمل الملائكة يوم بدر ، وما خاطبهم الله به، كان توجيه الخطاب بذلك إلى النبي r أولى ؛ لأنه أحق من يعلم مثل هذا العلم ويحصل العلم للمسلمين تبعاً له ، وأن الذي يهم المسلمين من ذلك هو نصر الملائكة إياهم ، وقد حصل الإعلام بذلك ، ولأن النبي r كان أول من استغاث الله ، ولذلك

---

(١) انظر : البقاعي ، نظم الدرر : (٢٣٥/٨) .
(٢) انظر : الزبيدي ، تاج العروس : (٣٠٢/١٩) .
(٣) انظر : البقاعي ، نظم الدرر : (٢٣٦/٨) .
(٤) انظر : البقاعي ، نظم الدرر : (١٩١/٣) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

عرف الله هنا باسم الرب وإضافته إلى ضمير النبي r ليوافق أسلوب ﴿ ! " # ﴾ ولما فيه من التنويه بقدر نبيه r إشارة إلى أنه فعل ذلك لطفاً به ورفعاً لشأنه(١) ، وأيضا فإن المراد بالمعية هنا ﴿ ^ _ ﴾ هي المعية اللائِقة بالله تعالى ، وهي على معنى توجه عناية الله إلى الملائكة وتيسير العمل لهم ، وإنما أوحى الله إلى الملائكة بهذا الأمر لأن القصد منه تشريفهم ، وتشريف العمل الذي سيكلفون به ، لأن المعية تؤذن إجمالاً بوجود شيء يستدعي المصاحبة ، فكان قوله لهم : ﴿ ^ _ ﴾ مقدمة للتكليف بعمل شريف وعظيم ، وإنما كان هذا العمل بهذه المثابة لأنه إبدال للحقائق الثابتة باقتلاعها ووضع أضدادها لأنه يجعل الجبن شجاعة ، والخوف إقداماً والهلع ثباتاً، في جانب المؤمنين ، ويجعل العزة رعباً في قلوب المشركين، ويقطع أعناقهم وأيديهم بدون سَبب من أسباب القطع المعتادة فكانت الأعمال التي عُهد للملائكة عملُها خوارقَ عادات(٢)، وفي مجيء الفاء في ﴿ ` ﴾ هو للترتيب من حيث ما دل عليه ﴿ ^ _ ﴾ من التهيئة لتلقي التكليف بعمل عظيم(٣) .

وإنما عُرف المثبتُون بالموصول ﴿ a b ﴾ لما تومىء إليه صلة ﴿ b ﴾ من كون إيمانهم هو الباعث على هذه العناية ، فتكون الملائكة بعناية المؤمنين لأجل وصف الإيمان، ولم يقل الله U هنا (سنلقي) بدلا من ﴿ d ﴾ لئلا يتوهم أن للملائكة المخاطبين سبباً في إلقاء الرعب في قلوب الذين كفروا ، وإنما أسنده إلى نفسه وحده ، لأن أولئك الملائكة المخاطبين كانوا ملائكة نصر وتأييد ، فلا يليق بقواهم إلقاء الرعب ، فجعله الله في قلوب الذين كفروا بواسطة أخرى غير الملائكة ، وإنما أسند إلقاء الرعب في قلوب الذين كفروا إلى الله على طريقة الإجمال دون بيان لكيفية إلقائه ، وفي ذلك إشارة إلى أنه رعب شديد قدره الله على كيفية خارقة للعادة(٤)، ثم أمر الله تعالى الملائكة بضرب أعناق الكفار فقال تعالى : ﴿ j k l ﴾ وهذه الجملة تؤذن بما اقتضته جملة ﴿ d e f g h i ﴾

---

(١) انظر : البقاعي ، نظم الدرر : (١٩٢/٣) ، وابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٢٨٠/٩) .

(٢) انظر : ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٢٨١/٩) .

(٣) انظر : ابن عاشور ، المصدر السابق : (٢٨١/٩) .

(٤) ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٢٨٢/٩) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

من تخفيف عمل الملائكة عليهم بعض التخفيف الذي دل عليه إجمالاً قوله : ﴿ ^ _ ﴾ ، وقد اختلف المفسرون في المراد بـ﴿ k l ﴾ إلا أن أقربها إلى اللغة ، وما جرى عليه وصف أفعال الأبطال هو ما ذكره ابن عطية ، بقوله : «يحتمل عندي أن يريد بقوله : ﴿ k l ﴾ وصف أبلغ ضربات العنق وأحكمها وهي الضربة التي تكون فوق عظم العنق ودون عظم الرأس في المفصل» [١]. والبنان اسم جمع بَنَانَة ، وهي الأصبع ، وسميت بذلك لأن بها صلاح الأحوال التي يمكن للإنسان أن يبن بها يريد أن يقيم به [٢]، وفي إضافة ﴿ o ﴾ إليه لاستغراق أصحابها ، وإنما خصت الأعناق والبنان بالذكر لأن ضرب الأعناق إتلاف لأجساد المشركين، وضرب البنان ، يبطل صلاحية المضروب للقتال ، لأن تناول السلاح إنما يكون بالأصابع [٣].

قال الزمخشري : « والمعنى فاضربوا المقاتل ؛ لأنّ الضرب إما واقع على مقتل أو غير مقتل ، فأمرهم بأن يجمعوا عليهم النوعين معاً »[٤] .

ولما ذكر الله U في الآيات السابقة ما أنزل على عباده المؤمنين من نصر عظيم في غزوة بدر، وما حاق بالكافرين من هزيمة ساحقة فيها ، شرع يذكر في الآيات التالية أهم الأسباب التي أدت إلى هذا الأمر ، فبدأ بذكر سبب هزيمة الكافرين والانتقام منهم ، وذلك تلميحا لهذه الأمة وتعريضا بهم ليستزيدوا من أسباب النصر ، لأن معصية الله ورسوله ومخالفة أمرهما لما كانت سبب هزيمة الكافرين هزيمة منكرة وعظيمة ، يوشك ما هو مخالفة للرسول بدون مشاقة أن يُوقع في عذاب دون ذلك ، وخليق بأن يكون ضدها وهو الطاعة والاستجابة والتقوى موجباً للخير والنصر[٥]، فقال تعالى : ﴿ r s t u v x y z { | } ~ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ﴾ .

---

(١) ابن عطية ، المحرر الوجيز : (٥٨٢/٢) .

(٢) انظر : الراغب ، المفردات في غريب القرآن : (٦٢) .

(٣) انظر : ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٩/ ٢٨٣) .

(٤) الزمخشري ، الكشاف : (٢/ ١٩٥) .

(٥) انظر : ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٢٨٥/٩) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

وهذه الآية الكريمة جاءت عقب أمر الله ملائكته بضرب أعناق لمشركين وقطع بنانهم ، وأن المشار إليه بقوله : ﴿ r ﴾ هو: ما حلّ بالمشركين من إلقاء الرعب في قلوبهم ، وما أصابهم من ضرب الأعناق وقطع البنان ، وإنما فصلت هذه الجملة عن سابقتها لوجود باء السببية في قوله : ﴿ s ﴾ لأنها تفيد معنى التعليل[(١)].

وقد ختمت هذه الآية الكريمة بقوله تعالى : ﴿ x y z { | } ~ ٱلْعِقَابِ ﴾ وهو تذييل يعم كل من يشاقق الله ورسوله ، - والمشاقة هي العداوة والمخالفة مع عصيان وعناد، مشتقة من الشّق بكسر الشين وهو الجانب ، ولما كان المخالف والمعادي يكون متباعداً عن عدوه فقد جعل كأنه في شق آخر ، أي ناحية أخرى - [(٢)].

وأن قوله تعالى : ﴿ | } ~ ٱلْعِقَابِ ﴾ كناية عن عقاب المشاقين ، وبذلك يظهر الارتباط بين الجزاء وبين الشرط ، باعتبار لازم الخبر [(٣)].

ولما ذكر الله U عقوبة هؤلاء الكفار في الدنيا شرع يذكر عقوبتهم في الآخرة ، فقال تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾ ﴾ ، فالمشار إليه في هذه الآية عند قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكُمْ ﴾ راجع إلى ضرب الأعناق ، والبنان ، وبالتالي كل ما نجم عن ذلك وهي الهزيمة الساحقة ، أو هو مما دل عليه قوله : ﴿ s t u v ﴾ فالتقدير : ذلك بأنكم شاققتم الله ورسوله ، وقوله : ﴿فَذُوقُوهُ﴾ الذوق : وجود الطعم بالفم ، وأصله فيما يقل تناوله دون ما يكثر ، فإن ما يكثر منه يقال له الأكل ، واختير في القرآن لفظ الذوق في العذاب ؛ لأن ذلك وإن كان في التعارف للقليل فهو مستصلح للكثير ، فخصه بالذكر ليعم الأمرين ، وكثر استعماله في العذاب[(٤)].

---

(١) انظر : أبو حيان ، البحر المحيط : (٤/٤٦٦) ، وابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٩/٢٨٤) .
(٢) انظر : الراغب ، المفردات في غريب القرآن : (٢٦٤) ، والبقاعي ، نظم الدرر : (٨/٢٣٥) .
(٣) انظر : ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٩/٢٨٤) .
(٤) انظر : الراغب ، المفردات في غريب القرآن : (١٨٢) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

قال أبو حيان : « ولما كان عذاب الدنيا بالنسبة إلى عذاب الآخرة يسيراً سمى ما أصابهم منه ذوقاً ؛ لأنّ الذّوق يعرف به الطعم وهو يسير ليعرف به حال الطعم الكثير »[١].

وقال ابن عاشور: « مجاز في مطلق الإِحساس والوِجدان، شبه ما حلّ بهم من العذاب بشيء ذي طعم كريه، يذوقه من حلّ به ويبتلعه ؛ لأن الذوق باللسان أشد من اللمس باليد أو بالجلد»[٢].

وقد ختمت هذه الآية الكريمة بقوله تعالى : ﴿وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾ إذ أن فيها بيانا للعذاب المؤجل لهم في الآخرة ، بعد أن ذكر ما ذاقوه من العذاب المعجل في الدنيا .

ولما ذكرت الآية السابقة سبب هزيمة الكافرين عقب على ذلك ببيان سبب نصر المؤمنين بأسلوب التحذير والنهي من الوهن والفرار ، والحث على الشجاعة والإقدام ، والثبات عند اللقاء ، وقد كانت هذه الخطة محمودة عند العرب ، فلم يزدها الإسلام إلاّ تقوية[٣] ، فقال تعالى : ﴿ © الَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ﴾.

قال أبو حيان : « مناسبة هذه الآية لما قبلها أنه تعالى لما أخبر أنه سيلقي الرّعب في قلوب الكفار وأمر من آمن بضرب فوق أعناقهم وبنانهم حرضهم على الصبر عند مكافحة العدوّ ونهاهم عن الانهزام » [٤].

واللقاء في قوله تعالى : ﴿إِذَا لَقِيتُمُ﴾ مستعمل في كلام العرب على مناجزة العدو في الحرب، وأصله : مقابلة الشيء ومصادفته معا ، وإنما عبر بصيغة اللقاء هنا تنبيها على أنه دهمهم وجعلهم في حكم غير المختارين[٥]، وهذا ما حصل في غزوة بدر .

وفي المراد من لفظة ﴿زَحْفًا﴾ في الآية يمكن أن يفسر بالمعنى المصدري أي المشي في الحرْب ، وجعله وصفا لتلاحم الجيشين عند القتال ، لأن المقاتلين يدبون إلى أقرانهم دبيباً ، ويمكن أن يفسر بمعنى الجيش الدهم الكثير العدد ، وجعله وصفاً لذات الجيش [٦].

---

(١) انظر : أبو حيان ، البحر المحيط : (٤/٤٦٦) .

(٢) ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٢٨/٢٦٨) .

(٣) انظر : ابن عاشور ، المصدر : (٩/٢٨٥) .

(٤) انظر : الراغب ، المفردات في غريب القرآن : (٤٥٣-٤٥٤) .

(٥) المفردات في غريب القرآن : (٤٣٢) .

(٦) انظر : ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٩/ ٢٨٧) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

وقد ختمت الكريمة بالنهي عن تولية الأدبار وهو صرف الأدبار وتوجيه الظهور إلى الأعداء، وإنما عبر بتولية الأدبار كناية عن الفرار من العدو بقرينة ذكره في سياق لقاء العدو ، فهو مستعمل في لازم معناه مع بعض المعنى الأصلي ، وإلاّ فإن صرف الظهر إلى العدو بعد النصر لا بد منه وهو الانصراف إلى المعسكر ، إذ لا يفهم أحد النهي عن إدارة الوجه عن العدو، وإلاّ للزم أن يبقى الناس مستقبلين جيش عدوهم ، فلذلك تعين أن المفاد من قوله : ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ﴾ النهي عن الفرار قبل النصر أو القتل[١].

ولما نهى الله U في الآية السابقة التولي يوم الزحف ، ولقاء العدو ، توعد في هذه الآية من ولى الأدبار وفر يوم الزحف ، وبين عقوبته وجزاءه ، واستثنى من ذلك بعض الصور التي لا تدخل في تلك العقوبة[٢]، فقال تعالى: ﴿ ¶ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ ، فقوله : ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ عبر هنا عن وقت الزحف بلفظ اليوم ، والمعنى : يولهم يوم الزحف دُبره، وإنما عدل عن ذكر الظهر إلى الدبر مبالغة في التقبيح والذمّ، إذ تلك الحالة من الصفات القبيحة المذمومة جدًّا[٣].

ثم استثني الله U حرمة التولي في حالة التحرف لأجل الحيلة الحربية والانحياز إلى فِئَة من الجيش للاستنجاد والاستعانة بها ، فقال : ﴿إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾ .

فالتحرف هنا : هو الانصراف إلى الحَرْف ، وهو المكان البعيد عن وسطه والعدولُ إلى أحد جوانبه لأجل القتال ، أو لأجل أعمال القتال من كرّ وفرّ [٤]، والتحيز : هو طلب الحَيْز والصيرورة إليه ، ومعناه : أن يكون رجع القهقرى ليلتحق بطائفة من أصحابه فيتقوى بهم[٥]، والفِئَة : هي الجماعة المتظاهرة التي يرجع بعضهم إلى بعض في التعاضد[٦]، ولهذا تطلق على

---

(١) انظر : ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٩/ ٢٨٧) .
(٢) انظر : أبو حيان ، البحر المحيط : (٤/٤٦٨) ، وابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٩/٢٨٧) .
(٣) انظر : أبو حيان ، البحر المحيط : (٤/٤٦٩) .
(٤) انظر : الراغب ، المفردات : (١١٤) .
(٥) انظر : الراغب ، المفردات : (١٣٦) ، وابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٩/٢٨٩) .
(٦) انظر : الراغب ، المفردات : (٣٨٩) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

مؤخرة الجيش أيضا لأنها يفيء ويرجع إليها مَن يحتاج إلى إصلاح أمره أو مَن عَرض له ما يَمنعه من القتال من مرض أو جراحة أو يستنجد بهم [١].

وقوله : ﴿بَآءَ بِغَضَبٍ﴾ أي رجع ملابساً لغضب الله تعالى عليه ، ومناسبة مجيء باء هنا أنه يشير إلى أن سبب الغضب عليه هو ذلك البَوْء الذي باءه ، وهذا يدل على أن توليه الظهر إلى المشركين كبيرة عظيمة ، فالآية دالة على تحريم التولي عن مقابلة العدو حين الزحف [٢].

ولما بين الله U في الآية السابقة سببا من أسباب النصر أتت الآية التي بعدها لتبين أنه I هو الناصر الحقيقي ، وليس فعلهم ، أو ثباتهم في أرض المعركة وعدم فرارهم من مواجهة عدوهم هو الذي أتى لهم بالنصر ، وإنما كان ذلك سببا للابتلاء والاختبار ، والدليل على ذلك مجيء فاء التفريع في مقدمة هذه الآية والتي تدل على تفريع العلة على المعلول ، فقال تعالى: ﴿ ! " # $ % ' ( ) * + , - . / 0 1 2 3 5 6 7 8 ﴾.

قال أبو حيان : « لما قال ﴿ j k l m n o p ﴾ كان امتثال ما أمروا به سبباً للقتل فقيل ﴿ ! " ﴾ أي لستم مستبدين بالقتل لأنّ الأقدار عليه ، والخالق له إنما هو الله ليس للقاتل فيها شيء لكنه أجرى على يده فنفى عنهم إيجاد القتل وأثبت لله » [٣].

وقال البقاعي : « ولما تقدم إليهم في ذلك ، علل بتقرير عزته وحكمته ، وأن النصر ليس إلا من عنده ، فمن صح إيمانه لم يتوقف عن امتثال أوامره ، فقال مسبباً عن تحريمه الفرار وإن كان العدو كثيراً ، تذكيراً بما صنع لهم في بدر ، ليجريهم على مثل ذلك ، ومنعاً لهم من الإعجاب بما كان على أيديهم في ذلك اليوم من الخوارق » [٤].

---

(١) انظر : الراغب ، المصدر السابق : (١٣٦) ، وابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٢٩١/٩) .

(٢) انظر : ابن عاشور ، المصدر السابق : (٢٨٧/٩) .

(٣) أبو حيان ، البحر المحيط : (٤٦٧/٤) .

(٤) البقاعي ، نظم الدرر : (٢٣٨/٨) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

وأما مجيء حرف الاستدراك ﴿ + ﴾ هنا فقد كان أحسن مجيء لكونه بين نفي وإثبات ، فالمثبت لله هو المنفيّ عنهم وهو حقيقة القتل(١)، وإنما قدم المسند إليه على المسند الفعلي، دون أن يقال : (ولكن قتلهم الله)، لمجرد الاهتمام لا الاختصاص، لأن نفي اعتقاد المخاطبين أنهم القاتلون قد حصل من جملة النفي ، فصار المخاطبون متطلبين لمعرفة فاعل قتل المشركين فكان مهمّاً عندهم تعجيل العلم به (٢).

وفي الخلاصة فإن هذه الجملة ﴿ ! " # $ % ﴾ فيها إخبار من الله U بنفي ما يظنه المؤمنون من أن حصول قتل كفار قريش في غزوة بدر كان بسبب ضَربهم بالسيوف ، فكان هذا تنبيها للمؤمنين بأن سيوفهم وسهامهم لم تعمل في الأعداء إلا بعون الله وتأييده الخارق للعادة .

وأما جملة : ﴿ ' ( ) * ﴾ ففيها استطراد بذكر تأييد إلهي آخرَ لم يُجر له ذكر في الكلام السابق (٣)، وهو أن الرسول r أخذ قبضة من تراب أو حفنة من الحصاء فاستقبل بها المشركين ثم قال : "شاهت الوجوه" ثم نفحهم، فلم يبق مشرك إلا أصابه شيء من الحصا في عينيه فشغل بعينيه فانهزموا(٤).

وإنما جرد فعل الرمي عن المفعول به لما أن المقصود بيان حال الرمي نفيا وإثباتا إذ هو الذي ظهر منه ما ظهر ، وهو المنشأ لتغير المرمى به في نفسه وتكثره إلى حيث أصاب عيني كل واحد من أولئك الجم الغفير شيء من ذلك(٥).

وأما قوله : ﴿ (* ﴾ فهي زيادة تقييد للرمي وأنه الرمي المعروف المشهور ، وإنما احتيج إليه في هذا الخبر ولم يؤت بمثله في قوله : ﴿ ! " ﴾ لأن القتل لما كانت له أسباب كثيرة كان اختصاص سيوف المسلمين بتأثيره غير مشاهد ، وكان من المعلوم أن الموت قد يحصل من

---

(١) انظر : أبو حيان ، البحر المحيط : (٤٧١/٤) .
(٢) انظر : ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٢٩٤/٩) .
(٣) انظر : ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٢٩٤/٩) .
(٤) تقدم تخريجه في الصفحة (١٢٥) .
(٥) انظر : الألوسي ، روح المعاني : (١٨٥/٩) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

غير فعل فاعل غيرِ الله ، لم يكن نفي ذلك التأثير ، وإسناد حصوله إلى مجرد فعل الله محتاجاً إلى التأكيد بخلاف كون رمي الحصى الحاصل بيد الرسول r حاصلاً منه ، فإن ذلك أمر مشاهد لا يقبل الاحتمال ، فاحتيج في نفيه إلى التأكيد إبطالاً لاحتمال المجاز في النفي بأن يُحمل على نفي رمي كامل ، فإن العرب قد ينفون الفعل ومرادهم نفي كماله [(١)].

وقد دل قوله تعالى : ﴿(* ﴾ على أن المراد بالنفي في قوله: ﴿ ') ﴾ هو الرمي بمعنى أثره وحصول المقصود منه، وليس المراد نفي وقوع الرمي مثل المراد في قوله:﴿ ! " ﴾ لأن الرمي واقع من يد النبي r ولكن المراد نفي تأثيره ، فإن المقصود من ذلك الرمي إصابة عيون أهل جيش المشركين وما كان ذلك بالذي يحصل برمي اليد ، لأن أثر رمي البشر لا يبلغ أثره مبلغ تلك الرمية ، فلما ظهر من أثرها ما عم الجيش كلهم ، عُلم انتفاء أن تكون تلك الرمية مدفوعة بيد مخلوق، ولكنها مدفوعة بقدرة الخالق الخارجة عن الحد المتعارف[(٢)].

ولما ذكر الله U أن قتل المشركين وأسرهم وإلحاق الهزيمة بهم كانت هي العلة الأصلية ، بين أن هناك علة أخرى من ذلك فقال تعالى : ﴿ / 0 1 2 3 ﴾ أي يعطيهم عطاءً حسناً يشكرونه عليه ، فيظهر ما يدل عن قيامهم بشكره مما تختبر به طويتهم لمن لا يعرفها ، وهذا العطاء هو النصر والغنيمة في الدنيا والجنةُ في الآخرة[(٣)]، وقد اختار بعضهم أن الإبلاء في الحرب بدليل ما بعده يقال: أبلى فلان بلاء حسنا أي قاتل قتالا شديدا وصبر صبرا عظيما سمي به ذلك الفعل لأنه ما يخبر به المرء فتظهر جلادته وحسن أثره[(٤)].

ثم ختمت الآية الكريمة بقوله تعالى : ﴿ 5 6 7 8 ﴾ وفي ذلك بيان بأنّ الله سمعَ صوت استغاثة النّبي r والمؤمنين ، واطلع على صدق نياتهم ، فقبل دعاءهم وأنزل ألطافه وعنايته عليهم جميعاً ونصرهم على عدوّهم .

---

(١) انظر : ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٩/٢٩٥) .

(٢) انظر : ابن عاشور ، المصدر السابق : (٩/٢٩٦) .

(٣) انظر : ابن عاشور ، المصدر السابق : (٩/٢٩٦) .

(٤) انظر : الألوسي ، روح المعاني : (٩/١٨٧) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

قال سيد قطب : « يسمع استغاثتكم ويعلم حالكم ويجعلكم ستارا لقدرته ، متى علم منكم الخلوص له ويعطيكم النصر والأجر ، كما أعطاكم هذا وذاك في بدر »(١) .

ولما ذكر الله U فيما سبق من الآيات خذلان المشركين وهزيمتهم والسبب وراء ذلك، وإبلاء المؤمنين البلاء الحسن والنصر العظيم ، أبان في قوله تعالى : ﴿ : ; > = > ? @﴾ إلى توهين الكفار بعد الإبلاء الحسن للمؤمنين وفي ذلك تناسق رائع ، إذ لو جاءت هذه الآية بعد قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ لوقعت الآية موقعا غير ذي قوة ، إذ الآية السابقة جازت بالقتل ، وأوعدت بالحريق في الآخرة، والتوهين أخف عقوبة منهما ، ومجيء الأخف بعد الأشد يضعف أثره ، ويذهب بالغاية من ذكره ، ولكن في وضع (التوهين) مقابل البلاء الحسن ، واضح التناسق ، وقوي الترابط (٢).

وأما قوله تعالى : ﴿> ? ﴾ فهو قصدهم الإضرار بالمسلمين في صورة ليست ظاهرها بمضرة وذلك أن جيش المشركين الذين جاءوا لإنقاذ العير لما علموا بنجاة عيرهم ، وظنوا خيبة المسلمين الذين خرجوا في طلبها أبوا أن يرجعوا إلى مكة ، وأقاموا على بدر لينحروا ويشربوا الخمر ويضربوا الدفوف فرحا وافتخارا بنجاة عيرهم وليس ذلك لمجرد اللهو ولكن ليتسامع العرب فيتساءلوا عن سبب ذلك فيخبروا بأنهم غلبوا المسلمين فيصرفهم ذلك عن اتباع الإسلام فأراد الله توهينهم بهزمهم تلك الهزيمة الشنعاء فهو موهن كيدهم في الحال (٣).

قال سيد قطب في هذه الآية : « وهذه أخرى بعد تلك الأولى! إن التدبير لا ينتهي عند أن يقتل لكم أعداءكم بأيديكم ، ويصيبهم برمية رسولكم ، ويمنحكم حسن البلاء ليأجركم عليه .. إنما هو يضيف إليه توهين كيد الكافرين ، وإضعاف تدبيرهم وتقديرهم .. فلا مجال إذن للخوف ، ولا مجال إذن للهزيمة ، ولا مجال إذن لأن يولي المؤمنون الأدبار عند لقاء الكفار ، ويتصل السياق هنا بكل ملابسات المعركة ، فإذا كان اللّه هو الذي قتل المشركين ، وهو الذي رماهم ، وهو الذي أبلى المؤمنين فيها ذلك البلاء الحسن ، وهو الذي أوهن كيد الكافرين ..

---

(١) سيد ، في ظلال القرآن : (١٤٩٠/٣) .

(٢) البزرة ، في إعجاز القرآن ، دراسة لسورة الأنفال : (٣٢٧) .

(٣) انظر : ابن عطية ، المحرر الوجيز : (٥٨٧/٢) ، وابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٢٩٧/٩) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

فما النزاع والاختلاف إذن في الأنفال ، والمعركة كلها أديرت بتدبير اللّه وبتقديره ، وليس لهم فيها إلا أن كانوا ستارا لهذا التدبير والتقدير؟!»(١).

ولما ذكر الله U فيما سبق سببا من أسباب النصر وهو الثبات وعدم الفرار من مواجهة العدو ، أضاف سببا آخر من أسباب النصر ، وهو طلب النصر والفتح من الله تعالى، وهي الاستغاثة التي مر ذكرها في آيات الموضوع السابق ، وفي ذلك تناسق واضح بين الموضوعين يتبن من خلال ما سيأتي، قال تعالى : ﴿A B C D E G H I J K M N O P Q R S T U V W X Y Z [﴾.

وقد تقدم في فصل موضوعات السورة بيان أقوال المفسرين في المراد بالمخاطبين في هذه الآية، وقد رجحت هناك بالنظر إلى السياق وتناسق الموضوعات أن الخطاب للمؤمنين ، ولهذا سأبين تفسيرها وفقا لهذا التناسق الموضوعي ، فقوله تعالى : ﴿ B ﴾ جاء الفعل بصيغة المضارع مع أنه فعل مضى، والقصد من ذلك هو استحضار الحالة من تكريرهم الدعاء وطلب النصر والفتح من الله U ، والمعنى إن تستنصروا الله فقد جاءكم النصر ، وإنما جاء التعبير بالفعل الماضي ﴿ D ﴾ هنا في جواب الشرط ؛ للتنبيه على تحقق وقوعه ، وفي ذلك دليل على كلام محذوف ، والتقدير : إن تستنصروا في المستقبل ننصركم فقد نصرناكم يوم بدر حين استغثتم بنا(٢)، وقوله : ﴿G H I J K﴾ أي وإن تنتهوا وتتركوا عما وقعتم فيه قبل غزوة بدر من التكاسل والرغبة في الحياة وحب المال ، فهو خير لكم من كل شيء لأن في ذلك مدار سعادة الدارين ، وإن تعودوا إلى مثل تلك الأمور نعد عليكم بالإنكار وتهييج العدو(٣)، ففي هذه الآية تعليم للمؤمنين بأن يصدقوا في التوجه إلى الله تعالى ، الذي هو سبب نصرهم ، والابتعاد عما وقعوا فيه قبل معركة من الاختلاف والفرقة ، فلولا لطف الله بهم وجمع قلوبهم وتوحيد كلمتهم لكان ذلك سبب هزيمتهم وخذلانهم ، كما سيأتي بيانه عند قوله تعالى : ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ ﴾ ، وأن هذه الحال لو وقعت بينكم فإنه

---

(١) انظر : سيد ، في ظلال القرآن : (١٤٩١/٣) .

(٢) انظر : البقاعي : (٢٨٣/٨) ، ابن عاشور : (٢٨٩/٩) .

(٣) انظر : الألوسي ، روح المعاني : (١٨٨/٩).

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

وحتى عند كثرتكم فإنها لن تغني عنكم شيئا ، فكيف وفئتكم كانت قليلة في بدر ، إلا أن الله U كان معكم[١] .

وقد ختم الله U هذه الآية بقوله : ﴿ W X Y Z ﴾ وهو تذييل للآية في معنى التعليل ، لأن التذييل لما فيه من العموم يصلح لإفادة تعليل المذيّل ، وهذه الجملة إظهار في مقام الإضمار ، لأن مقتضى الظاهر أن يقال : (وإن الله معكم) ، فعدل إلى الاسم الظاهر للإيماء إلى أن سبب عناية الله بهم هو إيمانهم [٢].

ومن تأمل في خاتمة هذه الآية الكريمة ليعلم أن المعركة بين المؤمنين والكافرين على هذا النحو لن تكون متكافئة أبدا ؛ لأن المؤمنين - ومعهم اللّه - سيكونون في صف ، والكفار - وليس معهم إلا ناس من البشر من أمثالهم - سيكونون في الصف الآخر ، والمعركة على هذا النحو مقررة المصير [٣].

ولما ذكر I بعض الأسباب الجالبة للنصر والمبعدة عن الهزيمة ، أضاف إليها سببا آخر وهو طاعته وطاعة رسوله وعدم مخالفة أوامرهما ، فقال تعالى ﴿ \ ] ^ _ ` a b c d e f ﴾ وفي هذه الآية رجوع إلى الأمر بالطاعة الذي افتتحت به السورة في قوله : ﴿ 0 1 2 3 4 5 ﴾ .

قال الرازي : «اعلم أنه تعالى لما خاطب المؤمنين بقوله : ﴿ G H I J K L M N O P Q R S T ﴾ أتبعه بتأديبهم فقال: ﴿ \ ] ^ _ ` a b c d e f ﴾ ولما كان الجهاد مشتملا على أمرين ، أحدهما : المخاطرة بالنفس، والثاني : الفوز بالأموال ، ولما كانت المخاطرة بالنفس شاقة شديدة على كل أحد ، وكان ترك المال بعد القدرة على أخذه شاقاً شديداً لا جرم بالغ الله تعالى في التأديب في هذا الباب ، فقال : ﴿ 0 1 2 ﴾ في الإجابة إلى الجهاد ، وفي الإجابة إلى ترك

(١) انظر : الألوسي ، روح المعاني : (١٨٨/٩) ، وابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٣٠١/٩) .
(٢) انظر : ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٣٠١/٩) .
(٣) انظر : سيد ، في ظلال القرآن : (١٤٩١/٣) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

المال إذا أمره الله بتركه ، والمقصود تقرير ما ذكرناه في تفسير قوله تعالى : ﴿ % & '
) ﴾»(١).

وفي افتتاح خطاب الله تعالى للمؤمنين بالنداء فذلك للاهتمام بما سيُلقى إلى المخاطبين قصداً لإحضار الذهن لوعي ما سيقال لهم ، فنزّل الحاضر منزلة البعيد ، فطلب حضوره بحرف النداء الموضوع لطلب الإقبال ، وأن هذا النداء جاء بعد جميع المقدمات الموحية ، وبعد استعراض أهم أحداث معركة بدر ، وبعد نزول ألطاف الله تعالى ومننه وتدبيره وتقديره ، وعونه ومدده ، على المؤمنين ، وتأكيد أن اللّه مع المؤمنين ، وأن اللّه موهن كيد الكافرين ، فما يبقى بعد ذلك كله مجال لغير السمع والطاعة للّه والرسول ، وإن التولي عن الرسول وأوامره بعد هذا كله ليبدو مستنكرا قبيحا لا يقدم عليه إنسان له قلب يتدبر وعقل يتفكر ، ومن هنا حسن مجيء ذكر الدواب في موضعه المناسب ، والمتناسق مع موضوعات الآيات، وإنما جاء التعريف بالموصول في قوله : ﴿ \ ] ^ ﴾ للتنبيه على أن الموصوفين بهذه الصلة من شأنهم أن يتقبلوا ما سيؤمرون به ، وأنه كما كان الشرك مسبباً لمشاقة لله ورسوله في قوله : ﴿ r s t u v ﴾ ، فخليق بالإيمان أن يكون باعثاً على طاعة الله ورسوله ، فقوله هنا : ﴿ © ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ يساوي قوله في الآية المردود إليها : ﴿ 3 4 5 ﴾ ، مع الإشارة هنا إلى تحقق وصف الإيمان فيهم وأن إفراغه في صورة الشرط في الآية السابقة ما قصد منه إلاّ شحذ العزائم ، وبذلك انتظم هذا الأسلوب البديع في المحاورة من أول السورة إلى هنا انتظاماً بديعاً معجزاً (٢).

وأيضا يمكننا أن نقول أن هذا الأسلوب البديع في التناسق يظهر من أول السورة إلى آخرها ، حيث إن فيه وصفا لأولئك القوم المجاهدين في سبيل الله ، وشحذ هممهم وعزائمهم بوصفهم بأعلى صفات لهم وهي صفة الإيمان ، فالسورة في أولها ، وفي وسطها ، وفي آخرها ، ذكر للإيمان وحقائقه ، وهي الركيزة الأولى من ركائز الجهاد .

---

(١) الرازي ، مفاتيح الغيب : (١١٥/١٥) باختصار وتصرف .

(٢) انظر : ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٣٠١/٩) ؛ وسيد ، في ظلال القرآن : (١٤٩٣/٣) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

وفي إفراد الضمير المجرور بـ(عن) في قوله تعالى: ﴿ b c d ﴾ فهو راجع إلى الرسول r ، إذ هذا المناسب للتولي بحسب الحقيقة ، وقد علم أن النهي عن التولي عن الرسول نهي عن الإعراض عن أمر الله تعالى، قال أبو حيان : « وإنما عاد على الرسول لأنّ التولي إنما يصح في حقّ الرسول بأن يعرضوا عنه وهذا على أن يكون التولي حقيقة »(١).

وقد ختم الله U هذه الآية بقوله : ﴿ e f ﴾ وهذه الجملة في موضع الحال من ضمير ﴿ c ﴾ والمقصود من هذه الحال تشويه التولي المنهي عنه ، فإن العصيان مع توفر أسباب الطاعة أشد منه في حين انخرام بعضها ، ولم يبين هنا ماذا يسمعون إلا أن الكلام من أول السورة إلى هنا لما كان في سياق المحور العام وهو الجهاد في سبيل الله ومتناسقا مع موضوعاته علم أن المراد وأنتم تسمعون دعاءه إلى الجهاد (٢).

ثم لما كانت الأوامر الصادرة من الله ورسوله من شأنها أن تقبلها أهل العقول السليمة ، وكان مجرد سماعه مقتضياً عدم التولي عنه ، زاد في تشويه التولي عن الرسول r بالتحذير من التشبه بفئة ذميمة يقولون للرسول عليه الصلاة والسلام : سمعنا ، وهم لا يصدقونه ولا يعملون بما يأمرهم وينهاهم ، فقال تعالى : ﴿ h i j k l m n o ﴾ ، وقد جاء في هذه الآية النهي عن التشبه بالكفار ، وذلك بأسلوب التمثيل والتنظير اللذين لهما أثر عظيم في حث النفوس وإثارتها على تجنب التشبه بأصحاب تلك الصفات الواردة في الآية(٣) ، فقوله: ﴿ h i j k ﴾ أصحاب هذه الصلة ، معروفون عند المؤمنين بمشاهدتهم، وبإخبار القرآن عنهم ، فقد عرفوا ذلك من المشركين من قبل ، قال تعالى في هذه السورة: ﴿ s t u v w x y z { | } ~ ﴾ وقيل: المراد بهم اليهود ، وقد عرفوا بهذه المقالة، وواجهوا بها النبي r ، قال تعالى:﴿ 3 4 5 ﴾[النساء: ٤٦] وقيل : أريد المنافقون قال تعالى : ﴿ / 0 1 2 3 4 5 6 7 8 9 : ﴾[النساء: ٨١] .

---

(١) أبو حيان ، البحر المحيط : (٤/٤٧٤) .

(٢) انظر : الرازي ، مفاتيح الغيب : (١٥/١١٥) ، وابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٩/٣٠٣) .

(٣) انظر : ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٩/٣٠٤) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

قال ابن كثير : « ولا منافاة بين المشركين والمنافقين في هذا ؛ لأن كلا منهم مسلوب الفهم الصحيح ، والقصد إلى العمل الصالح»(١).

وإنما كانوا يقولون سمعنا لقصد إيهام الانتفاع بما سمعوا ، لأن السمع يكنى به عن الانتفاع بالمسموع ، قال الرازي : « والمعنى أن الإنسان لا يمكنه أن يقبل التكليف وأن يلتزمه إلا بعد أن يسمعه فجعل السماع كناية عن القبول »(٢). ولذلك نفي عنهم السمع بهذا المعنى في خاتمة الآية بقوله : ﴿ m n o ﴾ أي والحال أنهم لا ينتفعون بما سمعوه، فالواو واو الحال، وإنما تقدم المسند إليه على المسند الفعلي للاهتمام به ليتقرر مفهومه في ذهن السامع فيرسخ اتصافه بمفهوم المسند ، وهو انتفاء السمع عنهم ، على أن المقصود الأهم من قوله : ﴿ h i j k l m n o ﴾ هو التعريض بأهل هذه الصلة من الكافرين أو المنافقين لا خشية وقوع المؤمنين في مثل ذلك ، وإنما جاء الفعل ﴿ n o ﴾ بصيغة المضارع لإفادة أنهم مستمرون على عدم السمع ، فلذلك لم يقل وهم لم يسمعوا(٣).

قال أبو حيان : « جاءت الجملة النافية على غير لفظ المثبتة إذ لم تأتِ (وهم ما سمعوا) لأنّ لفظ المضي لا يدلّ على استمرار الحال ولا ديمومته بخلاف نفي المضارع ، وجاء حرف النفي (لا) لأنها أوسع في نفس المضارع من (ما) وأدلّ على انتفاء السماع في المستقبل أي هم ممن لا يقبل أن يسمع »(٤).

ثم لما نهى الله U المؤمنين في الآية السابقة عن التشبه بالكفار والمنافقين الذين يقولون سمعنا وهم لا يسمعون ، جاء عقبها التعريض بتشبيههم بالدواب الصماء البكماء ، حيث أن الدواب ضعيفة الإدراك ، فإذا كانت صماء كانت مثلاً في انتفاء الإدراك ، وإذا كانت مع ذلك بكماً انعدم منها ما انعدم منها ما يعرف به صاحبها ما بها ، فانضم عدم الإفهام إلى عدم الفهم ، فقال تعالى : ﴿ r s t u v w x y z { ﴾، فلفظ الدواب يشمل الناس، فهم يدبون على الأرض ، ولكن استعماله يكثر في الدواب من الأنعام، وأما قوله :

(١) ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم : (٤/٣٤) .
(٢) الرازي ، مفاتيح الغيب : (١٥/١١٦) .
(٣) انظر : ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٩/٣٠٤- ٣٠٥) .
(٤) أبو حيان ، البحر المحيط : (٤/٤٧٤) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

﴿ v u ﴾ قيد أريد به زيادة تحقيق كونهم أشر الدواب بأن ذلك مقرر في علم الله ، وهؤلاء شبهوا بـ﴿ w ﴾ في عدم الانتفاع بما سمعوا لأنه مما يكفي سماعه في قبوله والعمل به ، وشبهوا بـ﴿ x ﴾ في انقطاع الحجة والعجز عن رد ما جاءهم به القرآن فهمُ ما قبلوا ولا أظهروا عذراً عن عدم قبوله ، ثم لما وصف الله U تلك الدواب بانتهاء قبول المعقولات والعجز عن النطق بالحجة أتبعه في خاتمة الآية بانتفاء العقل عنهم ، فقال ﴿ y z { ﴾ أي عقل النظر والتأمل بله عقل التقبل(١) .

ولما ذكر الله U صفة الشرية والصمية والبكمية الملازمة لهؤلاء الكفار ، عقب الله U في الآية التي بعدها أن هؤلاء القوم لم يعلم الله فيهم خيرا ، ولهذا صيرهم الله عنده شر الدواب ، فقال: ﴿ { ~ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرًا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم © ﴾، والمعنى أن كل ما كان حاصلاً فإنه يجب أن يعلمه الله فعدم علم الله بوجوده من لوازم عدمه فلا جرم حسن التعبير عن عدمه في نفسه بعدم علم الله بوجوده، وإنما قال I : ﴿فِيهِمۡ﴾ ولم يقل (منهم) لإفادة معنى الملابسة ، وقد وقعت الكناية هنا عن عدم استعداد مدارك الكفار للخير، بعلم الله عدمَ الخير فيهم ، ووقع تشبيه عدم انتفاعهم بفهم آيات القرآن بعدم إسماع الله إياهم، لأن الآيات كلام الله فإذا لم يقبلوها فكأن الله لم يُسمعهم كلامه فالمراد انتفاء الخير الجبلي عنهم(٢).

ثم ختمت الآية الكريمة بقوله : ﴿ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم © ﴾ وفي هذه الجملة ارتقاء في الإخبار عنهم بانتفاء قابلية الاهتداء عن نفوسهم في أصل جبلتهم ، فإنهم لما أخبر عنهم بانتفاء تعلمهم الحكمة والهدى فلذلك انتفى عنهم الاهتداء ، ارتقى بالإخبار في هذا المعنى بأنهم لو قبلوا فهم الموعظة والحكمة فيما يسمعونه من القرآن وكلام النبوة لغلب ما في نفوسهم من التخلق بالباطل على ما خالطها من إدراك الخير ، فحال ذلك التخلق بينهم وبين العمل بما علموا ، فتولوا وأعرضوا ، وفي قوله تعالى : ﴿وَّهُم © ﴾ بيان للمراد من التولي ، وهو معناه المجازي ، وصوغ هذه الجملة بصيغة الجملة الاسمية للدلالة على تمكن

---

(١) انظر : ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٣٠٦/٩) ، وسيد ، في ظلال القرآن : (١٤٩٣/٣- ١٤٩٤) .

(٢) انظر : الرازي ، مفاتيح الغيب : (١١٦/١٥) ، وابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٣٠٧/٩)

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

إعراضهم أي إعراضاً لا قبول بعده ، وهذا يفيد أن من التولي ما يعقبه إقبال ، وهو تولي الذين تولوا ثم أسلموا بعد ذلك (١).

ولما ذكر الله U فيما تقدم من الآيات بعض الأسباب المؤدية إلى النصر سواء المادية منها والمعنوية ، ذكر في هذه الآية سببا آخر من الأسباب المعنوية للنصر ، وهي الاستجابة لله وللرسول فقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ ´ µ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ ، فهذه الآية الكريمة إعادة لمضمون قوله : ﴿ \ ] ^ _ ` a ﴾ الذي هو بمنزلة النتيجة من الدليل، لأن الاستجابة للرسول في دعوته إياهم إحياء لنفوسهم ، وإكساب لقلوبهم قوى قدسية ، تجلب لهم النصر وتبعدهم عن الهزيمة ، وإنما جاء النداء هنا بوصف الإيمان ، ليومىء إلى أن الإيمان هو الذي يقتضي أن يثقوا بعناية الله بهم فيمتثلوا أمره إذا دعاهم ، وأن السين والتاء في قوله تعالى ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟﴾ للتأكيد ، وإعادة حرف اللام في قوله : ﴿وَلِلرَّسُولِ﴾ بعد واو العطف للإشارة إلى استقلال المجرور بالتعلق بفعل الاستجابة ، تنبيهاً على أن استجابة الرسول r أعم من استجابة الله لأن الاستجابة لله لا تكون إلاّ بمعنى المجاز وهو الطاعة ، بخلاف الاستجابة للرسول عليه الصلاة والسلام فإنها بالمعنى الأعم الشامل للحقيقة وهو استجابة ندائِه ، وللمجاز، وهو الطاعة فأريد أمرهم بالاستجابة للرسول بالمعنيين كلما صدرت منه دعوة تقتضي أحدهما ، ولهذا أفرد الضمير في قوله : ﴿دَعَاكُمْ﴾ ؛ لأن الدعاء من فعل الرسول مباشرة ، فالآية هنا اقتضت أن الأمر بالامتثال لما يدعو إليه الرسول سواء دعَا حقيقة بطلب القدوم ، أم طلَب عملا من الأعمال ، فلذلك لم يكن قيدُ ﴿ ´ µ ﴾ مقصودا لتقييد الدعوة ببعض الأحوال بل هو قيد كاشف ، فإن الرسول r لا يدعوهم إلاّ وفي حضورهم لديه حياةٌ لهم ، وليس في قوله تعالى : ﴿ ´ µ ¶﴾ قيْد للأمر بالاستجابة ، ولكنه تنبيه على أن دعاءه إياهم لا يكون إلاّ إلى ما فيه خير لهم وإحياء لأنفسهم ، وقد ذكر العلماء أقوالا عديدة في المراد بما يحييهم ، إلا أن سياق آيات السورة والمحور العام فيها يدل على أنه الجهاد في سبيل الله ، وهذا ما ذكره أكثر العلماء ، وفي سبب تسمية الجهاد بالحياة

---

(١) انظر : ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٣١١/٩)

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

وجوه ، **أحدها :** هو أن وهن أحد العدوين حياة للعدو الثاني ، فأمر المسلمين إنما يقوى ويعظم بسبب الجهاد مع الكفار ، **وثانيها :** أن الجهاد سبب لحصول الشهادة وهي توجب الحياة الدائمة قال تعالى: ﴿ d e f g h i j k l m n ﴾ [آل عمران: ١٦٩] ، وثالثها : أن الجهاد قد يفضي إلى القتل والقتل يوصل إلى الدار الآخرة والدار الآخرة معدن الحياة قال تعالى:﴿ (* + , - ﴾ [العنكبوت:٦٤] أي الحياة الدائمة [(١)].

ولما ذكر الله U الحياة أعقبه بذكر ما فيه الحياة ، وهو المرء بجسده وبقلبه المتحكم بالجسد، فعطف الله U بالتحذير والتهديد لمن لا يستجيب لهذه الحياة التي يدعوا لها الرسول r بقوله: ﴿ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ ﴾ وإنما جاء الأمر باعلموا ؛ للاهتمام بما تتضمنه، وحث المخاطبين على التأمل فيما بعدَه ، وذلك من أساليب الكلام البليغ أن يفتتح بعض الجمل المشتملة على خبر أوْ طلبِ فهم باعلم أو تَعَلَمْ لَفتاً لذهن المخاطب ، وفيه تعريض غالباً بغفلة المخاطب عن أمر مهم فمن المعروف أن المخبر أو الطالب ما يريد إلاّ علمَ المخاطب فالتصريح بالفعل الدال على طلب العلم مقصود للاهتمام ، وأن قوله : ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ ﴾ أصل الحَوْل : تغير الشيء وانفصاله عن غيره[(٢)] ، وإنما جيء بصيغة المضارع ﴿يَحُولُ﴾ للدلالة على أن ذلك يتجدد ويستمر [(٣)].

وقد ذكر الرازي بعض الوجوه المرادة من قوله تعالى : ﴿يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ ﴾ فقال : « **الأول:** أن الله تعالى يحول بين المرء وبين الانتفاع بقلبه بسبب الموت يعني بذلك أن تبادروا في الاستجابة فيما ألزمتكم من الجهاد وغيره قبل أن يأتيكم الموت الذي لا بد منه ويحول بينكم وبين الطاعة والتوبة ، ولذلك قال تعالى عقيبه ما يدل عليه وهو قوله ﴿وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ والمقصود من هذه الآية الحث على الطاعة قبل نزول الموت الذي يمنع منها . **الثاني :** أن المراد أنه تعالى يحول بين المرء وبين ما يتمناه ويريده بقلبه فإن الأجل يحول دون الأمل فكأنه قال بادروا إلى الأعمال الصالحة ، ولا تعتمدوا على ما يقع في قلوبكم من توقع

---

(١) انظر : الرازي ، مفاتيح الغيب : (١١٨/١٥) .

(٢) انظر : المفردات في غريب القرآن : (١٣٧) .

(٣) انظر : ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٣١٥/٩) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

طول البقاء فإن ذلك غير موثوق به ، وإنما حسن إطلاق لفظ القلب على الأماني الحاصلة في القلب لأن تسمية الشيء باسم ظرفه جائزة . **الثالث :** أن المؤمنين كانوا خائفين من القتال يوم بدر فكأنه قيل لهم سارعوا إلى الطاعة ولا تتمنعوا عنها فإن الله تعالى يغير تلك الأحوال فيبدل الضعف بالقوة والجبن بالشجاعة لأنه تعالى مقلب القلوب »(١) .

والذي يظهر لي —والله أعلم- أن القول الثالث الذي ذكره الرازي هو ما يسانده سياق الآيات وتناسق الموضوعات في السورة .

ولما كان المقصود مما تقدم من الآية تحذير المؤمنين من كل خاطر يخطر في النفوس من التراخي في الاستجابة إلى دعوة الرسول r ، والتنصل منها ، أو التستر في مخالفته ، ختمت الآية الكريمة بقوله تعالى : ﴿وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴾ فكان ما قبله تحذيراً وكان هو تهديداً ، وتقديم متعلق ﴿تُحۡشَرُونَ ﴾ عليه لإفادة الاختصاص أي : إليه لا إلى غيره تحشرون، وهذا الاختصاص للكناية عن انعدام ملجإٍ أو مخبأ تلتجئون إليه من الحشر إلى الله فكني عن انتفاء المكان بانتفاء محشور إليه غير الله بأبدع أسلوب(٢).

ولما ذكر الله بعض الأسباب المادية والمعنوية للنصر ، ذكر سببا من الأسباب المعنوية للهزيمة وهى الفتنة التي تكون بسبب الفرقة فحذر الله U منها ، فقال تعالى : ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾. وقد حذر الله U في هذه الآية عقلاء المؤمنين وأصحاب الأحلام منهم أنهم إذا رأوا دبيب الفساد في عامتهم ، وخاصة فيما يدور عليه محور السورة وموضوعاتها الكلية وهو الجهاد ، وأنهم إن رأوا بوادر الفرقة والاختلاف بين المجاهدين—وهذا ما حصل في غزوة بدر- أن يبادروا للسعي في حلها ، وكشفها وبيان عواقبها ، لأنهم إن توانوا في ذلك لم يلبث الاختلاف والفرقة أن تسري في النفوس وتنتقل العدوى من واحد إلى غيره ، حتى يعم أو يكاد ، فيعسر اقتلاعه من النفوس ، فتحل الهزيمة والنكبة في جيوش المسلمين وفي ذلك اختلال لميزان القوى بين الإيمان والكفر ، وفي انهزام المسلمين أمام عدوهم الكافر حلول الفتنة في جميع المسلمين ، فمن أجل ذلك وجب

---

(١) انظر : الرازي ، مفاتيح الغيب : (١١٨/١٥) .

(٢) انظر : ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٣١٦/٩).

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

اتقاؤها على الكل ، لأن إضرار حلولها تصيب جميعهم ، فالفتنة حاصل معناها يرجع إلى اضطراب الآراء ، واختلال السير ، وحلول الخوف والحذر في نفوس الناس ، وإنما قال تعالى : ﴿لَّا تُصِيبَنَّ﴾ بتأكيد الأمر باتقائها بنهيها هي عن إصابتها إياهم ، مبالغة في التحذير والاتقاء من الفتنة ، لأن هذا النهي من أبلغ صيغ النهي بأن يُوجه النهي إلى غير المراد نهيه تنبيهاً له على تحذيره من الأمر المنهي عنه في اللفظ ، والمقصودُ تحذير المخاطب بطريق الكناية لأن نهي ذلك المذكور في صيغة النهي يستلزم تحذير المخاطب فكأنّ المتكلم يجمع بين نهيين(١).

ثم ختم الله U هذه الآية الكريمة بقوله : ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ بفعل الأمر بالعلم للاهتمام لقصد شدة التحذير، والملاحظ أن هذه الآية افتتحت بالأمر بالتقوى واختتمت بالأمر بالعلم المؤدي إلى التقوى ، وفي تناسق واضح ، وهو ما يدل عليه قوله تعالى في سورة البقرة : ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

ولما ذكرت الآيات السابقة بعض الأسباب المؤدية إلى النصر والمحذرة من الهزيمة، أضاف الله U سببا آخر من أسباب النصر ، وهو شكر الله تعالى على نعمائه ، فإن بشكر الله تعالى تستزاد النعم ، وتجتلب المنح ، فقال تعالى : ﴿ ! " # $ % & ' ( ) * + , - . / 0 1 2 3 ﴾. فهذه الآية الكريمة جاءت لتذكر المؤمنين بنعمة الله عليهم بالعزة والنصر، بعد الضعف والقلة والخوف، ليذكروا كيف يسر الله لهم أسباب النصر من غير مظانها، وجنبهم الهزيمة من مظانها، فكيف هم بعد ذلك لا يستزيدون من هذا النصر بالشكر لله على أنعم به ، وذلك بالطاعة والاستجابة الذي تقدم ذكرهما فيما سبق من الآيات .

قال الرازي: «اعلم أنه تعالى لما أمرهم بطاعة الله وطاعة الرسول ثم أمرهم باتقاء المعصية أكد ذلك التكليف بهذه الآية وذلك لأنه تعالى بين أنهم كانوا قبل ظهور الرسول r في غاية القلة والذلة وبعد ظهوره صاروا في غاية العزة والرفعة وذلك يوجب عليهم الطاعة وترك المخالفة»(٢).

---

(١) انظر : ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٩/ ٣١٦-٣١٧) .

(٢) الرازي ، مفاتيح الغيب : (١٥/١٢١) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

وأيضا فإن مجيء هذا الأمر بعد وصفهم بالذين آمنوا فيما تقدم من الآيات إيماء إلى أن الإيمان هو الذي ساقَ لهم هذه الخيرات كلها ، وأنه سيكون هذا أثَرَه فيهم كلما احتفظوا عليه كُفُوه من قبلِ سُؤالهم ، ومن قبل تسديد حالهم ، فكيف لا يكونون بعد ترقّه حالهم أشد استجابة وأثبت قلوباً (١).

وقد جيء بالجملة الاسمية في قوله: ﴿ # $ ﴾ للدلالة على ثبات وصف القلة والاستضعاف فيهم، وأخبر بـ﴿ $ ﴾ عن ضمير الجماعة لأن قليلاً وكثيراً قد يجيئان غير مطابقين لما جريا عليه ، وإطلاق الأرض في قوله : ﴿ % & ' ﴾ هنا لأن مكة لعظمها كأنها هي الأرض كلها ، أو لأنّ حالهم كان في بقية البلاد كحالهم فيها أو قريباً من ذلك ، ولهذا عبر بالناس في قوله: ﴿ * + ﴾(٢) فالتخطف شدة الخطف، والخطف: الأخذ والاختلاس بسرعة(٣)، وهو هنا مستعار للغلبة السريعة لأن الغلبة شبه الأخذ ، فإذا كانت سريعة أشبهت الخطف ، أي يأخذكم أعداؤكم بدون كبرى مشقة ، ولا طول محاربة إذ كنتم لقمة سَائغة لهم ، وكانوا أشد منكم قوة ، لولا أن الله صرفهم عنكم (٤).

قال الرازي في تعداد ما دلت عليه هذه الآية من النعم ووجوه المناسبات بينها : « **أولها** : أنهم كانوا قليلين في العدد ، **وثانيها** : أنهم كانوا مستضعفين والمراد أن غيرهم يستضعفهم ، والمراد من هذا الاستضعاف أنهم كانوا يخافون أن يتخطفهم الناس ، والمعنى أنهم كانوا إذا خرجوا من بلدهم خافوا أن يتخطفهم العرب ؛ لأنهم كانوا يخافون من مشركي العرب لقربهم منهم ، وشدة عداوتهم لهم ، ثم بين تعالى أنهم بعد أن كانوا كذلك قلبت تلك الأحوال بالسعادات والخيرات، **فأولها** : أنه آواهم ، والمراد منه أنه تعالى نقلهم إلى المدينة فصاروا آمنين من شر الكفار ، **وثانيها** : قوله : ﴿ - . ﴾ والمراد منه وجوه النصر في يوم بدر ، **وثالثها** : قوله ﴿ / 0 1 ﴾ وهو أنه تعالى أحل لهم الغنائم بعد أن كانت محرمة على

---

(١) انظر : ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٣١٩/٩) .

(٢) انظر : الراغب ، المفردات في غريب القرآن : (١٥٠) .

(٣) انظر : الشربيني ، السراج المنير : (٦٤٦/١) . وابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٣١٩/٩) .

(٤) انظر : ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٣١٩/٩) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

من كان قبل هذه الأمة ، ثم قال ﴿ 2 3 ﴾ أي نقلناكم من الشدة إلى الرخاء ومن البلاء إلى النعماء والآلاء حتى تشتغلوا بالشكر والطاعة ، فكيف يليق بكم أن تشتغلوا بالمنازعة والمخاصمة بسبب الأنفال »(١).

وإنما أخرت نعمة توفير الرزق بعد ذكر نعمة النصر وتوفير العَدد بعد الضعف والقلة ، لأن الأمن ووفرة العدد يجلبان سعة الرزق ووفرته، وقد نبههم الله تعالى بقوله:﴿ 2 3 ﴾ أنه بوجود الشكر يدوم أمر هذه الأمة ويكون في تصاعد ، وأن بعدم الشكر يزول تأييد الله لهم وتضعف قوتكم وشوكتهم ، ويكون أمرهم في تراجع(٢).

لما ذكر الله U بعض أسباب النصر والهزيمة أضاف سببا آخر من أسباب الهزيمة وهي الخيانة ، فحذر الله I المؤمنين من أن يظهروا الطاعة والاستجابة في ظاهر أمرهم ويبطنوا المعصية والخلاف في باطنه ، فقال تعالى : ﴿ 5 6 7 8 9 : ; < = > ? ﴾ ، فالخَوْن والخيانة : إبطال ونقضُ العهد في السر من دون إعلان بذلك النقض ، وهي ضد الوفاء ، فتشمل الخيانة كل معصية خفية ، فهي داخلة في ﴿8 9 ﴾ ، لأن الفعل في سياق النهي يعم (٣).

وقد ذكر علماء التفسير صورا كثيرة للخيانة ، إلا أن سياق هذه الآية وتناسقها الموضوعي مع المحور العام ومع بقية موضوعات السورة تشير إلى أن المراد هنا الخيانة في الجهاد في سبيل الله ، فالخيانة في الجهاد من أعظم الخيانات إذ أنها سبب للفشل والهزيمة ، فلو خان شخص واحد فقط وأدلى بمعلومات للأعداء لحلت الهزيمة والنكبة في جيش المجاهدين ، ومن ثم على المسلمين جميعا ، وتشمل الخيانة أيضا عدم طاعة ولي الأمر أو أمير الجيش إذا رأى المصلحة تقتضي مواجهة العدو أو عدم مواجهته ، كما حصل عن بعض الصحابة في بداية الأمر في غزوة بدر مما تحدثت عنه بداية السورة ، وكذلك ما يحصل من خيانة في الغنائم وقسمتها ، وأخذها من دون حق وهو ما يسمى بالغلول ، وهذا ما حامت حوله قضية الأنفال .

---

(١) الرازي ، مفاتيح الغيب : (١٢١/١٥) ، وفي هذا الذي ذكر الرازي يتبين لك تناسق وترابط موضوعات أول السورة بهذه الآية .

(٢) انظر : ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٣٢٠/٩-٣٢١) .

(٣) انظر : الراغب ، المفردات : (١٦٣) ؛ والزمخشري ، الكشاف : (٢٠٢/٢) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

قال الرازي : « نقول إنه تعالى أمرهم أن لا يخونوا الغنائم ، وجعل ذلك خيانة له ؛ لأنه خيانة لعطيته ، وخيانة لرسوله ؛ لأنه القيم بقسمها ، فمن خانها فقد خان الرسول ، وهذه الغنيمة قد جعلها الرسول أمانة في أيدي الغانمين ، وألزمهم أن لا يتناولوا لأنفسهم منها شيئاً ، فصارت وديعة ، والوديعة أمانة في يد المودع ، فمن خان منهم فيها فقد خان أمانة الناس ؛ إذ الخيانة ضد الأمانة»[١].

ولهذا فإن حفظ الأمانة وأداءها لها شأن عظيم في استقامة أحوال المسلمين ، ما ثبتوا عليها وتخلقوا بها، وهي دليل نزاهة النفس واعتدال أعمالها، وقد أمر الله U المؤمنين بأداء الأمانات، وحذر النبي r في كثير من الأحاديث من إضاعتها والتهاون بها ، وأشار إلى أن في إضاعتها انحلال أمر المسلمين .

وإنما أعيد فعل ﴿ > ﴾ ولم يُكتف بحرف العَطف ، الصالح للنيابة عن العامل في المعطوف ، للتنبيه على نوع آخر من الخيانة فإن خيانتهم الله ورسوله نقضُ الوفاءِ لهما بالطاعة والامتثال ، وخيانة الأمانة نقض الوفاء بأداء ما ائتمنوا عليه ، وأيضا فقد عدل عن ذكر المفعول الأصلي في قوله: ﴿ > = ﴾، إلى ذكر المفعول المتسع فيه ، لقصد تبشيع الخيانة بأنها نقض للأمانة ، فإن الأمانة وصف محمود مشهور بالحسن بين الناس ، فما يكون نقضاً له يكون قبيحاً فظيعاً ، ولأجل هذا لم يقل : وتخونوا الناسَ في أماناتهم فهذا حذف من الإيجاز ، وأيضا إنما أضيفت الأمانات إلى المخاطبين مبالغة في تفظيع الخيانة ، بأنها نقض لأمانة منسوبة إلى ناقضها[٢].

وقد ختمت هذه الآية الكريمة بقوله: ﴿ > ? ﴾ وهي جملة حال كاشفة من ضمير ﴿ 9 ﴾ والمقصود منها تشديد النهي، أو تشنيع المنهي عنه ؛ لأن النهي عن القبيح في حال معرفة المنهي أنه قبيح يكون أشد ، ولأن القبيح في حال علم فاعله بقبحه يكون أشنَعَ ، فالحال هنا بمنزلة الصفة الكاشفة ، وليس المراد تقييد النهي عن الخيانة بحالة العلم بها ، لأن ذلك قليل الجدوى ، فإن كل تكليف مشروط بالعلم وكون الخيانة قبيحة أمر معلوم[٣] .

(١) الرازي ، مفاتيح الغيب : (١٢٢/١٥) .
(٢) انظر : ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٣٢٣/٩) .
(٣) انظر : ابن عاشور ، المصدر السابق : (٣٢٤/٩) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

ولما ذكر الله U الخيانة وأنها من أعظم أسباب الهزيمة والخذلان ، عقب I على ذلك بيان بعض الأشياء التي تؤدي إلى الخيانة ، فقال تعالى : ﴿ A B C D E F G H I J ﴾ ، فجاء التحذير هنا أولا من الأموال في إشارة إلى الغنائم والأنفال التي تحدثت عنها بداية السورة ، فتقديمها هنا لأنها مظنة الحمل على الخيانة في هذا المقام ، وعطف الأولاد على الأموال لاستيفاء أقوى دواعي الخيانة ، فإن غرض جمهور الناس في جمع الأموال أن يتركوها لأبنائهم من بعدهم ، وأيضا فإن في حب الأولاد تكاسلا في أداء حق الجهاد ، وقد ثبت عن النبي r أنه قال : « الولد مجبنة مبخلة »(١).

وفي الإخبار عن كون الأموال والأولاد فتنة بطريق القصر لقصد المبالغة في إثبات أنهم فتنة ، وإنما جُعل نفس الأموال والأولاد فتنة لكثرة حدوث فتنة المرء من جراء أحوالهما ، مبالغة في التحذير من تلك الأحوال وما ينشأ عنها ، فكأن وجود الأموال والأولاد نفس الفتنة ، وختمت الآية الكريمة بقوله : ﴿ F G H I J ﴾ للإشارة إلى أن ما عند الله من الأجر على كف النفس عن المنهيات هو خير من المنافع الحاصلة عن اقتحام المناهي لأجل الأموال والأولاد (٢) .

ولما ذكر الله U بعضا من أسباب النصر والهزيمة ، أضاف أهم سبب يجمع ذلك كله ، وهي التقوى ، فقال تعالى : ﴿ L M N O P Q R S T U V W X Y [\ ] ^ ﴾ .

وقال ابن عاشور: «عقب التحذير من العصيان والتنبيه على سوءعواقبه، بالترغيب في التقوى وبيان حسن عاقبتها، وبالوعد بدوام النصر، واستقامة الأحوال ، إن هم داموا على التقوى»(٣).

وإنما جاء الشرط في الآية الكريمة ﴿O P Q﴾ لإفادة الدوام ، فإنهم كانوا متقين ، ولكنهم لما حُذروا من المخالفة والخيانة ناسب أن تفرض لهم الطاعة في مقابل ذلك(٤) .

---

(١) رواه أبو يعلى في مسنده : (٣٠٥/٢) ، برقم : (١٠٣٢) ، من حديث أبي سعيد ، قال الهيثمي : فيه عطية العوفي، وهو ضعيف . انظر : الهيثمي ، مجمع الزوائد : (١٥٥/٨) .

(٢) انظر : ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٣٢٥/٩) .

(٣) انظر : ابن عاشور ، المصدر السابق .

(٤) انظر : ابن عاشور ، المصدر السابق .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

وقد رتب الله U على التقوى الوعد بالنصر ومغفرة الذنوب وسعة الفضل ، فقال تعالى :

﴿ R S T U V W X Y [\ ] ^ ﴾ فالفرقان هو ما يفرق ويميز بين شيئين متشابهين ، وهو أبلغ من الفرق ؛ لأنه يستعمل في الفرق بين الحق والباطل[١]، ولعل مجيء لفظة الفرقان هنا فيه إشارة إلى النصر الذي تم لهم في اليوم الذي سمي بيوم الفرقان ، وهو يوم بدر .

وقد ذكر العلماء معاني كثيرة للفرقان المراد به هنا إلا أن أشمل ما قرأته في ذلك وما يتناسق مع موضوعات السورة هو ما ذكره ابن كثير وابن عاشور ، حيث قال ابن كثير : « إن من اتقى الله بفعل أوامره وترك زواجره ، وفق لمعرفة الحق من الباطل ، فكان ذلك سبب نصره ونجاته ومخرجه من أمور الدنيا ، وسعادته يوم القيامة ، وتكفير ذنوبه وغفرها»[٢] .

وقال ابن عاشور : « إن المراد منه كل ما فيه مخرج لهم ونجاة من التباس الأحوال وارتباك الأمور وانبهام المقاصد ، فيؤول إلى استقامة أحوال الحياة ، حتى يكونوا مطمئني البالِ ، منشرحي الخاطر ، وذلك يستدعي أن يكونوا : منصورين ، غالبين ، بُصراء بالأمور، كَمَلة الأخلاق ، سائرين في طريق الحق والرشد ، وذلك هو ملاك استقامة الأمم ، فاختيار الفرقان هنا، لأنه اللفظ الذي لا يؤدي غيرُه مُؤداه في هذا الغرض وذلك من تَمام الفصاحة »[٣].

وفي الجمع هنا بين تكفير السيئات ومغفرة الذنوب ، قال بعض العلماء : إن السيئات هي الصغائر التي عبر عنها باللمم، وبالمغفرة مغفرة الكبائر بالتوبة ، وقيل: التكفير الستر في الدنيا، والغفران عدم المؤاخذة بها في الآخرة، إلا أن المقصود من الجمع بينهما هنا هو الحث على التقوى وتحقق فائِدتها والتعريض بالتحذير من التفريط فيها، فلا يحصل التكفير ولا المغفرة بأي احتمال[٤].

وقد ختمت الآية الكريمة بقوله تعالى : ﴿ [\ ] ^ ﴾ وفي ذلك تعليل وتذييل وتكميل لما قبله ، وتنبيه على أن ما وعده الله تعالى لهم على التقوى تفضل منه وإحسان لا أنه مما يوجبه التقوى ، وإشارة إلى حصول منافع أخرى لهم من جراء التقوى [٥].

---

(١) انظر : الراغب ، المفردات في غريب القرآن : (٣٧٨) .
(٢) ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم : (٤٣/٤) .
(٣) انظر : ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٣٢٦/٩) .
(٤) انظر : ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٣٢٦/٩) .
(٥) انظر : أبو السعود ، إرشاد العقل السليم : (١٨/٤) ؛ وابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٣٢٦/٩) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

ولما ذكر الله U فيما تقدم السبب الإجمالي لهزيمة المشركين في غزوة بدر حيث قال تعالى هناك : ﴿ r s t u v ﴾ ، شرع يذكر تفاصيل الأسباب التي أدت بهم إلى الهزيمة والخذلان ، فبدأ بذكر فتنهم النبي r ومكرهم به ، فقال تعالى : ﴿ ` a b c d e f g h i j k l m o p q ﴾ ، ففي هذه الآية أيضا تذكير لما قامت به قريش من المكر بالنبي r حين كان بمكة ليشكر نعمة الله في خلاصه من مكرهم واستيلائه عليهم ، فهي بهذا معطوفة على قصة من قصص تأييد الله رسوله عليه الصلاة والسلام والمؤمنين ، وتعداد لنعم النصر التي أنعم الله بها على رسوله r والمؤمنين، في أوقات وأزمان لم يكن يظن أنهم سيجدون منها مخلصاً ، كما لم يكونوا يظنون كسب النصر لصالحهم في غزوة بدر .

قال الرازي: « اعلم أنه تعالى لما ذكر المؤمنين نعمه عليهم بقوله :﴿ ! " # $ ﴾ فكذلك ذكر رسوله نعمه عليه ، وهو دفع كيد المشركين ومكر الماكرين عنه »[1] .

وفي قوله تعالى : ﴿ ` a b ﴾ المكر صرف الغير عما يقصده بحيلة ، وذلك ضربان : مكر محمود، وذلك أن يتحرى بذلك فعل جميل وعلى ذلك قال: ﴿ o p q ﴾ ومذموم وهو أن يتحرى به فعل قبيح ، قال: ﴿ ` a b c d ﴾[2] ، فالإتيان بالمضارع في موضع الماضي الذي هو الغالب مع ﴿ ` ﴾ استحضار للحالة التي دبروا فيها المكر،ومعنى:﴿ e ﴾ليحبسوك ويوثقوك،والتعبير بالمضارع في ﴿ e ﴾، و﴿ g ﴾، و﴿ i ﴾ ، لأن تلك الأفعال مستقبلة بالنسبة لفعل المكر إذ غاية مكرهم تحصيل واحد من هذه الأفعال ، وفي هذه الأفعال إشارة إلى تردد قريش وسادتهم في أمر النبي r حين اجتمعوا للتشاور في ذلك بدار الندوة في الأيام الأخيرة قُبيل هجرته[3] .

---

(١) انظر : الرازي ، مفاتيح الغيب : (١٥/١٢٤) .

(٢) انظر : الراغب ، المفردات في غريب القرآن : (٤٧١) .

(٣) هذه القصة رواها أبو نعيم في دلائل النبوة : (٦٣-٦٤) ، والبيهقي أيضا في دلائل النبوة : (٢/٤٦٦) ، والطبري في تفسيره : (٦/٢٥١) ، وهذه القصة لم أجد من صحح سندها من أهل العلم إلا أنها مشهورة في كتب التفسير والسير والتاريخ ، ولكن الشهرة لا تغني عن الصحة ، وفي طرق هذه القصة علل كثيرة ، منها : جهالة شيخ محمد ابن إسحاق ، وضعف شيخ الطبري ، وأيضا الواقدي متروك الحديث . انظر : عرجون ، محمد الصادق ، محمد رسول الله منهج ورسالة، بحث وتحقيق ، الطبعة الأولى ، دمشق : دار القلم، ١٤٠٥هـ ، (٢/٤٩٨) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

وقد ختمت هذه الآية الكريمة تعقيبا على مكرهم بقوله تعالى : ﴿ o p q ﴾ ، وكما تقدم فإن مكر الله مكر محمود ، إلا أنه جاء في مقابل مكرهم ، قال الرازي : « فإن قيل كيف قال: ﴿ o p q ﴾ ولا خير في مكرهم ، قلنا فيه وجوه: **أحدها** : أن يكون المراد أقوى الماكرين فوضع خَيْرٌ موضع أقوى وأشد لينبه بذلك على أن كل مكر فهو يبطل في مقابلة فعل الله تعالى . **وثانيها** : أن يكون المراد خير الماكرين لو قدر في مكرهم ما يكون خيراً وحسناً ، **وثالثها** : أن يكون المراد من قوله ﴿ p q ﴾ ليس هو التفضيل بل المراد أنه في نفسه خير كما يقال : الثريد خير من الله تعالى »[(١)].

ولما ذكرت الآية السابقة سببا تفصيلا من أسباب هزيمة الكفار وهو مكرهم على صاحب الرسالة عقب على ذلك بسبب تفصيلي آخر من أسباب هزيمتهم وهو مكرهم وطعنهم على ما جاء به الرسول **r** من آيات الله تعالى فقال : ﴿ s t u v w x y z { | } ~ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾ .

قال الرازي : « اعلم أنه تعالى لما حكى مكرهم في ذات محمد ، حكى مكرهم في دين محمد »[(٢)].

ومعنى قوله : ﴿ x y ﴾ أي : قد فهمنا ما تحتوي عليه هذه الآيات من القصص ، ولما لم يتأثر عن سماعهم الإذعان ، تشوف السامع إلى علة إعراضهم فقال : ﴿ z { | } ~ ﴾ أي: مثل هذا الذي سمعناه ؛ لأنها ما هي إلا قصص وأخبار الأولين من بني آدم، سطروا فيها علومهم وأخبارهم فهو من جنس كلامنا وقائله من جنسنا[(٣)]، وهذا القول من هؤلاء الكفار في غاية المكابرة ، وفرط العناد ، ومن عجيب البهتان ، إذ لو استطاعوا ذلك لفعلوه وإلا فما منعهم لو كانوا مستطيعين ، وقرّعهم بالعجز عشر سنين ، ثم قارعهم بالسيف، فلم يعارضوا بسورة مع أنفتهم وفرط استنكافهم أن يغلبوا خصوصاً في باب البيان [(٤)]، وإنما

---

(١) انظر : الرازي ، مفاتيح الغيب : (١٥/١٢٥) .
(٢) انظر : الرازي ، مفاتيح الغيب : (١٥/١٢٥) .
(٣) انظر : البقاعي ، نظم الدرر : (٣/٢١٠) .
(٤) انظر : الشربيني ، السراج المنير : (١/٦٤٦) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

اهتم الكفار بقصص وأساطير القرآن ولم يهتموا بغير ذلك من الآداب والحقائق والأحكام ، لأن هذه الأمور مما لم يتبينوا مغزاها ، ولم يفهموها ، فلذلك قال الله تعالى عنهم في هذه السورة ﴿ j k l m n o ﴾ أي : لا يفقهون ما سمعوا ، وإنما قال الكفار: ﴿z { | } ~ ﴾ للإيهام بأنهم ترفعوا عن معارضته ، وأنهم لو شاءوا لنقلوا من أساطير الأولين إلى العربية ما يوازي قصص القرآن وهذه وقاحة ومكابرة كما تقدم ذكره ، والدليل على ذلك أنهم لما قالوا : ﴿z { | } ~ ﴾ ادعوا القدرة على قول مثله في الماضي وفي المستقبل إغراقاً في الوقاحة ، لأن هذا التركيب قائم مقام شرطين وجزاءين[(١)].

ولما ذكرت الآية السابقة إنكار المشركين لإعجاز القرآن الكريم البياني والخبري، وطعنهم فيه، ومكرهم به، بالغوا في إنكاره ورده ، وذلك بطلب العذاب من الله تعالى إن كان هو من عنده، ولم يكتفوا بالإنكار السابق مبالغة في المكابرة والعناد ، فقال تعالى : ﴿وَإِذْ قَالُواْ © إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا ´ µ ¶ ¸ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ وهذا الكلام الصادر من هؤلاء الكفار جار مجرى القَسَم ، والتخييل إلى الناس أنهم على القطع واليقين من أن ما جاء به محمد r من الآيات باطل وإلا لما دعوا بهذا الدعاء ، وكانوا يحسبون أن دعوة المرء على نفسه مستجابة ، ومعنى كلامهم : إن هذا القرآن ليس حقاً من عندك ، فإن كان حقاً فأصبنا بالعذاب ، وهذا يقتضي أنهم قد جزموا بأنه ليس بحق ، وليسَ الشرط على ظاهره حتى يفيد ترددهم في كونه حقاً ، ولكنه كناية عن اليمين وقد كانوا لجهلهم وضلالهم يحسبون أن الله يتصدى لمخاطرتهم ، فإذا سألوه أن يمطر عليهم حجارة إن كان القرآن حقاً منه أمطر عليهم الحجارة وأرادوا أن يظهروا لقومهم صحة جزمهم بعدم حقية القرآن فأعلنوا الدعاء على أنفسهم بأن يصيبهم عذاب عاجل إن كان القرآن حقاً من الله ليستدلوا بعدم نزول العذاب على أن القرآن ليس من عند الله [(٢)].

وإنما علق الشرط بحرف ﴿إن﴾ لأن الأصل فيها عدم اليقين بوقوع الشرط ، فهم غير جازمين بأن القرآن حق ومنزل من الله بل هم موقنون بأنه غير حق واليقين بأنه غير حق أخص

---

(١) انظر : ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (١٢٥/٩) .

(٢) انظر : البقاعي ، نظم الدرر : (٢١١/٣) ؛ وابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٣٣٢/٩).

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

من عدم اليقين بأنه حق ، وضمير ﴿هُوَ﴾ ضميرُ فصل فهو يقتضي تقوي الخبر أي : إن كان هذا حقاً ومن عندك بلا شك ، وتعريف المسند بلام الجنس يقتضي الحصر فاجتمع في التركيب تقو وحصر ، وقوله : ﴿ µ ¶ ﴾ وصف لحجارة أي حجارةَ مخلوقة لعذاب مَن تصيبه لأن الشأن أن مطر السماء لا يكون بحجارة (١).

قال أبو حيان : « والذي يظهر لي أن حكمة قولهم ﴿ µ ¶ ﴾ هي مقابلتهم مجيء الأمطار من الجهة التي ذكر r أنه يأتيه الوحي من جهتها ، أي : إنك تذكر أنه يأتيك الوحي من السماء ، فأتنا بعذاب من الجهة التي يأتيك منها الوحي ، إذ كان يحسن أن يعبّر عن إرسال الحجارة عليهم من غير جهة السماء بقولهم : فأمطر علينا حجارة ، وقالوا ذلك على سبيل الاستبعاد والاعتقاد أن ما أتي به ليس بحق » (٢).

وقال البقاعي : « ولعل تقييده بقوله : ﴿ µ ¶ ﴾ مع أن الأمطار لا يكون إلا منها ؛ لإزالة وهم من يتوهم أن الإمطار مجاز عن مطلق الرجم وأنه إنما ذكر لبيان أن الحجارة المرجوم بها في الكثرة مثل المطر » (٣).

ولما ذكروا عذاباً خاصاً وهو مطر الحجارة عمموا فقالوا : ﴿ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ أي غير الحجارة ويريدون بذلك كله عذاب الدنيا لأنهم لا يؤمنون بالآخرة ، ووصفوا العذاب بالأليم زيادة في تحقيق يقينهم بأن المحلوف عليه بهذا الدعاء ليس منزلاً من عند الله فلذلك عرضوا أنفسهم لخَطر عظيم على تقدير أن يكون القرآن حقاً ومنزلاً من عند الله .

ولما أنكر هؤلاء المشركون كون القرآن من عند الله ، ودعوا على أنفسهم بالهلاك والدمار وحلول العذاب الأليم عليهم من عند الله ، فعرضوا بذلك أنفسهم لخطر عظيم ، ومقت كبير ، لأن الله U ناصر نبيه وكتابه ومعل دينه ، بين الله U في الآيتين التي بعدها سبب وحكمة تأخر العذاب عنهم حين قالوا ما قالوا، وأيقظ النفوس إلى حلوله بهم وهم لا يشعرون، وهاتان

(١) انظر : ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٣٣٣/٩).
(٢) انظر : أبو حيان ، البحر المحيط : (٤٨٢/٤).
(٣) انظر : البقاعي ، نظم الدرر : (٢١١/٣).

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

الآيتان متناسقتان مع آيات موضوع أهم أحداث غزوة بدر ، لأنها نزلت بعد ذاق الكفار طعم العذاب والهزيمة والخدلان إذ سلط الله عباده المؤمنين عليهم ، فأذاقوهم طعم العذاب بالأسر والهزيمة ، فقال تعالى : « وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ﴿٣٣﴾ ! " # $ % & ' ( ) * + , - . / 0 1 2 3 4 5 6 7 ﴾ ، فالآيتان الكريمتان فيها كناية عن استحقاق المشركين العذاب ، والأولى فيها إعلام بكرامة رسول الله r عند ربه ، لأن وجوده r في قوم أبلغ من نفي العذاب عنهم أو تأخيره ، فجَعل وجوده بين ظهراني المشركين مع استحقاقهم العقاب سبباً مانعا من نزول العذاب عليهم، وإنما توجه الخطاب بهذا إلى النبي r واجتلاب ضمير خطابه بقوله : ﴿وَأَنتَ فِيهِمۡ﴾ لطيفة من التكرمة إذ لم يقل : (وما كان الله ليعذبهم وفيهم رسوله)[(١)].

وأما قوله: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ﴾ فقد أشكل على المفسرين نظمها، وحمل ذلك بعضهم على تفكيك الضمائر فجعل ضمائر الغيبة من ﴿ $ ﴾، و﴿فِيهِمۡ﴾ و ﴿مُعَذِّبَهُمۡ﴾ للمشركين، وجعل ضمير﴿وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾للمسلمين، فيكون عائداً إلى مفهوم من الكلام يدل عليه﴿يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾ فإنه لا يستغفر الله إلاّ المسلمون وعلى تأويل الإسناد فإنه إسناد الاستغفار لمن حل بينهم من المسلمين، بناء على أن المشركين لا يستغفرون الله من الشرك .

قال الرازي في هذه الآية : « وفي تفسيره وجوه : **الأول** : وما كان الله معذب هؤلاء الكفار وفيهم مؤمنون يستغفرون فاللفظ وإن كان عاماً إلا أن المراد بعضهم . **الثاني** : وما كان الله معذب هؤلاء الكفار وفي علم الله أنه يكون لهم أولاد يؤمنون بالله ويستغفرونه ، فوصفوا بصفة أولادهم وذراريهم . **الثالث** : ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ﴾ أي : لو استغفروا لم يعذبوا فكان المطلوب من ذكر هذا الكلام استدعاء الاستغفار منهم ، أي : لو اشتغلوا بالاستغفار لما عذبهم الله ، ولهذا ذهب بعضهم إلى أن الاستغفار ههنا بمعنى الإسلام »[(٢)].

---

(١) انظر : البقاعي ، نظم الدرر : (٢١٢/٣) ؛ وابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٣٣٤/٩).

(٢) الرازي ، مفاتيح الغيب : (١٢٧/١٥) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

وهذه الآية الكريمة دلت على أن الاستغفار أمان وسلامة من العذاب ، وفضيلة وبركة ، إذ فيها إثبات بأن المسلمين أمنوا من العذاب الذي عذب الله به الأمم ؛ لأنهم استغفروا من الشرك بإتباعهم الإسلام ، ولهذا ختمت الآية الكريمة بقوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ ففي ذلك تعريض أيضا بأنه يوشك أن يعذبهم إن لم يستغفروا[(١)].

وقد تقدمت رواية الترمذي عن أبي موسى الأشعري أنه قال : قال رسول الله r : « أنزل الله عليّ أمانين لأمتي ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ فإذا مَضَيْت تركتُ فيهم الاستغفار إلى يوم القيامة » [(٢)].

ولما ذكر الله U استحقاق الكفار للعذاب بالكناية ارتقى في بيان أنهم أحقاء بتعذيب الله إياهم ، بياناً بالصراحة ، فقال تعالى : ﴿ ! " # $ % & ' ( ) * + , - . / 0 1 2 3 4 5 6 7 ﴾

فالاستفهام في هذه الآية استفهام إنكاري تقريري ، والتقدير : ما الذي ثبت لهم وأي حظ لهم لأن ينتفي عنهم عذاب الله وهم متصفون بهذه الصفة المقتضية للعذاب ، أي : لم يثبت لهم شيء ، فلذا فهو واقع بهم لا محالة وإن تأخر مدة إبانه وأبطأنا عنهم أوانه وقوعاً ينسيهم ما نالوه من اللذات ، وإن عظم عندهم شأنها وامتد طويلاً زمانها [(٣)].

والصد كما قال ابن فارس : « الصاد والدال معظم بابِه يؤول إلى إعراض وعُدول ، فالصَّدُّ: الإعراض. يقال صَدَّ يصُدُّ، وهو مَيل إلى أحد الجانبين»[(٤)]. ومفعول ﴿ ' ﴾ محذوف دل عليه السياق ، أي يصدون المؤمنين عن المسجد الحرام بقرينة قوله : ﴿ / 0 1 2 ﴾ ، وإنما كان الصد عن المسجد الحرام جريمة عظيمة يستحق فاعلوه عذاب الدنيا قبيل عذاب الآخرة ، لأنه يؤول إلى الصد عن التوحيد لأن ذلك المسجد بناه مُؤسسه ليكون

---

(١) انظر : الرازي ، مفاتيح الغيب : (١٢٧/١٥) ؛ وابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٣٣٥/٩).

(٢) تقدم تخريجه في الفصل الثاني (موضوعات سورة الأنفال وتناسقها) ، في الصفحة : (١٣٧) .

(٣) انظر:أبو حيان ، البحر المحيط : (٤٨٤/٤)، والبقاعي، نظم الدرر: (٢١٣/٣)، وابن عاشور، التحرير: (٣٣٥/٩).

(٤) ابن فارس ، معجم مقاييس اللغة : (٢٨٢/٣) ؛ وانظر : لسان العرب : (٢٤٠٩/٤) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

علَماً على توحيد الله ومأوى للموحدين ، فصدهم المسلمين عنه ، لأنهم آمنوا بإله واحد ، صرف له عن كونه علَماً على التوحيد ، وهذا الصد عن المسجد الحرام يشمل الطواف والصلاة حوله ، والإقامة فيه ، والحج والعمرة ، وقد تظاهرت الأخبار كيف أنهم صدوا المؤمنين عنه عام الحديبية وكتبوه في الوثيقة(١).

ولما بين I ظلمهم وعدوانهم في الصد عن المسجد الحرام ، أظهر شدة هذا الظلم وهذا العدوان بقوله : ﴿ + , - ﴾ لأن مَن صدّ عما هو له من الخير كان ظالماً ، ومَن صدّ عما ليس من حقه كان أشدّ ظلماً ، ولما نفى الله U ولايته على الكفار عين أولياءه الحق، فقال تعالى: ﴿ / 0 1 2 ﴾ وإنما لم يُكتف بجملة القصر مع اقتضائه أن غير المتقين ليسوا أولياء المسجد الحرام ، لقصد التصريح بظلم المشركين في صدهم المسلمين عن المسجد الحرام بأنهم لا ولاية لهم عليه ، فجملة : ﴿ + , - ﴾ أشد تعلقاً بجملة : ﴿ & ' ( ) * ﴾ من جملة : ﴿ / 0 1 2 ﴾ وكانت جملة: ﴿ / 0 1 2 ﴾ كالدليل ، فانتظم الاستدلال أبدع انتظام ، وتناسقت الموضوعات والمفردات والجمل أروع تناسق وأجمل تناسب (٢).

وإنما نفَى العلم عن أكثرهم دون أن يقال: (ولكنهم لا يعلمون) فاقتضى أن منهم من يعلم أنهم ليسوا أولياء المسجد الحرام، وهم من أيقنوا بصدق الرسول r واستفاقوا من غفلتهم القديمة، ولكن حملهم على المشايعة للصادين عن المسجد الحرام ، العنادُ وطلبُ الرئاسة ، وموافقة الدهماء على ضلالهم ، وهؤلاء هم عقلاء أهل مكة ومن تهيأ للإيمان منهم مثل العباسِ وعَقيل وأبي سفيان وغيرهم ممن استبقاهم الله للإسلام فكانوا من نصرائه من بعد نزول هذه الآية (٣).

ولما بينت الآيات السابقة أسباب استحقاق المشركين للهزيمة والعذاب أضاف سببا آخر من تلك الأسباب ، فقال تعالى : ﴿ 8 9 : ; < = > ? A B C D E ﴾.

---

(١) انظر : الرازي ، مفاتيح الغيب : (١٢٧/١٥) ، وابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٣٣٦/٩) .

(٢) انظر : ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٣٣٧/٩) .

(٣) انظر : ابن عاشور ، المصدر السابق : (٣٣٨/٩) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

قال الرازي : « اعلم أنه تعالى لما قال في حق الكفار أنهم ما كانوا أولياء البيت الحرام وقال : ﴿ / 0 1 2 ﴾ بين بعده ما به خرجوا من أن يكونوا أولياء البيت وهو أن صلاتهم عند البيت وتقربهم وعبادتهم إنما كان بالمكاء والتصدية » [١].

قال ابن عاشور : « فمضمونها سبب ثان لاستحقاقهم العذاب ، وموقعها عقب جملة : ﴿ + , - ﴾ يجعلها كالدليل المقرر لانتفاء ولايتهم للمسجد الحرام ، لأن من كان يفعل مثل هذا عند مَسجد الله لم يكن من المتقين ، فكان حقيقاً بسلب ولاية المسجد عنه ، فعطفت الجملة باعتبارها سبباً للعذاب ، ولو فصلت باعتبارها مقررة لسلب أهلية الولاية عنهم لصحَ ذلك ، ولكن كان الاعتبار الأول أرجح ؛ لأن العطف أدل عليه مع كون موقعها يفيد الاعتبار الثاني » [٢].

ومعنى قوله : ﴿ < ? ﴾ المكاء قال ابن فارس : « (مكا) الميم والكاف والحرف المعتل أصلٌ صحيح يدلُّ على معان ثلاثة : أحدها شيءٌ من الأصوات ، والآخر خشونة في الشيء، والآخِر ضربٌ من العَسَل ، فالأوّل مكا يمكو صَفَر في يَدِهِ وقد جَمَعها ، مُكَاءً » [٣]. والتصدية قال ابن منظور : « من صَدَّ يَصِدَّ مثل ضَجَّ يَضِجُّ ومنه قوله U: ﴿ 8 9 : ; < = > ? ﴾ فالمكاءُ : الصَّفِير ، والتَّصْدية : التصفيق ، وقيل : للتَّصْفِيق تَصْديَةٌ ؛ لأَن اليدين تتصافقان فيقابل صَفْقُ هذه صَفْقَ الأُخرى ، وصدُّ هذه صَدَّ الأُخرى ، وهما وَجْهاها »[٤].

وقال البقاعي : « كان أهل الجاهلية يطوفون عراة ويصفرون بأفواههم ويصفقون بأيديهم مقصورة ، فيكون تصويتهم ذلك يشبه الذي رجعّ الصوت في المكان الخالي ، فهو كناية عن أن صلاتهم لا معنى لها » [٥].

---

(١) الرازي ، مفاتيح الغيب : (١٢٨/١٥) .
(٢) انظر : ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٣٣٨/٩) .
(٣) ابن فارس ، معجم مقاييس اللغة : (٣٤٤/٥) .
(٤) ابن منظور ، لسان العرب : (٢٤٥/٣) .
(٥) البقاعي ، نظم الدرر : (٢١٤/٣) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

وإنما سمي هذا المكاء والتصدية صلاة مشاكلة تقديرية إذ لا يعرف للمشركين صلاة ، وإنما كان من جملة طرائق صدهم المسلمين تشغيبهم عليهم عند الصلاة وقراءة القرآن، وسخريتهم بهم يحاكون قراءة المسلمين وصلاتهم بالمكاء والتصدية، ويؤيد هذا قوله تعالى:﴿ A B C D E ﴾ لأن شأن التفريع أن يكون جزاء على العمل المحكي قبله ، والمكاء والتصدية لا يعدان كفراً إلاّ إذا كانا صادرين للسخرية بالنبي r وبالدين، وأما لو أريد مجرد لهو عملوه في المسجد الحرام فليس بمقتض كونه كفراً إلاّ على تأويله بأثر من آثار الكفر [(١)].

وقد ختمت هذه الآية الكريمة بقوله تعالى : ﴿ A B C D E ﴾

قال البقاعي: « ولما كان مساق الكلام لبيان استحقاقهم العذاب ، وأنه لا مانع لهم منه ، وكان قد أوقع بهم في هذه الغزوة مباديه ، وكانت المواجه بالتعنيف وقت إيقاع مالا يطاق بالعدو إنكاء، قال مسبباً عن قبيح ما كانوا يرتكبونه : ﴿ A B ..﴾»[(٢)]، فالأمر هنا للتوبيخ والتغليظ ، وقد دل ذلك على عذاب وَاقع بهم ، وذلك هو العذاب الذي حل بهم يوم بدر ، من قتل وأسر[(٣)].

ولما ذكرت في الآيات السابقة أسباب استحقاق المشركين للهزيمة والعذاب وكانت تلك الأسباب إما أسبابا اعتقادية ، وإما أسبابا بدنية ، ذكر عقبها أسبابا مالية وهو إنفاقهم الأموال للصد عن سبيل الله فقال تعالى:﴿ G H I J K L M N O Q R S T U V W Y Z [\ ] ﴾.

قال الرازي : « اعلم أنه تعالى لما شرح أحوال هؤلاء الكفار في الطاعات البدنية أتبعها بشرح أحوالهم في الطاعات المالية »[(٤)].

وأيضا لما ذكر الله عز وجل صد المشركين عن المسجد الحرام الموجب لتعذيبهم بأقوالهم وأفعالهم ، عقب بذكر محاولتهم استئصال المسلمين وصدهم عن الإسلام بأموالهم .

---

(١) ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٣٣٩/٩) .

(٢) البقاعي ، نظم الدرر : (٢١٤/٣) .

(٣) ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٣٣٩/٩) .

(٤) الرازي ، مفاتيح الغيب : (١٢٩/١٥) ،

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

وإنما جاء الفعل بصيغة المضارع ﴿ J ﴾ مع أنه قد مضى الإنفاق ووقع في غزوة بدر للإشارة إلى أن ذلك دأبهم ، وأن الإنفاق مستمر لإعداد العُدد لغزو المسلمين ، فإنفاقهم حصل في الماضي ويحصل في الحال والاستقبال ، فالتعبير عن الإنفاق بصيغة المضارع لاستحضار حالة الإنفاق وأنها حالة عجيبة في وفرة النفقات ، وأشعرت لام التعليل بأن الإنفاق مستمر لأنه منوط بعلة ملازمة لنفوسهم وهي بغض الإسلام وصدهم الناس عنه ، وصرح بالأموال ولم يكتف بالإنفاق فقط للإشارة إلى أن الأموال أعز الأشياء عليهم فهم ينفقون أعز الأشياء إليهم للصد عن الإسلام ، وأيضا فإن في قوله تعالى : ﴿ K ﴾ جمع بالإضافة وهو من صيغ العموم ، فكأنه قيل ينفقون أموالهم كلها مبالغة ، وإلاّ فإنهم ينفقون بعض أموالهم [١].

قال البيضاوي في بيان تكرار لفظة الإنفاق في﴿ J ﴾ وفي ﴿ Q ﴾ : «ولعل الأول : إخبار عن إنفاقهم في تلك الحال وهو إنفاق بدر ، والثاني : إخبار عن إنفاقهم فيما يستقبل وهو أحد ، ويحتمل أن يراد بهما واحد على أن مساق الأول لبيان غرض الإنفاق ومساق الثاني لبيان عاقبته وأنه لم يقع بعد» [٢].

وهذا الذي ذكره البيضاوي يشير إلى أن سلامة أموال الكفار التي كانت في العير سيسخرونها للإنفاق والصد عن سبيل الله ، وأنهم بدل أن يشكروا الله U على سلامتها سيكررون فعلتهم السابقة فيما بعد غزوة بدر للإنفاق والصد عن سبيل الله .

ومعنى قوله تعالى : ﴿R S T U ﴾ أي : وبعد ذلك تكون تلك الأموال التي ينفقونها حسرة عليهم ، وإنما أسندت الحسرة إلى الأموال لأنها سبب الحسرة بإنفاقها ، ثم إن الإخبار عنها بنفس الحسرة مبالغة ، لأن الأموال سبب التَحَسر لا سبب الحسرة نفسها ، وهذا إنذار بأنهم لا يحصلون من إنفاقهم على طائِل فيما أنفقوا لأجله ، لأن المنفق إنما يتحسر ويندم إذا لم يحصُل له المقصود من إنفاقه [٣].

---

(١) انظر : ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٣٤٠/٩) .
(٢) البيضاوي ، أنوار التنزيل وأسرار التأويل : (١٠٦/١) .
(٣) ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٣٤٠/٩-٣٤١) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

قال الرازي : « اعلم أن المقصود من هذا الكلام أنهم لا يستفيدون من بذلهم أموالهم في تلك الإنفاقات إلا الحسرة والخيبة في الدنيا والعذاب الشديد في الآخرة وذلك يوجب الزجر العظيم عن ذلك الإنفاق » (١).

وبعد أن ذكر الله U أن هؤلاء الكفار لا يحصلون من إنفاقهم على طائل ، توعدهم بأنهم سيغلبهم المسلمون بعد أن غلبوهم أيضاً يومَ بدر ، فقال تعالى : ﴿ V W ﴾ وفي ذلك ارتقاء في الإنذار بخيبتهم وخذلانهم ، وإسناد الفعل إلى المجهول لكون فاعل الفعل معلوماً بالسياق فإن أهل مكة ما كانوا يقاتلون غير المسلمين (٢).

ولما بين الله U عاقبة الكافرين في الدنيا من حسرتهم وكونهم مغلوبين ختم الله U هذه الآية بقوله : ﴿ Y Z [\ ] ﴾ وفي ذلك بيان وإخبار بما يؤول إليه حال الكفار في الآخرة ، وقد كان مقتضى الظاهر أن يقال : (وإلى جهنم يحشرون) ، فعدل عن الإضمار هنا إلى الإظهار تخريجاً على خلاف مقتضى الظاهر ، للإفصاح عن التشنيع بهم في هذا الإنذار حتى يعاد استحضار وصفهم بالكفر بأصرح عبارة ، وأيضا لأنه كان فيهم من أسلم ، فذكر أن الذين بقوا على الكفر يكونون كذلك ، وإنما عرّفوا بالموصولية هنا إيماء إلى أن علة استحقاقهم الأمرين في الدنيا والآخرة هو وصف الكفر ، فيعلم أن هذا يحصل لمن لم يقلعوا عن هذا الوصف قبل حلول الأمرين بهم (٣).

ولما ذكر الله U عاقبة الكفار في الدنيا والآخرة ، بين حكمة ذلك وعلته وأنه ليتميز الفريق الخبيث من الناس من الفريق الطيب، فقال تعالى:﴿ _ ` a b c d e f g h i j k l m o p q ﴾(٤).

ومعنى الخبيث : الشيء الموصوف بالخُبث ، وهو : ما يكره رداءة وخساسة محسوسا كان أو معقولا ، وأصله الرديء ، الجاري مجرى خبث الحديد ، وذلك يتناول الباطل في الاعتقاد والكذب في المقال والقبيح في الفعال (٥).

---

(١) الرازي ، مفاتيح الغيب : (١٢٩/١٥) .
(٢) انظر : ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٣٤١/٩) .
(٣) انظر : الرازي ، مفاتيح الغيب : (١٢٩/١٥) ؛ وابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٣٤٢/٩) .
(٤) انظر : أبو حيان ، البحر المحيط : (٤٨٨/٤) ؛ والبقاعي ، نظم الدرر : (٢١٦/٣) .
(٥) انظر : الراغب ، المفردات : (١٤١) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

وقد ذكر العلماء أقوالا عديدة في المراد بتمييز الخبيث من الطيب هنا ، وذلك لصلاح هذين الوصف على الآدميين والأموال ، فقيل : تمييز أهل الشقاوة من أهل السعادة والكافر من المؤمن ، وقيل : الخبيث ما أُنفق في المعاصي ، والطيب ما أنفق في الطاعات ، وقيل : المال الحرام من المال الحلال ، وقيل: ما لم تؤدّ زكاته من الذي أُدِّيت زكاته ، وقيل : هو عامّ في الأعمال السيئة ، قال أبو حيان : « والذي يظهر من هذه الأقوال هو الأول ، وهو أن يكون المراد بالخبيث الكفار ، وبالطيب المؤمنون»(١).

ولما بين I علة وحكمة حشر الكافرين إلى جهنم وهو تمييزهم عن المؤمنين أضاف إليه علة وحكمة أخرى وهو جَعْل الخبيث بعضه على بعض ، فقال تعالى : ﴿ d e f g h ﴾ والمقصود بجمع الخبيث وإن اختلفت أصنافه في مجمع واحد ، لزيادة تمييزه عن الطيب ، ولتشهير من كانوا يُسرون الكفر ويظهرون الإيمان ، وفي جمعه بهذه الكيفية تذليل لهم وإيلام ، إذ يجعل بعضهم على بعض حتى يصيروا رُكاماً ، وفي ذلك أيضا بيان لكثرتها (٢).

وقد ختمت هذه الآية الكريمة بقوله تعالى : ﴿ o p q ﴾ وذلك لأنه لما كان تغلب الإنسان في ماله وتصرفه فيه يرجو بذلك حصول الربح له أخبر تعالى في خاتمة الآية أن هؤلاء هم الذين خسروا في إنفاقهم وأخفقت صفقتهم حيث بذل أعزّ ما عنده في مقابلة عذاب الله ولا خسران أعظم من هذا ، وصيغة القصر في قوله : ﴿ p q ﴾ تدل على المبالغة في اتصافهم بالخسران ، وكأنهم انفردوا بالخسران من بين الناس (٣).

ولما توعد الله U في الآيات السابقة المشركين والكفار بالخسران والعذاب في الدنيا والآخرة نتيجة بغضهم وعداوتهم للإسلام وأهله ، عقب على ذلك بترغيبهم على الدخول في الإسلام، وغفران ذنوبهم التي عملوها قبل الإسلام ، فقال تعالى : ﴿ s t u v w x y z { | } ~ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ .

---

(١) انظر : أبو حيان ، البحر المحيط : (٤/٤٨٨) .

(٢) انظر:أبو حيان،البحر المحيط:(٤/٤٨٨)؛ والبقاعي، نظم الدرر:(٣/٢١٦)؛وابن عاشور،التحرير والتنوير:(٩/٣٤٣).

(٣)انظر:أبو حيان،البحر المحيط:(٤/٤٨٨)؛ والبقاعي، نظم الدرر:(٣/٢١٦)؛وابن عاشور،التحرير والتنوير:(٩/٣٤٣).

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

قال الرازي : « اعلم أنه تعالى لما بين صلاتهم في عباداتهم البدنية وعباداتهم المالية أرشدهم إلى طريق الصواب »[١].

وقال أبو حيان : « لما ذكر ما يحل بهم من حشرهم إلى النار وجعلهم فيها وخسرهم تلطّف بهم وأنهم إذا انتهوا من الكفر وآمنوا غفرت لهم ذنوبهم السالفة »[٢].

وقال البقاعي : « ولما بين ضلالهم في عبادتهم البدنية والمالية ، وكان في كثير من العبارات السالفة القطع للذين كفروا بلفظ الماضي بالشقاء ، كان ذلك موهباً لأن يراد من أوقع الكفر في الزمن الماضي وإن تاب ، فيكون مؤيساً من التوبة فيكون موجباً للثبات على الكفر ، قال تعالى متلطفاً بعباده مرشداً لهم إلى طريق الصواب مبيناً المخلص مما هم فيه من الوبال في جواب من كأنه قال : أما لهم من جبلة يتخلصون بها من الخسارة »[٣] .

وقال ابن عاشور : « الجملة استئناف يصح جعله بيانياً لأن ما تقدم بين يديه من الوعيد وقلة الاكتراث بشأنهم ، وذكر خيبة مساعيهم ، مما يثير في أنفُس بعضَهم والسامعين أن يتساءلوا عما إذا بقي لهم مخلص ينجيهم من ورطتهم التي ارتبقوا فيها ، فأمر الرسول بأن يقول لهم هذا المقال ليريهم أن باب التوبة مفتوح ، والإقلاع في مكنتهم »[٤].

والمراد بالانتهاء هنا هو الانتهاء عن الكفر وعداوة الرسول r والمؤمنين ، ولا يكون ذلك إلا بالدخول في الإسلام والالتزام بشرائعه[٥]، قال أبو حيان : « وليس ثم ما يترتب على الانتهاء عنه غفران الذنوب سوى الكفر فلذلك كان المعنى إن ينتهوا عن الكفر »[٦].

ومعنى قوله: ﴿ x y z { | ﴾هو ما أسلفوه من الكفر وآثاره من العداوة والقتال[٧]، وفي هذا تعريض بالتحريض للمشركين أن يقلعوا عن كفرهم بأن الله يغفر لهم ويعفوا عنهم ما أسلفوه من الذنوب والمعاصي الكبيرة منها والصغيرة، سواء في الدنيا أو الآخرة، فلا يؤاخذون بها.

(١) الرازي ، مفاتيح الغيب : (١٣٠/١٥) .

(٢) أبو حيان ، البحر المحيط : (٤٨٨/٤) .

(٣) البقاعي ، نظم الدرر : (٢١٦/٣) .

(٤) ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٣٤٤/٩) .

(٥) انظر : الرازي ، مفاتيح الغيب : (١٣٠/١٥) .

(٦) أبو حيان ، البحر المحيط : (٤٨٨/٤) .

(٧) انظر : الزمخشري ، الكشاف : (٢٠٨/٢) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

والمراد بقوله تعالى : ﴿ {   ~ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ أي : إن يرجعوا إلى ما كانوا فيه من مناوأة الرسول r والمسلمين ، وفتنتهم في دينهم ، والتجهز لحربهم ، مثل صنيعهم في مكة ، وفي يوم بدر ، فقد سبقت ونفذت طريقة وعادة الأولين منهم الذين حاق بهم مكرهم يوم بدر ، أو فقد مضت سنة الذين تحزّبوا على أنبيائهم من الأمم السابقة مثل عاد وثمود فدمّروا ، فليتوقعوا مثل ذلك إن لم ينتهوا[١].

قال ابن عاشور: « وهذا الخبر تعريض بالوعيد بأنهم سيلقون ما لقيه الأولون ، والقرينةُ على إرادة التعريض بالوعيد أن ظاهر الإخبار بمضي سنة الأولين ، وهو من الإخبار بشيء معلوم للمخبَرين به ، وبهذا الاعتبار حسن تأكيده بقدْ إذ المراد تأكيد المعنى التعريضي »[٢].

ولما بيَّن I أن هؤلاء الكفار إن انتهوا عن الكفر حصل لهم الغفران ، وإن عادوا فهم متوعدون بسنة الأولين ، أتبعه بأن أمر بقتالهم إذا أصروا ، فقال تعالى : ﴿ وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ © وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ ´ µ ¶ ﴾[٣].

قال البقاعي : « ولما أشار ختام الآية السابقة قتالهم إن أصروا ، وكان التقدير فأقدموا عليهم حيثما عادوكم إقدام الليوث الجريئة غير هائبين كثرتهم ولا قوتهم فإن الله خاذلهم ، عطف عليه قوله مصرحاً بالمقصود : ﴿ وَقَـٰتِلُوهُمْ ﴾»[٤].

ولما أمر I بقتالهم بين الحكمة والعلة التي بها أوجب قتالهم ، فقال : ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ © ﴾ والمراد هنا أن لا تكون فتنة من المشركين لأنه لما جُعل انتفاء والفتنة غاية لقتالهم، وكان قتالهم مقصوداً منه إعدامُهم أوْ إسلامهم ، وبأحَد هذين يكون انتفاء الفتنة [٥].

وهذه الآية دالة على ما ذهب إليه جمهور العلماء من وجوب قتال أصناف أهل الكفر حتى يسلموا ، إلا ما خصّه الدليل وهم أهل الكتاب والمجوس فإنهم يقرّون بالجزية ، وأنه لا يقرّ سائر الكفار على دينهم بالذّمة إلا هؤلاء الثلاثة لقيام الدليل على جواز إقرارها بالجزية [٦].

---

(١) انظر : الزمخشري ، الكشاف : (٢٠٨/٢) ؛ وابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٣٤٥/٩) .
(٢) انظر : ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٣٤٦/٩) .
(٣) انظر : الرازي ، مفاتيح الغيب : (١٣١/١٥) ، ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٣٤٦/٩) .
(٤) البقاعي ، نظم الدرر : (٢١٧/٣) .
(٥) انظر : الرازي ، مفاتيح الغيب : (١٣١/١٥) ، وابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٣٤٦/٩) .
(٦) انظر : أبو حيان ، البحر المحيط : (٤٨٩/٤) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

ثم ختمت الآية الكريمة بقوله تعالى : ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ ´ µ ¶ ﴾ وذلك لأنه لما كان للقاء الكفار حالتان: إما إسلام وإقبال، أو كفر وإعراض وإخلال، قال مبيناً لحكم القسمين: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ﴾ أي عن قتالكم بالمواجهة بالإسلام فاقبلوا منهم وانتهوا عن مسهم بسوء فإنه ليس عليكم إلا ردهم عن المخالفة الظاهرة ، وأما الباطن فإلى الله ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ ، وإنما قدم المجرور اهتماماً به ﴿ ´ µ ¶ ﴾ فيجاريهم عليه ، وأما أنتم فلستم عالمين بالظاهر والباطن معاً فعليكم قبول الظاهر ، والله يتولى السرائر ، ويجازي على ذلك إن خيرا فخير وإن شرا فشر [(١)].

ولما ذكر I حكم الحالة الأولى وهو قبولهم ودخولهم في الإسلام ، عقب على ببيان الحالة الثاني وهو إعراضهم عن الإسلام ، ومحاربة أهله ، فقال تعالى : ﴿ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡۚ نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾ والمعنى وإن تولوا عن التوبة والإيمان ، فلا يضركم توليهم فالله U متوليكم وناصركم وهو يقدر لكم ما فيه نفعكم ، ويحفظكم ويرفع البلاء عنكم ، وإنما جاء الأمر بالعلم لقصد الاهتمام بهذا الخبر وتحقيقه ، أي لا تغفلوا عن ذلك ، ثم بين I في خاتمة الآية أنه ﴿نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ فكل من كان في حماية هذا المولى وفي حفظه وكفايته كان آمناً من الآفات مصوناً عن المخوفات والفتن[(٢)].

ولما أجمل I تشريع الغنائم والأنفال في بداية السورة ، وأسند أمره إلى الله ورسوله ، شرع في تفصيل ذلك في هذا الموضع ، فقال تعالى : ﴿ " # $ % & ' ( )
* + , - . / 0 1 2 3 4 5 6 7 8
9 : ; < = ? @ A B C ﴾.

وقد جاءت هذه الآية الكريمة بعد الأمر بقتال الكفار ، والإعلام بأن الله U متولي المؤمنين وناصرهم، ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡۚ نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ ولم يبق بعد الثقة بنصر الله U للمؤمنين إلا أخذ أموال الكفار وقسمتها كما شرعه الله U ، وهذا في غاية التناسق بين هذه الآيات .

(١) انظر : البقاعي ، نظم الدرر : (٢١٧/٣) ؛ وابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٣٤٧/٩) .
(٢)انظر : الرازي ، مفاتيح الغيب : (١٣١/١٥) ؛ وابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٣٤٧/٩) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

قال ابن عاشور في هذه الآية : « انتقال لبيان ما أجمل من حكم الأنفال ، الذي افتتحته السورة،ناسب الانتقال إليه ما جرى من الأمر بقتال المشركين إن عادوا إلى قتال المسلمين»(١).

وقد اختلف العلماء في المراد بالغنيمة والفرق بينها وبين الأنفال والفيء ، فمنهم من يطلق الفيءعلى ما تطلق عليه الغنيمة ، والغنيمة على الفيء أيضا ، ومنهم من يطلق النفل على الغنيمة(٢).

وقد لخص ابن عاشور كلام علماء التفسير في هذا الموضوع وحرر هذه المسألة ، مبينا التناسق والاتصال بينه وبين ما تحدثت عنه فاتحة السورة قائلا : « وقد اضطربت أقوال المفسرين قديما في المراد من المغنم في هذه الآية ، ولم تنضبط تقارير أصحاب التفاسير في طريقة الجمع بين كلامهم على تفاوت بينهم في ذلك ، ومنهم من خلطها مع آية سورة الحشر ، فجعل هذه ناسخة لآية الحشر والعكس ، أو أن إحدى الآيتين مخصصة للأخرى : إما في السهام ، وإما في أنواع المغانم ، وتفصيل ذلك يطول ، وترددوا في مسمى الفيء فصارت ثلاثة أسماء مجالا لاختلاف الأقوال : النفل ، والغنيمة ، والفيء، والوجه عندي في تفسير هذه الآية، واتصالها بقوله : ﴿ ! " # ﴾ أن المراد بقوله: ﴿ # $ ﴾ في هذه الآية : ما حصلتم من الغنائم من متاع الجيش ، وذلك ما سمي بالأنفال، في أول السورة ، فالنفل والغنيمة مترادفان ، وذلك مقتضى استعمال اللغة ، وعليه فوجه المخالفة بين اللفظين إذ قال تعالى هنا ﴿ $ ﴾ وقال في أول السورة : ﴿ ! " # ﴾ لاقتضاء الحال التعبير هنا بفعل ، وليس في العربية فعل من مادة النفل يفيد إسناد معناه إلى من حصل له ، ولذلك فآية ﴿ " # $ ﴾ سيقت هنا بيانا لآية ﴿ ! " # ﴾ فإنهما وردتا في انتظام متصل من الكلام » (٣).

كما أن العلماء اختلفوا في كيفية قسمة خمس الغنائم ، فمنهم من قسمها على ستة أسهم، ومنهم من قسمها على خمسة على أساس أن ما لله هو للرسول r ، وما للرسول فهو لإمام المسلمين بعد وفاته يضعه في مصالح العامة للمسلمين كسد الثغور وأرزاق العلماء وغير ذلك(٤).

---

(١)انظر : ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٥/١٠) .

(٢) انظر : ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم : (٥٩/٤) .

(٣) انظر : ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٦/١٠) .

(٤) انظر : الرازي ، مفاتيح الغيب : (١٣٣/١٥) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

وقوله : ﴿ # $ % & ﴾ عامّ في كل ما يغنم من حيوان ومتاع ومعدن وأرض وغير ذلك فيخمس جميع ذلك ، وأن قوله : ﴿% & ﴾ بيان لعموم ﴿ما﴾ لئلا يتوهم أن المقصود غنيمة معينة خاصة [(١)] .

وفي قوله : ﴿ ' ( ) * ﴾ قال أبو حيان مبينا جمال هذا التركيب وروعة التناسب بين مفرداته وجمله : « انظر إلى حسن هذا التركيب كيف أفرد كينونة الخمس لله وفصل بين اسمه تعالى وبين المعاطيف بقوله خمسه ليظهر استبداده تعالى بكينونة الخمس له ثم أشرك المعاطيف معه على سيل التبعية له ، ولم يأتِ التركيب فأن لله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل خمسه »[(٢)] .

وقال ابن عاشور في قوله : ﴿ ' ( ) ﴾ : « أن الابتداء باسم الله تعالى للإشارة إلى أن ذلك الخمس حق الله يصرفه حيث يشاء ، وقد شاء فوكل صرفه إلى رسوله r ولمن يخلف رسوله من أئمة المسلمين »[(٣)] .

وقوله : ﴿1 2 3 4 ﴾ جواب الشرط هنا محذوف ، والتقدير : فاقبلوا ما أمرتم به في الغنائم ، وإنما جيء في الشرط بحرف ﴿1 ﴾ التي شأن شرطها أن يكون مشكوكا في وقوعه زيادة في حثهم على الطاعة وإلهابا لهم ؛ ليبعثهم على إظهار تحقق الشرط فيهم، فالمعنى: أنكم آمنتم بالله والإيمان يرشد إلى اليقين بتمام العلم والقدرة له ، وآمنتم بما أنزل الله على عبده يوم بدر حين فرق الله بين الحق والباطل فرأيتم ذلك رأي العين وارتقى إيمانكم من مرتبة حق اليقين إلى مرتبة عين اليقين فعلمتم أن الله أعلم بنفعكم من أنفسكم ، فكان ما دفعكم الله إليه أحفظ لمصلحتكم وأشد تثبيتا لقوة دينكم ، فمن رأوا ذلك وتحققوه فهم أحرياء بأن يعلموا أن ما شرع الله لهم من قسمة الغنائم هو المصلحة ، ولم يعبأوا بما يدخل عليهم من نقص في حظوظهم العاجلة ، علما بأن وراء ذلك مصالح جمة آجلة في الدنيا والآخرة[(٤)] .

---

(١) انظر : أبو حيان ، البحر المحيط : (٤/٤٩٥) ؛ وابن عاشور ، التحرير والتنوير : (١٠/٦) .
(٢) انظر : أبو حيان ، البحر المحيط : (٤/٤٩٥) .
(٣) انظر : ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (١٠/٨) .
(٤) انظر : ابن عاشور ، المصدر السابق : (١٠/١٤) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

وإنما خص قوله تعالى : ﴿ 5 6 7 8 9 : ﴾ بالذكر من بين جملة المعلومات الراجعة للاعتقاد ، لأن لذلك المنزل مزيد تعلق بما أمروا به من العمل وهو قسمة الغنائم التي منها غنائم بدر ، والذي أنزله الله U يوم الفرقان إما هو من قبيل الوحي مثل قوله تعالى: ﴿ v w x y z ﴾ أو من قبيل خوارق العادات ، والألطاف العجيبة ، مثل إنزال الملائكة بالنصر، وإنزال المطر عند حاجة المسلمين إليه ، لتعبيد الطريق ، وتثبيت الإقدام.

قال ابن عاشور : « ولا مانع من إرادة الجميع ؛ لأن غرض ذلك واحد ، وكذلك ما هو من معناه مما نعلمه أو لما علمناه » [١].

ثم ختمت هذه الآية الكريمة بصفة القدرة لله تعالى حيث قال تعالى : ﴿ ? @ A B C ﴾ لأنه تعالى أدال المؤمنين على قلتهم على الكافرين على كثرتهم ذلك اليوم ، وأسدى إليهم ما لم يكن جاريا على متعارف الأسباب المعتادة ، فقدرة الله قلبت الأحوال وأنشأت الأشياء من غير مجاريها ، ولا يبعد أن يكون من سبب تسمية ذلك اليوم ﴿ 9 : ﴾ أنه أضيف إلى الفرقان الذي هو لقب القرآن ، فإن المشهور أن ابتداء نزول القرآن كان يوم سبعة عشر من رمضان ، فيكون من استعمال المشترك في معنييه[٢].

ولما ذكر الله U الأسباب المادية والمعنوية لانتصار المسلمين وهزيمة المشركين ، ثم أمر عقب ذلك بقتال المشركين ، أشار في هذه الآية إلى بعض العوامل الرئيسية للنصر ، والتي تأتي بعد تقدير الله وقدرته النافذة في هذا الكون ، والتي نصت عليها خاتمة الآية السابقة فقال تعالى :

﴿E F G H I J K L M N P Q R S T V W X Y Z [\ ] ^ _ ` a b c d e g h i j ﴾ .

قال البقاعي : « ولما ذكر لهم يوم ملتقاهم ، صور لهم حالتهم الموضحة للأمر المبينة لما كانوا فيه من اعترافهم بالعجز تذكيراً لهم بذلك ردعاً عن المنازعة ورداً إلى المطاوعة » [٣] .

---

(١) انظر : ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (١٠/١٤) .

(٢) انظر:أبو حيان، البحر المحيط: (٤/٤٩٥)؛ الزركشي، البرهان: (٢/ ١٨٩)، ابن عاشور، التحرير والتنوير:(١٠/١٥).

(٣) البقاعي ، نظم الدرر : (٣/٢٢٠) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

وقد أشارت هذه الآية الكريمة إلى ما كان عليه عسكر الرسول الكريم u في أول الأمر ، حيث كانوا في غاية الخوف والضعف بسبب القلة وعدم الأهبة ونزلوا بعيدين عن الماء، وكانت الأرض التي نزلوا فيها أرضاً رملية تغوص فيها أرجلهم، وأما الكفار فكانوا في غاية القوة بسبب الكثرة في العدد وبسبب حصول الآلات والأدوات ؛ لأنهم كانوا قريبين من الماء ، ولأن الأرض التي نزلوا فيها كانت صالحة للمشي ، ولأن العير كانوا خلف ظهورهم وكانوا يتوقعون مجيء المدد من العير إليهم ساعة فساعة، وكل ذلك من عوامل النصر التي كانت لصالح المشركين، إلا إنه I قلب القصة وعكس القضية وجعل الغلبة للمسلمين والدمار على الكافرين فصار ذلك من أعظم المعجزات وأقوى البينات(١) ، وفي ذلك إشارة إلى أن عاملي الزمان والمكان في المعارك الجهادية مطلوبان إلا أن اليقين بقدرة الله تعالى واستطاعته قلب الموازين والقوى في أي لحظة شاء، ومتى شاء ، وكيف شاء ، أقوى من هذه العوامل والأسباب.

قال ابن عاشور : « وقد أريد من هذا الظرف وما أضيف إليه تذكيرهم بحالة حرجة كان المسلمون فيها ، وتنبيههم للطف عظيم حفهم من الله تعالى ، وهي حالة موقع جيش المسلمين من جيش المشركين ، وكيف التقى الجيشان في مكان واحد عن غير ميعاد ، ووجد المسلمون أنفسهم أمام عدو قوي العدة والعدة والمكانة من حسن الموقع . ولولا هذا المقصد من وصف هذه الهيئة لما كان من داع لهذا الإطناب إذ ليس من أغراض القرآن وصف المنازل إذا لم تكن فيه عبرة » (٢).

والمراد ﴿ G H ﴾ ما يلي جانب المدينة ، ﴿ J K ﴾ ما يلي جانب مكة وكان الماء في العدوة التي نزل بها المشركون وكان استظهارهم من هذا الوجه أشد ، ﴿ L ﴾ وهي العير التي خرجوا لها كانت ﴿ M N ﴾ أي في الجهة السفلى من المؤمنين وهي جهة ساحر البحر، والمعنى: أن جيش المسلمين كان بين جماعتين للمشركين، وهما جيش أبي سفيان بالعدوة القصوى، وعير القوم أسفل من العدوة الدنيا، فلو علم العدو بهذا الوضع لطبق جماعتيه على جيش المسلمين، ولكن الله صرفهم عن التفطن لذلك ، وصرف

---

(١) انظر : الرازي ، مفاتيح الغيب : (١٥/١٣٤) .

(٢) انظر : ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (١٠/١٦) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

المسلمين عن ذلك، وقد كانوا يطمعون أن يصادفوا العير فينتهبوها كما قال تعالى في فاتحة السورة : ﴿ { ~ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ ﴾ ولو حاولوا ذلك لوقعوا بين جماعتين من العدو ، والغرض من التقييد بهذا الوقت ، وبتلك الحالة إحضارها في ذكرهم ، لأجل ما يلزم ذلك من شكر نعمة الله، ومن حسن الظن بوعده والاعتماد عليه في أمورهم[١].

قال الزمخشري : « فإن قلت : ما فائدة هذا التوقيت وذكر مراكز الفريقين (وأن العير كانت أسفل منهم) ؟ قلت : الفائدة فيه الإخبار عن الحال الدالة على قوة شأن العدوّ وشوكته ، وتكامل عدّته ، وتمهد أسباب الغلبة له ، وضعف شأن المسلمين والتباس أمرهم وأنّ غلبتهم في مثل هذه الحال ليست إلا صنعاً من الله سبحانه ، ودليلاً على أنّ ذلك أمر لم يتيسر إلا بحوله وقوّته وباهر قدرته ، وذلك أنّ العدوة القصوى التي أناخ بها المشركون كان فيها الماء ، وكانت أرضاً لا بأس بها ، ولا ماء بالعدوة الدنيا وهي أرض تسوخ فيها الأرجل ، ولا يمكن المشي عليها إلا بتعب ومشقة ، وكانت العير وراء ظهور العدوّ مع كثرة عددهم ، فكانت الحماية دونها ، تضاعف حميتهم وتشحذ في المقاتلة عنها نياتهم ، ولهذا كانت العرب تخرج إلى الحرب بظعنهم وأموالهم ، ليبعثهم الذب عن الحريم والغيرة على الحرم على بذل جهيداهم في القتال ، وأن لا يتركوا وراءهم ما يحدّثون أنفسهم بالانحياز إليه ، فيجمع ذلك قلوبهم ويضبط هممهم ويوطن نفوسهم على أن لا يبرحوا مواطنهم ولا يخلوا مراكزهم ، ويبذلوا منتهى نجدتهم وقصارى شدّتهم . وفيه تصوير ما دبر سبحانه من أمر وقعة بدر »[٢].

وقد كانت هذه الحالة ظاهرة خيبة وخوف للمسلمين ، وظاهرة فوز وقوة للمشركين ، فكان من عجيب عناية الله بالمسلمين أن قلب تلك الحالة رأسا على عقب ، فأنزل الله ذلك اليوم ما أنزل لنصرة المؤمنين كما تقدم بيانه ، وأنجز لهم ما وعدهم من النصر الذي لم يكونوا يتوقعونه .

ومعنى قوله تعالى: ﴿ P Q R S T ﴾ أي ولو تواعدتم أنتم وأهل مكة على القتال والموافاة إلى تلك المواضع في آن واحد ﴿ R S T ﴾ لأن العادة قاضية بذلك لأمرين : **أحدهما** : بعد المسافة التي كنتم بها منها وتعذر توقيت سير كل فريق بسير

---

(١) انظر : الرازي ، مفاتيح الغيب : (١٣٤/١٥) . ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (١٧/١٠) .

(٢) الزمخشري ، الكشاف : (٢١٢/٢) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

صاحبه ، **والثاني :** كراهتكم للقائهم لما وقر في أنفسهم من قوتهم وضعفكم ، وقد كان الذي كرّه إليكم لقاءكم قادر على أن يكره إليهم لقاءكم ، ﴿ V W X Y Z [﴾ أي: ولكن تلاقيتم على غير ميعاد لينجز الله ويوقع أمرا وحدثا عظيما مقدرا منذ الأزل والقدم بأنه محقق الوقوع عند إبانه ، أي حقيقا بأن يفعل حتى كأنه قد فعل لأنه لا يمنعه ما يحف به من الموانع المعتادة، وذلك من قتل كفار قريش في بدر ، وأسرهم وإذلالهم على ذلك الوجه العظيم، وإنما جاء .﴿ Y ﴾ منكرا للتعظيم ، وعبر بقوله : ﴿ Z [﴾ للدلالة على تحقق ثبوته، ثم أوضح I بأن ذلك كله لم يكن إلا ﴿ \ ] ^ _ ` a b c d e ﴾ أي : ليقتل من قتل من كفار قريش وغيرهم عن بيان وحجة ظاهرة من الله وإعذار بالرسالة ، ويعيش من عاش عن بيان منه وأعذار لا حجة لأحد عليه [١].

وقد ختمت هذه الآية الكريمة بصفة السمع والعلم لله تعالى ، حيث قال : ﴿ g h i j ﴾ وفي ذلك تناسق واضح مع موضوعها لأنّ الكفر والإيمان الذي استعير لهما الإهلاك والإحياء يستلزمان النطق اللساني والاعتقاد الجناني ، فلهذا كان المعنى سميع لأقوالكم التي نطقتم بها من الإيمان أو الكفر ، عليم بنياتكم وما أخفيتم من الناس[٢]، وأيضا فإن فيها تناسقا مع موضوع غزوة بدر حيث يقول ابن عاشور : « تذييل يشير إلى أن الله سميع دعاء المسلمين طلب النصر ، وسميع ما جرى بينهم من الحوار في شأن الخروج إلى بدر ومن مودتهم أن تكون غير ذات الشوكة هي إحدى الطائفتين التي يلاقونها ، وغير ذلك ، وعليم بما يجول في خواطرهم من غير الأمور المسموعة وبما يصلح بهم ويبني عليه مجد مستقبلهم »[٣].

ولما ذكرت الآية السابقة نزول المؤمنين في العدوة الدنيا واستقرارهم فيها ، وصورت حالهم في ذلك ، ودللت على قدرة الله تعالى في إنزال النصر على المؤمنين ، مهما كانت عوامل النصر متوفرة لصالح المشركين ، عقب في الآية التي بعدها ببيان ما حصل في مدة نزولهم في تلك

---

(١) انظر : الرازي ، مفاتيح الغيب : (١٣٤/١٥-١٣٥) ؛ وأبو حيان ، البحر المحيط : (٤٩٦/٤-٤٩٧) ؛ وابن عاشور ، التحرير والتنوير : (١٨/١٠-٢٠) .

(٢) انظر : أبو حيان ، البحر المحيط : (٤٩٧/٤) .

(٣) ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٢١/١٠) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

العدوة من العوامل النفسية الذي ساهمت وبشكل فعال في تشجيع المؤمنين على محاربة المشركين[١]، فقال تعالى : ﴿ l m n o p q s t u v w x y z { | } ~ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ . ففي هذه الآية الكريمة إخبار بأن النبي r قد رأى رؤيا منام ، جيش المشركين قليلا ، أي قليل العدد ، وأخبر برؤياه المسلمين ، وكان ذلك عاملا نفسيا شجعهم على لقاء المشركين ، وحملوها على ظاهرها ، وزال عنهم ما كان يخامرهم من تهيب جيش المشركين ، فكانت تلك الرؤيا من أسباب النصر، وكانت تلك الرؤيا منة من الله على رسوله والمؤمنين ، ولهذا أسند الإراءة إلي نفسه ؛ وفي مجيء فعل الرؤيا بصيغة المضارع مع كونها قد مضت زمن نزول الآية فذلك لاستحضار حالة الرؤيا العجيبة ، وقوله : ﴿ v w x y ﴾ أي إذا سمعتم ذلك لدخل في نفوسكم الجبن والهلع ، ولدب فيكم الخلاف واضطراب الأمر ، واختلفت كلمتكم ، فوهنتم وزادكم ذلك ضعفاً وكراهة للقائهم ﴿ z } | ﴾ أي سلمكم من الفشل والتنازع بأن سلمكم من سببهما ، وهو إراءتكم واقع عدد المشركين ، لأن الاطلاع على كثرة العدو يلقي في النفوس تهيبا له وتخوفا منه ، وإنما وضع الظاهر موضع المضمر دون أن يقول : ولكنه سلم ، لقصد زيادة إسناد ذلك إلى الله ، وأنه بعنايته ، واهتماما بهذا الحادث[٢].

ثم ختمت الآية الكريمة بقوله تعالى : ﴿ ~ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ وفي ذلك بيان وإشارة للعلة التي من أجلها سلمهم الله تعالى وهي أنه I بالغ العلم بما في الضمائر من الجراءة والجبن والصبر والجزع قبل خطورها في القلوب ، ولهذا جنبهم الله تعالى ما يجلب لهم الفشل والتنازع ، ودبر لهم ما دبر من عوامل وأسباب النصر[٣].

قال ابن عاشور: « وجملة: ﴿ ~ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ تذييل للمنة، أي : أوحى إلى رسوله بتلك الرؤيا الرمزية ، لعلمه بما في الصدور البشرية من تأثر النفوس بالمشاهدات

---

(١) انظر : البقاعي ، نظم الدرر : (٢٢٢/٣) ؛ وابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٢٢/١٠) .

(٢) انظر : الرازي ، مفاتيح الغيب : (١٣٦/١٥) ؛ وأبو حيان ، البحر المحيط : (٤٩٧/٤) ؛ والبقاعي ، نظم الدرر : (٢٢٢/٣) ؛ وابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٢٣/١٠-٢٤) .

(٣) انظر : أبو حيان، البحر المحيط: (٤٩٧/٤)؛ والبقاعي، نظم الدرر: (٢٢٢/٣) ؛ والألوسي، روح المعاني: (٩/١٠).

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

والمحسوسات أكثر مما تتأثر بالاعتقادات ، فعلم أنه لو أخبركم بأن المشركين ينهزمون ، واعتقدتم ذلك لصدق إيمانكم ، لم يكن ذلك الاعتقاد مثيرا في نفوسكم من الشجاعة والإقدام ما يثيره اعتقادي أن عددهم قليل ، لأن الاعتقاد بأنهم ينهزمون لا ينافي توقع شدة تنزل بالمسلمين ، من موت وجراح قبل الانتصار ، فأما اعتقاد قلة العدو فإنها تثير في النفوس إقداما واطمئنان بال ، فلعلمه بذلك أراكهم الله في منامك قليلا » [(١)].

ولما ذكر الله U العامل النفسي الذي جرأهم على مواجهة العدو وهو الرؤية المنامية للنبي r بقلة الأعداء ، أتبعه بتأكيد هذا العامل برؤيته يقظة من كلا الجانبين فأرى الفريقين قلة عدد الفريق الآخر ، مما جرأ الفريقين على مواجهة الآخر .

قال الرازي : « اعلم أن هذا هو النوع الثالث من النعم التي أظهرها الله للمسلمين يوم بدر، والمراد أن القليل الذي حصل في النوم تأكد ذلك بحصوله في اليقظة » [(٢)].

قال البقاعي : « ولما بين ما نشأ عن رؤيته r من قلتهم وما كان ينشأ رؤيته الكثرة لو وقعت ، لأنه r لما هو عليه من النصيحة والشفقة ، كان يخبرهم بما رأى ، أتبعه ما فعل من اللطف في رؤيتهم بأنفسهم يقظة » [(٣)].

والحكمة في ذكر رؤية المؤمنين قلة عدد أعداءهم بعد ذكر رؤية النبي r لهم هو تصديق تلك الرؤيا ، وأيضاً لتقوى قلوبهم وتزداد جراءتهم عليهم ، وأما الحكمة من ذكر تقليل عدد المسلمين في أعين المشركين فهو أن المشركين لما استقلوا عدد المسلمين لم يبالغوا في الاستعداد والتأهب والحذر فصار ذلك سبباً لاستيلاء المؤمنين عليهم [(٤)].

قال ابن عاشور : « وهذه رؤية بصر أراها الله الفريقين على خلاف ما في نفس الأمر ، فكانت خطأ من الفريقين ، ولم يرها النبي r ولذلك عديت رؤيا المنام الصادقة إلى ضمير النبي، في قوله : ﴿ l m n ﴾ وجعلت الرؤية البصرية الخاطئة مسندة إلى ضمائر الجمعين ، وظاهر الجمع يعم النبي r فيخص من العموم ، أرى الله المسلمين أن المشركين قليلون ، وأرى

---

(١) ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٢٥/١٠) .
(٢) الرازي ، مفاتيح الغيب : (١٣٦/١٥) .
(٣) البقاعي ، نظم الدرر : (٢٢٢/٣) .
(٤) انظر : الرازي ، مفاتيح الغيب : (١٣٦/١٥) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

المشركين أن المسلمين قليلون ، خيل الله لكلا الفريقين قلة الفريق الآخر ، بإلقاء ذلك التخيل في نفوسهم ، وجعل الغاية من تينك الرؤيتين نصر المسلمين ، وهذا من بديع صنع الله تعالى إذ جعل للشيء الواحد أثرين مختلفين ، وجعل للأثرين المختلفين أثرا متحدا ، فكان تخيل المسلمين قلة المشركين مقويا لقلوبهم، وزائدا لشجاعتهم، ومزيلا للرعب عنهم ، فعظم بذلك بأسهم عند اللقاء ، لأنهم ما كان ليفل من بأسهم إلا شعورهم بأنهم أضعف من أعدائهم عددا وعددا، فلما أزيل ذلك عنهم ، بتخييلهم قلة عدوهم ، خلصت أسباب شدتهم مما يوهنها ، وكان تخيل المشركين قلة المسلمين ، أي كونهم أقل مما هم عليه في نفس الأمر ، بردا على غليان قلوبهم من الغيظ ، وغارا إياهم بأنهم سينالون التغلب عليهم بأدنى قتال ، فكان صارفا إياهم عن التأهب لقتال المسلمين ، حتى فاجأهم جيش المسلمين ، فكانت الدائرة على المشركين ، فنتج عن تخيل القلتين انتصار المسلمين ، وإنما لم يكن تخيل المسلمين قلة المشركين مثبطا عزيمتهم ، كما كان تخيل المشركين قلة المسلمين مثبطا عزيمتهم ، لأن المسلمين كانت قلوبهم مفعمة حنقا على المشركين ، وإيمانا بفساد شركهم ، وامتثالا أمر الله بقتالهم ، فما كان بينهم وبين صب بأسهم على المشركين إلا صرف ما يثبط عزائمهم . فأما المشركون ، فكانوا مزدهين بعدائهم وعنادهم ، وكانوا لا يرون المسلمين على شيء ، فهم يحسبون أن أدنى جولة تجول بينهم يقبضون فيها على المسلمين قبضا ، فلذلك لا يعبؤون بالتأهب لهم ، فكان تخييل ما يزيدهم تهاونا بالمسلمين يزيد تواكلهم وإهمال إجماع أمرهم »[١].

ولما ذكر ما أحاله سبحانه من إحساس الفئتين ، علله بقوله : ﴿ V W X Y ﴾ أي: فعل تلك الإراءة من الفريقين ليحقق الله النصر للمؤمنين ويخذل المشركين وذلك ثم لأن المشركين لما برزوا لقتال المسلمين ظهر لهم كثرة المسلمين فبهتوا ، وكان ذلك بعد المناجزة ، فكان ملقيا الرعب في قلوبهم ، وذلك ما حكاه في سورة آل عمران [١٣] قوله : ﴿ ^ _ ` a ﴾[٢].

(١) ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (١٠/٢٥-٢٦) .

(٢) انظر : البقاعي ، نظم الدرر : (٣/ ٢٢٣) ؛ وابن عاشور ، التحرير والتنوير : (١٠/٢٨) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

وليس في قوله تعالى : ﴿ W X Y Z] ﴾ تكرار معنوي ، لأن المقصود في الآية المتقدمة هو أنه تعالى فعل تلك الأفعال ليحصل استيلاء المؤمنين على المشركين على وجه يكون معجزة دالة على صدق الرسول r ، والمقصود من ذكره ههنا ليس هو ذلك المعنى ، بل المقصود أنه تعالى ذكر ههنا أنه قلل عدد المؤمنين في أعين المشركين فبين ههنا أنه إنما فعل ذلك ليصير ذلك سبباً لئلا يبالغ الكفار في تحصيل الاستعداد والحذر فيصير ذلك سبباً لانكسارهم[(١)].

قال الألوسي : « كرر لاختلاف الفعل المعلل به إذ هو في الأول اجتماعهم بلا ميعاد ، وهنا تقليلهم ثم تكثيرهم ، أو لأن المراد بالأمر ثم الالتقاء على الوجه المحكي ، وههنا إعزاز الإسلام وأهله وإذلال الشرك وحزبه » [(٢)].

وإنما خولف الأسلوب في حكاية إراءة المشركين ، وحكاية إراءة المسلمين ، لأن المشركين كانوا عددا كثيرا فناسب أن يحكي تقليلهم بإراءتهم قليلا ، المؤذنة بأنهم ليسوا بالقليل ، وأما المسلمون فكانوا عددا قليلا بالنسبة لعدوهم ، فكان المناسب لتقليلهم : أن يعبر عنه بأنه تقليل المؤذن بأنه زيادة في قلتهم [(٣)].

ثم ختمت الآية الكريمة بقوله تعالى : ﴿ µ ¶ ¸ ٱلْأُمُورُ ﴾ وفي ذلك تناسق واضح مع ما ذكر في الآية من رؤية الجيشين على خلاف حالهما في نفس الأمر ، لأن الإراءة المعتادة ترجع إلى ما وضعه الله من الأسباب المعتادة ، والإراءة غير المعتادة راجعة إلى أسباب يضعها الله عند إرادته [(٤)].

ولما تقرر في الآيات السابقة أن الله U بيده النصر ، وأن كل العوامل والأسباب الجالبة للنصر التي تتخذ في المعارك والحروب ليست بشيء بجانب قدرة الله U ، وأنه مهما كانت استعدادات المشركين النفسية والآلية لخوض الحروب ضد المسلمين محكمة وقوية فإن نصر الله قريب من المؤمنين ، وذلك بعد استيفاءهم لعدد من الشروط ، المذكورة في هذه الآيات التالية ، قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾.

---

(١) انظر : الرازي ، مفاتيح الغيب : (١٥/١٣٦) .

(٢) الألوسي : روح المعاني : (١٠/٩) .

(٣) انظر : ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (١٠/٢٨) .

(٤) انظر : ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (١٠/٢٨) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

قال البقاعي : « ولما تقرر ذلك وتم على هذا السبيل الأحكم والمنهاج الأقوم ، كان علة لمضمون قوله : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ الآيتين ، فكانتا نتيجة ، لأنه إذا علم أن الأمر كله له ولا أثر لقلة ولا كثرة أثمر لمن هو في أدنى درجات الإيمان فضلاً عن غيره قلة المبالاة بالظالمين وإن تجاوزت قواهم الحد ، وزادوا كثرة على العد ، والآيتان تذكّرهم بحالتهم التي أوجبت نصرهم ليلزموها في كل معترك » (١).

وقال ابن عاشور : « لما عرفهم الله بنعمه ودلائل عنايته ، وكشف لهم عن سر من أسرار نصره إياهم ، وكيف خذل أعداءهم ، وصرفهم عن أذاهم ، فاستتب لهم النصر مع قلتهم وكثرة أعدائهم ، أقبل في هذه الآية على أن يأمرهم بما يهيء لهم النصر في المواقع كلها ، ويستدعي عناية الله بهم وتأييده إياهم ، فجمع لهم في هذه الآية ما به قوام النصر في الحروب»(٢).

وقد افتتحت هذه الوصايا والشروط بحرفي النداء والتنبيه إظهارا لكمال الاعتناء والاهتمام بمضمون ما بعده ، وجعل طريق تعريف المنادى طريق الموصولية لما تؤذن به الصلة من الاستعداد لامتثال ما يأمرهم به الله تعالى ، لأن ذلك أخص صفاتهم تلقاء أوامر الله تعالى ، وإنما لم يصف I الفئة حيث ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً ﴾ لظهور أن المؤمنين لا يحاربون إلا كفارا ، وليشمل أيضا بإطلاقه البغاة ، ولا منافاة في ذلك بخصوص السبب أو التناسق الموضوعي بين الآيات .

وقد تقدم أن الثبات عند لقاء العدو هو من أهم الأسباب والعوامل التي نال بها أصحاب النبي r النصر في معركة بدر ، وقد تقدم بيان ذلك في الآية (١٥) ، وإنما تكرر بيان هذا الأمر هنا لأنه جاء في سياق بيان شروط وعوامل النصر التي ينبغي لعموم المسلمين الأخذ بها ، وبهذا يتبين لك أنه لا ناسخ ولا منسوخ بين هاتين الآيتين ، بل هما مكملتان لبعضهما البعض(٣)، فقوله: ﴿فَٱثْبُتُواْ﴾ أي كما ثبت أصحاب بدر مع ضعفهم وقلتهم وقوة أعدائهم وكثرتهم

---

(١) انظر : البقاعي ، نظم الدرر : (٣/٢٢٣-٢٢٤) .

(٢) ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (١٠/٢٨) .

(٣) قال الرازي : « هذه الآية توجب الثبات في الجملة ، والمراد من الثبات الجد في المحاربة ، وآية التحرف والتحيز لا تقدح في حصول الثبات في المحاربة ، بل كان الثبات في هذا المقصود لا يحصل إلا بذلك التحرف والتحيز » . مفاتيح الغيب : (١٥/١٣٧) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

فلم يحدثوا أنفسهم على الفرار والإدبار، ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾ أي كما ذكره أصحاب بدر، حيث استغاثوا به والتجئوا إليه فحماهم وأيدهم بنصره ، ﴿لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ كما أفلح وفاز أهل بدر بثواب الدارين [(١)]، ومن هنا يتبين أن غزوة بدر كانت ولا زالت أنموذجا حيا للمعارك الجهادية ، وبهذه النظرة العامة يظهر التناسق بين موضوعات هذه السورة الكريمة .

والمراد بذكر الله كثيرا المأمور به هنا هو ذكره باللسان ، لأنه يتضمن ذكر القلب ، وزيادة فإنه إذا ذكر بلسانه فقد ذكر بقلبه وبلسانه ، وسمع الذكر بسمعه ، وذكر من يليه بذلك الذكر، ففيه فوائد زائدة على ذكر القلب المجرد ، وقرينة إرادة ذكر اللسان ظاهر وصفه بكثير ؛ لأن الذكر بالقلب يوصف بالقوة ، والمقصود تذكر أنه الناصر [(٢)].

وقد ختمت هذه الآية الكريمة بقوله تعالى : ﴿لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ وذلك لأن لقاء الكافر ومقاتلته إن كانت لأجل طاعة الله تعالى كان ذلك جارياً مجرى بذل الروح في طلب مرضاة الله تعالى وهذا هو أعظم مقامات العبودية ، فإن غلب الخصم فاز بالثواب والغنيمة وإن صار مغلوباً فاز بالشهادة والدرجات العالية أما إن كانت المقاتلة لا لله بل لأجل الثناء في الدنيا وطلب المال لم يكن ذلك وسيلة إلى الفلاح والنجاح [(٣)]، وإنما علل ثواب تلك الأوامر السابقة بأداة الترجي ، ليكون أدل على أنه سبحانه لا يجب عليه شيء [(٤)].

ولما كان الأمران السابقان في الآية السابقة يخصان المجاهد نفسه ، عقب بعد ذلك بأمرهم بأعمال راجعة إلى انتظام جيشهم وجماعتهم ، وهي علائق بعضهم مع بعض ، وهي الطاعة وترك التنازع ، فقال تعالى : ﴿ ! " # $ % & ' ( ) * + ,
- . / ﴾ ، فأما طاعة الله ورسوله فتشمل إتباع سائر أحكام القتال المشروعة بالتعيين ، مثل الغنائم ، والوصايا التي كان يوصي بها الرسول r عند إرساله الجيوش ، وما كان يأمرهم به من آراء الحرب ، وتشمل طاعة الرسول عليه الصلاة والسلام طاعة أمرائه في حياته وبعد وفاته ، وأما النهي عن التنازع فهو يقتضي الأمر بتحصيل أسباب ذلك : بالتفاهم

---

(١) انظر : البقاعي ، نظم الدرر : (٣/٢٢٤) .

(٢) انظر : ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (١٠/٣٠) .

(٣) انظر : الرازي ، مفاتيح الغيب : (١٥/١٣٧) .

(٤) انظر : البقاعي ، نظم الدرر : (٣/٢٢٤) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

والتشاور ، ومراجعة بعضهم بعضا ، حتى يصدروا عن رأي واحد ، فإن تنازعوا في شيء رجعوا إلى أمرائهم ، لأن النهي عن التنازع أعم من الأمر بالطاعة لولاة الأمور، لأنهم إذا نهوا عن التنازع بينهم ، فالتنازع مع ولي الأمر أولى بالنهي ، ولما كان التنازع من شأنه أن ينشأ عن اختلاف الآراء، بين سيء آثاره ، وعظم ضرره ، فجاء بالتفريع بالفاء فقال تعالى: ﴿ & ') ﴾ فحذرهم أمرين معلوما سوء مغبتهما : وهما الفشل وذهاب الريح ، وإنما كان التنازع مفضيا إلى الفشل ؛ لأنه يثير التغاضب ويزيل التعاون بين القوم ، ويحدث فيهم أن يتربص بعضهم ببعض الدوائر ، فيحدث في نفوسهم الاشتغال باتقاء بعضهم بعضا ، ويصرف الجيش عن الإقدام على أعدائهم ، فيتمكن منهم العدو[1].

وفي قوله : ﴿ ') ﴾ قال الرازي: « فيه قولان : **الأول** : المراد بالريح الدَّولة شبهت الدولة وقت نفاذها وتمشية أمرها بالريح وهبوبها ، يقال : هبت رياح فلان إذا دانت له الدولة ، ونفد أمره. **الثاني:** أنه لم يكن قط نصر إلا بريح يبعثها الله وفي الحديث : « نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور»[2]، والقول الأول أقوى لأنه تعالى جعل تنازعهم مؤثراً في ذهاب الريح [3].

وقد ختمت هذه الآية الكريمة بقوله : ﴿ * , - . / ﴾ وفي ذلك تناسق بديع حيث أن الله U أمر المؤمنين بشيء يعم نفعه المرء في نفسه ، وفي علاقته مع أصحابه ، ويسهل عليهم الأمور الأربعة ، التي أمروا بها آنفا ألا وهو الصبر ، فقال : ﴿ * ﴾ لأن الصبر هو تحمل المكروه ، وما هو شديد على النفس ، وتلك المأمورات كلها تحتاج إلى تحمل المكاره ، فالصبر يجمع تحمل الشدائد والمصاعب ، وأن قوله ﴿ , - . / ﴾ إن الله مع الصابرين إيماء إلى منفعة للصبر إلهية ، وهي إعانة الله لمن صبر امتثالا لأمره[4].

(١) انظر : البقاعي ، نظم الدرر : (٢٢٤/٣) ؛ وابن عاشور ، التحرير والتنوير : (١٠/٣١-٣٢) .

(٢) أخرجه البخاري في أبواب الاستسقاء ، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم : نصرت بالصبا ، برقم : (١٠٣٥) ، ومسلم في صلاة الاستسقاء ، باب في ريح الصبا والدبور ، برقم (٩٠٠) .

(٣) الرازي ، مفاتيح الغيب : (١٣٨/١٥) .

(٤) انظر : ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٣٢/١٠) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

وهاتان الآيتان السابقتان ختم بهما ابن القيم رحمه الله كتابه – الفروسية- حيث يقول : «ونختم هذا الكتاب بآيتين من كتاب الله تعالى جمع فيها تدبير الحروف بأحسن تدبير وهي قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٤٥﴾ ! " # $ % & ' (* , - . / ﴾ ، فأمر المجاهدين فيها بخمسة أشياء ما اجتمعت في فئة قط إلا نصرت ، وإن قلت وكثر عدوها ، **أحدها** : الثبات ، **الثاني** : كثرة ذكره I ، **الثالث** : طاعته وطاعة رسوله ، **الرابع** : اتفاق الكلمة وعدم التنازع الذي يوجب الفشل والوهن ، وهو جند يقوي به المتنازعون عدوهم عليهم فإنهم في اجتماعهم كالحزمة من السهام لا يستطيع أحد كسرها فإذا فرقها وصار كل منهم وحده كسرها كلها ، **الخامس** : ملاك ذلك كله وقوامه وأساسه وهو الصبر ، فهذه خمسة أشياء تبتني عليها قبة النصر ومتى زالت أو بعضها زال من النصر بحسب ما نقص منها وإذا اجتمعت قوى بعضها بعضا وصار لها أثر عظيم في النصر ولما اجتمعت في الصحابة لم تقم لهم أمة من الأمم وفتحوا الدنيا ودانت لهم العباد والبلاد ، ولما تفرقت فيمن بعدهم وضعفت آل الأمر إلى ما آل » (١).

ولما ذكر الله U في الآيتين السابقتين شروط وعوامل خمسة للنصر ، عقب على ذلك بشرطين إضافيين على أسلوب النهي عن المشابهة بأعدائهم الكفار، فقال تعالى: ﴿ 1 2 3 4 5 6 7 8 9 : ; < = ? @ A B ﴾.

قال ابن عاشور : « جملة : ﴿ 1 2 ﴾ معطوفة على ﴿ $ % ﴾ عطف نهي على نهي ، ويصح أن تكون معطوفة على جملة ﴿فَٱثۡبُتُواْ﴾ عطف نهي على أمر ، إكمالا لأسباب النجاح والفوز عند اللقاء ، بأن يتلبسوا بما يدنيهم من النصر ، وأن يتجنبوا ما يفسد إخلاصهم في الجهاد » (٢).

---

(١) ابن القيم : محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله ، الفروسية ، تحقيق : مشهور بن حسن بن محمود بن سلمان ، (٥٠٥-٥٠٦) .

(٢) ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٣٢/١٠) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

ففي هذه الآية نهي للمؤمنين عن أن يكونوا أمثال المشركين في البطر والرياء وحب الدنيا وفي ذلك أمر بضده وهو أن يكونوا أهل تقوى وإخلاص وحب الآخرة ، وهذه من شروط النصر وأسبابه كما تقدم عند قوله تعالى : ﴿ L M N O P Q R S T ﴾ .

قال البقاعي : « ولما ذكرهم سبحانه ما أوجب نصرهم آمراً لهم بالثبات عليه ، ذكر لهم حال أعدائهم الذي أوجب قهرهم ناهياً عنه تعريضاً بحال المنازعة في الأنفال وأنها حال من يريد الدنيا ، ويوشك -إن تمادت- أن تجر إلى مثل حال هؤلاء الذي محط نظرهم الدنيا»[١].

وإنما جيء في نهيهم عن البطر والرئاء بطريقة النهي عن التشبه بالمشركين إدماجا للتشنيع بالمشركين وأحوالهم ، وتكريها للمسلمين تلك الأحوال ، لأن الأحوال الذميمة تتضح مذمتها ، وتنكشف مزيد الانكشاف إذا كانت من أحوال قوم مذمومين ، وهؤلاء الموصوفون في الآية هم أبو جهل وأصحابه[٢]، وقد تقدم في تاريخ نزول السورة بيان ذلك .

وقوله : ﴿ 7 8 9 ﴾ البطر هو : دهش وإعجاب يعتري الإنسان بما هو فيه من نعمة ومن سوء احتمالها ، وقلة القيام بحقها وصرفها إلى غير وجهها [٣].

والرئاء هو : مصدر من فعل راءى مراءاة ، أي فعل ذلك ليراه الناس ، وهو عبارة عن القصد إلى إظهار الجميل مع أن باطنه يكون قبيحا[٤].

وإنما بدأ بالبطر ثم الرئاء لأن الحامل لهم على الخروج أولا كان من أنفسهم ، ثم كان من غيرهم ، وإنما عبر عنهما باسم المصدر (البطر والرئاء) إشارة إلى الثبات والمبالغة في التمكن كما هو شأن الأخلاق ، ولما ذكر I صفة خروجهم ذكر ما يترتب على ذلك من منع أنفسهم وغيرهم عن سبيل الله تعالى ، فقال تعالى : ﴿ : ; < = ﴾ وإنما عبر الصد بصيغة المضارع للدلالة على حدوث وتجدد الصد منهم عن سبيل الله [٥].

---

(١) البقاعي ، نظم الدرر : (٢٢٥/٣) .

(٢) انظر : ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٣٣/١٠) .

(٣) انظر : الراغب ، المفردات في غريب القرآن : (٥٠) .

(٤) انظر : الراغب ، المفردات في غريب القرآن : (٢٠٩) ؛ والرازي ، مفاتيح الغيب : (١٣٨/١٥) .

(٥) انظر : البقاعي ، نظم الدرر: (٢٢٦/٣) ؛ وابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٣٣/١٠) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

وقد ختمت هذه الآية الكريمة بقوله تعالى : ﴿ ? @ A B ﴾ وفي ذلك تناسق مع ما ذكر في الآية من فساد نوايا المشركين وأعمالهم ، فإن ذكر إحاطة الله بأعمالهم المراد بها مجازاتهم عليها ، فقد جازاهم الله تعالى بجنس ما أرادوه ، فهم أرادوا سقي الخمور وشربها فسقوا مكانها كؤوس المنايا الحمر ، وأرادوا نحر الجزور فنحرت رقابهم، وأرادوا عزف القيان ، فناحت عليهم نوائح الزمان مكان العزف والقيان ، وأرادوا أن تسمع بهم العرب فسمعوا بهزيمتهم شر هزيمة ، وإنما جاءت بصيغة المضارع ليشمل هذا الوعيد والتهديد من بقي من الكفار ، فيرجعوا عن غيهم وتماديهم ، أو يستمروا على ما هم عليه فيحل عليهم ما حل بأسلافهم من الكفار ممن قتلوا أو أسروا في غزوة بدر [(١)].

ولما ذكر الله فساد نوايا المشركين وأعمالهم ونهى المؤمنين من التشبه بهم لأن ذلك مما يجلب الهزيمة والتعاسة ويبعد عن أسباب النصر والسعادة ، زاد في التنفير من أعمالهم بالتصريح بمن كان يعاونهم ويساعدهم فيها وهو الشيطان ، في إشارة إلى أن لطف الله تعالى وعنايته وعونه ونصره كان من أبعد الأشياء عن الكفار ، فهم ليسوا بحزبه ، بل هم حزب الشيطان ، فهو قائدهم والمزين لهم قبائح أعمالهم[(٢)] ، فقال تعالى : ﴿D E F G H I J K L M N O P Q R T U V W X Y Z [\ ] ^ _ ` a b c d e g h i ﴾. فهذه الآية متناسقة مع ما قبلها من ذكر أسباب النصر وشروطه حيث يقول ابن عاشور :

«﴿D E F ﴾ عطف على ﴿ وَإِذۡ يُرِيكُمُوهُمۡ إِذِ ٱلۡتَقَيۡتُمۡ فِيٓ © قَلِيلٗا ﴾ ، وما بينهما اعتراض ، رتب نظمه على أسلوبه العجيب ؛ ليقع هذا الظرف عقب تلك الجمل المعترضة ، فيكون له إتمام المناسبة بحكاية خروجهم وأحواله ، فإنه من عجيب صنع الله فيما عرض للمشركين من الأحوال في خروجهم إلى بدر ، مما كان فيه سبب نصر المسلمين ، وليقع قوله : ﴿1 2 3 4 5 6 ﴾ عقب أمر المسلمين بما ينبغي لهم عند اللقاء ، ليجمع

(١) انظر : أبو حيان ، البحر المحيط : (٥٠٠/٤) ؛ والبقاعي ، نظم الدرر : (٢٢٦/٣) .
(٢) انظر : البقاعي ، نظم الدرر: (٢٢٦/٣) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

لهم بين الأمر بما ينبغي والتحذير مما لا ينبغي ، وترك التشبه بمن لا يرتضى ، فيتم هذا الأسلوب البديع المحكم الانتظام »[١].

ولما ذكر الله U أسباب النصر وشروطه ، وذكر من عجيب صنعه وتأييده للمؤمنين في بدر ، وما قوى به عزائمهم ونفسياتهم مما أنزله من بشائر النصر ومقدماته ودلالاته ، وذكر في مقابل ذلك أسباب هزيمة المشركين سواء ما كان من تسويل أنفسهم من البطر والرياء والسمعة أو ما كان من تزيين شياطين الجن لهم عملهم السيء لتقوية عزائمهم في محاربة أولياء الله ، عقب على ذلك بذكر ما كان من شياطين الإنس من المنافقين والذين في قلوبهم من تثبيط عزائم المؤمنين وبث الأراجيف والشائعات المغرضة ؛ مستغلين في ذلك قلة عددهم وضعف عتادهم ؛ فقال تعالى : ﴿ k l m n o p q r s t ι v w x y z { | } ﴾.

وقد اتفق العلماء على أن من شهد بدرا من أصحاب النبي r لم يكن من أهل النفاق بدلالة قوله r : « لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم »[٢].

فلهذا تباينت آراء المفسرين في المراد من المنافقين والذين في قلوبهم مرض من الآية ، إلا أن جمهور المفسرين قالوا : « إنّ هؤلاء الموصوفين بالنفاق ومرض القلوب إنما هم من أهل عسكر الكفار لما أشرفوا على المسلمين ورأوا قلّة عددهم قالوا مشيرين إلى المسلمين غرّ هؤلاء دينهم أي اغترّوا فأدخلوا أنفسهم فيما لا طاقة لهم به » [٣].

وذكر بعضهم أن المراد بهم منافقوا المدينة، وذلك أنه لما وصلهم خروج قريش في قوة عظيمة قالوا عن المسلمين هذه المقالة فأخبر الله بها نبيه في هذه الآية[٤]، ولكن هذا القول مرجوح لأسباب :

منها : أنه لم تكن الأخبار تنتقل بالسرعة المطلوبة بين أهل المدينة وبين جيش المؤمنين ، ولو علم الصحابة الذين تخلفوا عن الغزوة بذلك لخرجوا سراعا لنجدة المؤمنين .

---

(١) انظر : ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٣٤/١٠) .

(٢) أخرجه البخاري ، في كتاب الجهاد والسير ، باب الجاسوس ، برقم : (٣٠٠٧) ، ومسلم ، في فضائل الصحابة ، باب من فضائل أهل بدر رضي الله عنهم ، برقم (٢٤٩٤) ، من حديث علي ابن أبي طالب .

(٣) نقل ذلك عنهم ابن عطية ، المحرر الوجيز : (٦١٧/٢) .

(٤) انظر : المصدر السابق .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

ومنها : أن هذا القول الصادر من المنافقين كان وقت تزيين الشيطان للمشركين أعمالهم .

ومنها : أن اسم الإشارة (هؤلاء) تدل في الأعم الأغلب على وجود المشار إليه جسديا .

ومنها : أن اقتران المنافقين بالذين في قلوبهم مرض يدل على الاختلاف بينهما ، لأن المرض أعمّ من النفاق فلهذا يطلق مرض القلب على الكفر .

وبعيدا عن الاختلافات بين المفسرين وبالعودة إلى بيان التناسق الموضوعي بين هذه الآية وما قبلها من الآيات فإن هذه الآية تشير إلى أن هؤلاء المنافقين والذين في قلوبهم مرض لا يدركون حقيقة أسباب النصر وأسباب الهزيمة ؛ فهم يرون ظواهر الأمور ، دون أن تهديهم بصيرة إلى بواطنها ؛ ودون أن يشعروا بالقوة الكامنة في العقيدة ، والثقة في الله ، والتوكل عليه(١).

وإنما أسند المنافقون والذين في قلوبهم مرض التغرير إلى دين المسلمين باعتبار ما فيه من الوعد بالنصر إن هم ثبتوا في مواجهة العدو ، وحثهم على عدم الفرار يوم الزحف ، والمعنى : غرهم ذلك فخرجوا وهم عدد قليل للقاء جيش كثير ، ولهذا ختمت هذه الآية الكريمة بقوله : ﴿ v w x y z { | } ﴾ وفي ذلك تناسق واضح مع ما قبلها إذ أنها كالعلة لخيبة ظنون المشركين ونصرائهم ، أي أن الله خيب ظنونهم لأن المسلمين توكلوا عليه وهو عزيز لا يغلب، فمن تمسك بالاعتماد عليه نصره، وهو حكيم يكون أسباب النصر من حيث يجهلها البشر(٢).

قال أبو حيان : « هذا يتضمن الردّ على من قال غرّ هؤلاء دينهم فكأنه قيل هؤلاء في لقاء عدوّهم هم متوكلون على الله فهم الغالبون ، ﴿ v w x y ﴾ ينصره ويعزّه ﴿ z { | ﴾ لا يغالب بقوة ولا بكثرة ﴿ } ﴾ يضع الأشياء مواضعها أو حاكم بنصره من يتوكل عليه فيديل القليل على الكثير » (٣).

ولما ذكرت الآيات السابقة دلائل قدرة الله تعالى على نصرة أولياءه قبل المعركة وفي أثناءها ، ذكر ▌ مشهدا من مشاهد قدرته على أخذ أعداءه ، وإحلال العذاب المهين عليهم ، وذلك

(١) انظر : سيد ، في ظلال القرآن : (١٥٣٢/٣) .

(٢) انظر : ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٣٨/١٠) .

(٣) أبو حيان ، البحر المحيط : (٥٠١/٤) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

بأمر ملائكته بقبض أرواحهم في صورة منكرة ، حيث قال تعالى : ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ ومعنى هذا أن المشركين إذا أقبلوا بوجوههم إلى المسلمين ضربت الملائكة وجوههم بالسيف ، وإذا ولوا ضربوا أدبارهم ، وفي ذلك إشارة إلى أن الملائكة كانت تلاحق المشركين في غزوة بدر حين يقتلهم المسلمون ، فتزيدهم تعذيبا عند نزع أرواحهم [١].

قال ابن عاشور : « لما وفي وصف حال المشركين حقه ، وفصلت أحوال هزيمتهم ببدر ، وكيف أمكن الله منهم المسلمين ، على ضعف هؤلاء وقوة أولئك ، بما شاهده كل حاضر حتى ليوقن السامع أن ما نال المشركين يومئذ إنما هو خذلان من الله إياهم ، وإيذان بأنهم لاقون هلاكهم ما داموا مناوئين لله ورسوله ، انتقل إلى وصف ما لقيه من العذاب من قتل منهم يوم بدر ، مما هو مغيب عن الناس ، ليعلم المؤمنون ويرتدع الكافرون ، والمراد بالذين كفروا هنا الذين قتلوا يوم بدر ، وتكون هذه الآية من تمام الخبر عن قوم بدر » [٢].

وإنما ابتدئ الخبر بـ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ مخاطبا به غير معين ، ليعم كل مخاطب ، أي : لو ترى أيها السامع ، وأيضا فإن الإتيان بالمضارع في ﴿تَرَىٰٓ﴾ و﴿يَتَوَفَّى﴾ مع أن سياق الآيات وتناسقها الموضوعي يدلان على أن المراد بالذين كفروا مشركي يوم بدر ، وهم ممن قضوا في المعركة ؛ فذلك لقصد استحضار تلك الحالة العجيبة ، وهي حالة ضرب الوجوه والأدبار ، ليخيل للسامع أنه يشاهد تلك الحالة ، وأيضا فإن هذه الآية تتناسق مع ما جاء في بداية موضوعات السورة من ذكر بعض مهام الملائكة في غزوة بدر ، ومشاركتهم المؤمنين في قتال المشركين ، ففي هذه الآية بيان لمهام بعض الملائكة المشاركين في الغزوة ، وهو قبض أرواح المشركين في صورة منكرة ومفزعة ، فيها إهانة للكفار ، فذكر الوجوه والأدبار يحتمل أن يكون للتخصيص بهما لأن الخزي والنكال والذل في ضربهما أشد ، فضرب الوجوه تعني ضرب أشرف الأماكن لدى الإنسان وأعلاها ، وضرب الأدبار تعني ضرب أحقر الأماكن لدى الإنسان وأدناها ، والتي تدل على الانهزام والتولي والفرار ، ويحتمل أن يراد بذكر الوجوه والأدبار التعميم ، يعني :

---

(١) انظر : الرازي ، مفاتيح الغيب : (١٤٢/١٥) ؛ والبقاعي، نظم الدرر : (٢٢٨/٣) .

(٢) انظر : ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٣٩/١٠) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

أن ضرب غيرهما داخل فيها بل وأولى ، ولما عذبوهم فعلا بضرب وجوهم وأدبارهم عذبوهم قولا فقالوا لهم ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾ وفي ذلك بشارة لهم من الملائكة بما هو أدهى وأمر مما هم فيه زيادة في تعذيبهم ، وتهكما بهم لأن الذوق يكون في المطعومات المستلذة غالبا ، وفيه نكتة أخرى وهو أنه قليل من كثير ، وأنه مقدمة كأنموذج الذائق وبهذا الاعتبار يكون فيه المبالغة وأنه أشعر الذوق بقلته[١].

وفي تحول السياق من صيغة الخبر إلى صيغة الخطاب إشارة إلى اختلاف المشهدين ، وأن صيغة الأمر فيها دلالة على المشهد الحاضر وكأنها اللحظة المشهود للكفار ؛ وكأنما جهنم بنارها وحريقها في المشهد وهم يدفعون إليها دفعاً مع التأنيب والتهديد[٢].

ولما عذبوهم فعلا وقولا ، أشاروا لهم بالأسباب التي أدت بهم إلى ضربهم وتعذيبهم ، وأنهم هم الذين جنوا على أنفسهم بسبب ما قدمت أيديهم ، وأنهم سيلاقون الجزاء العادل الذين يستحقونه من دون ظلم أو عدوان ، فقال تعالى : ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ ´ µ ¶ ¸ لِّلۡعَبِيدِ﴾ ، وإنما جاءت الإشارة إلى ما حصل لهم بأداة البعد للدلالة على عظم ما أجرموا فيه ، وعظم ما يشاهدونه من الأهوال وأصناف العذاب ، وفي ذلك زيادة تنكيل وتشف من الكفار ، وفي قوله : ﴿بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ أي أسلفته من الأعمال فيما مضى من الشرك وفروعه من الفواحش والمنكرات ، فالمراد بالأيدى : الأنفس والذوات ، والتعبير بها هنا عن ذلك من قبيل التعبير بالجزء عن الكل ، وتخصيصها بالذكر دون غيرها من الأعضاء ، للدلالة على التمكن من الفعل وإرادته ، وأن أكثر الأفعال يكون عن طريق البطش بالأيدى ، وخاصة ما جاءت سياقات الآيات هنا وتناسقها من محاربة المسلمين وأذيتهم ، ولأن نسبة الفعل إلى اليد تفيد الالتصاق به ، والاتصال بذاته [٣].

وقد ختمت هذه الآية الكريمة بقوله تعالى : ﴿ ´ µ ¶ ¸ لِّلۡعَبِيدِ﴾ وفي ذلك بيان للعلة الثانية لإيقاع تلك العقوبة عليهم بعد العلة الأولى وعطف عليها مع أن مورد العلتين

---

(١) انظر: البقاعي، نظم الدرر:(٣/٢٢٨)؛ والألوسي، روح المعاني:(١٠/١٧)؛ ابن عاشور، التحريروالتنوير: (١٠/٣٩).

(٢) انظر: سيد ، في ظلال القرآن : (٣/١٥٣٤) .

(٣) انظر : ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (١٠/٣٩) ؛ وسيد ، في ظلال القرآن : (٣/١٥٣٥) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

شيء واحد لكن باختلاف الاعتبار ، ونفي الظلم عن الله تعالى يستلزم اتصافه بالعدل ، وأن الجزاء الأليم كان كفاء للعمل المجازى عنه دون إفراط ، ونفي ظلام بصيغة المبالغة لا يفيد إثبات ظلم غير قوي ؛ لأن الصيغ لا مفاهيم لها ، ولأن الكثرة باعتبار تعلق الظلم المنفي ، لو قدر ثبوته ، بالعبيد الكثيرين ، فعبر بالمبالغة عن كثرة إعداد الظلم باعتبار تعدد أفراد معموله ، وكذلك فإن التعبير بالعبيد دون عباد فيه إشارة إلى أنهم موضع إشفاق ، وفيه إعلام بضعفهم وعدم قدرتهم على الانتصار (١).

ولما ذكر الله U أخذ كفار قريش بسوء أعمالهم سواء بتسليط المؤمنين عليهم ، أو بإرسال ملائكته لقتلهم وضربهم وتعذيبهم ، عقب على ذلك ببيان أن هذه سنته الماضية في الأمم السالفة المكذبة ، التي حاربت دين الله وأولياءه ، وهي سنة لا تتبدل ولا تتغير ، فهذا هو مصيرهم المحتوم ، قال تعالى : ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ وما أصاب مشركي قريش يوم بدر ، هو ما يصيب المشركين في كل وقت ؛ وقد أصاب آل فرعون والذين من قبلهم، وفي هذا تناسق موضوعي واضح مع سياق أحداث غزوة بدر ، ومع أسباب النصر والهزيمة ، لأن سبب خذلان الله لتلك الأمم السابقة ونصر المؤمنين عليهم هو بسبب كفرهم بآيات الله ، حيث أخذهم الله بذنوبهم.

قال البقاعي : « ولما بين بما مضى ما يوجب الاجتماع عليه والرجوع في كل أمر إليه ، وبين أن من خالف ذلك هلك كائناً من كان ؛ أتبعه بما يبين أن هذا من العموم والاطراد بحيث لا يخص زماناً دون زمان ولا مكاناً سوى مكان » (٢).

وقد ختم الله U هذه الآية بقوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ وفي ذلك إيماء إلى أن أخذ هؤلاء الكفار كان قويا شديدا ، لأنه عقاب قوي شديد العقاب (٣).

ولما ذكر الله U ما حل بالأمم الكافرة والمكذبة بالله وبرسله من العقاب الشديد ذكر العلة من ذلك العقاب(٤)، ﴿ ! " # $ % & ' ( ) * + , - . / 0 1 2 3 ﴾.

---

(١) انظر : ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٣٩/١٠) ؛ وسيد ، في ظلال القرآن : (١٥٣٥/٣) .

(٢) البقاعي ، نظم الدرر : (٢٢٩/٣) .

(٣) انظر : ابن عاشور، التحرير والتنوير: (٤٤/١٠) .

(٤) انظر : الرازي ، مفاتيح الغيب : (١٤٤/١٥) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

قال البقاعي : « ولما كان كأنه قيل : فما له يمهلهم ولا يعالجهم بالأخذ قبل النكاية في أوليائه وأهل وده وأصفيائه ؟ قال : ﴿ ! " # ﴾»[١]، وهذه الإشارة الموضوعة للبعد هنا تفيد العناية بالمخبر عنه وبالخبر ، وأن هذه الآية فيها تصريح بأن سنة الله تعالى ومقتضى حكمته ، جرت أنه لا يسلب نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ذلك بأنفسهم ، وأن قوم فرعون والذين من قبلهم كانوا من جملة الأقوام الذين أنعم الله عليهم فتسببوا بأنفسهم في زوال النعمة ، وهذا إنذار لقريش أن يحل بهم مثل ما حل بغيرهم من الأمم الذين بطروا النعمة ، لأن نفي الكون بصيغة المضارع يقتضي تجدد النفي ومنفيه ، وظاهر النعمة أنه يُراد به ما يكونون فيه من سعة الحال والرفاهية والعزّة والأمن والخصب وكثرة الأولاد والتغيير قد يكون بإزالة الذات وقد يكون بإزالة الصفات فقد تكون النعمة أذهبت رأساً وقد تكون قلّلت وأضعفت[٢].

ولما ذكر الله U النعمة التي كان عليها الأمم السابقة بين أن أصل النعم منه I لا نعمة على أحد إلا منه فقال : ﴿) (* ﴾ ، والمراد من تغيير القوم للنعمة ﴿ + , - . ﴾ تغيير سببه ، وهو الشكر بأن يبدلوه بالكفران ، ذلك أن الأمم تكون صالحة ثم تتغير أحوالها ببطر النعمة فيعظم فسادها ، فذلك تغيير ما كانوا عليه ؛ فإذا أراد الله إصلاحهم أرسل إليهم هداة لهم ، فإذا أصلحوا استمرت عليهم النعم مثل قوم يونس وهم أهل نينوى، وإذا كذبوا وبطروا النعمة غير الله ما بهم من النعمة إلى عذاب ونقمة ، فالغاية المستفادة من ﴿ + ﴾ لانتفاء تغيير نعمة الله على الأقوام هي غاية متسعة ، لأن الأقوام إذا غيروا ما بأنفسهم من هدى ؛ أمهلهم الله زمنا ثم أرسل إليهم الرسل فإذا أرسل إليهم الرسل فقد نبههم إلى اقتراب المؤاخذة ثم أمهلهم مدة لتبليغ الدعوة والنظر فإذا أصروا على الكفر غير نعمته عليهم بإبدالها بالعذاب أو الذل أو الأسر كما فعل ببني إسرائيل حين أفسدوا في الأرض، وكما فعل بقريش حين كذبوا بمحمد r فأمهلهم الله تعالى إلى غزوة بدر ، فأنزل الله نصره وتأييده على المؤمنين ، وأذاق كفار قريش ذل الأسر والهزيمة [٣].

---

(١) انظر : البقاعي ، نظم الدرر : (٢٣١/٣) .

(٢) انظر : أبو حيان ، البحر المحيط : (ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٤٥/١٠) .

(٣) انظر : الرازي ، مفاتيح الغيب : (١٤٤/١٥) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

وقد ختم الله U هذه الآية بقوله : ﴿ 0 1 2 3 ﴾ وفي ذلك إيماء إلى أن الله U سمع أقوالهم هؤلاء القوم المكذبة للرسل ، سواء ما أظهروه وما أخفوه ، وعلم ما فعلوه وعملوه من سيئ الأفعال والأعمال ، قال البقاعي : « ﴿ 2 ﴾ أي لما يكذبون به الرسل ولأقوالهم ، ﴿ 3 ﴾ أي بما تكّن ضمائرهم من غيره وإن جهلوه هم ، فيبتليهم ببلاء يظهر به ذلك المكنون ويبرز به كل سر مصون ، فإذا تعلق به العلم ظاهراً علق به الحكم قاهراً لتمام قيام الحجة ، ولتمام علمه بحالهم أمهلهم ، وإنما يستعجل من يخاف أن تخيب فراسته أو يتغير علمه ، وأما الذي علمه بالظواهر والضمائر على حد سواء فالحالتان عنده سيان ، فهو يمهل لإتمام الحكمة ولا يهمل من استحق النقمة » [(١)].

ثم لما بين الله تعالى أن الأمم المكذبة إنما تمت معاقبتهم بسبب كفرهم وتغييرهم لنعم الله عليهم ، ذكر أمثلة لبعضهم فقال تعالى : ﴿ 5 6 7 9 : ; = > ? @ A B C D F G H ﴾ وفي هذه الآية الكريمة تكرار لفظي لبعض كلمات الآية السابقة ، إلا أنه ليس فيه تكرار معنوي .

قال الرازي : « إنه تعالى ذكر مرة أخرى قوله تعالى: ﴿ 5 6 7 ﴾ وذكروا فيه وجوهاً كثيرة ، **الأول** : أن الكلام الثاني يجري مجرى التفصيل للكلام الأول ؛ لأن الكلام الأول فيه ذكر أخذهم وفي الثاني ذكر إغراقهم وذلك تفصيل . **والثاني** : أنه أريد بالأول ما نزل بهم من العقوبة في حال الموت ، وبالثاني ما ينزل بهم في القبر في الآخرة . **الثالث** : أن الكلام الأول هو قوله : ﴿كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ والكلام الثاني هو قوله : ﴿ = > ? ﴾ فالأول إشارة إلى أنهم أنكروا الدلائل الإلهية ، والثاني إشارة إلى أنه سبحانه رباهم وأنعم عليهم بالوجوه الكثيرة فأنكروا دلائل التربية والإحسان مع كثرتها وتواليها عليهم ، فكان الأثر اللازم من الأول هو الأخذ ، والأثر اللازم من الثاني هو الإهلاك والإغراق ، وذلك يدل على أن لكفران النعمة أثراً عظيماً في حصول الهلاك والبوار » [(٢)].

---

(١) انظر : البقاعي ، نظم الدرر : (٢٣١/٣) .

(٢) انظر : الرازي ، مفاتيح الغيب : (١٤٤/١٥) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

وإنما خصّ آل فرعون بالذكر ، وذكر الذي أهلكوا به وهو إغراقهم ؛ لأنه انضم إلى كفرهم دعوى الإلهية والرّبوبية لغير الله تعالى فكان ذلك أشنع الكفر وأفظعه(١).

وقد ختمت هذه الآية الكريمة بقوله تعالى : ﴿ F G H ﴾ وذلك أنه I لما أخبر بهلاكهم ، أخبر بالوصف والعلة الجامعة لهم بالهلاك ، وهو كونهم ظالمين لأنفسهم بالكفر والمعصية ، وظالمين سائر الناس بسبب الإيذاء (٢).

ولما ذكر الله U في الآيات السابقة أسباب والنصر والهزيمة ، وضرب لذلك نموذجا لما أنزله على عباده المؤمنين من نصر عظيم في غزوة بدر ، وما حاق بالكافرين من هزيمة ساحقة فيها ، إلى أن ختم الله U تلك الآيات بذكر نماذج لما نزل بالأمم المكذبة بالعقاب والهلاك بسبب ذنوبهم وتمردهم على رسل الله .

ولما كان محور السورة الرئيسي هو الجهاد في سبيل الله ، ناسب أن يأتي بعد آيات النصر والهزيمة ما يحسن العلاقة التي شابتها المعارك الجهادية بين المسلمين والكفار ، سواء كانت علاقة خارجية مع الكفار ، وذلك بالدخول معهم في المعاهدات والمواثيق والسلم ، وإما علاقة خارجية يراد لها أن تكون علاقة داخلية كعلاقة أسرى الكفار مع المسلمين ، وذلك بترغيبهم في الدخول في الإسلام ، وإما علاقة داخلية محضة بين المسلمين أنفسهم وذلك بمعرفة درجات كل منهم وأسبقيته وبلاؤه في الإسلام والجهاد .

فبدأ الله U في آيات هذا الموضوع بذكر علاقة المعاهدات بين المسلمين والكفار ، في إشارة إلى أن رد عدوان المشركين وبأسهم إن لم يأت عن طريق الجهاد إما بسبب ضعفهم المسلمين أو بسبب من الأسباب الأخرى فإنه يشرع معاهدتهم ومسالمتهم بشرط الاحتراس والحذر من كيدهم ومكرهم لأنهم شر الدواب عند الله ، قال تعالى : ﴿ J K L M N O P Q R S ﴾ .

قال الرازي : « اعلم أنه تعالى لما وصف كل الكفار بقوله : ﴿ F G H ﴾ أفرد بعضهم بمزية في الشر والعناد » (٣).

---

(١) انظر : أبو حيان ، البحر المحيط : (٥٠٣/٤) .
(٢) انظر : الرازي ، مفاتيح الغيب : (١٤٤/١٥) ، والبقاعي ، نظم الدرر : (٢٣٢/٣) .
(٣) الرازي ، مفاتيح الغيب : (١٤٥/١٥) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

وإنما جاء وصف الله تعالى لهم بـ﴿ K L ﴾ لأن دعوة الإسلام لما كانت أظهر من دعوة الأديان السابقة ، ومعجزة الرسول r لما كانت أسطع ، وكانت الدلالة على أحقية الإسلام دلالة عقلية بينة ، كان من يجحده أشبه بما لا عقل له ، وهم الدواب ، ولهذا ﴿ Q R S ﴾ أي إذا علمت أن أولئك شر الدواب فاعلم أنهم لا يؤمنون أصلا فلا تتعب نفسك، وفي الإتيان بالجملة الاسمية ﴿ Q R S ﴾ فيه إفادة لثبوت عدم إيمانهم ، وأنهم غير مرجو منهم الإيمان ، وأيضا فإن تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي المنفي مع عدم إيلاء المسند إليه حرف النفي ، لقصد إفادة تقوية نفي الإيمان عنهم ، أي الذين ينتفي الإيمان منهم في المستقبل انتفاء قويا فهم بعداء عنه أشد الابتعاد(١).

ولما ذكر I الصفة الأولى لشر الدواب عنده وهم الكفار الذين يكونون مستمرين على كفرهم مصرين عليه لا يتغير عنهم البتة ، أعقب ذلك بذكر صفة ثانية لهم وهي كونهم ناقضين للعهد على الدوام (٢)، فقال تعالى : ﴿ U V W X Y Z [\ ] ^ _ ` ﴾.

قال ابن عطية : « فكانوا شر الدواب على هذا بثلاثة أوصاف : الكفر ، والموافاة عليه ، والمعاهدة مع النقض »(٣).

وإنما تعدى فعل ﴿ V ﴾ بـ(من) للدلالة على أن العهد كان يتضمن التزاما من جانبهم، وأن هذه المعاهدة تكون مع أشرافهم(٤) ، قال الألوسي : « المراد عاهدتهم و(من) للإيذان بأن المعاهدة التي هي عبارة عن إعطاء العهد، وأخذه من الجانبين معتبرة ههنا، من حيث أخذه r إذ هو المناط لما نعى عليهم من النقض لا إعطاؤه عليه الصلاة والسلام إياهم عهده كأنه قيل : الذين أخذت منهم عهدهم وإلى هذا يرجع قولهم : إن (من) لتضمين العهد معنى الأخذ أي عاهدت آخذا منهم »(٥).

---

(١) انظر : الألوسي ، روح المعاني : (٢٢/١٠) ، وابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٤٧/١٠) .
(٢) انظر : الرازي ، مفاتيح الغيب : (١٤٦/١٥) .
(٣) ابن عطية ، المحرر الوجيز : (٦٢٠/٢) .
(٤) انظر : الرازي ، مفاتيح الغيب : (١٤٦/١٥) ؛ وابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٤٧/١٠) .
(٥) انظر : الألوسي ، روح المعاني : (٢٢/١٠) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

ثم ابتدأ يصف حال المعاهدين بقوله : ﴿X Y Z [\ ] ﴾ وصيغة الاستقبال هنا تدل على تعدد النقض وتجدده ووقوعهم منهم،وكونهم على نيته في كل حال[١].

وقد ختمت هذه الآية الكريمة بقوله : ﴿ ^ _ ` ﴾ وفي ذلك بيان لحالهم في النقض أي: ينقضون ويستمرون على النقض والحال أنهم لا يتقون سبة الغدر وعاره ومغبته ، أو لا يتقون الله تعالى فيه ، أو لا يتقون نصرة الله للمسلمين وتسليطهم عليهم [٢].

قال ابن عاشور : « ووقوع فعل ﴿ ` ﴾ في حيز النفي يعم سائر جنس الاتقاء وهو الجنس المتعارف منه، الذي يتهمم به أهل المروءات والمتدينون ، فيعم اتقاء الله وخشية عقابه في الدنيا والآخرة ، ويعم اتقاء العار ، واتقاء المسبة واتقاء سوء السمعة . فإن الخسيس بالعهد، والغدر ، من القبائح عند جميع أهل الأحلام ، وعند العرب أنفسهم » [٣].

ولما ذكر الله تعالى في الآية السابقة دأب الكافرين في نقضهم للعهود والمواثيق عقب ذلك ببيان علاقة المسلمين بهم وكيفية التعامل معهم عند نقضهم لتلك العهود والمواثيق ، فقال تعالى: ﴿b c d e f g h i j k ﴾ .

قال الرازي:«أنه تعالى لما ذكر الذين ينقضون عهدهم في كل مرة بين ما يجب أن يعاملوا به»[٤].

وقال الألوسي : « فإما تثقفنهم شروع في بيان أحكامهم بعد تفصيل أحوالهم والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها »[٥].

وقال ابن عاشور : « وإذ قد تحقق منهم نقض العهد فيما مضى ، وهو متوقع منهم فيما يأتي ، لا جرم تفرع عليه أمر الله رسوله r أن يجعلهم نكالا لغيرهم ، متى ظفر بهم في حرب يشهرونها عليه أو يعينون عليه عدوه » [٦].

---

(١) انظر : ابن عطية ، المحرر الوجيز : (٦٢٠/٢) ، والألوسي ، روح المعاني : (٢٢/١٠) .
(٢) انظر : أبو حيان ، البحر المحيط : (٥٠٤/٤) ؛ والألوسي ، روح المعاني : (٢٢/١٠) .
(٣) ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٤٩/١٠) .
(٤) الرازي ، مفاتيح الغيب : (١٤٦/١٥) .
(٥) الألوسي ، روح المعاني : (٢٢/١٠) .
(٦) ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٤٩/١٠) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

ومعنى قوله : ﴿ c ﴾ الثقف في اللغة : الحذق في إدراك الشيء وفعله ، يقال : ثقفت كذا إذا أدركته ببصرك لحذق في النظر ، ثم يتجوز به فيستعمل في الإدراك وإن لم تكن معه ثقافة[(١)]، ومعنى الآية : فإن وجدتهم وأدركتهم وظفرت بهم في حرب بانتصارك عليهم[(٢)].

وقوله : ﴿ f g ﴾ قال الراغب : « شردت فلانا في البلاد ، وشردت به ، أي : فعلت به فعلة تشرد غيره أن يفعل فعله كقولك : نكلت به ، أي : جعلت ما فعلت به نكالا لغيره ، قال ﴿ f g h i ﴾ أي : اجعلهم نكالا لمن يعرض لك بعدهم ، وقيل فلان طريد شريد» [(٣)]. ومعنى الآية : إنك يا محمد إن ظفرت في الحرب بهؤلاء الكفار الذين ينقضون العهد فافعل بهم فعلاً يفرق بهم من خلفهم ، وذلك بالتخويف والتنفير والتنكيل والإثخان ، فيكونون عبرة لمن يريدون نقض العهود فيخافون فلا يقدمون على مثل فعلهم[(٤)]، ولهذا ختمت الآية الكريمة بقوله تعالى : ﴿ j k ﴾ أي لعل من خلف المثقفين في الحرب يتذكرون ما حل بناقضي العهد من النكال ، فيرتدعون فلا يقدمون على نقض العهد بل يتعظون ويعتبرون بما حل بأسلافهم[(٥)]، قال البقاعي : « ولما ذكر الحكم ، ذكر ثمرته بأداة الترجي إدارة له على الرجاء » [(٦)].

وقد امتثل النبي الكريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم لأمر الله تعالى في هذه الآية الكريمة وذلك حين نقض يهود بني قريظة العهد الذي بينهم وبين المسلمين حيث أعانوا المشركين بالسلاح يوم أحد ، قال ابن عاشور : « ولأجل هذا الأمر نكل النبي r بقريظة حين حاصرهم ونزلوا على حكم سعد بن معاذ، فحكم بأن تقتل المقاتلة وتسبى الذرية ، فقتلهم رسول الله r بالمدينة وكانوا أكثر من ثمانمائة رجل ، وقد أمر الله رسوله r في هذا الأمر بالإغلاظ على العدو لما في ذلك من مصلحة إرهاب أعدائه، فإنهم كانوا يستضعفون المسلمين،

---

(١) انظر : الراغب ، المفردات في غريب القرآن : (٧٩) .

(٢) انظر : الرازي ، مفاتيح الغيب : (١٤٦/١٥) ؛ وابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٤٩/١٠) .

(٣) انظر : الراغب ، المفردات في غريب القرآن : (٢٥٨) .

(٤) انظر : الرازي ، مفاتيح الغيب : (١٤٦/١٥) ؛ وابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٥٠/١٠) .

(٥) انظر : الألوسي ، روح المعاني : (١٠/ ٢٣) ؛ وابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٥٠/١٠) .

(٦) البقاعي : نظم الدرر : (٢٣٤/٣) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

فكان في هذا الإغلاظ على الناكثين تحريض على عقوبتهم ، لأنهم استحقوها ، وفي ذلك رحمة لغيرهم لأنه يصد أمثالهم عن النكث ويكفي المؤمنين شر الناكثين الخائنين ، فلا تخالف هذه الشدة كون الرسول r أرسل رحمة للعالمين ، لأن المراد أنه رحمة لعموم العالمين وإن كان ذلك لا يخلو من شدة على قليل منهم »[١].

ولما ذم الله U من نقض العهد من الكفار وبين حكمه وعاقبته وما يفعل بمن تحقق نقضه، أرشد بعد ذلك إلى ما يفعل بمن يخاف منه غدره ونقضه[٢]، في إشارة واضحة إلى أن نقض العهود والمواثيق مذموم حتى من جانب المؤمنين ، وأنه لا عذر لأحد من المسلمين بنقض العهد مهما كانت الأسباب ، ومهما لاحت من العدو أمارات الخيانة والغدر إلا بعد إعلام العدو بذلك وأنهم كانوا السبب في نقضه ونبذه، قال تعالى : ﴿ m n o p q r s t u w x y z { ﴾ ، فالمراد بالخوف من خيانة العدو توقع نقض العهود منهم بظهور أمارات وعلامات تدل على ما ضمائرهم، وذلك بالأخبار الذي تأتي من قبلهم وما يأتي به تجسس أحوالهم، ومعنى قوله : ﴿ r s t u ﴾ النبذ إلقاء الشيء وطرحه لقلة الاعتداد به ، ومعناه هنا: ألق إليهم السلم والعهد ، مقابلة بالمثل ، ومجيء النبذ في العهود بدل الإلقاء والطرح فيه تنبيه إلى أن لا يؤكد العقد معهم، بل حقهم أن يطرح ذلك إليهم طرحا مستحثا به على سبيل المجاملة، وأن يراعيهم حسب مراعاتهم له ويعاهدهم على قدر ما عاهدوه[٣].

وإنما رتب نبذ العهد على خوف الخيانة ، دون وقوعها ؛ لأن شؤون المعاملات السياسية والحربية تجري على حسب الظنون ، ولا ينتظر تحقق وقوع الأمر المظنون ؛ لأنه إذا تريث ولاة الأمور في ذلك يكونون قد عرضوا الأمة للخطر، أو للتورط في غفلة وضياع مصلحة ، ولا تدار سياسة الأمة بما يدار به القضاء في الحقوق ، لأن الحقوق إذا فاتت كانت بليتها على واحد ، وأمكن تدارك فائتها، ومصالح الأمة إذا فاتت تمكن منها عدوها ، فلذلك علق نبذ العهد بتوقع خيانة المعاهدين من الأعداء، ومعنى قوله: ﴿ t u ﴾ أي نبذا واضحا علنا مكشوفا[٤].

---

(١) ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٤٩/١٠) .

(٢) انظر : البقاعي ، نظم الدرر : (٢٣٥/٣) .

(٣) انظر : الراغب ، المفردات في غريب القرآن : (٤٨٠) .

(٤) ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٥٢/١٠) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

ولما أشارت هذه الآية الكريمة إلى العلاقة بين المسلمين وبين من يريد نقض العهود من المشركين ، وكان أمر الله واضحا في ذلك ، أشار في خاتمتها إلى ما يقتضي أقصى التباعد من كل ما يوهم نكث العهد ونقضه وهو عدم محبة الله للخائنين ، فقال تعالى : ﴿w x y z { ﴾ وفي هذا أيضا إشارة إلى علة جواز النبذ ، وفيه كذلك اتصاف الله تعالى بالعدل والإنصاف ، وأنه I لا يحب صدور الخيانة لا من المؤمنين ولا من غيرهم(١).

قال الألوسي في خاتمة هذه الآية : « تعليل للأمر بالنبذ باعتبار استلزامه للنهي عن المناجزة التي هي خيانة فيكون تحذيرا للنبي r منها ، وجوز أن يكون تعليلا لذلك باعتبار استتباعه للقتال بالآخرة فتكون حثا له r على النبذ أولا وعلى قتالهم ثانيا ، كأنه قيل : وإما تعلمن من قوم خيانة فانبذ إليهم ثم قاتلهم إن الله لا يحب الخائنين وهم من جملتهم لما علمت حالهم والأول هو المتبادر وعلى كلا التقديرين المراد من نفي الحب إثبات البغض » (٢).

وقال الرازي : « قال أهل العلم : آثار نقض العهد إذا ظهرت فإما أن تظهر ظهوراً محتملاً أو ظهوراً مقطوعاً به ، فإن كان الأول وجب الإعلام على ما هو مذكور في هذه الآية ، وذلك لأن قريظة عاهدوا النبي r ثم أجابوا أبا سفيان ومن معه من المشركين إلى مظاهرتهم على رسول الله فحصل لرسول الله خوف الغدر منهم به وبأصحابه فههنا يجب على الإمام أن ينبذ إليهم عهودهم على سواء ويؤذنهم بالحرب ، أما إذا ظهر نقض العهد ظهوراً مقطوعاً به فههنا لا حاجة إلى نبذ العهد كما فعل رسول الله بأهل مكة »(٣).

ولما ذكر الله U نقض الكافرين للعهود والمواثيق وأمر نبيه r بالتنكيل بهم والتشديد عليهم وتخويف من وراءهم من الكفار الراغبين في نقض العهود ، وأمره كذلك بنبذ عهود من ظهرت منهم أمارات الخيانة وآثارها ، عقب ذلك بالإشارة أن تلك الأوامر ما هي إلا بعضا مما يوقعه الله تعالى بتسليط المؤمنين عليهم ، وأنه I باستطاعته أن يهلكهم بهلاك من عنده فهم لا يعجزونه ، وفي ذلك إشارة ضمنية إلى مشركي قريش ممن خلص من أيدي المؤمنين وهرب بنفي

---

(١) انظر : البقاعي ، نظم الدرر : (٢٣٥/٣) .

(٢) الألوسي ، روح المعاني : (٢٣/١٠) .

(٣) الرازي ، مفاتيح الغيب : (١٤٧/١٥) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

قدرتهم على المقاومة والمقابلة بأي حال من الأحوال ، وأنه سبحانه سيمكن المؤمنين منهم إن عاجلا أو آجلا ، ففي هذا تسلية للنبي r والمؤمنين[(١)]، قال تعالى : ﴿ { ~ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ سَبَقُوٓاْۚ إِنَّهُمۡ لَا يُعۡجِزُونَ ﴾ .

قال الرازي : « اعلم أنه تعالى لما بين ما يفعل الرسول في حق من يجده في الحرب ويتمكن منه ، وذكر أيضاً ما يجب أن يفعله فيمن ظهر منه نقض العهد بين أيضاً حال من وفاته في يوم بدر وغيره لئلا يبقى حسرة في قلبه فقد كان فيهم من بلغ في أذية الرسول عليه الصلاة والسلام مبلغاً عظيماً »[(٢)].

وما ذكرته من المناسبات والتناسقات بين هذه الآيات وما قبلها من آيات وموضوعات سواء التناسق بين الموضوع القريب أو البعيد يتبين لك روعة النظم القرآني ، وأن لكل تناسب وتناسق له معناه الخاص من الآية، فتتناسق الآية مع موضوع غزوة بدر لأن فيها تسلية للنبي r والمؤمنين فيمن فاتهم من المشركين في تلك الغزوة ولم ينتقم منهم، فأعلمهم الله أنهم لا يعجزونه، وفي المراد بـ﴿إِنَّهُمۡ لَا يُعۡجِزُونَ﴾ قولان للعلماء : الأول : أن المراد ولا تحسبن أنهم انفلتوا منك فإن الله يظفرك بعيرهم . والثاني : لا تحسبن أنهم لما تخلصوا من الأسر والقتل أنهم قد تخلصوا من عقاب الله ومن عذاب الآخرة [(٣)].

كما أن هذه الآية متناسقة مع موضوع جهاد الكفار عموما وهو محور السورة العام ، وذلك أن المراد من الآية إقناط الكفار الناقضين لعهودهم مع المسلمين أو الساعين إلى ذلك من الخلاص ، وقطع أطماعهم الفارغة من الإنتفاع بالنبذ والإقتصار على دفع هذا للتوهم وعدم دفع توهم سائر ما تتعلق به أمانيهم الباطلة من مقاومة المؤمنين أو الغلبة عليهم للتنبيه على أن ذلك مما لا يحوم عليه عقاب[(٤)].

---

(١) انظر : الخازن ، لباب التأويل في معاني التنزيل : (٣/ ٤٥) ؛ وأبو السعود ، إرشاد العقل السليم : (٣٢/٤) ؛ والبقاعي ، نظم الدرر : (٢٣٥/٣) ، والألوسي ، روح المعاني : (٢٣/١٠) .

(٢) الرازي ، مفاتيح الغيب : (١٤٧/١٥) .

(٣) انظر : الرازي ، مفاتيح الغيب : (١٤٧/١٥) ، الخازن ، لباب التأويل : (٤٥/٣) .

(٤) انظر : الألوسي ، روح المعاني : (١٠/ ٢٣) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

وفي خاتمة هذه الآية الكريمة يقول الله تعالى : ﴿إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ وفي ذلك مقابلة بسبق الكفار المتقدم، والمعنى: وهؤلاء الكفار وإن ظهرت نجاتهم الآن، فما هي إلا نجاة في وقت قليل، فهم لا يعجزون الله، أو لا يعجزون المسلمين، أي لا يصيرون من أفلتوا منه عاجزا عن نوالهم[(١)].

ولما كان معنى الآية السابقة لا يغرنك علو الكفار وكثرتهم ، وجري كثير من الأمور على مرادهم ، فكل ذلك بتدبيرنا ، ولا يخرج شيء عن مرادنا ، ولا بد أن نهلكهم فإنهم في قبضتنا، لم يخرجوا منها ولا يخرجون فضلاً عن أن يفوتوها فاصبر ، وكان هذا المعنى ربما أدى إلى ترك المناصبة والمحاربة والمغالبة اعتماداً على الوعد الصادق المؤيد بما وقع لهم في بدر من عظيم النصر مع نقص دعوى العِدة والعُدة ، أتبعه ما يبين أتم اللازم ربط الأسباب بمسبباتها ، وليتبين الصادق في دعوى الإيمان من غيره[(٢)] فقال تعالى : ﴿وَأَعِدُّوا © مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ ´ µ ¶ ¸ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾﴾ .

قال البقاعي : « الآية بالنسبة إلى ما تقدمها من باب اعقلها وتوكل ، والمعنى : لا تظنوا أن الكفار فاتونا وأفلتوا من عذابنا بامتناعهم منكم ، فإنه لا يحملنكم الاتكال على قوتنا على ترك أسباب مغالبتهم بما أعطيناكم من القوى بل ابذلوا جهدكم وطاقتكم في إعداد مكايد الحرب وما يتعلق بالرمي من القوة وبالخبل من الطعن والضرب والفروسيه لنلقي بذلك رعبكم في قلوب عدوكم القريب والبعيد من تعلمونه منهم ومن لا تعلمونه »[(٣)].

وقال ابن عاشور بعد أن ذكر أن هذه الآية معطوفة على سابقتها : « لأن قوله : ﴿ { ~ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا﴾ يفيد توهينا لشأن المشركين ، فتعقيبه بالأمر بالاستعداد لهم : لئلا يحسب المسلمون أن المشركين قد صاروا في مكنتهم ، ويلزم من ذلك الاحتراس أن الاستعداد لهم هو سبب جعل الله إياهم لا يعجزون الله ورسوله ، لأن الله هيأ أسباب استئصالهم ظاهرها وباطنها »[(٤)].

---

(١) انظر : ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٥٤/١٠) .

(٢) انظر : البقاعي ، نظم الدرر : (٢٣٥/٣) .

(٣) البقاعي ، نظم الدرر : (٢٣٦/٣) .

(٤) انظر : ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٥٤/١٠-٥٥) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

فالإعداد المأمور به في الآية يعم كل إعداد يتخذه المسلمون للتقوي به على حرب العدو الكافر، من تصنيع وتعلم جميع أنواع الأسلحة والآلات ، وإنما علق سبحانه بالاستطاعة لطفاً منه تعالى على المخاطبين [١].

وقد فسر النبي r القوة المذكور في الآية بالرمي كما تقدم في الموضوعات ، إلا أن ذلك التفسير محمول على أكمل أفراد القوة ، وليس حصر القوة في آلة الرمي [٢]، وإنما جاء عطف ﴿رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ على﴿قُوَّةٍ﴾ وهو من عطف الخاص على العام ، للاهتمام بذلك الخاص [٣]، وقد اختلف العلماء في المراد من رباط الخيل إلا أن أقوالهم كلها تدور حول ربطها انتظارا للغزو عليها ، وقد جاءت الأحاديث الواردة عن النبي r مبينة ثواب من ربط الخيل في سبيل الله تعالى ، وقد تقدم بعضها في فصل موضوعات السورة [٤] .

وقد ربط البقاعي بين ذكر رباط الخيل هنا وبين موضوع غزوة بدر الذي تقدم في بداية السورة حيث قال : « وفي أمرهم بقوله : ﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ إيماء إلى باب من الامتنان بالنصر في بدر لأنهم لم يكن معهم فيه غير فرسين » [٥].

ولما أمر I بالاستعداد بكل ما لا يلزم للقيام بواجب الجهاد ، ذكر ما لأجله أمر بإعداد هذه الأشياء [٦] فقال : ﴿تُرْهِبُونَ بِهِۦ ´ µ ¶ ﴾ ، وأيضا لما كان العدو لا يرتدع إلا برؤية الماديات والمحسوسات ، حيث لا علم له بخفايا الأمور والأسباب الإلهية التي ينصر بها عباده المؤمنين ، ولا بالإيمانيات والغيبيات ، ذكر أن تلك الإستعدادات الظاهرية هي ما يخاف منها الأعداء ، في إشارة واضحة إلى أن عليهم دائما التجهز لكل الاحتمالات تجاه أعداءهم الكفار سواء في السلم والحرب ، وألا يكونوا مثل ما كانوا عليه في غزوة بدر من عدم التجهز للقاء العدو ومجالدته .

---

(١) انظر : أبو حيان ، البحر المحيط : (٥٠٧/٤) .
(٢) انظر : الرازي ، مفاتيح الغيب : (١٤٨/١٥) ؛ وأبو حيان ، البحر المحيط : (٥٠٧/٤) .
(٣) انظر : ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٥٤/١٠-٥٥) .
(٤) انظر في الصفحة : (١٦٣) .
(٥) البقاعي ، نظم الدرر : (٢٣٥/٣-٢٣٦) .
(٦) الرازي ، مفاتيح الغيب : (١٤٨/١٥) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

وإلى هذا أشار الرازي حيث قال:«لما اتفق أصحاب النبي r في قصة بدر أن قصدوا الكفار بلا آلة ولا عدة أمرهم الله أن لا يعودوا لمثله وأن يعدوا للكفار ما يمكنهم من آلة وعدة وقوة»[١].

ويضيف أبو حيان قائلا : « لما أمره تعالى بالتشريد ونبذ العهد للناقضين كان ذلك سبباً للأخذ في قتاله والتمالؤ عليه فأمره تعالى للمؤمنين بإعداد ما قدروا عليه من القوة للجهاد والإعداد الارصاد » [٢].

وقد ذكر الرازي صورا من فوائد هذا الإرهاب فقال : « وذلك أن الكفار إذا علموا كون المسلمين متأهبين للجهاد ومستعدين له مستكملين لجميع الأسلحة والآلات خافوهم وذلك الخوف يفيد أموراً كثيرة، **أولها:** أنهم لا يقصدون دخول دار الإسلام، **وثانيها:** أنه إذا اشتد خوفهم فربما التزموا من عند أنفسهم جزية، **وثالثها:** أنه ربما صار ذلك داعياً لهم إلى الإيمان، **ورابعها:** أنهم لا يعينون سائر الكفار، **وخامسها:** أن يصير ذلك سبباً لمزيد الزينة في دار الإسلام »[٣].

ويمكن أن يضاف أمر سادس فيقال : أن ذلك سيعين على مواصلة الهدنة والمعاهدة مع المسلمين ، ولا يفكر هؤلاء الكفار في نقض مواثيقهم وعودهم .

وإنما لم يكتف بذكر عداوة الكفار لله بل صرح بعدواتهم للمؤمنين أيضا لأن في ذلك حثا وتحريضا للمؤمنين على الإستعداد لهم ومواجهتم وقتالهم ، لأن العدو دائما ما يسعى إلى استأصال شأفة عدوه ، فعندما يعلم الخصم تلك العداوة يبادر في أخذ زمام الأمور قبله .

قال أبو حيان : « وذكر أولاً ﴿ ´ µ ﴾ تعظيماً لما هم عليه من الكفر وتقوية لذمّهم وأنه يجب لأجل عداوتهم لله أن يقاتلوا ويبغضوا ، ثم قال : ﴿ ¶ ﴾ على سبيل التحريض على قتالهم إذ في الطبع أن يعادي الإنسان من عاداه وأن يبغي له الغوائل » [٤].

وقوله تعالى : ﴿ ¸ مِن دُونِهِمْ ﴾ يعني وترهبون آخرين من دونهم ، وقد اختلف العلماء في المراد ﴿مِن دُونِهِمْ﴾ ، فمنهم من قال : هم بنو قريظة ، ومنهم من قال : اليهود ، ومنهم

---

(١) الرازي ، المصدر السابق .

(٢) انظر : أبو حيان ، البحر المحيط : (٤/٥٠٦-٥٠٧) .

(٣) الرازي ، مفاتيح الغيب : (١٥/١٤٩) .

(٤) أبو حيان ، البحر المحيط : (٤/٥٠٨) . وانظر : ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (١٠/٥٦) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

من قال : فارس ، ومنهم من قال : كفار الجن ، وقد رجح الطبري هذا القول ، واستدل له بأحاديث ، ومال الرازي وأبو حيان والبقاعي وغيرهم إلى أن المراد بهم المنافقون ، لأنه I قال: ﴿لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ أي لا تعلمون أعيانهم وأشخاصهم إذ هم متسترون عن أن تعلموهم بالإسلام[١].

والراجح -والعلم عند الله- أن الذي يدل عليه اللفظ القرآني هو للعموم وأن كل من لا نعلمهم سواء بأشخاصهم وأعيانهم أو بنسبتهم وجنسهم يدخلون تحت قوله : ﴿ ﮁ مِن دُونِهِمْ ﴾ ، وقريبا مما ذكرته يقول القرطبي : « ولا ينبغي أن يقال فيهم شيء ، لأن الله سبحانه قال: ﴿ ﮁ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ ، فكيف يدعي أحد علما بهم ، إلا أن يصح حديث جاء في ذلك عن رسول الله r »[٢].

وقد ختمت هذه الآية الكريمة بقوله تعالى : ﴿ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ وذلك لأنه لما كان إعداد القوة العسكرية التي أمر الله بها في مقدمة الآية تتطلب تحمل النفقات الباهظة لإعداد الأسلحة الكثيرة ، وتدريب الجنود على استعمالها، حث الله U في خاتمتها هذه الآية إلى الإنفاق في سبيله، حتى يتم الاستعداد بأحسن الوجوه ، وذكر المنفقين في سبيله بثوابه الجزيل ، وعطاءه العظيم .

قال البقاعي : « ولما كان أغلب معاني هذه الآية الإنفاق ، لأن مبنى إعداد القوة عليه رغب فيه » [٣].

وقال ابن عاشور : « وإذ قد كان إعداد القوة يستدعي إنفاقا ، وكانت النفوس شحيحة بالمال ، تكفل الله للمنفقين في سبيله بإخلاف ما أنفقوه والإثابة عليه » [٤].

---

(١)انظر: الرازي، مفاتيح الغيب: (١٤٩/١٥)؛ وأبو حيان، البحر المحيط: (٥٠٩/٤)؛ والبقاعي، نظم الدرر:(٢٣٦/٣).

(٢) القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن : (٣٨/٨) .

(٣) البقاعي ، نظم الدرر : (٢٣٦/٣) .

(٤) ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٥٧/١٠) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

ولما بين **I** ما يرهب به العدو من القوة والاستظهار بين بعده أنهم عند الإرهاب إذا ﴿جَنَحُواْ﴾ أي مالوا إلى الصلح فالحكم قبول الصلح[(١)] قال تعالى : ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

قال ابن عاشور : « انتقال من بيان أحوال معاملة العدو في الحرب : من وفائهم بالعهد ، وخيانتهم ، وكيف يحل المسلمون العهد معهم إن خافوا خيانتهم ، ومعاملتهم إذا ظفروا بالخائنين ، والأمر بالاستعداد لهم ؛ إلى بيان أحكام السلم إن طلبوا السلم والمهادنة ، وكفوا عن حالة الحرب ، فأمر الله المسلمين بأن لا يأنفوا من السلم وأن يوافقوا من سأله منهم »[(٢)].

وقد اختلف العلماء في هذه الآية، هل هي منسوخة أم لا ، قال ابن العربي : « في ذلك ثلاثة أقوال : الأول: أنها منسوخة بقوله : ﴿ | { ﴾[التوبة: ٥] ونحوه . الثاني: إن دعوك إلى الصلح فأجبهم . الثالث: إن جنحوا إلى الإسلام فاجنح لها » ، ثم قال : « أما قول من قال: إنها منسوخة بقوله : ﴿ | { ﴾ فدعوى ، فإن شروط النسخ معدومة فيها، كما بيناه في موضعه . وأما من قال: إن دعوك إلى الصلح فأجبهم فإن ذلك يختلف الجواب فيه ؛ وقد قال الله تعالى : ﴿k l m n o p q r s t u v w﴾ [محمد: ٣٥]. فإذا كان المسلمون على عزة ، وفي قوة ومنعة ، فلا صلح ، وإن كان للمسلمين مصلحة في الصلح لانتفاع يجلب به ، أو ضر يندفع بسببه فلا بأس أن يبتدئ المسلمون به إذا احتاجوا إليه، وأن يجيبوا إذا دعوا إليه وقد صالح النبي **r** أهل خيبر على شروط نقضوها، فنقض صلحهم، وهادن قريشا لعشرة أعوام حتى نقضوا عهده، وما زالت الخلفاء والصحابة على هذه السبيل التي شرعناها سالكة ، وبالوجوه التي شرحناها عاملة »[(٣)].

ولما أمر الله سبحانه بالجنوح للسلم إذا جنح العدو لها ختم الآية بقوله تعالى : ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ وفي ذلك أمر منه سبحانه بالاعتماد عليه ، وتفويض أمر السلم إليه

---

(١) انظر : الرازي ، مفاتيح الغيب : (١٤٩/١٥) .

(٢) ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٥٨/١٠) .

(٣) ابن العربي ، أحكام القرآن : (٤٢٧/٢) باختصار .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

فإن أبطنوا الخديعة في جنوحهم إلى السلم فإنّ الله كاف من توكّل عليه فهو I السميع لأقوالهم العليم بنياتهم[١].

قال البقاعي : « ولما كان ذلك مظنة أن يقال : إنه قد عهد منهم من الخداع ما أعلم أنهم مطبوعون منه على ما لا يؤمنون معه فمسالمتهم خطر بغير نفع ، لوح إلى ما ينافي ذلك بقوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ فيما تعهده من خداعهم فإنه يكفيك أمره ويجعله سبباً لدمارهم » [٢].

وقال ابن عاشور: « والأمر بالتوكل على الله، بعد الأمر بالجنوح إلى السلم، ليكون النبي r معتمدا في جميع شأنه على الله تعالى ، ومفوضا إليه تسيير أموره ، لتكون مدة السلم مدة تقو واستعداد ، وليكفيه الله شر عدوه إذا نقضوا العهد ، ولذلك عقب الأمر بالتوكل بتذكيره بأن الله السميع العليم ، أي السميع لكلامهم في العهد ، العليم بضمائرهم ، فهو يعاملهم على ما يعلم منهم » [٣].

وفي الجمع بين الأمر هنا بقصر التوكل عليه وبين ما تقدم من الأمر بإعداد ما استطاع من القوة للعدو تناسق واضح ودليل بين على أن التوكل أمر غير تعاطي أسباب الأشياء ، فتعاطي الأسباب فيما هي من مقدور الناس ، والتوكل فيما يخرج عن ذلك [٤].

ولما أمر سبحانه في الآية المتقدمة بالجنوح للسلم والصلح أعقب في هذه الآية بذكر حكم من أحكام الصلح ، قال تعالى : ﴿ ! " # $ % & ' ( ) * + , - ﴾ والمعنى : أنهم إن صالحوك على سبيل المخادعة وجب قبول ذلك الصلح ؛ لأن الحكم يبنى على الظاهر ، ولأن الصلح لا يكون أقوى حالاً من الإيمان ، فلما بنينا أمر الإيمان عن الظاهر لا على الباطن فههنا أولى[٥].

---

(١) انظر : أبو حيان ، البحر المحيط : (٤/٥٠٩-٥١٠) .

(٢) البقاعي ، نظم الدرر : (٣/٢٣٧) ، باختصار .

(٣) ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (١٠/٥٩) .

(٤) ابن عاشور ، المصدر السابق .

(٥) انظر : الرازي ، مفاتيح الغيب : (١٥/١٤٩) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

والفرق بين هذه الآية والتي قبلها في قوله تعالى : ﴿ m n o p q ﴾ أن الآية الأولى محمولة على ما إذا تأكد ذلك الخوف بأمارات قوية دالة عليها ، وتحمل هذه الآية المخادعة على ما إذا حصل في قلوبهم نوع نفاق وتزوير إلا أنه لم تظهر أمارات تدل على كونهم قاصدين للشر وإثارة الفتنة بل كان الظاهر من أحوالهم الثبات على المسألة وترك المنازعة(١).

ولما ذكر الله U أنه حسب النبي r وكافيه ذكر في خاتمة الآية ما يدل على ذلك فقال تعالى : ﴿ (* + , - ﴾ .

قال ابن عاشور : « وجملة ﴿ (* + , ﴾ مستأنفة مسوقة مساق الاستدلال : على أنه حسبه ، وعلى المعنى التعريضي وهو عدم التحرج من احتمال قصدهم الخيانة والتوجس من ذلك الاحتمال خيفة ، والمعنى : فإن الله قد نصرك من قبل وقد كنت يومئذ أضعف منك اليوم ، فنصرك على العدو وهو مجاهر بعدوانه ، فنصره إياك عليهم مع مخاتلتهم ، ومع كونك في قوة من المؤمنين الذين معك ، أولى وأقرب »(٢).

وإنما جعلت التقوية بالنصر لأن النصر يقوي العزيمة ، ويثبت رأي المنصور ، وضده يشوش العقل ، ويوهن العزم ، وفي إضافة النصر إلى الله تنبيه على أنه نصر خارق للعادة ، وهو النصر بالملائكة والخوارق ، من أول أيام الدعوة(٣).

قال الرازي : « فإن قيل : لما قال : ﴿ (* + , ﴾ فأي حاجة مع نصره إلى المؤمنين حتى قال : ﴿ - ﴾ ؟ قلنا : التأييد ليس إلا من الله لكنه على قسمين أحدهما ما يحصل من غير واسطة أسباب معلومة معتادة والثاني ما يحصل بواسطة أسباب معلومة معتادة ، فالأول هو المراد من قوله : ﴿ + , ﴾ ، والثاني هو المراد من قوله : ﴿ - ﴾ »(٤)، وإنما أعيد حرف الجر بعد واو العطف في قوله: ﴿ - ﴾ لدفع توهم أن يكون معطوفا على اسم الجلالة فيوهم أن المعنى : ونصر المؤمنين ، مع أن

---

(١) انظر : الرازي ، مفاتيح الغيب : (١٥/١٤٩) ؛ وابن عاشور ، التحرير والتنوير : (١٠/٦٢) .

(٢) ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (١٠/٦٢) .

(٣) انظر : ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (١٠/٦٢) .

(٤) انظر : الرازي ، مفاتيح الغيب : (١٥/١٥١) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

المقصود أن وجود المؤمنين تأييد من الله لرسوله إذ وفقهم لاتباعه ، فشرح صدره بمشاهدة نجاح دعوته ، وتزايد أمته ، ولكون المؤمنين جيشا ثابتي الجنان ، فجعل المؤمنون بذاتهم تأييدا[١].

ولما بين I أنه أيد النبي r بالمؤمنين بين كيف أيده بهم[٢] فقال : ﴿ / 0 1 3 4 5 6 7 8 9 : ; < = > ? @ B C D ﴾.

وهذا التأليف المذكور في الآية هو جمع قلوب من بعث فيهم النبي r من العرب ببعضها مع عصبيتهم الشديدة فكانت تلك آية من آيات النبي r ومعجزة من معجزاته ، لأن هؤلاء العرب كان أحدهم يلطم اللطمة فيقاتل عنها جميع أفراد قبيلته حتى يدركوا ثأره ، فكانت بذلك بينهم خصومات شديدة ومحاربة دائمة ثم زالت هذه الضغائن وحصلت الألفة والمحبة ، وكل هذا مما لا يقدر عليه إلا الله تعالى الذي بيده قلوب العباد يقلبها كيف يشاء ، فصارت تلك معجزة ظاهرة على صدق نبوة محمد r [٣]، ولهذا قال تعالى في هذه الآية ﴿3 4 5 6 7 8 9 : ; < = > ? @ ﴾.

ثم إنه تعالى لما بين أن هذا التأليف بين قلوب المؤمنين كان صنعا عجيبا، وقدرة عظيمة منه I ، ختم هذه الآية بصفتين عظيمتين متناسقتين مع موضوعها فقال: ﴿ B C D ﴾ أي قوي القدرة يمكنه التصرف في القلوب ويقلبها من العداوة إلى الصداقة ومن النفرة إلى الرغبة، حكيم محكم التكوين والتأليف بين القلوب بحيث تكون كالأمر المسنون المألوف على وجه الإتقان والإحكام[٤].

ولما أخبر الله I نبيه محمدا r بأنه حسبه وكافيه ، وكانت كفاية الله للعبد أعظم المقاصد، ووعده بالنصر عند مخادعة الأعداء، ودلل على ذلك بأن أيده بنصره فيما مضى وبالمؤمنين ، وصار للمؤمنين حظ في كفاية الله تعالى رسوله r ، والتفتت الأنفس إلى أنه هل يكفيه مطلقاً أو هو فعل مع المؤمنين أيضاً مثل ذلك ، أنتج عنه[٥] قوله تعالى : ﴿ F G H

(١) انظر : ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٦٣/١٠) .
(٢) انظر : الرازي ، مفاتيح الغيب : (١٥١/١٥) .
(٣) انظر : القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن : (٤٢/٨) ؛ وابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٦٤/١٠) .
(٤) انظر : الرازي ، مفاتيح الغيب : (١٥٢/١٥) ؛ وأبو حيان ، البحر المحيط : (٥١٠/٤) .
(٥) انظر : البقاعي ، نظم الدرر : (٢٣٨/٣) ؛ وابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٦٥/١٠) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

I J K L M ﴾ ، قال ابن عاشور : « هذه الجملة كالفذلكة[١] للجملة التي قبلها »[٢] ، وليس في هذه الآية تكرير لما سبق من قوله تعالى : ﴿ ! " # $ % & ' ﴾ فتلك كانت في بيان كفاية خاصة لخداع المسالمين ، وهذه الآية في بيان عموم كفاية الله لرسوله والمؤمنين ، أي حسبك الله في كل حال [٣].

وفي بدء الآية بنداء النبي r فيه إشارة إلى معنى الرفعة والاطلاع من جهة الله على ما لا يعلمه العباد ، لأنه في سياق الإخبار ببعض المغيبات والتصرف في الملكوت ، وفي ذلك أيضا تشريف لمقامه r بأن الله يكفي الأمة لأجله[٤].

وفي معنى هذه الآية الكريمة قولان : الأول : التقدير الله كافيك وكافي أتباعك من المؤمنين . والثاني : أن يكون المعنى : كفاك الله وكفاك أتباعك من المؤمنين [٥].

قال البقاعي : « يجوز أن يكون المعية من ضميره r فيكون المؤمنون مكفيين ، وأن يكون من الجلالة فيكونوا كافين، حتى يكون المعنى : فهو كافيهم أيضاً وهم كافوك لأنه معهم، وساق سبحانه هذا هكذا تطبيبا لقلوبهم وجبراً لخواطرهم، وبالمعنى الثاني لتضمنه الأول وزيادة عليه»[٦].

ولما تقدم أنه I كاف نبيه بنصره وتأييده والمؤمنين بين أنه تعالى وإن كان يكفيه بنصره وبنصر المؤمنين فليس من الواجب أن يتكل على ذلك إلا بشرط أن يحرض المؤمنين على القتال فإنه تعالى إنما يكفيه بالكفاية بشرط أن يحصل منهم بذل النفس والمال في المجاهدة[٧] فقال تعالى : ﴿ O P Q R S T V W X Y Z [\ ^ _ ` a b c d e f g h i j ﴾.

---

(١) الفذلكة هي : مجمل ما فصل وخلاصته ، انظر : المعجم الوسيط : (٦٧٨/٢) .

(٢) ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٦٥/١٠) .

(٣) انظر : القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن : (٤٢/٨) .

(٤) انظر : البقاعي ، نظم الدرر : (٢٣٨/٣) ؛ وابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٦٥/١٠) .

(٥) انظر : القرطبي ، الجامع لأحكام القرطبي : (٤٣/٨) ؛ والرازي ، مفاتيح الغيب : (١٥٣/١٥) .

(٦) البقاعي ، نظم الدرر : (٢٣٩/٣) .

(٧) انظر : الرازي ، مفاتيح الغيب : (١٥٣/١٥) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

قال البقاعي : « ولما بين أنهم كافون مكفيون ، وكان ذلك مشروطاً الكيس والحزم وهو الهيبة للأبطال في حال من الأحوال ، فقال معبراً بالوصف الناظر إلى جهة التلقي عن الله ليشتد وثوق السامع لما يسمعه ﴿ O P ... ﴾ »[١].

وقال ابن عاشور في سياق تفسير الآية التي قبلها : « والتناسب بينها وبين الآية التي بعدها ظاهر مع اتفاقهم على أن الآية التي بعدها نزلت مع تمام السورة فهي تمهيد لأمر المؤمنين بالقتال ليحققوا كفايتهم الرسول »[٢].

ومعنى قوله: ﴿ Q R S T ﴾ التحريض هو الحث على الشيء بتعاطي أسبابه والاستعداد لحضوره حتى يصير المحثوث كأنه حاضر ، وهو في الأصل إزالة الحرض وهو الهلاك[٣]، ومعناه هنا : حث المؤمنين على قتال عدوهم ، وفي ذكر لفظة الحرض على القتال والجهاد هنا إشارة إلى أن المؤمنين لو تخلفوا عن القتال والجهاد بعد حث النبي r عليه كانوا حارضين أي : هالكين[٤] ، وقد جاءت الأحاديث الكثيرة عن النبي r في بيان عاقبة تاركي فريضة الجهاد ، وأن ذلك طريق المذلة والهوان والهلاك للخاصة والعامة .

ولما ندبهم إلى القتال وكان عموم الجنس الذي دل عليه تعريف القتال يقتضي عموم الأحوال باعتبار المقاتلين -بفتح التاء- وكان في ذلك إجمال من الأحوال ، وقد يكون العدو كثيرين ويكون المؤمنون أقل منهم ، بين هذا الإجمال بقوله : ﴿V W X Y Z [\ ﴾[٥]، وإنما عدل عن الغيبة إلى الخطاب لما في الخطاب من لذة تثير الهمم وتبعث العزائم وتوجب غاية الوثوق بالوعد[٦]، وليدخل النبي r فيه دخولا أوليا .

وليس المراد من هذا الخطاب للمؤمنين الخبر بل المراد منه الأمر ، كأنه I قال : ﴿V W X Y ﴾ فليصبروا وليجتهدوا في القتال حتى ﴿ [\ ﴾ والذي يدل على

---

(١) البقاعي ، نظم الدرر : (٢٣٩/٣) .

(٢) ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٦٥/١٠) .

(٣) انظر : الراغب ، المفردات في غريب القرآن : (١١٣) ؛ والبقاعي ، نظم الدرر : (٢٣٩/٣) .

(٤) انظر : الرازي ، مفاتيح الغيب : (١٥٣/١٥) .

(٥) انظر : البقاعي ، نظم الدرر : (/٢٣٩) ؛ وابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٦٦/١٠) .

(٦) انظر : البقاعي ، نظم الدرر : (٢٣٩/٣) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

أنه ليس المراد من هذا الكلام الخبر وجوه : **الأول** : لو كان المراد منه الخبر لزم أن يقال: إنه لم يغلب قط مائتان من الكفار عشرين من المؤمنين ومعلوم أنه باطل . **الثاني** : أنه قال في الآية التي بعدها : ﴿ l m n o ﴾ والنسخ أو التخصيص أليق بالأمر منه بالخبر . **الثالث:** قوله من بعد ذلك : ﴿وَٱللَّهُ مَعَ © ﴾ وذلك ترغيباً في الثبات على الجهاد فثبت أن المراد من هذا الكلام هو الأمر وإن كان وارداً بلفظ الخبر(١).

والمراد من قوله : ﴿ Z ﴾ أي عرفوا بالصبر والمقدرة عليه ، وذلك باستيفاء ما يقتضيه من أحوال الجسد وأحوال النفس .

قال الرازي : « وإنما يحصل هذا الشرط عند حصول أشياء ، منها : أن يكون شديد الأعضاء قوياً جلداً . ومنها : أن يكون قوي القلب شجاعاً غير جبان ، ومنها : أن يكون غير منحرف إلا لقتال أو متحيزاً إلى فئة ، فإن الله استثنى هاتين الحالتين في الآيات المتقدمة فعند حصول هذه الشرائط كان يجب على الواحد أن يثبت للعشرة »(٢) .

وفي ذكر هذه الصفة (صفة الصبر) إشارة وإيماء إلى توخي إمام المسلمين انتقاء جيشه ، فيكون قيدا للتحريض ، أي : حرض المؤمنين الصابرين الذين لا يتزلزلون ، فالمقصود أن لا يكون فيهم من هو ضعيف النفس قليل الصبر فيفشل الجيش(٣).

قال الرازي : « اعلم أن هذا التكليف إنما حسن لأنه مسبوق بقوله تعالى : ﴿ H I J K L M ﴾ فلما وعد المؤمنين بالكفاية والنصر كان هذا التكليف سهلاً لأن من تكفل الله بنصره فإن أهل العالم لا يقدرون على إيذائه » (٤).

ففي هذه الآية الكريمة إخبار من الله تعالى بكفالة المسلمين بنصر العدد منهم على عشرة أمثاله من عددهم وهو يستلزم وجوب ثبات العدد منهم لعشرة أمثاله ، وبذلك يفيد إطلاق الأمر بالثبات للعدو الواقع في قوله : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةً فَٱثۡبُتُواْ ﴾ ،

---

(١) انظر : الرازي ، مفاتيح الغيب : (١٥/١٥٣) .

(٢) الرازي ، مفاتيح الغيب : (١٥/١٥٣) .

(٣) انظر : ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (١٠/٦٧) .

(٤) الرازي ، مفاتيح الغيب : (١٥/١٥٣) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

وإطلاق النهي عن الفرار الواقع في قوله : ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ´ ﴾ كما تقدم ، وهو من هذه الناحية التشريعية حكم شديد شاق اقتضته قلة عدد المسلمين يومئذ وكثرة عدد المشركين ، ولم يصل إلينا أن المسلمين احتاجوا إلى العمل به في بعض غزواتهم ، وقصارى ما علمنا أنهم ثبتوا لثلاثة أمثالهم في وقعة بدر ، فقد كان المسلمون زهاء ثلاثمائة وكان المشركون زهاء الألف ، ثم نزل التخفيف في الآية التي بعدها [١].

وقد جاء التقييد بالصبر مرتين في هذه الآية والتي بعدها ، ففي الأولى جاء التقييد لفظاً ، وحذف من الثانية لدلالة ذكره في الأولى ، وجاء تقييد الشرط في الثانية بقوله : ﴿ d e f ﴾ لفظاً، وحذف من الشرط الأول في قوله: ﴿] \ ﴾ وهذا غاية الفصاحة في الكلام ، حيث أثبت قيد من الجملة الأولى ، وحذف نظيره من الثانية ، وأثبت قيد في الثانية وحذف من الأولى[٢]، وحاصل معنى قوله تعالى : ﴿ V W X Y Z [\ | ^ _ ` a b c d e f ﴾ هو وجوب ثبات الواحد في مقابلة العشرة .

وقد ذكر الرازي مناسبة في العدول عن لفظة (الواحد والعشرة) إلى (العشرين والمائتين) ، فقال : « إن هذا الكلام إنما ورد على وفق الواقعة ، وكان رسول الله يبعث السرايا والغالب أن تلك السرايا ما كان ينتقص عددها عن العشرين وما كانت تزيد على المائة فلهذا المعنى ذكر الله هذين العددين » [٣].

ويضيف أبو حيان مناسبة أخرى في ذكر هذه الأعداد قائلا : « إنّ فرضيّة الثبات أو ندبيته كان أولاً في ابتداء الإسلام فكان العشرون تمثيلاً للسرية ، والمائة تمثيلاً للجيش ، فلما اتسع نطاق الإسلام وذلك بعد زمان ، كان المائة تمثيلاً للسّرايا ، والألف تمثيلاً للجيش » [٤].

كما أن ابن عاشور ذكر مناسبات أخرى أيضا قائلا : « وذكر في جانب جيش المسلمين في المرتين عدد العشرين وعدد المائة ، وفي جانب جيش المشركين عدد المائتين وعدد الألف ،

(١) ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٦٨/١٠) .
(٢) انظر : أبو حيان ، البحر المحيط : (٤/ ٥١١) .
(٣) الرازي ، مفاتيح الغيب : (١٥٣/١٥) .
(٤) أبو حيان ، البحر المحيط : (٤/ ٥١٢) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

إيماء إلى قلة جيش المسلمين في ذاته ، مع الإيماء إلى أن ثباتهم لا يختلف باختلاف حالة عددهم في أنفسهم ، فإن العادة أن زيادة عدد الجيش تقوي نفوس أهله ، ولو مع كون نسبة عددهم من عدد عدوهم غير مختلفة ، فجعل الله الإيمان قوة لنفوس المسلمين تدفع عنهم وهن استشعار قلة عدد جيشهم في ذاته ، وأما اختيار لفظ (العشرين) للتعبير عن مرتبة العشرات دون لفظ (العشرة) فلعل وجهه : أن لفظ العشرين أسعد بتقابل السكنات في أواخر الكلم لأن للفظة مائتين من المناسبة بسكنات كلمات الفواصل من السورة ، ولذلك ذكر المائة مع الألف ، لأن بعدها ذكر مميز العدد بألفاظ تناسب سكنات الفاصلة ، وهو قوله : ﴿ i j ﴾ فتعين هذا اللفظ قضاء لحق الفصاحة » [١].

وقد ختمت هذه الآية الكريمة ببيان العلة في هذه الغلبة[٢] فقال تعالى : ﴿ g h i j ﴾ وفي إجراء نفي الفقاهة صفة لـ﴿ h ﴾ دون أن يجعل خبرا فيقال : ذلك بأنهم لا يفقهون ، لقصد إفادة أن عدم الفقاهة صفة ثابتة لهم بما هم قوم ، لئلا يتوهم أن نفي الفقاهة عنهم في خصوص هذا الشأن ، وهو شأن الحرب المتحدث عنه ، للفرق بين قولك : حدثت فلانا حديثا فوجدته لا يفقه ، وبين قولك : فوجدته رجلا لا يفقه[٣] .

وقد ذكر الرازي عدة وجوه في بيان عدم فقاهة الكفار مع بيان التناسب والتناسق بينها وبين مع موضوع هذه الآية الكريمة فقال : « **الوجه الأول** : أن من لا يؤمن بالله ولا يؤمن بالمعاد فإن غاية السعادة والبهجة عنده ليست إلا هذه الحياة الدنيوية ومن كان هذا معتقده فإنه يشح بهذه الحياة ولا يعرضها للزوال أما من اعتقد أنه لا سعادة في هذه الحياة وأن السعادة لا تحصل إلا في الدار الآخرة فإنه لا يبالي بهذه الحياة الدنيا ولا يلتفت إليها ولا يقيم لها وزناً فيقدم على الجهاد بقلب قوي وعزم صحيح ومتى كان الأمر كذلك كان الواحد من هذا الباب يقاوم العدد الكثير من الباب الأول.

---

(١) ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (١٠/٦٧) .

(٢) انظر : الرازي ، مفاتيح الغيب : (١٥/١٥٤) .

(٣) انظر : ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (١٠/٦٨) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

الوجه الثاني : أن الكفار إنما يعولون على قوتهم وشوكتهم والمسلمون يستعينون بربهم بالدعاء والتضرع ومن كان كذلك كان النصر والظفر به أليق وأولى .

الوجه الثالث : وهو وجه لا يعرفه إلا أصحاب الرياضات والمكاشفات وهو أن كل قلب اختص بالعلم والمعرفة كان صاحبه مهيباً عند الخلق ولذلك إذا حضر الرجل العالم عند عالم من الناس الأقوياء الجهال الأشداء فإن أولئك الأقوياء الأشداء الجهال يهابون ذلك العالم ويحترمونه ويخدمونه بل نقول إن السباع القوية إذا رأت الآدمي هابته وانحرفت عنه وما ذاك إلا أن الآدمي بسبب ما فيه من نور العقل يكون مهيباً وأيضاً الرجل الحكيم إذا استولى على قلبه نور معرفة الله تعالى فإنه تقوى أعضاؤه وتشتد جوارحه ، وربما قوي عند ظهور التجلي في قلبه على أعمال يعجز عنها قبل ذلك الوقت »(١).

ويضيف ابن عاشور وجوها أخرى في ذلك قائلا : « وإنما جعل الله الكفر سببا في انتفاء الفقاهة عنهم : لأن الكفر من شأنه إنكار ما ليس بمحسوس فصاحبه ينشأ على إهمال النظر، وعلى تعطيل حركات فكره ، فهم لا يؤمنون إلا بالأسباب الظاهرية ، فيحسبون أن كثرتهم توجب لهم النصر على الأقلين لقولهم : (إنما الغرة للكاثر) ، ولأنهم لا يؤمنون بما بعد الموت من نعيم وعذاب ، فهم يخشون الموت فإذا قاتلوا ما يقاتلون إلا في الحالة التي يكون نصرهم فيها أرجح ، والمؤمنون يعولون على نصر الله ، ويثبتون للعدو رجاء إعلاء كلمة الله ، ولا يهابون الموت في سبيل الله ، لأنهم موقنون بالحياة الأبدية المسرة بعد الموت »(٢).

ولما كانت الأوامر الإلهية في الآية السابقة شاقة على المؤمنين بثبات الواحد منهم في وجه العشرة ، وعدم فراره عنهم ، خفف الله U عنهم وأزال عنهم تلك المشقة في الآية التي بعدها(٣)، بالاكتفاء بمقاومة الواحد منهم للاثنين فقال تعالى : ﴿ l m n o p
q r s u v w x y z { | } ~ مِّنكُمۡ أَلۡفٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفَيۡنِ
بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ © ﴿٦٦﴾ ﴾ .

---

(١) الرازي ، مفاتيح الغيب : (١٥/١٥٤) .

(٢) ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (١٠/٦٨) .

(٣) انظر : الرازي ، مفاتيح الغيب : (١٥/١٥٥) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

وقد ذكر الزمخشري أن هذه الآية نزلت بعد نزول الآية التي قبلها بمدة طويلة[١]، قال ابن عاشور : « ولعلها بعد نزول جميع سورة الأنفال ، ووضعت في هذا الموضع لأنها نزلت مفردة غير متصلة بآيات سورة أخرى ، فجعل لها هذا الموضع لأنه أنسب بها لتكون متصلة بالآية التي نسخت هي حكمها ، ولم أر من عين زمن نزولها ، ولا شك أنه كان قبل فتح مكة ، وذلك بعد أن علم الله انتهاء الحاجة إلى ثبات الواحد من المسلمين للعشرة من المشركين، بحيث صارت المصلحة في ثبات الواحد لاثنين، لا أكثر ، رفقا بالمسلمين واستبقاء لعددهم»[٢].

فقوله تعالى:﴿ o n m l ﴾ أي أن التخفيف المناسب ليسر هذا الدين روعي في هذاالوقت الذي نزلت فيه الآية ، ولم يراع قبله لمانع منع من مراعاته فرجح إصلاح مجموعهم[٣].

وقد اختلف العلماء في هذه الآية هل هي ناسخة للتي قبلها أم غير ناسخة ، وقد انتصر لكل قول أصحابه ، وأوردوا لذلك أدلة من الكتاب والسنة .

والراجح —والعلم عند الله- بعد التأمل والتدبر في هاتين الآيتين ، ومقارنة كلام علماء التفسير بخصوصهما هو قول من ذهب إلى أنه ليس هناك نسخ في الآيتين ، وأن حاصل الكلام أن الآية الأولى دلت على ثبوت حكم عند شرط مخصوص ، وهذه الآية دلت على أن ذلك الشرط مفقود في حق هذه الجماعة ، فلا جرم لم يثبت ذلك الحكم ، وعلى هذا التقدير لم يحصل النسخ البتة ، ومما يدل على عدم النسخ أنه تعالى ذكر هذه الآية مقارنة للآية الأولى، وجعل الناسخ مقارنا للمنسوخ لا يجوز[٤]، وأيضا فلو قلنا أن الثانية ناسخة للأولى لكان العمل بالأولى غير جائز، وقد تظاهرت الروايات وتضافرت الوقائع في كتب السير والتاريخ أن المسلمين في كثير من غزواتهم وحروبهم كانوا أقل بكثير من عدد عدوهم ، ومع ذلك لم يعملوا بمقتضى الآية الناسخة ، بل عملوا بمقتضى الآية المنسوخة ، بالرغم من أن ذلك يعتبر إلقاء لأنفسهم إلى التهلكة إن قلنا أن الثانية ناسخة للأولى ، فهذه غزوة مؤتة كان عدد الصحابة فيها ثلاثة

---

(١) انظر : الزمخشري ، الكشاف : (٢٢٣/٢) .

(٢) انظر : ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٦٨/١٠) .

(٣) انظر : ابن عاشور ، المصدر السابق .

(٤) انظر : الرازي ، مفاتيح الغيب : (١٥٥/١٥) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

آلاف ، وكان من لقوا من جموع هرقل مائتي ألف، مائة من الروم ، ومائة من العرب المستنصرة، فصبروا لهم ونصروا عليهم كما في الصحيح[١]، وغير ذلك من الوقائع الكثيرة التي أصر المسلمون على قتال عدوهم مع قلة عددهم ونصروا فيها وكانت لهم العاقبة كما وعدهم الله تعالى .

ولهذا فإنه يمكن الجمع بين الآيتين الكريمتين بأن يقال : أن كل مسلم بالغ مكلف إذا وقف بإزاء المشركين عبداً كان أو حراً فالهزيمة عليه محرمة ما دام معه سلاح يقاتل به فإن لم يبق معه سلاح فله أن ينهزم ، وإن قاتله ثلاثة حلت له الهزيمة ، والصبر أحسن له[٢].

وإنما عبر عن وجوب ثبات العدد من المسلمين لمثليه من المشركين بلفظي عددين معينين ومثليهما ليجيء التخفيف على وفق المخفف عنه ، فقوبل ثبات العشرين للمائتين بتخفيفه إلى ثبات مائة واحدة للمائتين فأبقي مقدار عدد المشركين كما كان عليه في الآية السابقة ، إيماء إلى أن موجب التخفيف كثرة المسلمين ، لا قلة المشركين ، وقوبل ثبات عدد مائة من المسلمين لألف من المشركين بثبات ألف من المسلمين لألفين من المشركين إيماء إلى أن المسلمين الذين كان جيشهم لا يتجاوز مرتبة المئات صار جيشهم يعد بالآلاف ، وأعيد وصف مائة المسلمين بـ﴿ y ﴾ لأن المقام يقتضي التنويه بالاتصاف بالثبات ، ولم توصف مائة الكفار بالكفر وبأنهم قوم لا يفقهون ؛ لأنه قد علم ، ولا مقتضي لإعادته ، وفي التصريح بالتقييد ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ في آية التخفيف، وترك ذلك في الآية السابقة مع أن (إذن الله) حاصل في كلتا الحالتين، فذلك لأن غلب الواحد للعشرة أظهر في الخرق للعادة ، فيعلم بدءا أنه بإذن الله ، وأما غلب الواحد الاثنين فقد يحسب أنه ناشئ عن قوة أجساد المسلمين ، فنبه على أنه ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ ليعلم أنه مطرد في سائر الأحوال ، ولذلك ختمت هذه الآية الكريمة بقوله : ﴿وَٱللَّهُ مَعَ © ﴾ ، وفي ذلك مبالغة في شدة مطلوبية الصبر ، وإشارة إلى تأييد الله للمؤمنين الصابرين ، وأنهم منصورون حتما ؛ لأن من كان الله تعالى معه لا يغلب[٣].

---

(١) انظر : ابن حجر ، فتح البارئ : (٥١١/٧) .

(٢) انظر : الرازي ، مفاتيح الغيب : (١٥٥/١٥) ،

(٣) انظر : أبو حيان ، البحر المحيط : (٥١٢/٤) ؛ وابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٧١/١٠-٧٢) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

قال الرازي : « اعلم أنه تعالى ختم الآية بقوله ﴿وَٱللَّهُ مَعَ © ﴾ والمراد ما ذكره في الآية الأولى من قوله: ﴿V W X Y Z [\ ﴾ فبين في آخر هذه الآية أن الله مع الصابرين والمقصود أن العشرين لو صبروا ووقفوا فإن نصرتي معهم وتوفيقي مقارن لهم»[(١)] .

وقال الألوسي : « لا يبعد أن يكون في قوله تعالى : ﴿وَٱللَّهُ مَعَ © ﴾ تحريض لهم على الصبر بالإشارة إلى أن أعداءهم إن صبروا كان الله تعالى معهم فأمدهم ونصرهم »[(٢)] .

ولما كانت هذه السورة تدور حول محور الجهاد في سبيل الله ، وكان قد ذكر موضوع الأنفال الغنائم في بداية السورة ووسطها ، جاء ذكر هذا الموضوع مرة أخرى في خاتمة هذه السورة ولكن بطريقة بيان العلاقة بين المسلمين وأسرى الكفار الذين أخذوهم غنيمة في تلك المعركة .

ولما كانت العداوة هي السمة والعلاقة البارزة بين المسلمين والكفار جاءت هذه الآية الكريمة لتبين سنة الله U الجارية في الأنبياء الماضين عليهم السلام تجاه أسرى عدوهم الكافر ، ولتعاتب بعضا من المؤمنين الذين أشاروا باستبقاء الأسرى، قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ ´ µ ¶ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ .

قال الرازي: «اعلم أن المقصود من هذه الآية تعليم حكم آخر من أحكام الغزو والجهاد»[(٣)].

وهذه الآية الكريمة نزلت كما ذكرنا في مبحث أسباب النزول في أسرى بدر ، وهي عتاب من الله U لأصحاب نبيه r ، لأن النبي r استشارهم في استبقاء الأسرى أو قتلهم ، فدلت استشارته لهم على أنه لم يوح إليه في ذلك بشيء ، فرجح عليه الصلاة والسلام أحد الرأيين باجتهاده ، وهو رأي استبقاء الأسرى ، وقد أصاب اجتهاده ، فإنه قد أسلم منهم عدد كثير ، ولكن قد خفي عليه شيء لم يعلمه إلا الله وهو إضمار بعضهم بعد الرجوع إلى قومهم أن يتأهبوا لقتال المسلمين من بعد ، وربما كانوا يضمرون اللحاق بفلول المشركين من موضع قريب ويعودون إلى القتال فينقلب انتصار المسلمين هزيمة كما كان يوم أحد ، فلأجل هذا جاء

---

(١) انظر : الرازي ، مفاتيح الغيب : (١٥٦/١٥) .

(٢) الألوسي ، روح المعاني : (٣٢/١٠) .

(٣) انظر : الرازي ، مفاتيح الغيب : (١٥٧/١٥) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

قوله تعالى هنا: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ ´ µ ¶ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْأَخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[١].

قال القرطبي : « التوبيخ والعتاب إنما كان متوجها بسبب من أشار على النبي r بأخذ الفدية ، هذا قول أكثر المفسرين ، وهو الذي لا يصح غيره ، وجاء ذكر النبي r في الآية حين لم ينه عنه ، حين رآه من العريش ، ولكنه u شغله بغت الأمر ونزول النصر فترك النهي عن الاستبقاء ، ولذلك بكى هو وأبو بكر حين نزلت الآيات ، والله أعلم »[٢].

والمراد بقوله : ﴿لِنَبِيٍّ﴾ أي النبي محمد r ، وإنما جاء منكرا لما في التنكير من إبهام في كون النفي لم يتوجه عليه معيناً ، وهو هنا على حذف مضاف أي: ما كان لأصحاب نبي ، أو لأتباع نبيّ ، فحذف اختصاراً ، ولذلك جاء الجمع في قوله : ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا﴾ ولم يجيء التركيب (تريد) أو (يريد عرض الدنيا) لأنه r لم يأمر باستبقاء الرجال وقت الحرب ولا أراد عرض الدنيا قط ، وإنما فعله جمهور مباشري الحرب[٣].

قال ابن عاشور : « ومعنى هذا الكون المنفي بقوله : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ ﴾ هو بقاؤهم في الأسر ، أي بقاؤهم أرقاء أو بقاء أعواضهم وهو الفداء ، وليس المراد أنه لا يصلح أن تقع في يد النبي أسرى ، لأن أخذ الأسرى من شؤون الحرب، وهو من شؤون الغلب، إذا استسلم المقاتلون ، فلا يعقل أحد نفيه عن النبي ، فتعين أن المراد نفي أثره ، وإذا نفي أثر الأسر صدق بأحد أمرين وهما : المن عليهم بإطلاقهم ، أو قتلهم ، ولا يصلح المن هنا ، لأنه ينافي الغاية وهي حتى يثخن في الأرض ، فتعين أن المقصود قتل الأسرى الحاصلين في يده ، أي أن ذلك الأجدر به »[٤].

---

(١) انظر : ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٧٣/١٠) .

(٢) القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن : (٤٦/٨) ، باختصار .

(٣) انظر : القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن : (٤٦/٨) ؛ وأبو حيان ، البحر المحيط : (٥١٤/٤) .

(٤) انظر : ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٧٣/١٠) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

ومعنى قوله : ﴿ ´ µ ¶ ﴾ الإثخان قال الراغب : « يقال : ثخن الشيء فهو ثخين،إذا غلظ فلم يسل ولم يستمر في ذهابه، ومنه استعير قولهم: أثخنته ضربا واستخفافا»[١]، وقد شاع إطلاق الإثخان على شدة الجراحة على الجريح ، وقد حمله بعض المفسرين في هذه الآية على معنى الشدة والقوة والمبالغة والقهر ، فالمعنى : حتى يتمكن في الأرض ، أي يتمكن سلطانه وأمره[٢] .

ثم بين ▌ أن ميل المؤمنين عن ذلك الإثخان إنما كان لإرادة الأعراض الدنيوية وهو الفداء، في إشارة إلى أن النزاع أيضا في الأنفال كان ميلا إلى الدنيا ، وكل ذلك بمعزل عن معالي الأخلاق وكرائم السجايا التي يدعوا إليها الإسلام ، ولهذا جاء العتاب هنا بأسلوب الخطاب لما له من وقع عظيم في النفوس[٣].

وقوله : ﴿عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا﴾ قال الراغب : « العرض مالا يكون له ثبات ، كاللون والطعم ، وقيل : الدنيا عرض حاضر تنبيها أن لا ثبات لها »[٤].

ولما ذكر ▌ ما أرادوه من أسر الكفار ، بين ما يريده هو فقال : ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ يعني أنه تعالى إنما يريد لكم ما يفضي إلى السعادات الأخروية الباقية الدائمة المصونة عن التبديل والزوال[٥].

قال ابن عاشور: «يجوز عندي أن يكون قوله : ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ مستعملا في معنى الاستفهام الإنكاري ، والمعنى : لعلكم تحبون عرض الدنيا فإن الله يحب لكم الثواب وقوة الدين، لأنه لو كان المنظور إليه هو النفع الدنيوي؛ لكان حفظ أنفس الناس مقدما على إسعافهم بالمال ، فلما وجب عليهم بذل نفوسهم في الجهاد . فالمعنى : يوشك أن تكون حالكم كحال من لا يحب إلاعرض الدنيا، تحذيرا لهم من التوغل في إيثار الحظوظ العاجلة»[٦].

---

(١) انظر : الراغب ، المفردات : (٧٩) .

(٢) انظر : ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٧٣/١٠) .

(٣) انظر : البقاعي ، نظم الدرر : (٢٤٤/٣) .

(٤) الراغب ، المفردات في غريب القرآن : (٣٣١) .

(٥) انظر : الرازي ، مفاتيح الغيب : (١٦٠/١٥) .

(٦) ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٧٦/١٠-٧٧) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

وختمت هذه الآية الكريمة بوصفين عظيمين لله حيث قال تعالى : ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ وفي ذلك تناسق واضح مع سياق الآية الكريمة ، وذلك أن عطف هذين الوصفين بقوله تعالى : ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾ يؤذن بأن لهما أثرا في أنه يريد الآخرة ، فيكون كالتعليل ، وهو يفيد أن حظ الآخرة هو الحظ الحق، ولذلك يريده العزيز الحكيم، فوصف﴿عَزِيزٌ﴾ يدل على الاستغناء على الاحتياج ، وعلى الرفعة والمقدرة ، ولذلك لا يليق به إلا محبة الأمور النفيسة ، وهذا يومىء إلى أن أولياءه ينبغي لهم أن يكونوا أعزاء ، وكان اللائق بهم في موضوع الأسرى أن يربأوا بنفوسهم عن التعلق بسفاسف الأمور وأن يجنحوا إلى معاليها ، ووصف﴿حَكِيمٌ﴾ يقتضي أنه العا لم بالمنافع الحق على ما هي عليه ، لأن الحكمة العلم بحقائق الأشياء على ما هي عليه[١].

قال البقاعي في بيان مناسبة خاتمة الآية لموضوعها : « ولا يصح ادعاء ولايته إلا لمن ترقى في معارج صفاته ، فيكون عزيزاً في نفسه فلا يدنسها بالأطماع الفانية ، وفعله فلا يحطه عن أوج المعالي إلى حضيض المهاوي ، وحكيماً فلا ينشأ عنه فعل إلا وهو في غاية الإتقان » [٢].

ولما كانت الآية السابقة مؤذنة بأن أخذ مفاداة من الأسرى أمر مرهوب تخشى عواقبه ، فيستثير سؤالا في نفوس الصحابة عما يترقب بعد تلك المعاتبة الشديدة[٣] ، قال تعالى : ﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ .

قال البقاعي : « ولما علم من الآية ما أشرت إليه[٤] ، فكان كأنهم قالوا رضي الله عنهم : تقتضي عزته وحكمته سبحانه من تطهيرنا عما تدنسنا به ؟ استأنف تعالى الجواب عن ذلك ممتناً غاية لا متنان ومحذراً من التعرض لمواقع الخسران فقال : ﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ ...﴾»[٥].

وقد اختلف علماء التفسير في المراد بكتاب الله السابق على عدة أقوال ، قال القرطبي : «أصحها ما سبق من إحلال الغنائم ، فإنها كانت محرمة على من قبلنا ، فلما كان يوم بدر ، أسرع الناس إلى الغنائم فأنزل الله U ﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ ﴾ أي بتحليل الغنائم »[٦].

---

(١) انظر : الرازي ، مفاتيح الغيب : (١٦٠/١٥) ؛ وابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٧٦/١٠-٧٧) .
(٢) البقاعي ، نظم الدرر : (٢٤٤/٣).
(٣) انظر : ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٧٧/١٠) .
(٤) يقصد ما أشار إليه من بيان مناسبة خاتمتها من قوله تعالى : ﴿والله عزيز حكيم﴾ لموضوعها .
(٥) البقاعي ، نظم الدرر : (٢٤٥/٣) .
(٦) القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن : (٥١/٨) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

واستشكل الرازي هذا الذي صححه القرطبي ، وقال : « وهو مشكل ؛ لأن تحليل الغنائم والفداء هل كان حاصلاً في ذلك الوقت أو ما كان حاصلاً في ذلك الوقت فإن كان التحليل والإذن حاصلاً في ذلك الوقت امتنع إنزال العذاب عليهم لأن ما كان مأذوناً فيه من قبل لم يحصل العقاب على فعله وإن قلنا إن الإذن ما كان حاصلاً في ذلك الوقت كان ذلك الفعل حراماً في ذلك الوقت أقصى ما في الباب أنه كان في علم الله أنه سيحكم بحله بعد ذلك إلا أن هذا لا يقدح في كونه حراماً في ذلك الوقت فإن قالوا : إن كونه بحيث سيصير حلالاً بعد ذلك يوجب تخفيف العقاب ، قلنا : فإذا كان الأمر كذلك امتنع إنزال العقاب بسببه وذلك يمنع من التخويف بسبب ذلك العقاب »(١).

كما أن الرازي رد على بقية الأقوال التي ذكرت في تفسير هذا الكتاب ثم قال : « والمعتمد في هذا الباب أن نقول: أما على قولنا فنقول يجوز أن يعفو الله عن الكبائر فقوله: ﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ ﴾ معناه: لولا أنه تعالى حكم في الأزل بالعفو عن هذه الواقعة لمسهم عذاب عظيم»(٢).

والراجح – والله أعلم- هو ما ذهب إليه الطبري وغيره في هذه المسألة ، وهو أن كل هذه المعاني وتلك الأقوال المذكورة في ذلك داخ لة تحت اللفظ القرآني وأنه يعمها(٣)، وتجنب تخصيص معنى دون معنى ، أو ترجيح قول دون قول ، لعدم وجود مرجح في ذلك .

وقال الألوسي : « ولا يبعد عندي أن يكون المانع من مساس العذاب كل ما تقدم وفي ذلك تهويل لما نعى عليهم حيث منع من ترتب مساس العذاب عليه موانع جمة ، وبهذا يجمع بين الروايات المختلفة عن الحبر في بيان هذا الكتاب ، وذلك بأن يكون في كل مرة ذكر أمرا واحدا من تلك الأمور ، والتنصيص على الشيء بالذكر لا يدل على نفي ما عداه ، وليس في شيء من الروايات ما يدل على الحصر فافهم »(٤).

ولما كان الخطاب الإلهي في الآيتين السابقتين شديدا على النبي r وأصحابه الكرام ، كف أصحاب رسول الله r أيديهم عما أخذوا من الفداء انتظارا لما سيعقب هذا الخطاب من

(١) الرازي ، مفاتيح الغيب : (١٦١/١٥) .
(٢) الرازي ، مفاتيح الغيب : (١٥/١٦١-١٦٢) .
(٣) انظر : الطبري ، جامع البيان : (٧١/١٤) .
(٤) الألوسي ، روح المعاني : (٣٥/١٠) ، باختصار .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

أوامر إلهية[١]، فأباح الله U ذلك لهم في قوله تعالى : ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ ، فهذه الآية الكريمة نص على إباحة المال الذي أخذ من الأسرى والحاق له بالغنيمة التي كان تقدم تحليلها في هذه السورة[٢].

وقد اختلف العلماء في موقع الفاء في ﴿ فَكُلُواْ ﴾ وبمعرفتها يتضح تناسق الآية مع ما قبلها ، لأن الفاء تؤذن بتفريع الكلام على ما قبله ، قال ابن عاشور : « وفي هذا التفريع وجهان : **أحدهما** : الذي جرى عليه كلام المفسرين أنه تفريع على قوله : ﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ ﴾ أي: لولا ما سبق من حل الغنائم لكم لمسكم عذاب عظيم، وإذ قد سبق الحل فلا تبعة عليكم في الانتفاع بمال الفداء ، وعلى هذا الوجه قد سمي مال الفداء غنيمة تسمية بالاسم اللغوي دون الاسم الشرعي؛ لأن الغنيمة في اصطلاح الشرع هي ما افتكه المسلمون من مال العدو بالإيجاف عليهم. **والوجه الثاني** : يظهر لي أن التفريع ناشئ على التحذير من العود إلى مثل ذلك في المستقبل ، وأن المعنى : فاكتفوا بما تغنمونه ولا تفادوا الأسرى إلى أن تثخنوا في الأرض . وهذا هو المناسب لإطلاق اسم الغنيمة هنا إذ لا ينبغي صرفه عن معناه الشرعي»[٣].

وإنما عبر I عن الانتفاع الهنيء بالأكل في قوله : ﴿ فَكُلُواْ ﴾ لأن الأكل أقوى كيفيات الانتفاع بالشيء ، فإن الآكل ينعم بلذاذة المأكول ، ويدفع ألم الجوع عن نفسه ، ودفع الألم لذاذة ، ويكسبه الأكل قوة وصحة ، والصحة مع القوة لذاذة أيضا [٤].

ولما كان عتاب الله U شديدا على المؤمنين ناسب أن يؤكد[٥] إباحة الانتفاع بتوكيدين اثنين ، فقال تعالى : ﴿حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ .

---

(١) انظر : أبو حيان ، البحر المحيط : (٥١٦/٤) .

(٢) انظر : ابن عطية ، المحرر الوجيز : (٦٣٤/٢) .

(٣) ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٧٩/١٠) ؛ والعجيب أن هذا الوجه الذي مال إليه ابن عاشور لم يعتمد إليه في تفسير ﴿غنمتم﴾ فيما بعد ذلك من أسطر حيث قال : « ﴿غنمتم﴾ بمعنى فاديتم لأن الفداء عوض عن الأسرى ، والأسرى من المغانم » . وبهذا يتضح لنا أن الوجه الأول الذي نص ابن عاشور أنه كلام المفسرين هو الذي يتماشى مع سياق الآية ومعناها .

(٤) انظر : ابن عاشور ، المصدر السابق .

(٥) انظر : الألوسي ، روح المعاني : (٣٦/١٠) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

وقد ختمت هذه الآية الكريمة بأمر وصفتين كريمتين لله تعالى متناسقة مع الأمر ومع ما ذكر في الآية فقال تعالى : ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

قال ابن عطية : « وجاء قوله : ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ اعتراضاً فصيحاً في أثناء القول ؛ لأن قوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ هو متصل بالمعنى بقوله : ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ »[١] ، ومعناه: إذا اتقيتموه بعدما فرط منكم من استباحة الفداء قبل أن يؤذن لكم فيه غفر لكم ورحمكم وتاب عليكم[٢] .

وقال أبو حيان : « وأمر تعالى بتقواه لأن التقوى حاملة على امتثال أمر الله وعدم الإقدام على ما لم يتقدّم فيه إذن ففيه تحريض على التقوى من مال إلى الفداء ، ثم جاءت الصفتان مشعرتين بغفران الله ورحمته عن الذين مالوا إلى الفداء قبل الإذن » [٣].

وقال البقاعي : « وفائدة الأمر بالتقوى التحذير من العود اعتماداً على سعة الحلم ، وأيضاً فقد تقدم تهديد ومغفرة فناسب أن يدلهم على أن علة المغفرة التقوى ، فكان ترجمة ذلك انه لما رهبهم بمس العذاب عند اخذ الفداء لولا سبق الكتاب ، رغبهم بأنه كلما صدهم عن جنابه صارف ذنب فردهم إليه عاطف تقوى ، أسبل عليهم ذيل المغفرة والرحمة » [٤].

ولما أباح الله U للمؤمنين أخذ الفداء من الكفار ، وبدأ الرسول بأخذ الفداء من الأسارى، شق عليهم أخذ أموالهم منهم ، فذكر الله U هذه الآية استمالة لهم[٥] ، وتطييبا لخاطرهم ، فقال تعالى : ﴿ ! " # $ % & ' ( ) * + , - . / 0 1 2 3 4 5 7 8 9 ﴾.

قال البقاعي : « ولما علم من هذا إباحة ما يؤخذ من الأسرى من الفداء ، وكان ما يؤخذ منهم تعظم مشقته عليهم ، أقبل عليهم مستعطفاً لهم ترغيباً في الإسلام ، فأقبل على نبيه r

---

(١) انظر : ابن عطية ، المحرر الوجيز : (٦٣٤/٢) .

(٢) انظر : الزمخشري ، الكشاف : (٢٢٦/٢) .

(٣) أبو حيان ، البحر المحيط : (٥١٦/٤) .

(٤) البقاعي ، نظم الدرر : (٢٤٥/٣) .

(٥) الرازي ، مفاتيح الغيب : (١٦٢/١٥) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

بالأمر بمخاطبتهم تنبيهاً على أنهم ليسوا لخطابه سبحانه بما أبعدوا أنفسهم عنه من اختيارهم الكون في زمرة الأعداء على الكون في عداد الأولياء » [(١)].

والمراد من قوله : ﴿% & ﴾ أي في ملكتكم ووثاقكم ، فالأيدي مستعارة للملك ، وجمعها باعتبار عدد المالكين ، والمراد من قوله: ﴿(* + , - . ﴾ أي : محبة الإيمان والعزم على طاعة الله وطاعة رسوله في جميع التكاليف ، والتوبة عن الكفر وعن جميع المعاصي، ويدخل فيه العزم على نصرة الرسول ، والتوبة عن محاربته ، أي : فإذا آمنتم بعد هذا الفداء وأطعتم الله ورسوله يؤتكم الله خيرا مما أخذ منكم ، وقوله : ﴿ / 0 1 2 3 ﴾ أي : ما أخذ منهم من مال الفداء ، والخير منه هو الأوفر من المال بأن ييسر لهم أسباب الثروة بالعطاء من أموال الغنائم وغيرها ، فقد أعطى رسول الله r العباس بعد إسلامه من فيء البحرين ، وإنما حملنا الخير على الأفضل والأوفر من المال ؛ لأن ذلك هو الأصل في التفضيل بين شيئين أن يكون تفضيلا في خصائص النوع ، ولأنه عطف عليه قوله : ﴿ 4 5 ﴾ وذلك هو خير الآخرة المترتب على الإيمان ، لأن المغفرة لا تحصل إلا للمؤمن ، ويمكن الحمل على خيرات الدنيا والآخرة ، فكل من أخلص من الأسارى قد آتاه الله خيراً مما أخذ منه في الدنيا والآخرة ، وفي ختم الآية بقوله تعالى : ﴿ 7 8 9 ﴾ تأكيد لما مضى ذكره من قوله : ﴿ 4 5 ﴾ والمعنى : كيف لا يفي بوعده المغفرة وأنه ﴿ 8 9 ﴾ [(٢)].

قال ابن عاشور : « والتذييل بقوله : ﴿ 7 8 9 ﴾ للإيماء إلى عظم مغفرته التي يغفر لهم ، لأنها مغفرة شديد الغفران رحيم بعباده ، فمثال المبالغة وهو ﴿ 8 ﴾ المقتضي قوة المغفرة وكثرتها ، مستعمل فيهما باعتبار كثرة المخاطبين ، وعظم المغفرة لكل واحد منهم » [(٣)].

ولما رغب I هؤلاء الأسرى في الدخول في الإسلام ، واستثار ما في قلوبهم من الخير ، ووعدهم خيرا ، حذرهم من مغبة إضمار الشر والخيانة للإسلام والمسلمين، قال تعالى: ﴿ ;

---

(١) انظر : البقاعي ، نظم الدرر : (٣/٢٤٥-٢٤٦) .

(٢) انظر : الرازي ، مفاتيح الغيب : (١٥/١٦٣-١٦٤) ؛ وابن عاشور ، التحرير والتنوير : (١٠/٨٠-٨١) .

(٣) ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (١٠/٨١) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

< = > ? @A B C D F G H ﴾وفي هذه الآية والتي قبلها ترهيب بعد ترغيب ، ووعيد عقب وعد ، وفيه إشارة إلى الموضوع الذي سبق الحديث عنه وهو أن العلاقة بين المسلمين والأسرى ينبغي أن تكون على أساس الحذر وأخذ الحيطة منهم ، وعدم الاتكال عليهم ، وقد طمأن الله U المؤمنين أنهم أرادوا الخيانة والمكر بالإسلام فإن مصيرهم سيكون مثل مصير أسلافهم ممن قتلوا في بدر ، وأمكن الله المسلمين من رقابهم .

قال ابن عاشور : « وهذا كلام خاطب به الله رسوله r اطمئنانا لنفسه ، وليبلغ مضمونه إلى الأسرى ، ليعلموا أنهم لا يغلبون الله ورسوله . وفيه تقرير للمنة على المسلمين التي أفادها قوله : ﴿فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًاۚ﴾ ، فكل ذلك الإذن والتطييب بالتهنئة والطمأنة بأن ضمن لهم ، إن خانهم الأسرى بعد رجوعهم إلى قومهم ونكثوا عهدهم وعادوا إلى القتال ، بأن الله يمكن المسلمين منهم مرة أخرى ، كما أمكنهم منهم في هذه المرة ، أي : أن ينووا من العهد بعدم العود إلى الغزو خيانتك ، وإنما وعدوا بذلك لينجوا من القتل والرق ، فلا يضركم ذلك ، لأن الله ينصركم عليهم ثاني مرة »(١).

وفي ختم الآية بقوله تعالى : ﴿F G H﴾ فيه إشارة إلى أنه سبحانه بالغ العلم بما في ضمائر هؤلاء الأسرى وبواطنهم من خير أو خيانة ، وسيجازي كل بما هو أهله فهو I حكيم فيما أفعاله وتصرفاته(٢).

ولما تحدثت الآيات السابقة عن علاقة المسلمين بغيرهم من الكفار سواء المعاهدين والمسالمين والأسرى ، ناسب أن يبين في ختام هذه السورة وبعد أن وضعت الحرب أوزارها ، علاقة المسلمين بعضهم ببعض في الموالاة والنصرة، ليعرفوا بذلك وليهم الذي يستعينون به(٣)، فبدأ I بذكر المهاجرين الأول لأنهم أصل الإسلام ، وأول من استجاب الله ، فهاجر قوم إلى المدينة وقوم إلى الحبشة ، وكانوا قدوة لغيرهم في الإيمان ، وسبب في تقوية الدّين ، وثنّى

---

(١) ابن عاشور ، المصدر السابق .

(٢) انظر : الرازي ، مفاتيح الغيب : (١٦٤/١٥) ؛ وأبو حيان ، البحر المحيط : (٥١٧/٤) .

(٣) انظر : القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن : (٥٦/٨) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

بالأنصار لأنهم ساووهم في الإيمان ، وفي الجهاد بالنفس والمال ، لكنه عادل الهجرة الإيواء والنصر ، وانفرد المهاجرون بالسبق ، وذكر ثالثاً من آمن ولم يهاجر ولم ينصر ففاتهم هاتان الفضيلتان وحرموا الولاية حتى يهاجروا(١) ، فقال تعالى : ﴿ J K L M

N O P Q R S T U V W X Y Z \

] ^ _ ` a b c d e f g i j k l m

n o p q r s t v w x y z ﴾.

وقد بدأ الله U بذكر صفات المهاجرين الأولين ، فذكر ثلاثة صفات صريحة ، وصفة رابعة ضمنا.

فالصفة الأولى : قوله : ﴿ K L ﴾ أي آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وقبلوا جميع التكاليف التي بلغها محمد r ولم يتمردوا ، ولما كانت هذه الصفة هي أعلى صفة وأشدها بدأ بها ، لأن فيها ترك ما عليه مجتمعهم من العادات والتقاليد الدينية الدارجة بينهم ، ولأن وجود المجتمع المؤمن لا يتحقق إلا بهذا .

الصفة الثانية : قوله : ﴿ M ﴾ يعني : فارقوا الأوطان ، وتركوا الأقارب والجيران في طلب مرضاة الله ، وهذه الصفة تأتي عقب الإيمان ، فلولا الإيمان لما فارقوا الأوطان .

الصفة الثالثة : قوله : ﴿ N O P Q R S ﴾ أما المجاهدة بالمال فلأنهم لما فارقوا الأوطان فقد ضاعت دورهم ومساكنهم وضياعهم ومزارعهم ، وبقيت في أيدي الأعداء ، وأيضاً فقد احتاجوا إلى الإنفاق الكثير بسبب تلك العزيمة ، وأيضاً كانوا ينفقون أموالهم على تلك الغزوات ، وأما المجاهدة بالنفس فلأنهم كانوا أقدموا على محاربة بدر من غير آلة ولا أهبة ولا عدة مع الأعداء الموصوفين بالكثرة والشدة ، وذلك يدل على أنهم أزالوا أطماعهم عن الحياة وبذلوا أنفسهم في سبيل الله .

الصفة الرابعة : وهي الصفة المضمنة في هذه الآية لأن المراد من المؤمنين المهاجرون الأولون لأنه تعالى قال في آخر آية من هذه السورة : ﴿ **وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ** ﴾ ، وهذه الصفة

---

(١) انظر : أبو حيان ، البحر المحيط : (٥١٧/٤) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

تدل على أنهم كانوا أول الناس إقداماً على هذه الأفعال والتزاماً لهذه الأحوال ، ولهذه السابقة أثر عظيم في تقوية الدين ، وموجب رئيسي لفضلهم ، لأن إقدامهم على هذه الأفعال يوجب اقتداء غيرهم بهم ، فيصير ذلك سبباً للقوة أو الكمال (١).

وفي تقديم الله U المهاجرين ووصفهم بصفات أربع غاية في الفضيلة والمنقبة ، عدة مناسبات :

أحدها : كونهم هم السابقون في الإيمان الذي هو رئيس الفضائل وعنوان المناقب .

ثانيها : كونهم تحملوا العناء والمشقة دهراً دهيراً ، وزماناً مديداً من كفار قريش وصبروا عليه.

ثالثها : كونهم تحملوا المضار الناشئة من مفارقة الأوطان والأهل والجيران ، رابعا كونهم فتحوا الباب في قبول الدين والشريعة من الرسول u .

قال الرازي : « فجملة هذه الأحوال توجب تقديم المهاجرين الأولين على الأنصار في الفضل والدرجة والمنقبة ، فلهذا السبب أينما ذكر الله هذين الفريقين قدم المهاجرين على الأنصار وعلى هذا الترتيب ورد ذكرهما في هذه الآية »(٢) .

ولما ذكر الله U صفات المهاجرين ذكر صفات من يليهم في الفضل وهم الأنصار ، لأنه u لما هاجر إليهم مع طائفة من أصحابه ، أسكنوهم في ديارهم ، وقسموا لهم من أموالهم، وعرضوا عليهم أن ينزلوا لهم عن بعض نسائهم ليتزوجوهن ، فلولا إيواؤهم ونصرهم وبذلهم النفس والنفيس ، لما تم المقصود (٣).

ولما ذكر الله U هذين القسمين ، ذكر طبيعة العلاقة بينهما في هذه الآية فقال تعالى: ﴿ W X Y Z ﴾ ، وقد اختلف العلماء في المراد بهذه الولاية فذهب بعض المفسرين إلى أن المراد بالولاية هنا هو الميراث ، وأن الله U جعل الله تعالى سبب الإرث الهجرة والنصرة دون القرابة ، وكان القريب الذي آمن ولم يهاجر لم يرث من أجل أنه لم يهاجر ولم ينصر(٤) .

---

(١) انظر : الرازي ، مفاتيح الغيب : (١٦٦/١٥).

(٢) انظر : الرازي ، المصدر السابق .

(٣) انظر : البقاعي ، نظم الدرر : (٢٤٨/٣) .

(٤) انظر : الزمخشري ، الكشاف : (٢٢٧/٢) ، وأبو حيان ، البحر المحيط : (٥١٧/٤) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

وقد رد الرازي على أصحاب هذا القول ، وذكر الراجح في هذه الآية فقال : « اعلم أن لفظ الولاية غير مشعر بهذا المعنى ، ولا يفيد الإرث ، بل الولاية تفيد القرب فيمكن حمله على غير الإرث ، وهو كون بعضهم معظماً للبعض مهتماً بشأنه مخصوصاً بمعاونته ومناصرته ، والمقصود أن يكونوا يداً واحدة على الأعداء ، وأن يكون حب كل واحد لغيره جارياً مجرى حبسه لنفسه ، وإذا كان اللفظ محتملاً لهذا المعنى كان حمله على الإرث بعيداً عن دلالة اللفظ، لا سيما وهم يقولون إن ذلك الحكم صار منسوخاً بقوله تعالى في آخر الآية : ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ﴾ وأي حاجة تحملنا على حمل اللفظ على معنى لا إشعار لذلك اللفظ به، ثم الحكم بأنه صار منسوخاً بآية أخرى مذكورة معه ، هذا في غاية البعد ، اللهم إلا إذا حصل إجماع المفسرين على أن المراد ذلك فحينئذ يجب المصير إليه إلا أن دعوى الإجماع بعيد»[1] .

ولما ذكر الله تعالى طبيعة العلاقة بين أقسام المؤمنين الثلاثة ، وبين أنه مجتمع متناسق متكافل يجتمع في ولاء واحد ، ذكر على سبيل الاستطراد المجتمع الكافر ، وأنه مع تفرقهم أحزابا وشيعا يوالي بعضهم بعضاً ، وينصر بعضهم بعضا ، ومن ثم لا يملك المجتمع المسلم إلا أن يواجههم في صورة مجتمع له ذات الخصائص ، ولكن بدرجة أعمق وأمتن وأقوى [2]، وكأن الله U في هذه الآية يشير إلى أن الكفر ملة واحدة ينصر بعضهم بعضا ، ويرث بعضهم من بعض ، قال تعالى : ﴿ } | { ~ بَعۡضٍۚ إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ © ﴿٧٣﴾﴾ .

يقول الرازي في ذكر الترتيب والتناسق بين هذه الأقسام : « إن هذا الترتيب الذي اعتبره الله في هذه الآية في غاية الحسن لأنه ذكر ههنا أقساماً ثلاثة ، فالأول المؤمنون من المهاجرين والأنصار وهم أفضل الناس ، وبين أنه يجب أن يوالي بعضهم بعضاً، والقسم الثاني المؤمنون الذين لم يهاجروا فهؤلاء بسبب إيمانهم لهم فضل وكرامة ، وبسبب ترك الهجرة لهم حالة نازلة ، فوجب أن يكون حكمهم حكماً متوسطاً بين الإجلال والإذلال ، وذلك هو أن الولاية المثبتة للقسم الأول تكون منفية عن هذا القسم إلا أنهم يكونون بحيث لو استنصروا المؤمنين واستعانوا

---

(١) انظر : الرازي ، مفاتيح الغيب : (١٦٧/١٥) .

(٢) انظر المصدر السابق .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

بهم نصروهم وأعانوهم ، فهذا الحكم متوسط بين الإجلال والإذلال وأما الكفار فليس لهم البتة ما يوجب شيئاً من أسباب الفضيلة فوجب كون المسلمين منقطعين عنهم من كل الوجوه فلا يكون بينهم ولاية ولا مناصلة بوجه من الوجوه فظهر أن هذا الترتيب في غاية الحسن » .

ويضيف قائلا : « إن كفار قريش كانوا في غاية العداوة لليهود فلما ظهرت دعوة محمد **r** تناصروا وتعاونوا على إيذائه ومحاربته ، فكان المراد من الآية ذلك ، وتمام التحقيق فيه أن الجنسية علة الضم وشبيه الشيء منجذب إليه ، والمشركون واليهود والنصارى لما اشتركوا في عداوة محمد **r** صارت هذه الجهة موجبة لانضمام بعضهم إلى بعض وقرب بعضهم من بعض وذلك يدل على أنهم ما أقدموا على تلك العداوة لأجل الدين ، لأن كل واحد منهم كان في نهاية الإنكار لدين صاحبه ، بل كان ذلك من أدل الدلائل على أن تلك العداوة لمحض الحسد والبغي والعناد » [(١)].

ثم لما بين **I** هذه العلاقات بين المؤمنين والكافرين ، شدد في التمسك بما شرعه وبينه لهم من هذه العلاقات ، فقال تعالى : ﴿ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ © ﴾ أي : إن لا تفعلوا ما أمرتكم به من تواصل المسلمين وتولي بعضهم بعضاً ، ولم تقطعوا العلائق بينكم وبين الكفار ، ولم تجعلوا قرابتهم كلا قرابة ، تحصل فتنة في الأرض ، ومفسدة عظيمة ، لأنّ المسلمين ما لم يصيروا يداً واحدة على الشرك كان الشرك ظاهراً والفساد زائداً [(٢)].

وقد بين الرازي المراد من هذه الفتنة والفساد من وجوه فقال : «**الأول** : أن المسلمين لو اختلطوا بالكفار في زمان ضعف المسلمين وقلة عددهم ، وزمان قوة الكفار وكثرة عددهم ، فربما صارت تلك المخالطة سبباً لالتحاق المسلم بالكفار. **الثاني** : أن المسلمين لو كانوا متفرقين لم يظهر منهم جمع عظيم ، فيصير ذلك سبباً لجراءة الكفار عليهم. **الثالث** : أنه إذا كان جمع المسلمين كل يوم في الزيادة في العدة والعدة ، صار ذلك سبباً لمزيد رغبتهم فيما هم فيه ورغبة المخالف في الالتحاق بهم » [(٣)].

---

(١) الرازي ، مفاتيح الغيب : (٨٥/١٥)

(٢) انظر: الزمخشري ، الكشاف : (٢٢٨/٢) .

(٣) الرازي ، مفاتيح الغيب : (١٦٨/١٥) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

ولما ذكر I طبيعة العلاقة في المجتمع المؤمن في عهد النبي r بين في هذه الآية فضلهم ومكانتهم وعلو شأنهم ودرجتهم في الدنيا والآخرة ، فقال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ´ µ ¶ ¸ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾.

قال الرازي : « اعلم أن هذا ليس بتكرار ، وذلك لأنه تعالى ذكرهم أولاً ليبين حكمهم وهو ولاية بعضهم بعضاً ، ثم إنه تعالى ذكرهم ههنا لبيان تعظيم شأنهم وعلو درجتهم ، وبيانه من وجهين : الأول : أن الإعادة تدل على مزيد الاهتمام بحالهم وذلك يدل على الشرف والتعظيم . والثاني : وهو أنه تعالى أثنى عليهم ههنا من ثلاثة أوجه : أولها : قوله : ﴿ ¶ ¸ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ فقوله : ﴿ ¶ ¸ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ يفيد الحصر ، وقوله : ﴿حَقًّا﴾ يفيد المبالغة في وصفهم بكونهم محقين في طريق الدين ، والأمر في الحقيقة كذلك ، لأن من لم يكن محقاً في دينه لم يتحمل ترك الأديان السالفة ، ولم يفارق الأهل والوطن ، ولم يبذل النفس والمال ولم يكن في هذه الأحوال من المتسارعين المتسابقين . وثانيها : قوله : ﴿لَّهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ وتنكير لفظ المغفرة يدل على الكمال ، والمعنى : لهم مغفرة تامة كاملة عن جميع الذنوب والتبعات. وثالثها: قوله: ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ والمراد منه الثواب الرفيع الشريف. والحاصل: أنه تعالى شرح حالهم في الدنيا وفي الآخرة ، أما في الدنيا فقد وصفهم بقوله : ﴿ ¶ ¸ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ وأما في الآخرة فالمقصود إما دفع العقاب ، وإما جلب الثواب ، أما دفع العقاب فهو المراد بقوله: ﴿لَّهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ ، وأما جلب الثواب فهو المراد بقوله: ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ وهذه السعادات العالية إنما حصلت لأنهم أعرضوا عن اللذات الجسمانية ، فتركوا الأهل والوطن وبذلوا النفس والمال، وذلك تنبيه على أنه لا طريق إلى تحصيل السعادات إلا بالإعراض عن هذه الجسمانيات»(١).

وقال ابن عاشور في هذه الآية : « الأظهر أن هذه جملة معترضة بين جملة ﴿ { | { ~ بَعْضٍ ﴾، وجملة﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُواْ ﴾،والواو اعتراضية للتنويه بالمهاجرين والأنصار،وبيان جزائهم وثوابهم، بعد بيان أحكام ولاية بعضهم لبعض بقوله: ﴿ J K L M N O P Q R S T U V ﴾ إلى قوله:﴿ W X

---

(١) الرازي ، المصدر السابق : (١٥/١٦٩) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

Z Y ﴾ فليست هذه تكريرا للأولى ، وإن تشابهت ألفاظها : فالأولى لبيان ولاية بعضهم لبعض ، وهذه واردة للثناء عليهم والشهادة لهم بصدق الإيمان مع وعدهم بالجزاء »[١].

ولما ذكر I العلاقة والمكانة لأقسام المؤمنين السابقين بين في هذه الآية العلاقة والمكانة للمؤمنين اللاحقين الذين يأتون بعدهم ممن يتأخر إيمانهم فقال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمۡۚ ﴾ وهذه الآية ألحقت هؤلاء المؤمنين المتأخرين بالمجتمع الإيماني القائم في عهد النبي r برابط الإيمان والهجرة والجهاد ، وفي الوقت نفسه تدل على أن مرتبة هؤلاء وفضلهم دون مرتبة السابقين لأنه ألحق بهم وجعلهم منهم في معرض التشريف[٢].

قال البقاعي : « ولما حصر المؤمنين حقاً في الموصفين ، بين أن من ترك ما هو عليه من لزوم دار الكفر والقعود عن الجهاد ، لحق بمطلق درجتهم وإن كانوا فيها أعلى منه فقال ذاكراً القسم الرابع : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ ﴾»[٣].

وقال ابن عاشور : « بعد أن منع الله ولاية المسلمين للذين آمنوا ولم يهاجروا بالصراحة ، ابتداء ونفى عن الذين لم يهاجروا تحقيق الإيمان ، وكان ذلك مثيرا في نفوس السامعين أن يتساءلوا هل لأولئك تمكن من تدارك أمرهم برأب هذه الثلمة عنهم، ففتح الله باب التدارك بهذه الآية»[٤].

وقال سيد قطب : « ثم يلحق بالطبقة الأولى من المهاجرين المجاهدين ، كل من يهاجر بعد ذلك ويجاهد - وإن كانت للسابقين درجتهم كما تقرر النصوص القرآنية الأخرى - إنما هذا إلحاق في الولاء والعضوية في المجتمع الإسلامي »[٥].

وقال دروزة : « الفقرة الأولى من الآية الرابعة فتحت الباب لاندماج من يؤمن ويهاجر ويجاهد بعد هجرة النبي r وأصحابه في صف المؤمنين المهاجرين المجاهدين السابقين ، وفي هذا تلقين جليل يتصل بتوطيد الأخوة بين المسلمين حينما يجتمعون في ساحة واحدة من الإيمان والهجرة ، والجهاد وإن تأخر بعضهم عن بعض »[٦].

---

(١) ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٨٩/١٠) .
(٢) انظر: الرازي ، مفاتيح الغيب : (١٧٠/١٥)
(٣) البقاعي ، نظم الدرر : (٢٥٣/٣) .
(٤) ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (٨٩/١٠-٩٠) .
(٥) سيد ، في ظلال القرآن : (١٥٦٠/٣) .
(٦) دروزة ، التفسير الحديث : (١٠٣/٧) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

ولما ذكر الله U علاقة المجتمع المسلم بعضه ببعض في الولاء والنصرة ، وكانت تلك ولاية عامة ، ذكر عقبها علاقة وولاء من نوع خاص ، وهو ولاية القرابة ، فقال تعالى : ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمُۢ﴾

وقد اختلف العلماء في هذه الآية هل هي محكمة أم منسوخة بآية المواريث ، ولهم في ذلك كلام طويل يرجع فيه إلى كتب أمهات التفسير[(١)] ، والذي يهمنا في هذا الموضوع أن هذه الآية الكريمة وقعت إثر التقاسيم السابقة وهذا يؤذن بأن لها حظا في إتمام التقسيم ، حيث يظهر أن التقاسيم السابقة لما أثبتت ولاية بين المؤمنين ، ونفت ولاية من بينهم وبين الكافرين ، ومن بينهم وبين الذين آمنوا ولم يهاجروا حتى يهاجروا ، ثم عادت على الذين يهاجرون من المؤمنين بعد تقاعسهم عن الهجرة بالبقاء في دار الكفر مدة، فبينت أنهم إن تداركوا أمرهم وهاجروا يدخلون بذلك في ولاية المسلمين ، وكان ذلك قد يشغل السامعين عن ولاية ذوي أرحامهم من المسلمين ، جاءت هذه الآية تذكر بأن ولاية الأرحام قائمة وأنها مرجحة لغيرها من الولاية فموقعها كموقع الشروط ، وشأن الصفات والغايات بعد الجمل المتعاطفة أنها تعود إلى جميع تلك الجمل ، وفي قوله تعالى : ﴿أَوْلَىٰ﴾ هو صيغة تفضيل، وذلك أن الولاية بين ذوي الأرحام لا تعتبر إلا بالنسبة لمحل الولاية الشرعية فأولوا الأرحام أولى بالولاية ممن ثبتت لهم ولاية تامة أو ناقصة كالذين آمنوا ولم يهاجروا في ولاية النصر في الدين إذا لم يقم دونها مانع من كفر أو ترك هجرة ، فالمؤمنون بعضهم لبعض أولياء ولاية الإيمان ، وأولو الأرحام منهم بعضهم لبعض أولياء ولاية النسب ، ولولاية الإسلام حقوق مبينة بالكتاب والسنة ، ولولاية الأرحام حقوق مبينة أيضا ، بحيث لا تزاحم إحدى الولايتين الأخرى ، والاعتناء بهذا البيان مؤذن بما لوشائج الأرحام من الاعتبار في نظر الشريعة ، فلذلك علقت وقيدت أولوية الأرحام بأنها كائنة في كتاب الله للدلالة على أن ذلك حكم فطري قدره الله وأثبته بما وضع في الناس من الميل إلى قراباتهم ، فلما كانت ولاية الأرحام أمرا مقررا في الفطرة ، ولم تكن ولاية الدين معروفة في الجاهلية بين الله أن ولاية الدين لا تبطل ولاية الرحم إلا إذا تعارضتا ، لأن أواصر

---

(١) انظر : ابن جرير ، جامع البيان : (١٤/٩٠-٩٢) ؛ والقرطبي ، الجامع لأحكام القرآن : (٨/٥٩-٦٠) ؛ والرازي، مفاتيح الغيب : (١٥/١٦٦-١٦٧) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

العقيدة والرأي أقوى من أواصر الجسد ، فلا يغيره ما ورد هنا من أحكام ولاية الناس بعضهم بعضا ، وبذلك الاعتبار الأصلي لولاية ذوي الأرحام كانوا مقدمين على أهل الولاية ، حيث تكون الولاية، وينتفي التفضيل بانتفاء أصلها، فلا ولاية لأولي الأرحام إذا كانوا غير مسلمين[١].

وقد ختم الله U هذه السورة الكريمة بقوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىۡءٍ عَلِيمٌ﴾ وفي ذلك بيان للعلة التي بها بين الله تعالى أحكام الجهاد مما امتن به على المؤمنين في أول معركة جهادية فاصلة ، وما صاحب ذلك من بيان لأسباب وعوامل للنصر والهزيمة ، وذكر للعلاقات بين المسلمين وغيرهم ، فالمعنى : أنَّ هذه الأحكام التي ذكرتها وفصلتها في هذه السورة كلها حكمة وصواب ، وليس فيها شيء من العبث ؛ لأنَّ العالم بجميع المعلومات لا يحكم إلاَّ بالصَّواب[٢].

قال أبو حيان : « وختم السورة بقوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىۡءٍ عَلِيمٌ﴾ ، في غاية البراعة ؛ إذ قد تضمنت أحكاماً كثيرة في مهمّات الدين وقوامه وتفصيلاً لأحوال ، فصفة العلم تجمع ذلك كله وتحيط بمبادئه وغاياته » [٣].

وقال ابن عاشور مبينا مناسبة خاتمة الآية لموضوعها : « قوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىۡءٍ عَلِيمٌ﴾ تذييل هو مؤذن بالتعليل ؛ لتقرير أولوية ذوي الأرحام بعضهم ببعض فيما فيه اعتداد بالولاية ، أي إنما اعتبرت تلك الأولوية في الولاية ، لأن الله قد علم أن لآصرة الرحم حقا في الولاية هو ثابت ما لم يمانعه مانع معتبر في الشرع ، لأن الله بكل شيء عليم وهذا الحكم مما علم الله أن إثباته رفق ورأفة بالأمة »[٤].

هذا وقد تم تفسير هذه السورة الكريمة وفق تناسقها الموضوعي ، فلله الحمد أولا وآخرا .

---

(١) انظر : ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (١٠/٩١-٩٢) .
(٢) انظر : الرازي ، مفاتيح الغيب : (١٥/١٧٠) .
(٣) أبو حيان ، البحر المحيط : (٤/٥١٩) .
(٤) ابن عاشور ، التحرير والتنوير : (١٠/٩٣) .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

الخاتمة

وتشتمل على:-

أولا : أهم نتائج البحث .

ثانيا : توصيات الباحث .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، والصلاة والسلام على من جاءنا بالهدى والبينات، وعلى آله وصحبه أولى المناقب والمكرمات ، وبعد :

فإنني إذ أضع رحالي في بحثي المتواضع الذي عشت فيه مع سورة الأنفال ، أسأل الله عز وجل كما أعانني على تدبرها وتأملها والتفكر في مواضيعها ومعانيها وألفاظها ، أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم، وأن يأجرني ويتجاوز عنى لفرط جهلي ، وعظيم تقصيري ، وأن ينفع به الأمة ، ويجعله مباركا ، وسأسوق فيما يلي أهم النتائج والتوصيات في هذا البحث .

أولا : أهم النتائج التي أظهرها هذا البحث :

١- أظهر هذا البحث الفرق بين التناسب والتناسق الموضوعي في القرآن الكريم ، فالتناسب يكون في الألفاظ والجمل والآيات ، والتناسق يكون بين موضوعات السورة الواحدة .

٢- من خلال دراسة التناسق الموضوعي في سورة الأنفال اتضح للباحث أن النظم القرآني يشمل أربع مصطلحات بعضها أخص من بعض ، فنظام القرآن هو أعم تلك المصطلحات ثم يدخل تحته التناسب ، ثم يدخل تحت التناسب التناسق ، ثم يدخل تحت التناسق الوحدة الموضوعية ، فكل واحدة من تلك المصطلحات مبنية على الأخرى .

٣- إن دارسة التناسق الموضوعي في السورة القرآنية هو الطريق لمعرفة الوحدة الموضوعية في السورة ، واستجلاء المحور الرئيسي والموضوع الكلي في السورة .

٤- أنه لم يرد في تسمية سورة الأنفال اسم توقيفي عن النبي صلى الله عليه وسلم ، غير الأنفال ، وهو ما اشتهرت به السورة في كتب الحديث والتفسير .

٥- لم يرد في فضل سورة الأنفال حديث صحيح خاص بها عن النبي صلى الله عليه وسلم .

٦- أجمع العلماء أن سورة الأنفال نزلت في غزوة بدر في السنة الثانية من الهجرة .

٧- ظهر للباحث أن سورة الأنفال بجميع آياتها مدنية ، وأن القول بمكية بعض الآيات فيها قول يفتقر إلى الدليل الصحيح والصريح .

٨- أن هناك ترابطا وثيقا ، وتناسقا بديعا بين سورتي الأعراف والأنفال ، وسورتي الأنفال والتوبة ، فسورة الأعراف بينت وأوضحت جهاد الأنبياء مع قومهم باللسان والحجة والبيان ،

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

وسورة الأنفال بينت جهاد النبي صلى الله عليه وسلم مع قومه بالسنان والرماح والسيوف ، ثم أعقبتها سورة التوبة لتتم ما بدأته سورة الأنفال من جهاد الكفار وأحوال العهود والمواثيق معهم.

٩- أنه لم يرد في أسباب نزول السورة الكريمة وآياتها سوى بضع أحاديث صحيحة ، لا تتجاوز سبع أحاديث ، وأن بعضا من صحيح تلك الأحاديث غير صريحة في سبب النزول .

١٠- أن مقاصد سورة الأنفال وأهدافها هو بيان أسباب النصر ، وأن هذه الأسباب تنقسم إلى : أسباب ربانية ، وأسباب مادية ، وكلاهما مرتبطان ببعض ، فالسورة الكريمة تحدثت عن التمسك بكلا السببين ، وأرشدت إلى التوازن بينهما .

١١- ظهر للباحث المناسبة بين اسم سورة الأنفال وموضوعاتها ، وبين فاتحة السورة وموضوعاتها ، وذلك أن اسم الأنفال يتضمن معاني القتال والجهاد والنصر الذي هو المحور والموضوع الكلي للسورة ، وأن فاتحة السورة تحدثت عن أهل الإيمان وما يجب أن يكونوا عليه من التقوى والطاعة والاستجابة لله ولرسوله ، وأن تلك الحقائق الإيمانية إن تمسكوا بها أحيا في نفوسهم حب الجهاد في سبيل الله ، وتحقيق أسباب النصر ، وتكوين العلاقات مع بعضهم البعض ، ومع غيرهم في السلم والحرب .

١٢- توصل الباحث بعد البحث والنظر والتأمل الطويل أن موضوع سورة الأنفال هو : الجهاد في سبيل الله ، وأن أبرز الموضوعات التي عالجتها السورة الأنفال تمثلت في ثلاث موضوعات رئيسية وهي :

أ) الحديث عن أهم أحداث غزوة بدر ، وما دار قبل المعركة ، وفي أثناءها ، وما بعدها .

ب) الحديث عن عدد من أسباب النصر والهزيمة لم تذكر في غيرها من سور القرآن الكريم.

ج) الحديث عن علاقة المسلمين بغيرهم وببعضهم في السلم والحرب .

١٣- أن هناك تناسقا بديعا ، وتناسبا لطيفا ، بين هذه الموضوعات الرئيسية ، وبين معانيها وألفاظها ، فهي كلها تمضي في سياق متآلف ، وبأسلوب متناسق ومترابط ، تتناسب فواتحها مع موضوعاتها ، وفواتحها مع خواتمها ، وذيول آياتها مع مقدماتها ومواضيعها ، ومعانيها مع أحرفها وكلماتها ، وكل ذلك في سياقها العام ، تبرز فيها كل سورة بجمالها التناسقي بأبهى صورة ، فكأنها بنيان متصل ومتآلف أشد اتصال وأقوى تآلف .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

ثانيا : توصيات الباحث :

فبعد أن أينعت أزهار هذا البحث وحان قطافها أود أن أسجل أهم التوصيات والمقترحات الآتية :

١- آمل من قسم الكتاب والسنة في كلية الدعوة وأصول الدين بجامعة أم القرى أن يشكل لجنة للاهتمام بهذا المشروع القيم أعني مشروع " التناسق الموضوعي في سور القرآن الكريم" لإخراجه للناس للانتفاع به حتى لا يبقى رهين الرفوف والأدراج .

٢- أوصي المنظمات والهيئات والحكومات الإسلامية أن تعنى بدراسة أسباب النصر والهزيمة في القرآن الكريم ، وخاصة ما ورد في سورة الأنفال ، وأن تقرر برامج عملية في هذا الشأن لتطبيقها على أرض الواقع .

٣- أوصي الباحثين في التفسير الموضوعي وخاصة في باب التناسق توسيع دائرة بحثهم لاستنباط أسرار القرآن الكريم التي لا تنتهي، ومحاولة الإجابة على الكثير من الأسئلة حول السر في اختيار القرآن لكلمات وجمل دون غيرها، وفي علاقة خواتم الآيات بمقدماتها ومواضيعها .

٤- آمل من أهل اليسر والإحسان تأسيس ودعم الكراسي البحثية حول إظهار وجوه إعجاز النظم القرآني ، مما يساعد على حسن التدبر والتأمل في كتاب الله تعالى .

٦- أوصي الباحثين وطلبة العلم ببث ونشر ثقافة حب التدبر والتأمل لكتاب الله عز وجل لدى جيل الشباب المسلم ، بأسلوب مبسط وسهل ، من خلال القنوات الفضائية ، المرئية منها والمسموعة ، ومن خلال قنوات التواصل الاجتماعي ، ومن خلال الشبكة العنكبوتية .

٧- أوصي جميع المسلمين أن يجعلوا سورة الأنفال نبراسا ومرجعية لهم في تحقيق انتصارهم ، وتعاملهم مع أعدائهم في السلم والحرب .

وختاما : أحمد الله تعالى على توفيقه وامتنانه ، وعلى فضله وإنعامه ، فله الحمد في الأولى والآخرة ، أحمده حمدا كثيرا مباركا فيه ، واسأله سبحانه وتعالى كما أنعم وتفضل أن يسدد القصد ، ويحسن النية ، وأن ينفعني والمسلمين بالعلم النافع والعمل الصالح .

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك .

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين ، ومن اهتدى بهديهم ، واستن بسنتهم إلى يوم الدين .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

الفهــارس العامة

وتشتمل على :-

أولا : فهرس الآيات القرآنية.

ثانيا : فهرس الأحاديث والآثار .

ثالثا : فهرس الأعلام .

رابعا : فهرس المصادر والمراجع .

خامسا : فهرس الموضوعات .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

أولا : فهرس الآيات القرآنية

الآية أو طرفها	اسم السورة	رقم الآية	رقم الصفحة
﴿وَإِن ´ µ ¶ ¸ نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا....﴾	البقرة	٢٣	١٣٥
﴿" # $ % & ' ( ) * .﴾	البقرة	١٠٦	٤١
﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا .....﴾	البقرة	١٢٥	١٥٤
﴿......وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ .....﴾	البقرة	٢٨٢	٢١٣
﴿.... ^ _ ` a ....﴾	آل عمران	١٣	٢٤٢
﴿d e f g h i j k ...﴾	آل عمران	١٦٩	٢١١
﴿..... 3 4 5 ....﴾	النساء	٤٦	٢٠٧
﴿[/ 0 1 2 3 4 ..﴾	النساء	٨١	٢٠٧
﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ .....﴾	النساء	١٤٧	١٥٤
﴿.. { ~ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ..﴾	الأعراف	١٧٦	٦٢
﴿n o p q r s t ....﴾	الأعراف	٢٠٣	٦٢
﴿© قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ ....﴾	الأعراف	٢٠٤	٦١
﴿وَٱذْكُر ´ µ ¶ ¸ ....﴾	الأعراف	٢٠٥	٦١
﴿! " # $ ....﴾	التوبة	١	٦٤
﴿.......... | } ....﴾	التوبة	٥	٢٦٨
﴿` a b c d ....﴾	التوبة	٤	٦٦
﴿! " # $ .....﴾	التوبة	٧	٦٦

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

﴿! " # $ ....﴾	التوبة	١٤	٦٥
﴿i j k l m n o ..﴾	التوبة	١٨	٦٥
﴿y z { | } ~ .....﴾	التوبة	٤٦	٦٧
[.. ´ µ ¶ ¸ لَهُمْ..﴾	التوبة	٤٧	٤٧
﴿q r s t ......﴾	التوبة	٦٠	٦٦
﴿3 4 5 6 7 8 9 ....﴾	التوبة	١٢٤	٦٤
﴿.........أَلَا â ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾	الرعد	٢٨	١٨٢
﴿? @ A B ....﴾	النحل	٨٩	٤٠
﴿2 3 4 5 6 7 ....﴾	النحل	١١٢	١٥٥
﴿g h i j k l m﴾	الحجر	٩	٤٥
﴿/ 0 1 2 3 4 5 ......﴾	الإسراء	٩	٤٠
﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ....﴾	الأنبياء	٧٢	٣٤
﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ....﴾	القصص	٥٨	١٥٥
﴿.... (* + , - .....﴾	العنكبوت	٦٤	٢١١
﴿L M N O P Q ....﴾	العنكبوت	٦٧	١٥٥
﴿B C D E F G ...﴾	ص	٢٨	٩
﴿k l m n o ....﴾	محمد	٣٥	٢٦٨
﴿K L M N ....﴾	المعارج	١٩-٢٢	١١١

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

ثانيا : فهرس الأحاديث والآثار

طرف الحديث أو الأثر	الراوي	رقم الصفحة
ابغوني الضعيف ، فإنكم إنما إنما ترزقون............	ابو الدرداء	١١١
ارموا بني إسماعيل فإن أباكم كان راميا............	سلمة بن الأكوع	١٦٤
أعطيت مكان التوراة السبع....................	واثلة بن الأسقع	٤٢
اقرءوا القرآن فإنه يأتي شفيعا لأصحابه...........	أبو أمامة الباهلي	٤١
أنزل الله عليّ أمانين لأمتي	أبو موسى الأشعري	١٣٧
إنها نزلت في بدر..............................	ابن عباس	٤٦
خرجنا مع النبي r فشهدت معه بدرا............	عبادة بن الصامت	٧٥
خيركم من تعلم القرآن وعلمه..................	عثمان بن عفان	٤١
الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة.......	عروة البارقي	١٦٣
سألت عبادة بن الصامت عن الأنفال	أبو أمامة الباهلي	٤٢
سيروا وأبشروا ، فإن الله قد وعدني إحدى	ابن اسحاق	١١٤
قد أغار رسول الله r على بني المصطلق وهم	ابن عمر	١٦١
قلت لابن عباس: سورة الأنفال؟ قال:تلك سورةبدر	سعيد بن جبير	٤٩
كان المستفتح يوم بدر أبو جهل ، وإنه قال.......	عبد الله بن ثعلبة	٧٩
لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله القرآن	عبد الله بن عمر	٤٠
لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم..	علي بن أبي طالب	٢٥٠
لم تحل الغنائم لقوم سود الرؤوس قبلكم ،..........	أبو هريرة	٨٣
لم يكن رسول الله r يريد غزوة إلا ورى بغيرها....	كعب بن مالك	١٦١
لما كان يوم بدر قتل أخي عمير ،.................	سعد بن أبي وقاص	٣٤
لما كان يوم بدر، نظر رسول الله r إلى المشركين...	عمر بن الخطاب	٧٨
الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة	عائشة	٤١
من فعل كذا وكذا فله من النفل كذا وكذا..........	ابن عباس	٧٦
نزلت في أربع آيات . أصبت سيفا...............	سعد أبي وقاص	٧٥
هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها	ابن عباس	٥٠
هو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم	علي بن أبي طالب	٧
والذي بعثك بالحق ، لو سلكت بنا برك الغماد....	المقداد بن عمرو	٥٢
الولد مجبنة مبخلة.............................	أبي سعيد	٢١٧

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

ثالثا : فهرس الأعلام

اسم العلم	رقم الصفحة
ابن اسحاق ، محمد	٤٩
ابن العربي ، القاضي أبو بكر	٧٧
ابن المزين ، أحمد بن عمر	٧٨
ابن أم مكتوم	٥١
ابن جرير ، محمد	٣٥
ابن حجر العسقلاني	٥٨
ابن عاشور ، محمد بن الطاهر	١٣
ابن عطية ، عبد الحق	٣٥
ابن فارس ، أحمد	٣٤
ابن كثير ، إسماعيل بن عمر	١٥
أبو السعود ، محمد بن محمد العماد	١٦٢
أبو أمامة الباهلي	٤١
أبو جعفر أحمد إبراهيم بن الزبير	١٠
ابو حيان ، محمد بن يوسف	١١٩
أبو سفيان بن حرب	٥١
أبو لبابة بن عبد المنذر	٥١
الألوسي ، محمود بن عبد الله الحسيني	١٤
البغوي ، الحسين بن مسعود	٧٧
البقاعي ، إبراهيم عمر	١٠
بلعم	٦٢
الجعبري ، إبراهيم بن عمر الجعبري	٢٩
جيجك ، محمد خليل	٩٤
الحباب بن المنذر	١٤٧
دروزة ، محمد عزت	١٠٦

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

الرازي ، محمد بن عمر ٩
الزرقاني ، محمد عبد العظيم ٢٩
سعد بن معاذ ٥٢
سعيد بن جبير ٣٦
سعيد حوى ١٠
سلمة بن الأكوع ١٦٣
سيد قطب إبراهيم ١٣
السيوطي ، عبد الرحمن بن أبي بكر ١٠
الشنقيطي ، محمد الأمين ٧٨
عبادة بن الصامت ٤٢
عبد الله بن ثعلبة ٧٩
عروة البارقي ١٦٣
عقيل بن أبي طالب.. ٨٣
عكرمة مولى ابن عباس.................................... ٥٧
الفراهي ، عبد الحميد ٩٥
الفيروز آباي ، محمد بن يعقوب ٣٦
القرطبي ، محمد بن أحمد ٧٧
مجاهد بن جبر.. ٥٧
محمد رشيد رضا ٦٣
محمد عبد الله دراز ١٣
مصطفي مسلم ١٥
المقداد بن عمرو... ٥٢
مناع القطان ٦٠
النسفي ، عبد الله بن أحمد ١٥
واثلة بن الأسقع ٤٢
الواحدي ، علي بن أحمد.................................... ٧٧

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

رابعا : فهرس المصادر والمراجع

١- القرآن الكريم

٢- الإتقان في علوم القرآن ، للحافظ جلال الدين عبد الرحمن ابن أبي بكر السيوطي ، تحقيق وطبع : مركز الدراسات القرآنية ، التابع لمجمع الملك فهد بالمدينة المنورة ، ١٤٢٦هـ .

٣- إثبات صفة العلو ، لعبد الله بن أحمد ابن قدامة المقدسي، تحقيق : بدر عبد الله البدر، الطبعة الأولى ، الكويت : الدار السلفية ، ١٤٠٦هـ .

٤- اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية ، لابن القيم الجوزية، الطبعة الأولى، بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م .

٥- أحكام القرآن ، لأبي بكر أحمد بن علي الرازي المعروف بالجصاص ، تحقيق: محمد الصادق قمحاوي ، بيروت : دار إحياء التراث العربي ، ١٤٠٥هـ

٦- أحكام القرآن ، لمحمد بن عبد الله ابن العربي ، تحقيق : محمد عبد القادر عطا ، الطبعة الثالثة ، بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م .

٧- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ، لأبي السعود ، محمد بن محمد العمادي ، تحقيق عبد القادر أحمد عطا ، الرياض : مكتبة الرياض الحديثة .

٨- الأساس في التفسير لسعيد حوى ، الطبعة الأولى ، القاهرة : دار السلام ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م .

٩- أسرار البلاغة، لأبي بكر عبد القاهر الجرجاني النحوي ، جدة : دار المدني .

١٠-الإصابة في تمييز الصحابة ، للحافظ أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني ، تحقيق : علي محمد البجاوي ، الطبعة الأولى ، بيروت : دار الجيل ، ١٤١٢هـ .

١١-أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، لمحمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي، بيروت : دار الفكر ، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م .

١٢-الأعلام، خير الدين الزركلي ، بيروت : دار العلم للملايين ، ٢٠٠٢م.

١٣-الانتصار للقرآن ، للقاضي أبي بكر ابن الطيب الباقلاني ، تحقيق: محمد عصام القضاة، الطبعة الأولى ، بيروت : دار ابن حزم ، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

١٤-أنوار التنزيل وأسرار التأويل ، لناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي ، الطبعة الأولى ، بيروت : دار الفكر ، ٢٠٠١م .

١٥-أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، لأبي بكر جابر بن موسى الجزائري ، الطبعة الخامسة، المدينة المنورة : مكتبة العلوم والحكم ، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م .

١٦- البحر المحيط ، لأبي حيان محمد بن يوسف ابن حيان الأندلسي ، دراسة وتحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود ، والشيخ علي محمد معرض ، الطبعة الأولى ، بيروت: دار الكتب العلمية ، ١٤٢٢ هـ/٢٠٠١م .

١٧- البحر المديد ، أحمد بن محمد بن المهدي ابن عجيبة الحسني الإدريسي الفاسي أبو العباس ، الطبعة الثانية ، بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م .

١٨- البداية والنهاية لأبي الفداء إسماعيل بن عمر ابن كثير الدمشقي ، تحقيق: علي شيري، الطبعة الأولى ، بيروت : دار إحياء التراث العربي، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

١٩- البرهان في تناسب سور القرآن ، لأبي جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي ، تقديم وتحقيق: د. سعيد بن جمعة الفلاح ، الطبعة الأولى ، الدمام : دار الجوزي ، ١٤٢٨هـ.

٢٠- البرهان في توجيه متشابه القرآن ، لمحمود بن حمزة بن نصر الكرماني ، تحقيق : عبد القادر أحمد عطا ، الطبعة الأولى ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م .

٢١- البرهان في علوم القرآن ، لبدر الدين محمد الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الأولى ، القاهرة : دار إحياء الكتب العربية ، ١٣٧٦هـ/١٩٥٧م .

٢٢- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ، لمحمد بن يعقوب الفيروز آبادي، تحقيق: محمد علي النجار ، بيروت: المكتبة العلمية ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م .

٢٣- بهجة المحافل وبغية الأماثل ، في تلخيص المعجزات والسير والشمائل ، لعماد الدين يحي بن أبي أبكر العامري ، بيروت : دار صادر .

٢٤- البيان في عد آي القرآن للإمام أبي عمرو الداني ، تحقيق : د.غانم قدوري الحمد ، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م .

٢٥- تاج العروس من جواهر القاموس ، لأبي الفيض محمد الملقّب بمرتضى الزَّبيدي ، تحقيق: مجموعة من المحققين ، بيروت : دار الهداية .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

٢٦- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام ، لأبي عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، تحقيق: د.عمر عبد السلام تدمري ، الطبعة الأولى ، بيروت : دار الكتاب العربي ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م .

٢٧- تاريخ الأمم والملوك الطبري، لأبي جعفر محمد بن جرير بن يزيد الطبري ، الطبعة الأولى، بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤٠٧هـ.

٢٨- تاريخ القرآن الكريم ، للدكتور/محمد سالم محيسن ، طبعة السنة الثانية ، جدة : دار الأصفهاني من إصدارات دعوة الحق، سلسلسة شهرية تصدر مع مطلع كل شهر عربي ، جمادى الآخرة ، ١٤٠٢هـ .

٢٩- تاريخ خليفة ، لأبي عمر خليفة بن خياط الليثي العصفري ، تحقيق : د. أكرم ضياء العمري، الطبعة الثانية ، دمشق : دار القلم ، بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٣٩٧هـ .

٣٠- التحرير والتنوير ، لمحمد الطاهر ابن عاشور ، تونس : دار سحنون للنشر والتوزيع، ١٩٩٧م.

٣١- تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في تفسير الكشاف، لجمال الدين عبد الله بن يوسف بن محمد الزيلعي ، تحقيق : عبد الله بن عبد الرحمن السعد ، الطبعة الأولى ، الرياض: دار ابن خزيمة ، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م .

٣٢- تذكرة الموضوعات ، لمحمد طاهر بن علي الفتني ، الطبعة الأولى ، القاهرة : إدارة الطباعة المنيرية ، ١٣٤٣هـ .

٣٣-التعريفات ، لعلي بن محمد بن علي الجرجاني ، تحقيق : إبراهيم الأبياري ، الطبعة الأولى، بيروت : دار الكتاب العربي ، ١٤٠٥هـ .

٣٤- تفسير الجلالين ، للإمامين : جلال الدين محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم المحلي ، وجلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن السيوطي ، الطبعة الأولى ، القاهرة : دار الحديث .

٣٥- التفسير الحديث ، لمحمد عزت دروزة ، القاهرة : دار إحياء الكتب العربية ،١٣٨٣هـ.

٣٦- تفسير السمعاني ، لأبي المظفر منصور بن محمد بن عبد الجبار السمعاني ، تحقيق : ياسر بن إبراهيم ، وغنيم بن عباس ، الرياض : دار الوطن ، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م .

٣٧- تفسير القرآن العظيم ، لأبي الفداء إسماعيل ابن كثير الدمشقي ، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، الطبعة الثانية ، مكة المكرمة: دار طيبة للنشر والتوزيع ، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

٣٨- التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب ، لفخر الدين محمد بن عمر الرازي التميمي ، الطبعة الأولى ، بيروت : دار الفكر، ١٤٠١هـ/١٩٨١م .

٣٩- تفسير المراغي ، لأحمد مصطفى المراغي ، الطبعة الأولى ، القاهرة : مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، ١٣٦٥هـ/١٩٤٦م .

٤٠- تفسير المنار، للسيد محمد رشيد رضا ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٠م .

٤١- التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، للدكتور/ وهبة الزحيلي ، الطبعة الأولى ، بيروت : دار الفكر المعاصر ، دمشق : دار الفكر ، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م .

٤٢-التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق، صلاح الخالدي، دار النفائس – الأردن، ١٤٢٨هـ.

٤٣- التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم ، إعداد نخبة من علماء التفسير وعلوم القرآن بإشراف أ.د.مصطفى مسلم ، الطبعة الأولى ، من إصدارات كلية الدراسات العليا والبحث العلمي بجامعة الشارقة ، ١٤٣١هـ-/٢٠١٠م .

٤٤-التفسير الموضوعي ومنهجية البحث فيه،أ.د.زياد الدغامين، الأردن:دار عمار، ١٤٠٨هـ.

٤٥- التفسير الواضح ، للدكتور: محمد محمود حجازي ، الطبعة الرابعة ، مطبعة الاستقلال الكبرى ، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م .

٤٦- التفسير الوسيط ، محمد السيد الطنطاوي ، ، الطبعة الثالثة ، القاهرة : مطبعة السعادة، ١٤٠٧هـ/١٩٧٨م .

٤٧- تفسير عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي، تحقيق: أسعد محمد الطيب، صيدا:المكتبة العصرية.

٤٨-تقريب التهذيب ، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ، تحقيق : عبد الوهاب عبد اللطيف ، بيروت : دار المعرفة ، ١٣١٥هـ .

٤٩- تناسق الدرر في تناسب السور ، للحافظ جلال الدين السيوطي، تحقيق : عبد القادر أحمد عطا ، الطبعة الأولى ، بيروت: دار الكتب العلمية ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م .

٥٠- تنزيل القرآن ، لمحمد بن شهاب الزهري ، تحقيق : د. صلاح الدين المنجد ، الطبعة الثانية ، بيروت : دار الكتاب الحديث ، ١٩٨٠م .

٥١-تهذيب التهذيب ، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، بيروت : دار الفكر ، ١٩٨٤م.

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

٥٢- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، للعلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي ، تحقيق : عبد الرحمن بن معلا اللويحق ، الطبعة الأولى ، بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م .

٥٣- جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، لأبي جعفر محمد بن جرير بن يزيد الطبري ، بتحقيق: أحمد محمد شاكر ، الطبعة الأولى، بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.

٥٤- الجامع الصحيح المختصر ، لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي ، الطبعة الثالثة ، تحقيق د. مصطفى ديب البغا ، بيروت : دار ابن كثير ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

٥٥- الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان ، لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي ، تحقيق : هشام سمير البخاري ، الرياض : دار عالم الكتب ، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م .

٥٦- جوامع السيرة ، علي بن أحمد بن سعيد ابن حزم ، تحقيق : إحسان عباس ، الطبعة الأولى، القاهرة : دار المعارف ، ١٩٠٠م .

٥٧- جواهر البيان في تناسب سور القرآن ، لأبي الفضل عبد الله محمد الصديق الغماري الحسني، القاهرة : مكتبة القاهرة .

٥٨- الجواهر الحسان في تفسير القرآن ، للإمام عبد الرحمن بن محمد مخلوف أبي زيد الثعالبي المالكي، تحقيق : الشيخ علي محمد معوض ، والشيخ عادل أحمد عبد الموجود ، الطبعة الأولى، بيروت : دار إحياء التراث العربي ، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م .

٥٩-الجواهر المضية في طبقات الحنفية ، محي الدين عبد القادر بن محمد القرشي، تحقيق : عبد الفتاح الحلو، شركة عيسى البابي الحلبي – مصر، ١٣٩٩هـ.

٦٠- حاشية محي الدين شيخ زاده على تفسير القاضي البيضاوي ، لمحي الدين محمد مصلح الدين زاده القوجوي ، تحقيق: محمد عبد القادر شاهين ، الطبعة الأولى ، بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م .

٦١- حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم ، لأبي بدر محمد بن بكر آل عابد ، الطبعة الأولى ، بيروت : دار الغرب الإسلامي .

٦٢- الدر المصون في علوم الكتاب المكنون ، لأحمد بن يوسف بن عبد الدائم المعروف بالسمين الحلبي ، تحقيق : د.أحمد محمد الخراط ، دمشق : دار القلم .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

٦٣- الدر المنثور في التفسير بالمأثور ، لجلال الدين السيوطي ، تحقيق: د.عبد الله عبد المحسن التركي، الطبعة الأولى، القاهرة: مركز هجر للبحوث والدراسات، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.

٦٤- درة التنزيل وغرة التأويل ، لأبي عبد الله محمد بن عبد الله الإسكافي الأصبهاني ، دراسة وتحقيق وتعليق :د.محمد مصطفى آيدين ، الطبعة الأولى ، مكة المكرمة : من إصدارات معهد البحوث العلمية بجامعة أم القرى ، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م .

٦٥-الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، الحافظ ابن حجر العسقلاني، تحقيق: محمد سيد جاد الحق ، مصر : دار الكتب الحديثة ، ١٣٥٨هـ.

٦٦-دلالة أسماء سور القرآن الكريم من منظور حضاري لمحمد خليل جيجك ، ، بيروت : مؤسسة الرسالة، ١٤٢١هـ .

٦٧- دلائل الإعجاز ، لعبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني ، تحقيق : محمود محمد شاكر ، الطبعة الخامسة ، القاهرة : مكتبة الخانجي ، ٢٠٠٤م .

٦٨- دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة ، لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي ، تحقيق: د.عبدالمعطي قلعجي، الطبعة الأولى، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

٦٩-دلائل النظام، عبد الحميد الفراهي، الدائرة الحميدية ومكتبتها ، الهند، ط [بدون].

٧٠-الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب، أبو إسحاق إبراهيم بن علي بن فرحون المالكي، تحقيق : محمد الأحمدي أبو النور، القاهرة : دار التراث للطبع والنشر .

٧١- روائع البيان تفسير آيات الأحكام من القرآن ، لمحمد علي الصابوني ، الطبعة الثالثة ، دمشق : مكتبة الغزالي ، بيروت : مؤسسة مناهل العرفان ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م .

٧٢- روح البيان ، لإسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي الحنفي الخلوتي ، بيروت : دار إحياء التراث العربي .

٧٣- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، لأبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي ، عني بنشره وتصحيحه المرحوم السيد محمود شكرى الألوسي ، بيروت : دار إحياء التراث العربي .

٧٤- رياض القرآن تفسير في النظم القرآني ونهجه النفسي والتربوي ، تأليف : سمير شريف استيتية ، عمان : عالم الكتب الحديث ، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

٧٥- زاد المسير في علم التفسير،لجمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي، الطبعة الثالثة، ١٤٠٤ هـ ، المكتب الإسلامي . بيروت.

٧٦- زاد المعاد في هدي خير العباد ، لشمس الدين محمد بن أبي بكر ابن القيم الجوزية أبو عبد الله ، الطبعة السابعة والعشرون ، بيروت : مؤسسة الرسالة ، الكويت : مكتبة المنار الإسلامي ، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م .

٧٧-السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير، لشمس الدين محمد الخطيب الشربيني ، بيروت : دار الكتب العلمية .

٧٨- سعادة الدارين في بيان وعد آي معجز الثقلين ، لمحمد بن علي بن خلف الحسيني ، الشهير بالحداد ، الطبعة الأولى، القاهرة : مطبعة المعاهد بجواز قسم الجمالية ، ١٣٤٣هـ.

٧٩- سنن ابن ماجه ، لأبي عبد الله محمد بن يزيد ابن ماجه القزويني ، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي ، بيروت : دار الفكر .

٨٠- سنن أبي داود ، لأبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، بيروت : دار الفكر .

٨١- سنن الترمذي ، لأبي عيسى محمد بن عيسى الترمذي السلمي ، تحقيق : أحمد محمد شاكر وآخرون ، بيروت : دار إحياء التراث العربي .

٨٢- السنن الكبرى ، لأبي بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي ، تحقيق : محمد عبد القادر عطا ، مكة المكرمة : مكتبة دار الباز ، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م .

٨٣-سنن النسائي لأحمد بن شعيب بن علي النسائي ، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة ، الطبعة الثانية ، حلب ، مكتب المطبوعات الإسلامية ، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م .

٨٤-سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، حققه جماعة بإشراف : شعيب بن الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة – بيروت ، ١٤٠٥هـ.

٨٥- السيرة النبوية ، لأبي محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري ، تحقيق : طه عبد الرءوف سعد ، بيروت : دار الجيل ، ١٤١١هـ .

٨٦- السيرة النبوية الصحيحة ، لأكرم ضياء العمري ، الطبعة السادسة ، المدينة المنورة ، مكتبة العلوم والحكم ، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م .

٨٧- السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة لأبي شهبة، محمد بن محمد ، دمشق : دار القلم.

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

٨٨-شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، عبد الحي بن العماد الحنبلي ، بيروت : دار المسيرة ، ١٣٩٩هـ.

٨٩-الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية ، إسماعيل بن حماد الجوهري ، الطبعة الرابعة ، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار ، بيروت : دار العلم للملايين ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م .

٩٠- صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، لمحمد بن حبان بن أحمد التميمي ، الطبعة الثانية ١٤١٤هـ/١٩٩٣م، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، تحقيق شعيب الأررناؤوط .

٩١- صحيح السيرة النبوية ، لإبراهيم العلي ، الطبعة الأولى ، الأردن : دار النفائس ، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م .

٩٢- صحيح مسلم ، لأبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري ، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي ، بيروت : دار إحياء التراث العربي .

٩٣-صفوة التفاسير ، تأليف : د.محمد علي الصابوني ، الطبعة الرابعة ، بيروت : دار القرآن الكريم ، ١٤٠٢هـ/١٩٨١م .

٩٤- صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة ، لمحمد فوزي فيض الله ، الطبعة الأولى ، دمشق، دار القلم ، بيروت : الدار الشامية ، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م .

٩٥-الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، لمحمد بن عبد الرحمن السخاوي،بيروت:دار مكتبة الحياة.

٩٦-طبقات المفسرين، جلال الدين السيوطي، بيروت : دار الكتب العلمية .

٩٧- طريق الهجرتين وباب السعادتين ، لابن القيم الجوزية ، تحقيق: عمر بن محمود أبو عمر، الطبعة الثانية ، الدمام : دار ابن القيم ، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

٩٨- عارضة الأحوذي شرح صحيح الترمذي، لأبي بكر محمد بن عبد الله ابن العربي المعافري الاشبيلي المالكي (ت ٥٤٣هـ) ، بيروت : دار الكتب العلمية .

٩٩- العبر ، وديوان المبتدأ والخبر ، في أيام العرب والعجم والبربر ، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ، لعبد الرحمن بن محمد ابن خلدون المغربي ، الطبعة الرابعة ، بيروت : دار إحياء التراث العربي .

١٠٠- العبر في خبر من غبر ، لأبي عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي ، تحقيق : أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول ، بيروت : دار الكتب العلمية .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

١٠١- عدد سور القرآن وآياته وكلماته وحروفه ، لعمر بن محمد بن عبد الكافي ، تحقيق: خالد حسن أبو الجود ، مكتبة الإمام البخاري للنشر والتوزيع .
١٠٢- عناية القَاضى ، وكفاية الرَّاضى على تفسير البيضاوي ، لشهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي المصري ، بيروت : دار صادر .
١٠٣- غرائب القرآن ورغائب الفرقان ، لنظام الدين الحسن بن محمد النيسابوري، الطبعة الأولى، تحقيق : الشيخ زكريا عميران ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م .
١٠٤- فتح الباري في شرح صحيح البخاري ، لزين الدين أبي الفرج عبد الرحمن ابن شهاب الدين ابن رجب البغدادي ثم الدمشقي ، تحقيق: أبو معاذ طارق بن عوض الله بن محمد، الطبعة الثانية ، الدمام : دار ابن الجوزي ، ١٤٢٢هـ .
١٠٥- فتح الباري في شرح صحيح البخاري ، للحافظ أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني ، بيروت: دار المعرفة ، ١٣٧٩هـ .
١٠٦- فتح البيان في مقاصد القرآن ، للعلامة الملك المؤيد من الله الباري آبي الطيب صديق بن حسن بن علي الحسين القنوجي النجاري ، عني بطبعهِ وقدّم له وراجعه : عَبد الله بن إبراهيم الأنصَاري ، صيدا : المكتبة العصرية ، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م .
١٠٧- الفتح السماوي بتخريج أحاديث القاضي البيضاوي ، لزين الدين محمد عبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي المناوي ، تحقيق : أحمد مجتبى ، الرياض : دار العاصمة .
١٠٨- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير ، لمحمد بن علي بن محمد الشوكاني، اعتنى به: يوسف الغوش، الطبعة الرابعة، بيروت: دار المعرفة ، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م .
١٠٩- الفرائد الحسان في عد آي القرآن ، ومعه شرح نفائس البيان ، تأليف : عبد الفتاح عبد الغني القاضي ، الطبعة الأولى ، المدينة المنورة : مكتبة الدار ، ١٤٠٤هـ.
١١٠- الفروق اللغوية ، لأبي هلال الحسن بن عبد الله العسكري ، تحقيق : بيت الله بيات، الطبعة الأولى ، قم : مؤسسة النشر الإسلامي ، ١٤١٢هـ .
١١١- فقه السيرة ، لمحمد الغزالي ، خرج أحاديثها : محمد ناصر الدين الألباني ، الطبعة السادسة ، القاهرة : دار الكتب الحديثة ، ١٩٦٥م .
١١٢- فقه السيرة النبوية ، لمحمد سعيد رمضان البوطي ، الطبعة العاشرة ، بيروت : دار الفكر المعاصر ، ١٤١١هـ/١٩١١م .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

١١٣- فقه السيرة النبوية ، لمنير محمد غضبان ، من إصدارات معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى بمكة المكرمة .

١١٤- القاموس المحيط ، محمد يعقوب الفيروزآبادي ، تحقيق : مكتبة التراث ، بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٤٠٦هـ.

١١٥- القرآن المجيد ، لمحمد عزت دروزة ، بيروت : الكتبة العصرية .

١١٦- قطف الأزهار في كشف الأسرار ، للسيوطي ، تحقيق: د.أحمد محمد الحمادي ، الطبعة الأولى ، من إصدار وزارة الشؤون الإسلامية لدولة قطر ، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م .

١١٧- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ، لأبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري ، تحقيق وتعليق : عادل أحمد عبد الموجود ، علي محمد معوض، الطبعة الأولى ، الرياض : مكتبة العبيكان ، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م .

١١٨- كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس، لإسماعيل محمد العجلوني ، الطبعة الثانية ، بيروت : دار الكتب العلمية ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م.

١١٩- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، مصطفى بن عبد الله الشهير بـ (حاجي خليفة) ، بيروت : دار العلوم .

١٢٠- الكشف والبيان ، لأحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري ، تحقيق : الإمام أبو محمد ابن عاشور، الطبعة الأولى، بيروت : دار إحياء التراث العربي، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م.

١٢١- اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة ، للحافظ جلال الدين أبو بكر عبد الرحمن السيوطي ، بيروت : دار المعرفة .

١٢٢- اللباب في علوم الكتاب ، لأبي حفص عمر بن علي ابن عادل الدمشقي الحنبلي ، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود ، وعلي محمد معوض ، الطبعة الأولى ، بيروت ، دار الكتب العلمية، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م .

١٢٣- لسان العرب ، جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور ، تحقيق : نخبة من الأساتذة العاملين بدار المعارف ، الطبعة الأولى ، القاهرة : دار المعارف .

١٢٤- مباحث في التفسير الموضوعي، أ. د. مصطفى مسلم، دار القلم – دمشق، ١٤٣٠هـ.

١٢٥- مباحث في التفسير الموضوعي، للدكتور/مصطفى مسلم ، الطبعة الثالثة ، دمشق : دار القلم، ١٤٢١هـ/٢٠٠م .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

١٢٦- مباحث في علوم القرآن ، للدكتور/ مناع خليل القطان ، الطبعة الثالثة ، الرياض : مكتبة المعارف للنشر والتوزيع ، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م .

١٢٧- مجمع الأمثال ، لأبي الفضل أحمد بن محمد الميداني ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، بيروت : دار المعرفة .

١٢٨- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ، نور الدين أبو الحسين علي بن أبي بكر الهيثمي (ت ٨٠٧هـ) ، بيروت : دار الفكر ، ١٤١٢هـ .

١٢٩- محاسن التأويل ، محمد جمال الدين القاسمي ، الطبعة الأولى ، صححه ورقمه وخرج أحاديثه وعلق عليه : محمد فؤاد عبد الباقي ، ١٣٧٦هـ/١٩٥٧م .

١٣٠- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، ، أبو محمد عبد الحق بن غالب ابن عطية الأندلسي ، تحقيق : عبد السلام عبد الشافي محمد ، الطبعة الأولى ، بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م .

١٣١- المحرر الوجيز في عد آي الكتاب العزيز شرح أرجوزة العلامة الشيخ محمد متولي ، لعبد الرزاق علي إبراهيم موسى، الطبعة الأولى، الرياض: مكتبة المعارف ، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

محمد عزة دروزة ، صفحات من حياته وجهاده ومؤلفاته ، بقلم : حسين عمر حمادة، بيروت: الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين. ١٩٨٣م.

١٣٢- مختار الصحاح ، لزين الدين محمد بن أبي بكر الرازي ، تحقيق : محمود خاطر ، بيروت: مكتبة لبنان ناشرون ، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م .

١٣٣- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ، لابن القيم الجوزية ، تحقيق : محمد حامد الفقي ، الطبعة الثانية ، بيروت : دار الكتاب العربي ، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م .

١٣٤- مدارك التنزيل وحقائق التأويل ، لأبي البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي (ت ٧٠١ هـ) ، دار الفكر.

١٣٥- المدخل إلى التفسير الموضوعي، د. عبد الستار فتح الله سعيد، دار التوزيع والنشر الإسلامية – مصر، ١٤٢٨هـ.

١٣٦- مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع، للحافظ جلال الدين أبي السيوطي ، تحقيق: محمد عمر بازمول ، الطبعة الأولى، مكة المكرمة: المكتبة المكية، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

١٣٧- مروج الذهب ومعادن الجوهر ، لأبي الحسن علي بن الحسن بن علي المسعودي ، تحقيق : محمد محي الدين ، الطبعة الرابعة ، ١٣٨٤هـ .

١٣٨- مسائل الرازي وأجوبتها ، لمحمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي ، الطبعة الأولى ، القاهرة : مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، ١٣٨١هـ/١٩٦١م .

١٣٩- المستدرك على الصحيحين ، لأبي عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري ، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا ، وبذيله : التلخيص ، للحافظ الذهبي ، بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤١١هـ/١٩٩٠م .

١٤٠- المسند ، لأبي عبد الله أحمد ابن حنبل الشيباني ، تحقيق : شعيب الأرنؤوط وآخرون ، الطبعة الثانية ، بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م .

١٤١- المسند ، لأبي يعلى أحمد بن علي بن المثنى الموصلي التميمي (ت ٣٠٧ هـ) ، تحقيق: حسين سليم أسد ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٤ هـ/١٩٨٤م ، دمشق : دار المأمون .

١٤٢- مصابيح الدرر في تناسب آيات القرآن الكريم والسور ، لعادل بن محمد أبو العلاء ، المدينة المنورة ، الجامعة الإسلامية ، العدد١٢٩ - السنة ٣٧ - ١٤٢٥هـ .

١٤٣- مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور ، لبرهان الدين أبي الحسن إبراهيم عمر البقاعي، حققه وعلق عليه: د.عبد السميع محمد أحمد حسنين ، الطبعة الأولى ، الرياض : مكتبة المعارف ، ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م .

١٤٤- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير ، لأبي العباس أحمد بن محمد بن علي الفيومي، بيروت : مكتبة لبنان ، ١٩٨٧م .

١٤٥- المصنف ، أبو بكر عبد الله بن محمد ابن أبي شيبة الكوفي ، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ، مكتبة الراشد . الرياض، تحقيق كمال يوسف الحوت .

١٤٦- مع صاحب الفضيلة والدنا الشيخ محمد أمين الشنقيطي –رحمه الله- ، عطية محمد سالم، مجلة الجامعة الإسلامية – المدينة المنورة. السنة السادسة – العدد الثالث، ١٣٩٤هـ.

١٤٧- معالم التنزيل ، لمحيي السنة ، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي ، تحقيق : محمد عبد الله النمر ، عثمان جمعة ضميرية ، سليمان الحرش ، الطبعة الرابعة ، مكة المكرمة : دار طيبة للنشر والتوزيع ، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

١٤٨- معاني القرآن ، لأبي زكريا يحي بن زياد الفراء ، الطبعة الثالثة ، بيروت : عالم الكتب،١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .

١٤٩- المعجم الأوسط ، لسليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني (ت ٣٦٠ هـ) ، ١٤١٥هـ ، تحقيق : طارق عوض الله وعبد المحسن الحسيني، القاهرة : دار الحرمين .

١٥٠- معجم البلدان، ياقوت الحموي ، بيروت : دار الفكر .

١٥١- المعجم الكبير ، للطبراني ، تحقيق : حمدي بن عبد المجيد السلفي ، الطبعة الثانية ، الموصل : مكتبة العلوم والحكم ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٣م .

١٥٢- المعجم المفهرس لمعاني القرآن العظيم ، لمحمد بسام رشدي الزين ، الطبعة الأولى ، دمشق: دار الفكر ، بيروت : دار الفكر المعاصر ، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م.

١٥٣- المعجم الوسيط ، لإبراهيم مصطفى وأحمد الزيات وحامد عبد القادر ومحمد النجار ، تحقيق : مجمع اللغة العربية ، مصر : دار الدعوة .

١٥٤- معجم تهذيب اللغة، محمد بن أحمد الأزهري، تحقيق : د. رياض زكي قاسم، بيروت : دار المعرفة ، ١٤٢٢هـ.

١٥٥- معجم مقاييس اللغة ، لأبي الحسن أحمد بن فارس بن زكريا ، تحقيق : عبد السلام محمد هارون ، بيروت: دار الفكر، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م .

١٥٦- معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار ، لشمس الدين محمد بن أحمد الذهبي أبو عبدالله ، الطبعة الأولى ، تحقيق : بشار عواد معروف ، شعيب الأرناؤوط ، صالح مهدي عباس ، بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٤٠٤هـ .

١٥٧- معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار، شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، تحقيق : بشار عواد معروف، شعيب الأرناؤوط، صالح مهدي عباس، مؤسسة الرسالة – بيروت، ١٤٠٨هـ.

١٥٨- مغازي الواقدي ، لأبي عبد الله محمد بن عمر الواقدي ، تحقيق : مارسدن جونس، بيروت : عالم الكتب .

١٥٩- مفردات القرآن نظرات جديدة في تفسير ألفاظ قرآنية، لعبد الحميد الفراهي ، تحقيق: د.محمد أجمل أيوب الإصلاحي، الطبعة الأولى ، بيروت : دار الغرب الإسلامي ، ٢٠٠٢م.

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

١٦٠- المفردات في غريب القرآن ، للحسين بن محمد الراغب الأصفهاني ، تحقيق : محمد سيد كيلاني ، بيروت : دار المعرفة .

١٦١- المفهم لما أشكل من تلخيص مسلم لأبي العباس أحمد بن عمر بن إبراهيم القرطبي ، بتحقيق : محي الدين ديب مستو - أحمد محمد السيد - يوسف علي بديوي - محمود إبراهيم بزال ، الطبعة الأولى ، دمشق : دار ابن كثير ، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م .

١٦٢- المكي والمدني في القرآن، د.محمد بن عبد الرحمن الشايع، مركز التفسير والدراسات الإسلامية – الرياض، ١٤١٨هـ.

١٦٣- مناهل العرفان في علوم القرآن ، لمحمد عبد العظيم الزرقاني ، الطبعة الثالثة ، القاهرة: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه .

١٦٤- المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج ، لأبي زكريا يحيى ابن شرف النووي (ت ٦٧٦هـ) ، الطبعة الثانية ، بيروت : دار إحياء التراث العربي ، ١٣٩٢هـ .

١٦٥- الموافقات في أصول الشريعة، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي، دار المعرفة – بيروت، ١٣٩٥هـ.

١٦٦- موسوعة الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور ، إعداد : د.حكمت بشير بن ياسين ، الطبعة الأولى ، المدينة المنورة : دار المآثر ، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م .

١٦٧- الموضوعات ، لجمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي ، تحقيق : عبد الرحمن محمد عثمان ، الطبعة الأولى ، المدينة المنورة: المكتبة السلفية ،١٣٨٦هـ/١٩٦٦م .

١٦٨- موقع الشبكة الدعوية http://www.daawa-info.net/bio.php?id=92 .

١٦٩- موقع المكتبة الشاملة : http://shamela.ws/index.php/author/1491.

١٧٠- موقع المؤتمر الدولي للدراسات القرآنية: http://www.quranicconferences.com.

١٧١- موقع مجمع الملك فهد لطباعة المصحف:www.qurancomplex.org/tbooks/default.asp .

١٧٢- موقع ملتقى أهل التفسير انظر : www.tafsir.net .

١٧٣- نحو تفسير موضوعي لسور لقرآن الكريم ، لمحمد الغزالي ، الطبعة الرابعة ، القاهرة : دار الشروق ، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

١٧٤- نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر، لجمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي ، تحقيق : محمد عبد الكريم كاظم الراضي ، الطبعة الثالثة ، بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م .

١٧٥- نظام الحكومة النبوية ، المسمى (التراتيب الإدارية) ، للعلامة المحدث السيد محمد عبد الحي الكتاني الإدريسي ، تحقيق : د.عبد الله الخالدي ، الطبعة الثانية ، بيروت : شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع .

١٧٦- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ، لبرهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي، تحقيق : مجموعة من العلماء بدائرة المعارف العثمانية ، القاهرة : ١٤٠٤هـ/١٩٨٣.

١٧٧- النكت في القرآن الكريم ، لأبي الحسن علي بن فضال المجاشعي ، تحقيق: د. عبد الله عبد القادر الطويل ، الطبعة الأولى ، بيروت : دار الكتب العلمية ، ٢٠٠٧م .

١٧٨- النكت والعيون ، لأبي الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي ، تحقيق : السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم ، بيروت : دار الكتب العلمية .

١٧٩- النهاية في غريب الحديث والأثر، أبو السعادات المبارك محمد بن الجزري بن الأثير، اعتنى به : رائد صبري بن أبي علفة، بيت الأفكار الدولية – عمّان، ٢٠٠٣م.

١٨٠- نور اليقين في سيرة سيد المرسلين لمحمد بن عفيفي الخضري بك ، تحقيق : هيثم هلال، الطبعة الأولى ، بيروت : دار المعرفة ، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م .

١٨١- الوافي بالوفيات، صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، تحقيق : أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث – بيروت، ١٤٢٠هـ.

١٨٢- الوجوه والنظائر لألفاظ كتاب الله العزيز ، لأبي عبد الله الحسين بن محمد الدامغاني ، تقديم وتحقيق : عربي عبد الحميد علي ، بيروت : دار الكتب العلمية .

١٨٣- الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي (ت٤٦٨ هـ)، تحقيق : صفوان عدنان داوودي ، الطبعة الأولى ، بيروت : الدار الشامية ، ١٤١٥هـ .

١٨٤- الوحدة القرآنية ، محمد محمود خوجة ، دار كنوز اشبيليا – الرياض ، ١٤٣١هـ.

١٨٥- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، أحمد بن محمد بن خلكان، تحقيق : إحسان عباس، بيروت دار صادر .

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

خامسا : فهرس الموضوعات

ملخص الرسالة بالعربي .... أ

ملخص الرسالة بالانجليزي .... ب

كلمة شكر وتقدير.. ج

المقدمة ، وتشتمل على : ٦

أهمية الموضوع ٨

أسباب اختيار الموضوع ٩

أسئلة البحث ١٠

أهداف البحث ١١

الجهود والدراسات السابقة في الموضوع.. ١١

منهج البحث.. ١٨

آلية البحث ١٨

هيكل البحث ومحتواه.. ٢٠

الباب الأول : التناسق الموضوعي في سورة الأنفال مقدمات تعريفية..... ٢٣

التمهيد: التعريف بالتناسق الموضوعي في السورة............. ٢٤

المطلب الأول : معنى التناسق لغة واصطلاحا.. ٢٥

المطلب الثاني : معنى الموضوعي لغة واصطلاحا ٢٧

المطلب الثالث: معنى السورة لغة واصطلاحا ٢٨

المبحث الرابع : تعريف التناسق الموضوعي في السورة ٢٩

الفصل الأول: اسم السورة، وفضلها، وعدد آياتها، وتاريخ نزولها ٣١

المبحث الأول : اسم سورة الأنفال ، وما اشتهر لها من أسماء.... ٣٢

المطلب الأول: التسمية التوقيفية لسورة الأنفال، ومعناها، ووجه التسمية. ٣٤

المطلب الثاني : التسمية الاجتهادية لسورة الأنفال، ومعناها، ووجه التسمية. ٣٦

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

المبحث الثاني: فضل سورة الأنفال ٣٩

المطلب الأول : فضل القرآن الكريم.. ٤٠

المطلب الثاني: فضل سورة الأنفال.. ٤١

المبحث الثالث : عدد آيات سورة الأنفال........................ ٤٤

المبحث الرابع : تاريخ نزول سورة الأنفال........................ ٤٨

المطلب الأول : بيان تاريخ نزول سورة الأنفال........................... ٤٩

المطلب الثاني : أحوال نزول سورة الأنفال............................. ٥٠

الفصل الثاني : المكي والمدني في سورة الأنفال ، ومناسبتها لما قبلها وما بعدها ، واختصاص السورة بما اختصت به ٥٤

المبحث الأول : المكي والمدني في سورة الأنفال ٥٥

المبحث الثاني : مناسبة سورة الأنفال لما قبلها وما بعدها ٥٩

المطلب الأول: مناسبة سورة الأنفال لسورة الأعراف التي قبلها ٦١

المطلب الثاني : مناسبة سورة الأنفال لسورة التوبة التي بعدها.............. ٦٣

المبحث الثالث : اختصاص سورة الأنفال بما اختصت به......... ٦٨

الفصل الثالث : أسباب النزول الواردة في سورة الأنفال ، ومقاصدها وأهدافها ٧٢

المبحث الأول : أسباب النزول الواردة في سورة الأنفال..... ٧٣

المبحث الثاني: مقاصد سورة الأنفال وأهدافها............. ٨٤

الباب الثاني: التناسق الموضوعي في سورة الأنفال دراسة تطبيقية ٩١

الفصل الأول : مناسبات سورة الأنفال........................ ٩٢

المبحث الأول : مناسبة اسم سورة الأنفال لموضوعاتها................. ٩٣

المبحث الثاني : مناسبة فاتحة سورة الأنفال لموضوعاتها.............. ٩٨

المبحث الثالث : مناسبة فاتحة سورة الأنفال لخاتمتها................. ١٠١

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com

الفصل الثاني : موضوعات سورة الأنفال وتناسقها............ ١٠٤
تمهيد : عرض سريع لموضوعات سورة الأنفال.................... ١٠٥
المبحث الأول : أهم أحداث غزوة بدر........................ ١٠٨
المحور الأول : الاختلاف في الأنفال والتوجيه الإلهي فيها ١٠٩
المحور الثاني:حالة المؤمنين عند خروجهم إلى بدر، والإرادة الإلهية من هذا الخروج.. ١١٣
المحور الثالث : استغاثة المؤمنين بربهم وما أعقبه من المدد الرباني ١١٧
المبحث الثاني :أسباب النصر والهزيمة ١٢٠
المحور الأول : ارتباط النصر والهزيمة بالأسباب المادية والمعنوية ١٢١
المحور الثاني : عوامل وأسباب النصر والهزيمة........................ ١٤٦
المبحث الثالث:علاقة المسلمين بغيرهم وبعضهم في السلم والحرب ١٥٦
المحور الأول : علاقة المسلمين بالكفار المعاهدين والمسالمين.............. ١٥٧
المحور الثاني : علاقة المسلمين بأسرى الكفار........................ ١٦٨
المحور الثالث : علاقة المسلمين بعضهم ببعض ١٧٢
الفصل الثالث: تفسير سورة الأنفال على ضوء تناسقها الموضوعي ١٧٨
الخاتمة ، وتشتمل على أهم النتائج والتوصيات:........................ ٢٩٧
الفهارس العامة ، وتشتمل على:................................ ٣٠١
أولا : فهرس الآيات القرآنية ٣٠٢
ثانيا : فهرس الأحاديث والآثار................................ ٣٠٤
ثالثا : فهرس الأعلام.. ٣٠٥
رابعا : فهرس المصادر والمراجع................................ ٣٠٧
خامسا : فهرس الموضوعات................................... ٣٢٢

PDF created with pdfFactory trial version www.pdffactory.com